علم نفس

مايك جاي

مكتبة

الرواد النفسيون

المواد المخدرة وتشكيل العقل الحديث

ترجمة: بندر الحربي

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الرواد النفسيون

المواد المخدرة وتشكيل العقل الحديث

الرُّوّاد النفسيُّون

المواد المُخدِّرة وتشكيل العقل الحديث

مايك جاي

ترجمة: بندر الحربي

Psychonauts

Drugs and the Making of the Modern Mind

By Mike Jay

Translated by Bandar Al-Harbi

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2024 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *الرُّوّاد النفسيُّون*، بالاتفاق مع ممثليّة يال المتحدة، لندن/ المملكة المتحدة.

This book of *Psychonauts*, was translated & Published under agreement with YALE RESENTATION LIMITED, London/UK.

Originally published by YALE University Press

Copyright@2022 by Mike Jay

Arabic translation copyrights@Dar Al-Rafidain2023

مكتبة

t.me/soramnqraa

بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 721 - 03 - 3

مايك جاي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرواد النفسيون

المواد المخدرة وتشكيل العقل الحديث

ترجمة
بندر الحربي

www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدِّمة: قبل الموادّ المُخدِّرة 7

الجزء الأول: المُعجِّل الجديد/المواد المُخدِّرة وتعزيز القدرات العقليّة 31

الفصل الأول: إكسير الحياة 33

الفصل الثاني: آلهة اصطناعية 95

الجزء الثاني: ما وراء الحجاب/المواد المُخدِّرة وحُدود الوعي 147

الفصل الثالث: عالَم من التجربة النقية 149

الفصل الرابع: المنطقة الخفية 195

الجزء الثالث: ساتورناليا الحواس/المواد المُخدِّرة والخيال الإبداعي 237

الفصل الخامس: حكايات متعاطو الحشيش 239

الفصل السادس: النشوة والخيال والإلهام 285

الجزء الرابع: فُقدَ وعُثرَ عليه 339

الفصل السابع: خطيئة، أَمْ جريمة، أَمْ عادة سيئة أَمْ مرض؟ 341

الفصل الثامن: المَوْلودون مرَّتَين 385

خاتمة: بعد المواد المُخدِّرة 437

قائمة المصطلحات العلمية والطبية 451

قائمة أسماء الشخصيات 457

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدّمة
قبل الموادّ المُخدِّرة

نشرت المجلة العلمية *أمريكا الوسطى القديمة* ورقة بحثية في عام 1992، لتُشعِلَ فتيلَ ذُعرٍ في وسائل الإعلام من أحد أنواع المُخدِّرات. فقد كَتب في الورقة العالِمان البارزان وذائعا الصيت؛ الأنثروبولوجي ويد ديفيس، والطبيبُ أندرو ويل، أنهما وجَدا حلًّا للُغزٍ قديم يعود إلى عصور ما قبل التاريخ في المكسيك.

لقد لوحِظ منذ زمنٍ بعيد أنَّ ضفدع القصب الاستوائي (أو علجوم مارينوس) كان ذا قيمة في حضارتَي الأولمك والمايا القديمتَين، حتى شاعت صور هذا الضفدع مرسومةً على القِطع الخزفية، وعُثر على عظامه بكثرة في العديد من مواقع أداء الطقوس. ومن المعروف أيضًا أنَّ الغُدد النكفية لهذا الضفدع الموجودة خلف رأسه تُفرِز مزيجًا من السموم التي تتضمن مُركّبًا قويًا يؤدي إلى الهلوسة، وهو البوفوتنين. وهو الأمر الذي أثار تساؤل مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا، قائلين: أيمكن أنْ يكون الناس في أمريكا الوسطى القديمة قد استخدَموا إفرازات الضفادع بوصفها موادَّ مهلوِسة عند أدائهم الطقوس الروحانية؟

كان العالِمان ديفيس وويل على معرفة واسعة بتاريخ وإثنوغرافيا وبيولوجيا النباتات والفطريات المؤثرة في العقل في أمريكا الوسطى،

ومفتونَين بفكرة أنْ يكون هذا المُخدِّر المستخلَص من الضفدع، مع هذه النباتات والفطريات، مؤثرًا عقليًا. وبرغم ذلك، فقد قال ديفيس: «إنَّ نقطة الضعف الرئيسة في فرضية المهلوسات تكمن في عدم قدرة مؤيديها على إثبات كيفية تعاطي مستحضر مستخرج من ضفدع القصب بطريقة آمنة»؛ كون أنَّ البوفوتنين الموجود في غدة الضفدع يحتوي على سموم قوية تؤثر في القلب وقد تفضي إلى الموت .

لقد أشارت ورقة أبحاثهما إلى حلٍّ محتمَل؛ وهو وجود نوع آخر من الضفادع يمتلك تركيبة كيميائية تجعله مرشحًا محتملاً لهذه الحالة؛ وهو ضفدع نهر كولورادو، الذي يعيش في صحراء سونورا على الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك. لقد كان هذا الضفدعُ فريدًا من بين أفراد جنسه، لأنه يحتوي على إنزيم في سُمّه (ناقل أو ـ ميثيل) يحوّل البوفوتنين إلى واحد من أقوى المهلوِسات الموجودة في الطبيعة ويسمى (أو ـ ميثيل ـ بوفوتنين). ولكن حينما يُدخَّن سُمُّ هذا الضفدع، بدلًا من أنْ يُبتلع، فإنَّ السمَّ سوف يتحلل؛ وستكون الإفرازات ـ من الناحية النظرية ـ آمنة وذات تأثير نفسيٍّ قوي.

خلُص العالِمان إلى وجود طريقة واحدة فحسب لاختبار فرضيتهما، فالتجارب على حيوانات المختبر لا قيمة لها، إذ لا توجد طريقة لمعرفة أو التحقق من أنَّ فئران التجارب تهلوس أمْ لا. وهكذا، عثر الثنائي في عام 1984 على كُتيِّب يقع في ستِّ عشرة صفحة نشرتْه صحيفة سرية، تضمَّن وصفًا مُفصَّلًا عن كيفية الضغط على غدد الضفادع النكفية لاستخراج سُمِّها وتجفيفه حتى يتحول إلى راتِينَج [مادة صمغية] يمكن تدخينها. واتبعا إرشادات الكُتيِّب بدقة.

وضع هذان العالمان شريحةً صغيرة من الراتِينَج بحجم رأس عود الثقاب في أنبوب واستنشقاه بعمق، وفي غضون خمس عشرة ثانية، بانَ لهما الجواب. ووصف ديفيس التجربة في ورقتهما البحثية المشتركة بلغة تمزج بين أسلوبَي الملاحظات الذاتية السريرية والاستعارات المجازية الحية، بهذه العبارات:

> بعد لحظات من استنشاقي للراتينج، شعرتُ بتدفق دافئ يسري في جسدي، وبشعور بالدهشة والسرور، وبتجربة حسية قوية للصوت فيها كصرّير حشرة الزّيز، الذي وصل صداه لرأسي وبدا كأنه يربط جسدي بالأرض... كما أحسستُ بتهيُّج بصريّ قوي في سطوعٍ كرويّ. وثمة أنماط ماسية تموَّجت على مدى نظري. كانت التجربةً ممتعة بكل ما تعنيه الكلمة، دون أيِّ إحساس بالتوتر الجسدي أو الغثيان، وربما شعرتُ بتسارع طفيف في دقات قلبي.

خلصَت ورقة ديفيس وويل إلى نتيجة مفادها أنه نظرًا لوجود طرق تجارية قديمة بين صحراء سونورا والأراضي المنخفضة للمايا في الجنوب، فمن المحتمل أنَّ هذا السُّم الجافّ كان يُتداوَل بينهما. لقد كانت هذه النتيجة حلًا بارعًا لمعضلة أثرية بقيَت زمنًا طويلًا دون جواب، غير أنَّ الرد على ورقة الباحثين كان يحمل سمات الصدمة والرفض. فقد استنكر أعضاء المجتمع العلمي تجربة الباحثين على نفسيهما باستخدام مُخدِّر غير مجرَّب ومحتمَل الخطورة، كما انتقدوا نشرهما لتجربتهما بعبارات إيجابية حماسية.

قدَّم ديفيس وويل الورقة البحثية إلى أهم المجلات العلمية المرموقة مثل *مجلة سينس* ومجلة *نيتشر*، لكن المجلتان رفضتا نشرها. وحينما ظهرت أخيرًا في *مجلة أمريكا الوسطى القديمة*، تعرضَت للانتقاد لكونها

ورقة بحثية غير أخلاقية وخطيرة. فقد رفض أحد المراجعين التجربة التي أجْرياها بسبب عدم وجود مجموعة ضابطة، وكتب آخر أنَّ التجربة تُعد «تأييدًا لسوء استخدام مادة مهلوِسة تؤدي إلى آثار جانبية قد تُفضي إلى الموت».

تحوَّلَت تجربة المُخدِّر التي أجراها الباحثان إلى قصة، حيث نُشرت في أحد أبرز الصحف في موطن الباحث ديفيس وهو كندا، والصحيفة هي *تورونتو غلوب آند ميل*، تحت مقال بعنوان «تناولا دواءهما». ونقل المقال عن رئيس لجنة مراجعة أخلاقيات الطب بجامعة تورنت، قوله: «نحن لا نُشجع إجراء التجارب على النفس أبدًا». كما تسبَّب تصريح أندرو ويل بفضيحة للصحيفة بعد النشر حين صرَّح قائلًا: «أظن أنَّ نوع الإلهام الذي يأتي من التجربة يقود إلى أفضل نوعٍ من العلم». ونشرَت كذلك صحيفة *وول ستريت جورنال* قصة صحفية على صفحتها الأولى، تربط عمل ديفيس وويل بثقافة غامضة لدى الأشخاص الذين يقومون بممارسة «لحس الضفادع» وتدخين بعض المواد المُخدِّرة، يستلهمونها من الكُتيِّب السريّ نفسه.

أثبتَت إشاعات لحس الضفادع والتدخين أنها موضوعات لا تقاوَم لوسائل الإعلام الجماهيرية التي تعاملَت تلقائيًا مع جميع استخدامات المواد المُخدِّرة على أنها مخالفة أو خطيرة. وفي عام 1994، ظهر هذا النوع من سلوك الإدمان المتطرف بشكل علنيّ وواضح. إذ ألقت شرطة مكافحة المواد المُخدِّرة القبض على عالِم طبيعة ومعلم مدرسة ابتدائية في كاليفورنيا يُدعى بوب شيبرد، مع زوجته كوني، وصادرت أربع عينات من حيواناتهم المُدَلَّلة، ضفادع نهر كولورادو، بعد اعتراف الزوجَين بتدخين إفرازاتها.

* * *

في هذه المرحلة الزمنية تقريبًا، بدأتُ الكتابة عن المواد المُخدِّرة، وأتذكر جيدًا المشهد الإعلامي حينها. فقد أُطر الموضوع بوصفه مشكلة طبية واجتماعية وجنائية. كان البحث العلمي المؤسسي في مجال المواد المُخدِّرة المؤثرة في العقل، أو «المواد المُخدِّرة المسببة للإدمان»، يركز حصرًا على الآثار السلبية لهذه المواد، الأمر الذي زوَّد وسائلَ الإعلام بتدفُّق مستمر من «الأخبار المرعبة» مثل أطفال الكراك[1]، وموتى الإكستاسي[2]، وحالة الذهان التي سببها القِنَّب. فيما تتمثل رسالة المعهد الوطني للمواد المُخدِّرة المسببة للإدمان، وهي الهيئة الفيدرالية الأمريكية التي تقود مجال الأبحاث العالمية، في «تسخير قوة العلم للتصدي لإدمان المواد المُخدِّرة وسوء استخدامها».

كانت الدراسات عن فوائدها نادرة جدًا، والعلماء الذين تحدَّثوا علنًا عن تعاطيهم لها ـ مثل الأطباء والمحامين والسياسيين والمهنيين الآخرين ـ يخاطرون كثيرًا بسُمعتهم ومسيرتهم المهنية، والتجارب العلمية الذاتية كانت مُحرَّمة، مثلما ظهر لديفيس ويل. ويُفضي الاعتراف بتجربة المواد المُخدِّرة بالشخص إلى التهميش، حيث يصبح «متعاطيًا» وليس شاهدًا خبيرًا، وحينئذٍ يكون جزءًا من المشكلة. وعندما تحتاج الصحف أو البرامج التلفزيونية إلى لقاء «خبيرٍ في المواد المُخدِّرة»، يتَّصلون بطبيب نفسي لعلاج الإدمان، أو بناشط في حملة مكافحة المواد المُخدِّرة تُموِّلها الدولة.

(*) جميع الهوامش، وكذلك التوضيحات بين الأقواس المربعة [...] في هذا الكتاب دوّنها المترجم.

(1) الأطفال الذين تعرَّضوا للكراك (الكوكايين المكرر بشكل قابل للاشتعال) في مرحلة الأجنَّة.

(2) الإكستاسي (MDMA)، هو نوع من أنواع المنشطات مشتق من الأمفيتامين.

كنتُ من المستخدمين الأوائل للإنترنت، وكانت الأعداد الهائلة من صفحات النقاش ومجموعات الأخبار المخصصة للمواد المُخدِّرة مثار إعجابي، حيث يتم تبادل قدْر ضخم من المعلومات في منظومة الإنترنت. لقد انتشرَت وصفات لتخليق (إل إس دي) مع أسعار القِنَّب في الشوارع من كندا إلى كمبوديا، ووسائط مؤيدة لإضفاء الشرعية عَتّمت عليها منظمة الصحة العالمية، ومناقشات حول كيفية تفاعُل الإكستاسي مع أدوية مضادة للاكتئاب. (الموضوع الوحيد الممنوع كان شراء وبيع المواد المُخدِّرة، والذي تصدّى له بشدة مشرفو المواقع). كلُّ هذا لا يُتصوَّر ظهوره في وسائل الإعلام الرئيسة، حيث كان على كلِّ قصة عن المواد المُخدِّرة أنْ تحمل تحذيرًا صحيًا ورسالة أخلاقية.

غير أنَّ الإنترنت المبكر كان يُعد انعكاسًا أكثر دقة لثقافة المواد المُخدِّرة المُعولَمة التي انتشرَت في الشوارع والنوادي والمهرجانات في فترة التسعينيات، وتجلَّت في حفلات «أسيد هاوس»[1] بصورة كبيرة وغير قانونية، والحفلات الصاخبة التي تغذيها غالبًا الإكستاسي، وسرعة توسيع دستور الأدوية غير المشروعة.

كانت هذه الثقافة الثانوية تُغطى عادةً في الصحف تحت عناوين مثل «رقصة الموت»، أما الإنترنت ـ الذي أُعتُبر في تلك المرحلة عالمًا جديدًا وغريبًا مع ذلك النص الأخضر على خلفية الشاشات السوداء، والمؤشر الذي يومض، وعلامات نظام (إم إس ـ دوس)[2] ـ كانت المواد المُخدِّرة

(1) حركة ثقافية وموسيقية نشأت في المملكة المتحدة في أواخر الثمانينيات. وهي تعني حفلات رقص كبيرة وتكون عادة غير قانونية.

(2) نظام تشغيل للحواسيب من إصدار شركة مايكروسوفت، أصدرت منه الشركة ثماني إصدارات رئيسة ابتداءً من عام 1981.

مجرد موضوع متخصص آخر يناقشه الهواة المتحمسون، مثلما يناقشون العلوم أو السفر أو الأدب.

لقد أرسلتُ عددًا من المقالات حول هذه الثقافة إلى المجلات المتخصصة بالموضة والشباب في ذلك الحين، بيد أنَّ تلك المجلات اعتبرت هذه الموضوعات وقتذاك هامشية، أو غير مهمة؛ فقد كانت المواد المُخدِّرة موضوعًا سيئ السُّمعة، تلفت انتباهًا غير مرحَّب به، والإنترنت وقتها مجرد مجال للهواة فقط.

ثمة تناقض لدى وسائل الإعلام الشعبية تجاه «ثقافة المواد المُخدِّرة»، فقد كان لهذه الثقافة مجالها الخاص على هامش المجتمع، تتضمن صحافة سرّية، معظمها تقع في الولايات المتحدة متخصصة في أدلة زراعة القنب، ونصوص مُعاد طباعتها لشخصيات بارزة في فترة الهيبيز مثل تيموثي ليري[1]، وشبكة ساميزدات[2] للتوزيع اليدوي على نحوٍ موسَّع من خلال صحف وأوراق ونشرات إعلانية تستهدف متعاطي المواد المُخدِّرة. وخارج هذه المجتمعات المنبوذة، ثمة أسئلة مباشرة ـ لماذا يتعاطى الكثيرون المواد المُخدِّرة؟ وما آثارها؟ وكيف تؤثر في الثقافات التي تنتشر فيها... وغيرها ـ نادرًا ما تُطرح أو تناقَش، وإذا طُرحَت هذه الأسئلة، يجيب الخبراء في مجال المواد المُخدِّرة عنها بإحدى إجابتَين تتمحوران في «ضغط الأقران» أو «الإدمان». وفي كلا الحالتَين، كان العلاج المقترح هو زيادة الرسائل المضادة للمواد المُخدِّرة، وتشديد العقوبات الجنائية الرادعة.

(1) عالم نفسي وكاتب أمريكي (1920 ـ 1996).
(2) مصطلح روسي من حقبة الاتحاد السوفييتي، يُشير إلى نوع من الكتابة والنشر السريين، كانت تُكتب باليد وتُمرر من قارئ إلى آخر.

أثار هذا الأمر عن تاريخ المواد المُخدِّرة فضولي، وبدأت أتساءل: من أين جاءت كلُّ هذه المواد المؤثرة في العقل؟ ومَن هم أوائل المجرّبين؟ وكيف كانت تجاربهم، وكيف أسست المواد المُخدِّرة نفسها في العالم الحديث؟ إذ في ذلك الحين، كان التأريخ الأكاديمي للمواد المُخدِّرة مجالًا تخصصيًا محدودًا، يركز على علم الإجرام وعلم الأمراض الطبي، في نطاق دراسات مؤسسية حول تطوير إنفاذ القانون والتهريب غير القانوني، وتاريخ الإدمان ونظريات الصحة العامة والتدخلات الطبية في هذا المجال. ما كان ينقص الجانب الأكاديمي كثيرًا هو الاهتمام أو الفضول حول تأثيرات المواد المُخدِّرة في العقل، وبالتأكيد شعرت بأهم جانب منها وهي دراسة المواد المؤثرة في العقل.

كان من الواضح من البداية أنَّ المؤلفين الاثنين ليس لديهما تجربة ذاتية مع المُخدِّر، ولم يشعُرا بالرغبة بالحصول عليها، مثل حرص المؤرخين في تاريخ الأوبئة بدراسة الأمراض دون الرغبة بالإصابة بالجدري أو الطاعون الدبلي. أما الاهتمام بتجربة المواد المُخدِّرة، فقد ظهر في الدراسات الأدبية لشعراء الرومانسية المتأثرين بالأفيون، مثل توماس دي كوينسي، غير أنها لم تُشِر إلى أيِّ تجربة شخصية، ونادرًا ما شككَت هذه الدراسات أو انحرفَت عن الافتراض السائد بأنَّ المواد المُخدِّرة «لعبة ممنوعة» على حدِّ مقولة شارل بودلير[1] الشهيرة، حيث تُكلِّف أيّ رؤى عابرة أو تجليات منها ثمنًا باهظًا.

لقد صُدمت عندما اكتشفتُ أنَّ الحرب على هذه المواد، كما هو

---

(1) شاعر وناقد فني فرنسي (1821 ـ 1867).

معروف شعبيًا، كان تطورًا حديثًا نسبيًا، وأصوله في ذلك الحين باقية في ذاكرة الأحياء. فعند النظر إلى الوراء قبيل بداية القرن العشرين، حينما جُرِّمت المواد المُخدِّرة، فقد دخلت في عالَم مختلف تمامًا، ولم يعُد مصطلح المواد المُخدِّرة مطبقًا. كانت الكلمة (drugs) موجودة بالطبع ـ فقد دخلَت قاموس اللغةَ الإنجليزية في العصور الوسطى، قد يكون ذلك من الجذر الهولندي الذي يدل على (dried goods) «السلع المجففة» التي تتوافر في الصيدليات ـ ولكن في معناها الأوسع، هي مصطلح عام لجميع الأدوية التي يستخدمها الأطباء.

لا يزال هذا المعنى موجودًا، على سبيل المثال في كلمة «صيدلية» (drugstore)؛ غير أنَّ «المواد المُخدِّرة» (drugs) بمعناها الأكثر تحديدًا هي من صُنع القرن العشرين. وقبل ذلك الوقت، كانت المواد المُخدِّرة التي تؤثر في العقل أو المُسبِّبة للسُّكْر أو ذات التأثير النفسي مجموعة واسعة وغير مترابطة تشمل: العلاجات المنزلية، ومنتجات الصيدلة، والمواد الكيميائية المستخدَمة في الأبحاث العلمية، والمنشطات العُشبية، وثمة ضوابط قانونية عامة على السموم، تشمل في كثير من الأحيان الأفيون والزرنيخ والستريكنين والسيانيد، غير أنَّ العديد من المواد غير المشروعة في العصر الحالي، بدءًا من الحشيش إلى الكوكايين والهيروين، متاحة بحُرية عبر الصيدليات، حيث تباع بوصفها جزءًا من مجموعة الأدوية العامة المسكّنات والمنشطات والمهدئات.

جرَّب الأطباء والعلماء في هذا العصر روتينيًا الموادَّ المُخدِّرة على أنفسهم. وحينما نفَّذ ويد ديفيس وأندرو ويل تجربتَهما على إفرازات الضفدع، بدا أنَّ عملية تجربة المواد المُخدِّرة على البشر قد نُسيت حتى

من زملائهم العلماء، ولم تعُد مقبولة على الإطلاق، ولا تعتبر ممَّارسة قياسية. إلا أنه من الواضح منذ الثورة العلمية في القرن السابع عشر أنَّ هذه الطريقة هي الأكثر ملاءمة لاستكشاف هذه المواد التي تُغير الإدراك والمزاج والوعي.

كانت هذه الممَّارسة في القرن التاسع عشر تتبع بروتوكولات معترَف بها وتقاليد وأعرافًا معينة، أما في عصر التجارب، حيث تنطوي الإنجازات العلمية والطبية في كثير من الأحيان على المخاطر الشخصية، فلم يُعَد أخذ عينة من دواء غير معروف أكثر تهورًا من التجارب في مجال التشريح أو الصدمات الكهربائية أو السموم التي يتعرض لها الباحثون في ذلك الحين روتينيًا.

وبطبيعة الحال، اتخذ معظم العلماء احتياطات لتقليل هذه المخاطر، ففي حالة المواد المُخدِّرة، جرت ممَّارسات مثل البحث التحضيري الدقيق، تتضمن زيادة الجرعات تدريجيًا بدءًا من الجرعات الصغيرة، مع استخدام إبَر نظيفة ومحاليل نقية. وفي الوقت نفسه، انجذب كثيرون منهم نحو شعور التشويق المتمثل في تجاوُز حدود المعلوم، ذلك الذي يفضي إلى عواقب وخيمة في كثير من الأحيان.

أصبحت التجارب المتهورة على المواد المُخدِّرة والانحدار نحو هاوية الجنون في جوهر العديد من القصص المشهورة في تلك الحقبة، واحتفى بالباحثين الذين يُجرون تجاربهم على أنفسهم بوصفهم رموزًا شعبية: على سبيل المثال، وصف الكيميائيّ البريطاني همفري ديفي[1] نفسَه بأوصاف شعرية مثيرة بوصفه بطلًا علميًا لجيله بعد استنشاقه كميات

(1) كيميائيّ إنجليزيّ (1778 ـ 1829).

كبيرة من أوكسيد النيتروز واستكشاف مجالات الوعي المجهولة غير المتصل بالجسد. واليوم ثمة لوحة من البرونز في موقع تجارب ديفي في مدينة بريستول، ويطلُّ تمثاله العملاق على الشارع الرئيس في مسقط رأسه مدينة بينزانس.

لم تقتصر التجارب من هذا النوع على العلم. فقد كان القرن التاسع عشر عصرًا تتدفق فيه الأفكار والاكتشافات بسهولة بين الطب والعلوم والأدب والفن والفلسفة والاستكشاف الروحي. «كانت المواد المُخدِّرة (drugs) ـ سأستمر في استخدام المصطلح القديم لأنه مناسب ـ تميل إلى توليد تجارب تتجاوز هذه الحدود وتُذيبها. فالأطباء والعلماء يتدربون على الملاحظة الذاتية الدقيقة، والمواد المُخدِّرة التي تُنتج إحساسًا جديدًا وحالات وعي جديدة تُعد تحفيزًا لقدراتهم في وصف الحالة بشكلٍ كامل، وكثيرٌ من هؤلاء الأطباء والعلماء أيضًا شعراء أو روائيون، استخدموا مهاراتهم في وصف ملاحظاتهم الطبية.

دُوّنت حالات الأمراض الطبية قبل القرن التاسع عشر عادةً على شكل ملاحظات موجزة للتشخيص والخلفية العائلية، وبدأت الآن تُعيد صياغتها على شكل سرد للحياة الداخلية، باستخدام أساليب تدفُّق الوعي أو وجهات النظر المتعددة، والعديد من الكُتاب والفنانين الآخرين بدورهم في ذلك الحين يتابعون بشغف اكتشافات العلوم وكانوا من بين أولئك الذين يُجرون تجارب على المواد المُخدِّرة الجديدة. فقد ألقى الكُتّاب ـ الذين وصفهم إميل زولا[1] بكُتاب الرواية التجريبية، نظرةً علمية على

(1) كاتب وروائي فرنسّي (1840 ـ 1902)

مكتبة
t.me/soramnqraa

آليات عمل المجتمع، وجرَّب الفنانون المواد المُخدِّرة مع أحدث نتائج علم النفس الإدراكي، من أجل «تفجير» القواعد التقليدية للرسم واللون والشكل والحركة.

لم يكن ثمة مصطلح محدَّد يصف أولئك الذين استخدموا المواد المُخدِّرة لاستكشاف العقل في ذلك الوقت، إذ لم يُصَغ المصطلح إلا في عام 1949، عندما ابتكره الكاتب الألماني إرنست يونغر[1] ووظَّفه في روايته *هيليوبوليس* التي تتحدث عن مدينة مستقبلية قمعية، حيث يجد عالِمٌ متمرد الحرية من خلال رحلاته الداخلية الاستبطانية الناتجة عن المواد المُخدِّرة.

ابتكر يونغر مصطلح «الرائد النفسيّ» لوصف شخصية «تلتقط الأحلام»، تمامًا مثلما يفعل صائدو الفراشات بالشِّباك» و«ينطلق في رحلات اكتشافيه في كون عقله». كان يونغر مُعلمًا روحيًا لألبرت هوفمان[2]، مكتشف مادة (إل إس دي)، الذي ساعد على تعميم هذا المصطلح وانتشاره من خلال الثقافة المضادة للمُخدِّرات النفسية التي ظهرَت في الستينيات، ولكنه يُعتبر مصطلحًا جماعيًا مفيدًا لجيل سابق من أولئك الذين كانت رحلاتهم الداخلية الاستبطانية قد نُسيت إلى حدٍّ كبير بحلول الوقت الذي صيغ فيه هذا المصطلح. وفي هذه الأيام، يشير المصطلح إلى شخص مُنشقّ يعمل خارج حدود العلم المؤسسي؛ إذ كان الرُوّاد النفسيّون الأوائل أيضًا فيهم الكثير من المنشقّين، والمتعلمين ذاتيًا، والبوهيميين، والصوفيين، غير أنهم أجروا هذه التجارب بجانب العلماء

(1) كاتب وروائي ألماني (1895 ـ 1998).

(2) عالم سويسري (1906 ـ 2008).

وأساتذة الجامعات والأطباء، والجراحين ورجال الأعمال، والفلاسفة والشخصيات البارزة في المؤسسات الأدبية.

أصبحت كتابات هؤلاء المجربين الذاتيين مصدرَ جذب شديد لجمهورٍ كبير. ولو كتب ويد ديفيس، وأندرو ويل، تجربتهما قبل قرن من الزمان، لأمكنَ وبسهولة أنْ تنشرها إحدى المجلات الشعبية والصحف التي تنشر بانتظام أخبارًا عن ظواهر علم النفس الخارقة، ووصف المستكشفين للمناظر الطبيعية النائية، وحكايات مثيرة عن الجرائم الحقيقية، أو فصلٍ أخير من رواية قوطية[1] غامضة. إذ طرحت كتاباتهما أسئلة ذات عواقب بعيدة ـ كيميائية وطبية وفلسفية ـ حول الحالة الإنسانية وحدود العقل. هل يمكن أنْ تنتج مادة مثل الكوكايين طاقة خارقة أو قوى معرفية معززة؟ هل سمحَت غازات التخدير وأبخرته المكتشَفة حديثًا للعقل بالوصول إلى بُعد غير مستكشَف يتجاوز حدود الجسم، وماذا يمكن أنْ يوجَد هناك؟ هل يمكن استخدام الأعشاب والجرعات السحرية المستقاة من الأساطير القديمة أو الثقافات غير الغربية للوصول إلى رؤى تنبؤية، أو تخاطُر، أو قوى منوِّمة، أو اتصال بعالم الروح؟

أثارت كلُّ هذه الأسئلة اهتمامًا متزايدًا بالمناطق الخفية في العقل، وبلغَت ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر. فالنظام الجديد لعلم النفس حينئذٍ يخطو خطوات عملاقة في إثارة عمليات التفكير والانتباه والإدراك والإحساس، ورسم خرائط التفاعل المعقد بين العين والدماغ. والعديد من ممَّارسيه مفتونون بالمواد المُخدِّرة التي تعطيهم القدرة على مشاهدة العقل وهو يفسر المحفزات الجديدة الغريبة، بل حتى في صنع واقع

(1) نمط من الأدب يجمع بين الخيال والرعب والموت والرومانسية في بعض الأحيان.

وهميّ يتجلى في الهلوسة. وهكذا، أصبحت المواد المُخدِّرة لأطباء الطب النفسيِّ وأطباء الأعصاب، أداةً قيّمة للوصول إلى العقل الخفي؛ بعكس الظواهر المحيرة التي شوهدَت تحت التنويم المغناطيسي أو في الجلسات الروحية، إذ يمكن الآن إعطاء هذه المواد في تجارب قابلة للتكرار وجرعات قابلة للقياس.

مثلت المواد المُخدِّرة عند الكُتّاب والفنانين بوابة إلى عالَم داخليّ حيث الحُلم والواقع يتشاركان في الوجود. أما الروحانيون والباحثون النفسيون، فإنَّ التجارب التي ولّدوها شكلَت دليلًا على واقع عوالم أخرى أو أبعاد أخرى؛ كما دمج ممَّارسو الفنون الباطنية(1) المواد المُخدِّرة في الأحلام الصافية(2)، والمُستَوى النجميّ(3)، والسحر الاحتفالي. ورغم تراجُع دور الدين أمام تقدُّم العلم، فإنَّ التجارب التي كانت تُعَدُّ سابقًا قوة إلهية لا يمكن وصفها، اكتسبَت معاني جديدة تجمع بين الدناسة والقداسة على حدٍّ سواء.

وصلَت المواد المُخدِّرة في القرن العشرين بوصفها من عجائب عالَم العلم، ووعدَت بتحويل حالة الإنسان وإعادة تشكيل مستقبله. فمنحَتْ متعاطيها متعة الهروب من ضيق الزمان والمكان المسيطر عليهم، والنظر

---

(1) فئة من المعتقدات والممارسات الخارقة للطبيعة تقع بشكل عام خارج نطاق الدين والعلم المنظمين.

(2) نوع من الحلم يدرك فيه الحالم أنه يحلم في أثناء حلمه.

(3) مصطلح مستخدَم في الفلسفة الباطنية لوصف تجربة متعمدة للخروج من الجسد تفترض وجود جسم خفيّ، يُعرف باسم الجسم النجميّ أو جسم الضوء، والذي من خلاله يمكن للوعي أنْ يعمل بشكل منفصل عن الجسم المادي وينتقل عبر المستوى النجميّ.

إلى الواقع من وجهات نظر جديدة ومتعددة. لقد وسَّعت المواد المُخدِّرة نطاق الذاتية، ممَّا سمح لأصحابها بالعيش في عوالم خاصة من الخيال والفكر والإحساس، وامتدّت مجالات الاستكشاف الروحي والإبداع الفني. وأسهمَت المواد المُخدِّرة من خلال ذلك، في تكوين اتجاه فكريّ أوسع، وأبعد عن الفكرة الواحدة المستقرة والمتسلسلة للثقافة، كما عرّفها بشكل شهير ماثيو آرنولد[1] في عام 1869 على أنها «أفضل ما فُكر فيه وقيل»، واتجهَت نحو تعدُّد وجهات النظر والحالات العقلية، وتعدّد الثقافات الفرعية والتشظي اللا متناهي «لتيار الوعي» مُتعدد الأوجه الذي من شأنه أنْ يشغل الجيل القادم من الكُتاب والفنانين.

ولا يمكن بالطبع إخفاء خطورة المواد المُخدِّرة، فقبل وقت طويل من تجريمها، جسَّدت المواد المُخدِّرة مخاطر الحداثة وإمكاناتها بالقوة نفسها. إذ منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، حينما بدأ الأطباء تشخيص حالة «الرغبة المَرضية» أو الإدمان على المواد الأفيونية والكوكائين، عُرِّفت بوصفها نتيجة سيئة لحرية الاستهلاك الحديثة دون حدود في عصر المواد المُخدِّرة الأكثر نقاءً وفعالية.

لقد كان الكحول عند الكثيرين هو المُخدِّر الأكثر إثارة للقلق، لا سيما في شكل المشروبات الروحية المقطرة الرخيصة، بيد أنه بحلول عام 1900، شملت حركة الاعتدال[2] أيضًا مجموعات المستهلكين التي ضغطَت من أجل حذف المواد الأفيونية والكوكايين من قائمة العقاقير

(1) شاعر وناقد وكاتب إنجليزيّ (1822 ـ 1888)

(2) حركة اجتماعية ضد استهلاك المشروبات الكحولية ظهرَت في العديد من البلدان، خاصة البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية والدول الإسكندنافية.

المسجلة[1]، والتي غالبًا ما تحتوي عليها بجرعات كبيرة غير معلَنة أخفيت مرارتها بشراب حُلو.

أثارت المواد المُخدِّرة بخلاف خطورتها الطبية أسئلة وجودية حول كيف يمكن لمجتمع متحضر حديثًا أنْ يُنتج إذا استمر تعاطيها في الانتشار؟ فقد قال معارضوها إنَّ أولئك الواقعين تحت تأثيرها أنانيون، ومنغمسون في أوهامٍ نرجسية خيالية على حساب النسيج الاجتماعي التوافقي. ومن وجهة النظر هذه، فإنَّ حرية اختيار نمط وعي المرء هي دعوة مفتوحة للانتماء إلى الأنانية واللامسوؤلية والرذيلة. فالمتعة التي تُقدّمها المواد المُخدِّرة لمتعاطيها سبب للتآكل الأخلاقي، فهي تمنحهم شعورًا كيميائيًا فارغًا وغير مستحق، ومدمِّرًا للأخلاق العامة والمسؤولية المشتركة في المجتمع.

حينما ظهر مصطلح «المواد المُخدِّرة» بمعناه التخصصي في بداية القرن العشرين، كان مشحونًا بدلالات سلبية. أما في الاستخدام الجديد، فيُشير هذا المصطلح إلى المواد الخطرة التي يجب أنْ يعطيها متخصصو الرعاية الصحية فقط. وعند استخدام هذه المواد بشكل غير مسؤول، فسوف تستغل هذه المُخدِّرات نقاط ضَعف متعاطيها، وتستهدف ميولهم المَرضية أو ضعفهم الوراثي لتؤثر في إرادتهم وصحتهم وأخلاقهم. وكثيرًا ما أدرجها الناشطون في المجال الصحيِّ والسياسيون المناهضون لتعاطي المواد المُخدِّرة ضمن «العادات المنحطة» التي تنتمي إلى «الأعراق الدنيا» التي تعوق تقدُّم الحضارة الغربية الحديثة. وبعدما وُضعت المواد المُخدِّرة

(1) عقاقير يمكن الحصول عليها بدون وصفة طبية وتملك حقوقًا تجارية، وكانت تُستخدم في الماضي لوصف العلاجات الوهمية.

تحت الرقابة القانونية في العقد الثاني من القرن العشرين، اكتسب مصطلح «المواد المُخدِّرة» مجموعة من المعاني السلبية ـ مثل خطيرة، ودخيلة، وإجرامية ـ لا تزال مرتبطة بها حتى يومنا هذا.

توطّدت هذه الارتباطات خلال القرن العشرين بشكل أكبر، وعُزِّزَت باستمرار من خلال تطبيق قوانين مكافحة المواد المُخدِّرة الدولية؛ وفي هذه العملية، تلاشى من شعور الناس العام الإحساس الذي مثّلته هذه المواد المنبهة للعقل في فترة سابقة. فقد أصبحت المواد المُخدِّرة المذكورة على نحوٍ متكرر من العصر السابق هي الأفيون ومشتقاتها الأكثر فعالية، المورفين والهيروين.

وهذه المواد في الواقع هي الأكثر استخدامًا في الطب في القرن التاسع عشر، والأكثر إشارة في الأدبيات الطبي؛ كما كانت الأكثر إثارة للمشكلات، والأكثر بروزًا في الجدل الذي أدى إلى نظام مكافحة المواد المُخدِّرة في القرن العشرين. ومع ذلك، بحلول أواخر القرن التاسع عشر، أظهرت العديد من الأدوية الأخرى إمكاناتٍ واسعة لاستكشاف العقل، ومنها النشوة القوية غير المسبوقة والتحفيز الذهني للكوكايين، والتجليات الطبيعية لأوكسيد النيتروز أو الإيثر أو الكلوروفورم، والانتشاء الخياليّ للقنب، وغيرها من النباتات الأخرى المألوفة منذ زمن طويل في مناطق بعيدة من العالم.

لقد طوى النسيان الكثير من أدبيات التجريب الذاتي الذي دوّنه الأفراد عن تجاربهم الشخصية باستخدام هذه المواد خلال القرن العشرين، ولكن بقيت بعض الحالات بارزة جدًا ولا يمكن تجاهلها. فعلى سبيل المثال، لماذا

كان سيغموند فرويد[1] مدافعًا متحمسًا عن الكوكايين؟ ولماذا استمر ويليام جيمس[2] في الإصرار على أنَّ النظرة التي اكتسبها من استنشاق أوكسيد النيتروز ـ غاز الضحك ـ كانت محورية في فهمه للوعي والتجربة الصوفية؟

وكذلك غُضَّ الطرف باستحياء في معظم المقالات والأبحاث التي كُتبت خلال القرن العشرين عن تجارب هؤلاء الشخصيات العلمية البارزة في اكتشاف العقل الحديث مع المواد المنبهة للعقل (أو تم تصعيدها بسعادة من معارضيهم) بوصفها مغامرات شبابية، أو أخطاء ساذجة. ففي دراسة مسحية تحتفي بمسيرة ويليام جيمس نُشرت عام 1948، تغاضى مؤلفوها عن تجربة جميس مع أوكسيد النيتروز، ووصفوها بأنها مثل «لعبة الطفل بالكبريت، أو استهزاء بمتدينين»، ووُضعت في فصل تحت عنوان «سماتٌ مَرضية».

وكذلك فرويد نفسه، فقد أخفى كتابه حول الكوكايين بعد تجريم المواد المُخدِّرة، وحذف أوراقه البحثية عنها من قائمة مؤلفاته، وتبعه في ذلك مؤرخ سيرة حياته وأعماله، إرنست جونز[3]، الذي حاول التقليل من شأن هذه الحادثة في سيرته الذاتية المصرّحة والمكونة من ثلاثة مجلدات، ووصف شخصيًا هذا العمل بأنه مسلك غير طبيعي، وقال: «كان مهتمًا فقط بالتأثير السحري للمُخدِّر الذي تناوله بكميات كبيرة بنفسه».

تخبرنا التفسيرات اللاحقة من هذا النوع عن الكثير من التحيزات السائدة في القرن الذي كُتبت فيه أكثر ممَّا تعكس الأحداث التي وقعَت.

(1) طبيب نمساوي (1856 ـ 1939).
(2) فيلسوف وعالم نفس أمريكي (1842 ـ 1910).
(3) طبيب أعصاب من ويلز (1879 ـ 1958).

فقد كان فرويد وجيمس يعملان في عصر لم تكن فيه مثل هذه التجارب غير عادية أو غريبة الأطوار؛ إذ فعل العديد من معاصريهم الشيء نفسه، واعتبروا التجربة الذاتية علامةً على الجدية أو التفاني المهني، وأرغب في استعادة هذا السياق الذي فُقِدَ من خلال وضع تجارب استخدام المواد المُخدِّرة واكتشافات شخصيات بارزة مثل فرويد وجيمس، إلى جانب تلك الذي نفذها معاصروهم الأقل شهرة، سواء في علوم العقل أو في العوالم الفكرية الأوسع ـ من الأدب إلى تاريخ الفن، ومن الفلسفة إلى الروحانية ـ التي انتشر من خلالها أفكار أمثال فرويد وجيمس.

يبدو أنَّ الوصول إلى الكتابات عن المواد المُخدِّرة التي دُوّنت في القرن التاسع عشر أكثر سهولة في القرن الحادي والعشرين، مقارنةً مع الوصول إليها في القرن العشرين. ويمكن اليوم ربط خطوط سهلة بين الاهتمام الحالي بالمواد المُخدِّرة المهلوسة والمحسّنات العقلية الأخرى، وبين الوعود التي تُقدمها هذه المواد بتحرير عقولنا من القيود الصارمة للحياة الحديثة.

لقد عكس الرُوّاد النفسيون في القرن التاسع عشر حال زمانهم في بعض الجوانب الواضحة؛ إذ كان معظم الأشخاص المهتمين بدراسة المواد المُخدِّرة في القرن التاسع عشر من الرجال البيض المثقفين، وهذا يعكس سيطرة هذه الفئة على العلوم في ذلك الوقت. ولهذا السبب حاولتُ الاستفادة القصوى من أصوات النساء والطبقة العاملة والأشخاص غير البيض وغير الغربيين حيث وجدتُها. ومع ذلك، فإنَّ تنوُّع هؤلاء الأشخاص ملحوظ، وجهودهم تمثل حلقة بارزة ورائعة في تاريخ الفكر الغربي التي لم تُدرس بالقدْر الكافي.

***

لقد حان الوقت لإعادة اكتشافها في القرن الحادي والعشرين، إذ على مدى ثلاثين عامًا منذ أنْ بدأتُ الكتابة عن المواد المُخدِّرة، تغيَّر موقفنا تجاهها تمامًا. خذ مثالًا، فقد انتقل تدخين إفرازات ضفدع صحراء سونورا من أقصى أشكال الفساد الناتج عن تعاطي المواد المُخدِّرة، إلى أنْ أصبح آخر منتَج مروَّج له على نحوٍ كبير في السوق المكتظة بعلاجات الأدوية المُخدِّرة النفسية. وأشادت الدراسات السريرية بالوعود التي يتضمنها استخدام إفرازات ضفدع صحراء سونورا في علاج الاكتئاب والقلق والتوتر، ومُنحت المادة الفعالة فيه (أو ـ ميثيل ـ بوفوتنين) تسمية غير متوقَّعة وهي «جزيء الإله»، وأصبح المؤثرون العالميون وصناع الرأي من بيرنينغ مان[1] إلى دافوس[2]، مبشرين لها.

صرَّح مايك تايسون[3] في عام 2019 لجو روغان[4] ومئتين مليون من مستمعي البودكاست الخاص به، بأنَّ تدخين إفرازات ضفدع صحراء سونورا أدى به إلى اكتشافات حوّلت حياته على نحوٍ كبير. وأشاد روغان نفسه به بوصفه يعادل خمسة عشر عامًا من العلاج النفسيِّ. وفي عام 2021، نشر هانتر بايدن، ابنُ الرئيس الأمريكي، مذكراته عن تعافيه من إدمان المواد المُخدِّرة، وذكر فيها أنه يُرجع جزءًا من نجاحه في الابتعاد عن المواد المُخدِّرة إلى تدخين إفرازات ضفدع صحراء سونورا تحت إشراف معالج روحيّ في منزل على الشاطئ في

(1) مهرجان سنوي يُنظم في صحراء الصخرة السوداء شمال ولاية نيفادا، في الولايات المتحدة.
(2) البلدة المستضيفة للاجتماعات السنوية للمنتدى الاقتصادي العالمي.
(3) ملاكم أمريكي شهير.
(4) مضيف بودكاست يُعد من الأشهر في العالم.

المكسيك. وقال بايدن: «كانت تجربة عميقة، وربطتْني بكل مَن في حياتي بطريقة متجددة وواضحة».

يقدّم العديد من الشامان المزيّفين الآن عبر صحاري جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية وشمال المكسيك إفرازاتِ ضفدع صحراء سونورا بوصفها علاجًا تجاريًا أو دواء مقدسًا. كما شعر خبراء الحفاظ على البيئة وقاطنو هذه المناطق الأصليون بالقلق من استغلال الضفدع واستنزاف موطنه الطبيعي الهشّ. وفي الرد على هذا الأمر، طوّرت عملية لإنتاج المركب بشكل اصطناعيّ للاستخدام في التجارب السريرية.

تُشتهر التجربة التي ينتجها تدخين إفرازات الضفدع بأنها تجربة لا يمكن وصفها بالكلمات، ولكن المؤلف مايكل بولان تحدّى نفسه لوصفها في استبيان للمشهد الجديد للمُخدِّرات النفسية في كتابه الشهير *كيف تُغيِّر عقلك* الصادر عام 2018. وهذه المهمة هي نفسها التي واجهها العلماء في القرن التاسع عشر، أولئك الذين تجرأوا على استخدام أوكسيد النيتروز أو الإيثر وحاولوا بالكلمات وصف رحلة خارج الجسد يمكن أنْ تستمر لثانية واحدة، أو حتى إلى الأبد. يروي بولان التجربة المستحوذة بأسلوبٍ نثريّ مُحكَم، مستلهِمًا الروايات الكلاسيكية لهمفري ديفي3 أو ويليام جيمس:

> لم يبقَ في ذاكرتي أثرٌ من تنفُّسي السابق، وكأنَّهُ لم يكن، ولا أذكر أنني سُجّيتُ على الفِراش وغُطيت بلحاف. فجأةً، شعرتُ باندفاعٍ هائلٍ من الطاقة يَملأُ رأسي، مصحوبًا بصوتٍ هائلٍ مُرهقٍ للأذنِ... فلم يعُد «أنا» هوَ ما كنتُ عليه، بل فُجّرتُ وتطايرتُ إلى سحابة من قصاصات أوراقٍ ملونة من قوةٍ متفجرةٍ لا أعرف مكانها في رأسي،

لأنها انفجرت أيضًا، وتمدّدت لتكون مكان كل شيء كان هناك. أيًا كان هذا، فهو ليس هلوسة. الهلوسة تعني وجود واقعٍ ونقطة إشارةٍ وكيان. ولم يبق شيء من هذه الأشياء.

أدينَت التجربة الذاتية نفسها التي أجراها ويد ديفيس وأندرو ويل قبل جيل مضى، بوصفها انتهاكًا غير مسؤول للبروتوكول العلمي. واليوم، بينما تتدفق مليارات الدولارات على الأبحاث في المواد المُخدِّرة النفسية والتعزيزات المعرفية، فقد حان الوقت لإدراك أنَّ افتتاننا الجديد بالمواد المُخدِّرة واستكشاف الوعي له تاريخ أعمق ممَّا ندركه. إذ يتصور العديد من مؤيديها وممَّارسيها أنها ابتكارٌ جديد تمامًا، منتجٌ لعلم الأعصاب في القرن الحادي والعشرين، وربما تكون مقدمة لمستقبل ما بعد الإنسان، المتحول بالكيمياء العصبية.

تجد هذه الأفكار عند آخرين ميثاقًا لها في الثقافات غير الغربية؛ في ممَّارسات التأمل واليقظة التقليدية في آسيا، أو شمانية العالَم الجديد وحكمة النباتات الأصلية. (لقد كتبتُ في مكان آخر عن بعض هذه التقاليد العالمية، لكن تركيزي في هذا الكتاب ينصبُّ على الغرب الحديث). وتدعم هذه السرديات الافتراض القائل إنَّ التعامل الغربي مع تجارب المواد المُخدِّرة ضحل، ولا يعود إلى أبعد من عقد الستينيات، وتبنّي تلك العقود للثقافة المضادة للتسامي وتحقيق الذات. لكن كشفَت النظرة الأوسع أننا نعيد إشعال إعجاب دائم بمسألة المواد المُخدِّرة والعقل، كان سمةً من سمات الحداثة الغربية قبل قرن، لكنه اختفى من ذاكرتنا الجماعية خلال القرن العشرين المُعادي لهذه المواد.

تُعَدُّ المواد المُخدِّرة اليوم رموزًا مفعمةً بالغرابة، وفي الوقت نفسه

موضوعًا للرفض، وتعكس مواقفنا المتضاربة تحت خط فاصل بين نماذج الحداثة المتنافسة. فمصطلح «حديث» ليس مصطلحًا يمكن ادعاؤه عن عصر معين أو من مجموعة متفق عليها من القيم. إذ منذ ظهور المصطلح خلال عصر النهضة، عندما وصف المرحلة الجديدة من الحضارة التي كانت تخلف العالم القديم والعصور الوسطى، أُستُدعي خلال فترات التغير السريع، حينما تحتل أنماط جديدة من التفكير والعيش. كما أنَّ السرعة الهائلة للتقدم في القرن التاسع عشر غير مسبوقة، وأصبحت المواد المُخدِّرة رموزًا قوية لأحلامه وكوابيسه. فكرة الحداثة التي صارت سائدةً في بداية القرن العشرين، كانت تمثل فيها المواد المُخدِّرة تهديدًا وجوديًا. والآن، بعد مرور قرن من الزمان، أصبحت هذه المواد تحمل مرة أخرى إمكاناتٍ لتوسيع عقولنا، واستعادة صحتها، وتمكيننا من اكتشاف ذواتنا الحقيقية.

أجرى الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور[1] مسحًا شاملاً لمسيرة الحداثة الطويلة، وحاول تتبُّع الرحلة من رؤية العالم في العصور الوسطى عندما كنا نقطن في مكاننا المخصص في ترتيبٍ إلهي، إلى الحداثة العلمانية حين أصبحت الهوية الشخصية شيئًا نبنيه لأنفسنا. وقد حاول تايلور في دراسته الأكثر شمولًا بعنوان *مصادر الذات* (1989) حصر الخصائص المميزة للعقل الحديث، التي عرَّفها بأنها «إحساس الانشغال بالذات، والحرية، والفردانية والتواجد في الطبيعة التي تتسم بها الحداثة الغربية». ووفقًا لتحليله، فإنَّ هذه الذات الحديثة ترى نفسها كما لو أنها تمتلك أعماقًا داخلية تستحق الاستكشاف؛ وتُقدِّر الأصالة والواقع؛ وترى الطبيعة على

(1) فيلسوف كندي (من مواليد 1931).

أنها محببة وتعيد النشاط. ومن اللافت للنظر كيف تعكس هذه القيم على نحوٍ وثيق جاذبية المواد المؤثرة في الوعي في القرن الحادي والعشرين.

وضح تايلور أنَّ هذه ليست اهتمامات حديثة، بل تتويجًا لعملية تاريخية بدأت الحركة منذ عصر التنوير، واستقرَّت بشكل راسخ في الثقافة الشعبية خلال العصر الرومانسي. ويقول تايلور: إنَّ الأوروبيين في القرن الثامن عشر بدأوا يُعظِّمون التجربة الداخلية، وتحليل آليات الإحساس والإدراك التي خلقتها. وخلال القرن التاسع عشر، اتسع هذا الاتجاه وتعمَّق مع الحركة الرومانسية، التي أعطت الأولوية «للقدرات التأملية التي تُعد محورية للذات الحديثة، تلك التي تمنح أنواعًا مختلفة من الاستبطان له أو لها، وقدرات العقل المنفصل والخيال الإبداعي». ويبدو في هذه الرؤية الشاملة أنَّ حظر استخدام هذه المواد لاستكشاف العقل في القرن العشرين يُنظر إليه على أنه انقطاع مؤقت في السعي الطويل نحو فهم الذات الحديثة، والاهتمام الحالي بها كاستئناف لقصة أقدَم بكثير.

الجزء الأول

المُعجِّل الجديد

المواد المُخدِّرة وتعزيز القدرات العقليَّة

نبيذ الكوكا، الذي يُصنَع عن طريق غمر أوراق النبات المحتوية على الكوكايين في نبيذ البورغوندي، كان منتجًا شائعًا في صيدليات القرن التاسع عشر، وسُوِّقَ تحت اسم «إكسير الحياة».

الفصل الأول

إكسير الحياة

في 30 أبريل 1884، تلقّى سيغموند فرويد، جرامه الأول من الكوكايين عن طريق البريد من شركة ميرك الصيدلانية[1] في مدينة دارمشتات. وقد صُدِمَ من سعره المرتفع ـ البالغ 3 جلدر و33 كرويزر، وهو ضِعف ما كان يتوقعه ـ ولكنه طلبه على أيِّ حال. وكتب حينها لخطيبته مارثا بيرنايس، مُعبرًا عن اعتقاده أنه على بُعد خُطوة واحدة فقط من تحقيق النجاح المهني، «كما تعرفين أنه عندما يثابر الإنسان، فإنه ينجح في نهاية المطاف».

في غرفة طلبة الطب المتهالكة في مستشفى فيينا العامّ، وزنَ سيغموند فرويد 50 ملغ من مسحوق الكوكايين البلوري، وأذابه في الماء وابتلعه، ولاحَظ على الفور أنَّ «له طعم مُرٌّ إلى حدٍّ ما، ويُنتج تأثيرًا مُخدِّرا على الأغشية المخاطية». ربما تكون «تجربة فرويد مع الكوكايين» أشهر تجربة ذاتية لتعاطي المواد المُخدِّرة في نهاية القرن التاسع عشر، وأكثر التجارب التي سيء فهمُها دائمًا.

(1) شركة ألمانية لعلوم الصيدلة والكيمياء، ويعمل فيها اليوم حوالي 60,000 موظف في 66 دولة. تأسسَت عام 1668، وهي أقدم شركة في العالم في هذا المجال.

يبدو أمرًا مربكًا من منظورنا الحالي أنْ يخاطر أشهرُ مستكشِف (أو فاتح، كما يصف نفسه) لعالَم العقل الحديث بسُمعته المهنية، بالارتباط بمُخدِّر نراه الآن مقترنًا بجنون الأنانية المُفرِط والحفلات الجامحة وعصابات الجريمة في أمريكا اللاتينية. بيدَ أنه في عام 1884، كان فرويد البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا مجرد طالب طبّ مُجهَد، وليس الشخصية ذائعة الصيت التي سيصبح عليها، والكوكايين لم يصبح هذا المُخدِّر المشوَّه الذي نعرفه في القرن العشرين. وعلى الرغم من أنَّ أبحاثه حول الكوكايين انتهت بالخزي وأنكرها لاحقًا، فقد كانت لديه أسباب وجيهة للأمل في أنْ يكون المُخدِّر علاجًا فعّالًا لأمراض الحياة الحديثة. ولديه أسباب وجيهة أيضًا لاتخاذ قرار بأنَّ البحث العلمي مع إمكاناته، يجب أنْ يبدأ على نحوٍ صحيح بالتجارب التي يقوم بها المُجرب على نفسه. وهذه الممَّارسة يمكن تتبُّعها منذ بدايات العلم الغربي، غير أنَّ تجربة فرويد الذاتية مثلت لحظة تحَدّى فيها صحة هذه الممَّارسة.

سيغموند فرويد وخطيبته مارثا عام 1885

المواد المُخدِّرة التي تُحدِث تأثيرات واضحة في العقل ـ وتُغير الحالة المزاجية والأفكار والمشاعر والتصورات ـ كانت موضوعاتٍ مشروعة، وغالبًا ما تكون مثمرةً للدراسة العلمية، لكنها طرحَت مشاكل محددة متعلقة بها. إذ إنَّ الأدلة التي تُولّدها لا يمكن قياسها أو التحقق منها، كما أنها تُقدّم أدلتها من منظور الشخص الذي يُجرِّبها. والتجربة على الذات كانت دائمًا ممَّارسة تقسم الباحثين إلى قسمين؛ حيث يصبحون مراقِبين ومجرِّبين في الوقت نفسه، ويضطرون إلى التفاوض للتوازن بين الجانب الموضوعي الذي يمكن قياسُه والتحقق منه، والجانب الذي يعتمد على وجهة نظر المُجرِب الذي يصعب قياسه والتحقق منه بشكل كامل.

حاول فرويد العثور على هذا التوازن في لحظة تورّطت فيها مصداقية العالِم المدرَّب وخبرته مع الدعاية التجارية لصناعة دوائية نامية بشكل هائل، وظهور مواد مُخدِّرة مؤثرة في العقل جديدة وقوية، بوتيرة أسرع من القدرة على الإجابة عن الأسئلة التي أثارتها. فقد كان العالِم في مجال العلوم الذي يتعاطى المُخدِّر مصدرًا للجدل في هذه القضايا، سواء داخل العوالم السريعة التغير للصيدلة والطب، أو بين الجمهور المهتم والقلِق والمُتحمس.

* * *

كان عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر في أوروبا والولايات المتحدة، عقدًا مفعمًا بالسرعة والتسارع. فقد ظهرَ أول ترام كهربائي في شوارع برلين عام 1879، وفي الولايات المتحدة في كليفلاند، أوهايو في عام 1884. وأصبحت المدن تعجّ براكبي الدراجات، والريف مزدحمًا بالقطارات، والبِحار مليئة بسفن الرحلات البحرية، ونظام التلغراف يمدُّ أسلاكه عبر العالم، ممَّا جعل أسعار البضائع في كلِّ ميناء معروفة في

اللحظة ذاتها. كما بيعَت ساعاتُ الجيب بالملايين، وحينها احتاج العمال والموظفون إلى تنسيق خُططهم مع جدول المواعيد وإدارة أوقاتهم بدقة. وهكذا أصبحت طريقة العيش الجديدة تفرض ضغطًا على الدماغ والجهاز العصبي كما اعتقد كثيرون، وهو الأمر الذي لم يكن البشر مستعدّين له، أو متكيفين معه.

وابتُكرَت مصطلحات تشخيصية جديدة للأمراض المرتبطة بالحركة السريعة، مثل «العمود الفقري للسكك الحديدية»[1] و«وجه الدراجة»[2]، في حين صُوِّرت الضغوط السائدة في الحياة الحديثة في تشخيص «الوهن العصبي»، وهو مصطلح اشتُهر في عام 1869 من الطبيب وعالِم الأعصاب الأمريكي جورج ميلر بيرد[3]. الذي كان شخصًا مثابرًا ومتحمسًا بقوة، ولديه ثقة غير محدودة في قدرة العلم على التفسير.

لم يبتكر بيرد مصطلح «الوهن العصبي»، بيدَ أنه يُعد أول مَن أشار إلى الوهن العصبي بوصفه مرضًا عضويًا متمايزًا، وشخَّص سببَه بكونه الحداثةَ نفسها. ووصف آليات هذا الوهن البيولوجية بتفصيل دقيق. وهذه الآليات معروفة منذ القرن الثامن عشر، عندما أظهر لويجي جالفاني[4] أنه يمكن جعْل أرجُل الضفادع المفترسة تتقلَّص بسريان تيار كهربائي خفيف عبْرها، وأنَّ الجهاز العصبي يعمل بفعل القوى الكهربائية.

---

(1) كان تشخيصًا في القرن التاسع عشر لأعراض ما بعد الصدمة للركاب المصابين في حوادث السكك الحديدية.

(2) تُشير إلى حالات تصيب الوجه يُعتقد أنها ناجمة عن الركوب المطول للدراجة مثل التجاعيد والوهن.

(3) طبيب أمريكي (1839 ـ 1883).

(4) طبيب وعالم تشريح إيطالي (1737 ـ 1798).

شجَّعت نظرية الكهرباء مع تطوُّرها نموذجًا متوازيًا لعلم التشريح، إذ كان الدماغ بمثابة بطارية كهربائية تُنظم القوة الكهربائية للجسم، والأعصاب هي الأسلاك الكهربائية التي تنقلها. ومن هذا النموذج نشأتْ فكرة «الاقتصاد العصبي»، التي تقول إنه إذا استُنفِدَت الطاقة العصبية بسرعة أكبر ممَّا تتراكم؛ فإنَّ النتيجة المتوقَّعة ستكون «إجهادًا عصبيًا» وانهيارًا للنظام.

تنوعَت أعراض الوهن العصبي على نحوٍ واسع، غير أنها تشمل عادةً: القلقَ، والدوار، والصداع، وعُسر الهضم، والتوتر العصبي، والتعب المزمن، وتشوُّش التفكير، واضطرابات النوم، والضعف الجنسي. ولم يكن أيٌّ من هذه الأعراض جديدًا، ولكن أشار بيرد باستمرار في كتابه الشهير *قلق أمريكي* (1881) إلى السبب الذي جعل هذه الأعراض تصل إلى مستويات وبائية، وهي «أولًا، الحضارة الحديثة». فقد كان إيقاع الحياة ومتطلبات الأعمال والصناعة يدفع الآلة البشرية لما هو أبعد من حدودها الطبيعية، وشيوع ساعات الجيب، أعراضًا وأسبابًا لهذا المرض في آنٍ واحد:

> ترتبط ساعات اليد التي وصلت إلى درجة الكمال، واختراع ساعات الجيب على نحوٍ مباشر بقلقنا الحديث، فهي تُجبرنا على الالتزام بالوقت المحدد، وتزرع فينا عادة مراقبة الوقت بدقة، لئلّا نتأخر عن المواعيد أو القطارات. غير أنَّ الرجل المتوتر لا يستطيع إخراج ساعته من جيبه والنظر إليها عندما يقترب الموعد المحدد أو وصول القطار، دون أنْ يؤثر ذلك على نبضات قلبه. ولو استطعنا قياس تأثير ذلك في نبضاته ووزنه، فلربما وجدنا تأثيرًا سلبيًا يتعلق بإجهاد الجهاز العصبي.

لقد قدَّمت التكنولوجيا الحديثة لبيرد مجازًا موضوعيًا للعملية التي يصفها، فقد كتب: «إنَّ الإضاءة الكهربائية لإديسون أصبحَت الآن متقدمة بما يكفي في الاتجاه التجريبي لتعطينا أفضل توضيح ممكن لتأثيرات الحضارة الحديثة في الجهاز العصبي». وكذلك الأيض البشري، فهو مثل الدائرة الكهربائية، يحتوي على احتياطيات محدودة من الطاقة. وعندما تُحمّل الدائرة ثقلًا أكبر، تصل إلى مرحلة تكون فيه «كمية القوة غير كافية للحفاظ على اشتعال كلِّ المصابيح بنشاط... هذه هي فلسفة الإرهاق العصبي الحديث. وأيضًا انتشار وسائل الإعلام المطبوعة والمعلومات بسرعة متزايدة، وارتفاع مستوى التعليم المكثّف، والتقدم العلمي الذي يُعيد صياغة الحياة اليومية: «كلُّ هذه تمثل مصابيحَ إضافيةً تُدرج في الدائرة الكهربائية، وتُزوَّد على حساب الجهاز العصبي، أما القوّة الديناميكية [للإنسان] فلم تزِدْ لديه بالقدْر المتناسب».

أصبح الوهن العصبي مرضَ العصر، ليس من خلال جهود بيرد وزملائه من المتخصصين في علم الأعصاب فحسب، بل أيضًا بطلب من المجتمع. لقد حملَت معظم تشخيصات المرض العقلي وصمة قوية من الجنون أو الضَّعف الأخلاقي، بينما يشير التشخيص بالوهن العصبي، إلى شعور الشهادة أو البطولة، تراكُم للضغوط الخارجية التي واجهها المريض ببسالة إلى حدِّ الإرهاق، عندما أخفقَت أعصابه. أما أعراضه فقد كانت معروفة للغاية، وبعكس الأمراض الشائعة الأخرى ـ مثل السُّل أو الكوليرا، التي حدَّد الطبيب الألماني روبرت كوخ آنذاك أسبابها الميكروبية ـ ليس ثمة علامة حيوية أو اختبار طبيّ لتأكيد، أو نفي تشخيص الوهن العصبي.

عالج بيرد بنفسه من الوهن العصبي باستخدام الكهرباء، وذلك بتمرير تيار خفيف عبر الجسم، وهي طريقة حققَت بعض النجاح، على الرغم من أنه اشتبه في أنَّ جزءًا من ذلك يُعد «علاجًا عقليًا»، أو ما نسميه الآن تأثير الدواء الوهمي. كان يعتقد أنَّ العلاج الوحيد الحقيقي هو تحوُّل جذريّ وشامل للمجتمع من أجل تقليل التوترات غير المحتمَلة التي يتعرَّض لها الناس، وتعزيز نشوء أمة أقلَّ انفعالًا وأكثر صحة.

شخّص سيغموند فرويد نفسَه على أنه يعاني من الوهن العصبي، وعزا حالته إلى مسار مهنيّ تركه مرهقًا ومتوترًا ومنهكًا، ومكتئبًا في غالب الأوقات. استغرق ثماني سنوات لإكمال دكتوراه الطب بدلًا من الخمس سنوات المعتادة؛ لأنه كان يقوم في الوقت نفسه بأبحاث مختبرية على ألياف الأعصاب اللافقارية، إذ سار في مسارَين متوازيَين؛ الأول نحو ممَّارسة خاصة بوصفه طبيب أعصاب، والآخر بوصفه اختصاصيًا جامعيًّا. أشار فحصُه الأوليّ للأدبيات الطبية عن الكوكايين ـ والتي تركزَت في هذه المرحلة بشكل رئيس على دراسات مصدرها الطبيعي، أوراق شجرة الكوكا في جبال الأنديز ـ إلى أنها كانت «ذات فعالية شاملة تقريبًا في تحسين تلك الاضطرابات الوظيفية التي نجمعها الآن تحت مسمى الوهن العصبي».

ومع تقدُّمه في أبحاثه وتجاربه، اقتنع بأنَّ هذا المُخدِّر قد يكون قادرًا على تقديم ما اعتقد بيرد بالضبط أنَّ الجهاز العصبي البشري يفتقر إليه، وهي الوسيلة لزيادة قدرته، بدلًا من مجرد دفع مؤقت لطاقاته مقابل نقص وإرهاق لاحق. فإذا كانت جميع أعراض الاضطراب العصبي المختلفة

تنشأ من السبب نفسه ـ وهو نقص الطاقة العصبية ـ فقد يُخفِّفها جميعًا المُخدِّر المناسب.

«إنها حقيقة معروفة»، هكذا لفَت فرويد الانتباه في أول تقرير نشرَه حول الموضوع «عن الكوكا» (1884)، «إنَّ لدى الأطباء النفسيين إمدادًا وفيرًا من الأدوية التي يمكنهم استخدامها لتقليل الانفعال في مراكز الأعصاب، لكن لا يوجد أيُّ دواء يمكن أنْ يفيد في زيادة الوظائف المنخفضة في مراكز الأعصاب».

كان دستور الأدوية في القرن التاسع عشر غنيًا بالمهدئات والمنومات؛ فقد انضم إلى الأفيون، الذي كان يُتعاطى منذ زمن بعيد، مستخلَصُه النقي والمركَّز: المورفين، بالإضافة إلى الأبخرة المُخدِّرة مثل الإيثر والكلوروفورم، ومُركّب هيدرات الكلورال القوي المُسكن. والأدوية المركبة من هذه المواد المُخدِّرة والتي وصفها الأطباء وتُباع في الصيدليات تُستخدم على نطاق واسع لعلاج أعراض الوهن العصبي مثل الإرهاق، والقلق، والإجهاد في العمل. غير أنَّ هذه الأدوية كانت مُسكِّناتٍ فقط، حيث تعطي المرضى راحة مؤقتة قبل استئناف المعركة الشاقة غير المتكافئة بين الحضارة الحديثة والجهاز العصبي البشري. كان مُنشطًا قد يغير المعادلة ويقدِّم علاجًا حقيقيًا من خلال إضافة الطاقة إلى الجهاز العصبي.

لم يكن فرويد، بطبيعة الحال، أولَ شخص يحقق في استخدام الإمكانات. فقد استُخدِم العديد من الأدوية كمنشطات، ولكن لكلٍّ منها حدود. أكثرها توافرًا هو الكحول، الذي يُستخدم على نطاق واسع في الطب، كشراب منعش في حالات الإرهاق والإصابات والضعف. ومع

ذلك، فإنَّ الدفعة الإضافية في الطاقة التي يوفرها الكحول قصيرة الأمد، ويتبعها انخفاض في الجهاز الأيضي يتسبب في الكثير من الأحيان في انتكاسة وعودة إلى الضَّعف والتخدير.

لم تحتوِ نباتات غرب أوروبا الأصلية على أيٍّ منشطات طبيعية، بعكس بقاع أخرى من العالم التي كانت موطنًا لنباتاتٍ تحتوي على الكافيين، بالإضافة إلى محفزات أخرى مثل الكوكا والقات والتنبول، وعندما وصل الشاي والقهوة والشوكولاتة إلى غرب أوروبا خلال القرن السابع عشر، أصبحت محلَّ ترحيب وإعجاب كمعجزات طبية. إذ إنَّ هذه المشروبات، وبعبارة مفارقة لذلك الزمن، هي «مُسكرات لا تُسكِر» يمكن أنْ تُنشط المرضى وتزيد طاقة الأصحاء، وترفع من القدرة على التحمل، وتُحسّن الذاكرة وتطرد النعاس. ولكن عند تناولها بكميات كبيرة، يمكن أنْ تؤدي إلى التحفيز الزائد، مسببةً آثارًا جانبية غير مريحة مثل الارتعاش العصبي، والتعرق، وسرعة ضربات القلب، هذه الأعراض التي تضغط بشدة على الجهاز العصبي بدلًا من تنشيطه.

وصف هذه التأثيرات عالية الجرعة الكاتب ومدمن القهوة أونوريه دي بالزاك[1]، الذي كان يشرب عشرات الأكواب يوميًا في أثناء كتابته لرواياته، ووصف ذلك معترفًا في رسالته عام 1839 بعنوان *أطروحة عن المنشطات الحديثة*[2] بقوله: «أتناولها بكميات كبيرة لدرجة أنني استطعتُ ملاحظة

(1) كاتب وروائي فرنسي (1799 ـ 1850).
(2) نُشر هذا البحث لأول مرة باللغة الفرنسية عام 1839 كملحق لكتاب *فسيولوجيا الذوق* لجان أنثيلم بريلا سافارين، وهي تتضمن تأملات في خمسة منشطات، هي: الشاي والسكر والقهوة والكحول والتبغ.

آثارها على نطاق واسع». ووصل استهلاكه للقهوة إلى الحدِّ الذي وصفه بقوله: «أخيرًا، اكتشفتُ طريقة فظيعة وقاسية، أوصي بها للرجال ذوي القوة الزائدة ليس إلا»، وهي بلْع كميات من حبوب القهوة المطحونة بدون ماءٍ على معدة فارغة حتى:

يصبح كلُّ شيء مضطربًا، فالأفكار تتقدم مثل كتائب جيش كبير إلى ساحة المعركة حين تبدأ. تهجم الذكريات، وترفرف الأعلام؛ تتقدم خيول فرسان المقارنات الخفيفة بعَدْوٍ مُهاب. تهجم مدفعية المنطق مع قافلتها وشحناتها، وتظهر الطُرَف مثل القناصة، وتنهض الشخصيات. وتغطي الورقة نفسَها بالحبر، لأنَّ المساء يبدأ وينتهي بسيل أسود من الماء، كما تنتهي المعركة ببارودها الأسود.

حقق بالزاك إنجازاتٍ أدبية مذهلة بهذه الجرعات، لكنها تُعدُّ نصرًا أقربَ إلى الهزيمة، فالهجوم على المعدة والدماغ أدى إلى «تعرُّق فظيع» و«ضَعف في الجهاز العصبي» ممَّا أدى به في نهاية المطاف إلى التخلي عن تجاربه. كانت آثار الكافيين بهذا الشدة من الكثافة محمومة وغير مستقرة، تتبدد بسهولة في نفاد الصبر والإحباط والغضب. وكما هو الحال مع الكحول، فإنَّ الكافيين يسترد الطاقة المؤقتة التي يمنحها بفائدة، ومن المستحيل في صباح اليوم التالي تجاهُل حقيقة أنَّ «للقهوة ضحية».

ظهرَت خلال فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر مجموعة من «منشطات الأعصاب» في الصيدليات، ولكنْ كانت جميعها سامَّة ومحدودة الفائدة. إذ روّج للستريكنين بوصفه علاج من ثلاث جرعات صغيرة يوميًا، وفي عام 1884، بالتزامن مع بدء فرويد لتجاربه، أضاف العالم البريطاني البارز توماس هنري هكسلي[1] إلى نظامه لعلاج الإرهاق

---

(1) عالم أحياء إنجليزيّ وعالم أنثروبولوجيا متخصص في علم التشريح المقارن (1825ـ 1895).

«أفترض أنَّ الجميع يبدأ الحياة برأس مال من موادّ الحياة، وأنَّ العادات الباهظة الثمن قلَّلَت من رأس مالي».

كان الزرنيخ أيضًا من المنشطات الكيميائية، المكوّن الفعال في الأدوية التي تباع بدون وصفة مثل محلول فاولر، فعشر قطراتٍ، ثلاث أو أربع مرات في اليوم، يمكن أنْ تستعيد قوة الأعصاب، ويمكن أنْ تُسبب بالقدْر نفسه أعراضًا عصبية مثل الغثيان والتعب والصداع. والكالوميل كذلك ـ أوكسيد الزئبق، يُصرف على شكل «حبوب زرقاء» ـ يُوصى به لتعزيز الطاقة العصبية بالإضافة إلى علاج الالتهابات والتيبُّس، ومع ذلك، فإنه يُعد سامًّا إذا زاد تعاطيه عن الجرعات الصغيرة.

شملَت علاجات الوهن العصبي أيضا سوقًا حيوية في الوسائل الكهربائية ادَّعَت أنها تُعزز الجهاز العصبي عن طريق تمرير التيار خلال الجسم، وفي زمن فرويد كان الباحثون الطبيون يستكشفون علاجات دوائية أكثر إزعاجًا بكثير من الكوكايين. فقد أجرى تشارلز إدوارد براون سيكارد[1]، وهو أستاذًا طبيبًا في كلية فرنسا في باريس، تجارب لسنواتٍ عديدة مع الخلاصات الغُدِّية، ولا سيّما من خَصيّ الحيوانات، على أساس اعتقاده بأنَّ طاقات الحياة تتركز في السائل المنوي والغدد المنتجة له.

ففي عام 1869، قال براون سيكارد بعد تأمُّل: «إذا كان من الممكن حقن السائل المنوي في دماء الرجال المُسنين، فمن المرجَّح أنْ نحصل على مظاهر لزيادة النشاط فيما يتعلق بالقوى العقلية والجسدية المختلفة». وفي عام 1889، وعن عمر يناهز الاثنين والسبعين عامًا، قال براون سيكارد

(1) عالم فسيولوجي وعصبي فرنسي (1817 ـ 1894).

لأعضاء جمعية الأحياء في باريس أنه صنع مستحضرًا من السائل المنوي والدم والخصيتَين المهروستَين من الكلاب والخنازير الغينية، وأعطى نفسَه جرعة من عشر حُقن تحت الجلد. وذكر أنه شهد عودةً للحيوية الشبابية واطِّرادًا في «سهولة العمل الفكري»، على الرغم من أنه يبدو من غير المعقول أنَّ يكون مصلَه نشِطًا بيولوجيًا. أصبحَت «المعالجة العضوية» التي أشار إليها مُتعارَفًا عليها في أوروبا وأمريكا، وروَّج لها المعالجون ليس علاجًا لضَعف الأعصاب فحسب، بل ـ كما استخدمها أيضًا بائعو منتجات الكوكا والكوكايين ـ بوصفها «إكسير الحياة».

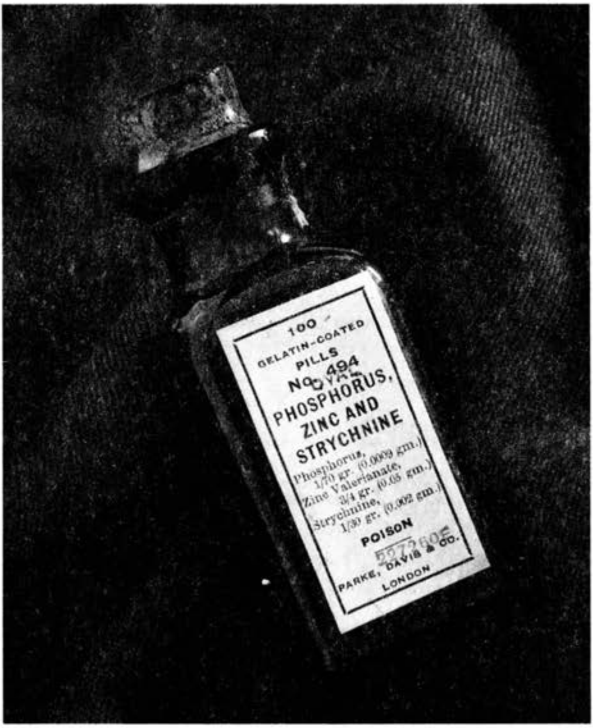

وصل الكوكايين إلى سوقٍ تباع فيه السموم مثل الستريكنين والزرنيخ والزئبق بوصفها منشطات للجهاز العصبي.

عندما توضع تجربة فرويد لقوى المنشطات في الكوكايين أمام السموم المباعة في الصيدليات، أو المشدّات الكهربائية، أو تجارب براون سيكارد الذاتية، فإنَّ فرويد لا يبدو متهورًا؛ بل عاقلًا ومعتدلًا. إذ يرى المؤرخون وكُتاب السير الذاتية، بالإضافة إلى فرويد نفسه عندما كان شابًا، أنَّ الطموح الشبابي هو الدافع الرئيسَ لبحوثه، وإنْ كان لديه طبعٌ متهور، فإنه أيضًا حذِرٌ في بعض الأحيان.

عندما خطب فرويد مارثا برنايز، طلب منها أنْ تُطرز له نوعًا من الأقمشة المزخرفة، أو ما يسمى «ألواح النذور»، لتزيين جدران غرفته الكئيبة في الجامعة. كُتب على الأولى «اعمل بلا تفكير» ـ وهي وصفة للوهن العصبية ـ وعلى الثانية «عند الشك، امتنع». أما خِطبته لمارثا، ابنة العائلة اليهودية الأثرى والأرقى من عائلته، فهي قصة عاطفية اُحتفل بها بأسلوب أدبيّ رفيع في مراسلاتهما، غير أنها ارتبطَت أيضًا بنهمه الشديد للنجاح. وإذا كان الكوكايين يستطيع أنْ يجعله ثريًا، فإنه سيمهد له الطريق إلى زواج مُربِح. بيد أنَّ رغبته في الاكتشاف تعايشَت مع التحذيرات الدائمة التي وجَّهها لنفسه بممَّارسة التحكم الذاتي. وحين بدأت تجاربه الذاتية يُنظر إليها على أنها متهورة ومفرطة، تبين بعد حين أنَّ العيب الأكبر فيها هو تردُّده في اختبار المُخدِّر الجديد إلى أقصى حدوده.

تسجل رسالة فرويد الأولى إلى مارثا حول موضوع الكوكايين خطواته الأولى. فقد جذب انتباهه للمرة الأولى إلى المُخدِّر تقريرٌ نُشر في العام السابق في *مجلة الطب الألماني الأسبوعية*. ورد فيه أنَّ طبيبًا يعمل في الجيش اسمه تيودور أشينبراندت، أضاف الكوكايين سرًا إلى مشروبات

الجنود البافاريين[1] الجدد في أثناء التمارين السنوية على أسلحتهم، ولاحَظ أنها جعلتْهم أكثر قدرةً على تحمُّل الجوع والحرارة والتمارين الشاقة والمسيرات. «وبهذه الطريقة»، استنتج بثقة، «أنَّ الجندي يستطيع الاستغناء عن الطعام لمدة ثمانية أيام».

عرف فرويد أنَّ الكوكايين قد عُزل لأول مرة في عام 1860 من أوراق نبات الكوكا، ومن هنا جاء اسمه، ومنذ ذلك الحين أصبح متاحًا في كتالوج شركة ميرك الصيدلاني، ولكن لم يخضع لبحثٍ كافٍ. ومثَّل سعر ورقة الكوكا المرتفع عاملَ ردع، خاصة بالنظر إلى أنَّ التقييمات حول مدى فعاليتها لم تكن حاسمة. فقد خسرَت العينات المرسَلة من أمريكا الجنوبية إلى أوروبا على مرِّ السنين خصائصها المنشِّطة في أثناء الرحلة، واستنتج بعض الكيميائيّين أنَّ تأثيراتها المزعومة استندَت إلى تقارير مُبالَغ فيها من السكان الأصليين في جبال الأنديز. ومع ذلك، روّج للكوكايين بحماس في الولايات المتحدة، وخاصة في *ثرابيوتِيك غازِيت* [الصحيفة العلاجي]، وهي مجلة علمية شهرية تُنشر في ديترويت تحت رعاية شركة بارك ديفيس الصيدلانية[2].

لقد نجحَت شركة بارك ديفيس في بناء مجموعة لا مثيلَ لها من المنتجات الطبية، الكثير منها مستخرج من مصادر نباتية، مبيعاتها رائجة، وهي نبتة الكاسكارا المليّنة، المشتقة من لحاء استخدمتْه الشعوب الأصلية في شمال غرب المحيط الهادئ للعلاج. وفي عام 1880، نشرت *ثرابيوتِيك*

(1) مجموعة إثنوغرافية من الألمان في منطقة بافاريا في ألمانيا.
(2) شركة تابعة اليوم لشركة الأدوية فايزر، وكانت تُعد في يوم من الأيام أقدمَ وأكبر شركة لتصنيع الأدوية في أمريكا.

غازِيت شهادة إعجاب بالكوكايين من الطبيب دبليو. إتش. بنتلي، الذي أوصى باستخدامه لعلاج إدمان الأفيون والمورفين والكحول. وكتب بنتلي أنَّ الكوكايين «قادر على إنتاج أعلى المشاعر العقلية، أكثر بكثير من النشوة التي يُحصَل عليها من استخدام الأفيون أو الكحول»، وبعكس المواد المُخدِّرة الأخرى، «تزول آثارها تدريجيًا بعد بضع ساعات، ممَّا يترك شعورًا بالهدوء والسعادة، دون أنْ يتبعها أيُّ شعورٍ بالاكتئاب».

أضاف بنتلي في ورقته المنشورة عددًا من الحالات السريرية، وكما هو الحال وقتذاك في المجلات العلمية المرتبطة بشركات الأدوية عادةً، فقد أُبلغ عن نجاح علاج جميع الحالات. وفي عام 1884، أضافت شركة بارك ديفيس مستحضر الكوكا إلى الكتالوج الخاص بها، وأرسلَت أكثر باحثيها خبرة في علم النبات، هنري هورد راسبي[1]، إلى بوليفيا من أجل جلب إمدادٍ كبير من أوراق الكوكا.

أحضر راسبي كمية كبيرة من الأوراق تصل إلى 200,000 ورقة، لكنه اكتشف، كما فعل آخرون قبله، أنَّ معظمها تلفَ خلال رحلة العودة؛ وبدأ في تطوير تقنية للحفاظ على إنتاج الكوكايين من خلال صُنع مستخلص خام وثابت في مختبرات مؤقتة في أمريكا الجنوبية. وبفضل الإمداد الجديد للكوكايين الصيدلاني الذي حصلوا عليه، أصبحَت شركة بارك ديفيس على استعداد لتكون أكبر مورد في العالم، وتخفض أسعارها المرتفعة إلى مستويات معقولة.

دلَّت ورقة تيودور أشينبراندت فرويد على أدبيات أوراق الكوكا المتاحة

---

(1) عالم نبات وصيدلاني ومستكشف أمريكي (1855 ـ 1940).

وقتها باللغات الإسبانية والألمانية والإيطالية. والعديد من هذه الأدبيات مستمد من التجارب الذاتية التي جمعها سابقًا المستكشف الأرستقراطي والكيميائي الحيوي، بارون إرنست فون بيبرا[1]، في كتابه *مُسكِرات النبات* المنشور عام 1855. حيث تجوّل فون بيبرا كثيرًا في أمريكا الجنوبية قبل استقراره في حياة أسرية في قلعة عائلته في بافاريا، محاطًا بمجموعته الواسعة من الأعمال الجمالية في الفن والعمارة، وإنشائه مختبرًا منزليًا كبيرًا حلّل فيه محتويات النباتات والأغذية والأدوية. وقد اقتبس فون بيبرا حديثه عن الكوكا على نحوٍ واسع من عالِم النبات إدوارد بوبيغ[2]، الذي سافر إلى جبال الأنديز في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، ووصف ورقة الكوكا على أنها عادة ضارة تتبعها أُمة بدائية، وليس منشطًا مفيدًا. كتب بوبيغ: «تميل الشعوب ذات القدرات العقلية المتدنية إلى الاستمتاع بالمُخدِّرات الأشد فتكًا وضررًا». وحسب وصفه، فقد أصبح متعاطو الكوكا العاديون شاحبي الوجه، ضعفاء ومرضى، وطاقاتهم مُهدرة، ومع ذلك «لم يكن من الممكن أبدًا كسر عادة مدمني الكوكا، كما يطلَق عليهم في بيرو بلغة الأصليين الـكوكيرو».

أما تجربة فون بيبرا الشخصية فهي مختلفة تمامًا، فقد قال: «يبدو لنا أنَّ حُكم بوبيغ كان صارمًا وشديدًا نوعًا ما فيما يتعلق بالتأثيرات النفسية والفسيولوجية». ووجد خلال زيارته لتلك المناطق فرصًا عديدة من أجل «التعرف على متعة الكوكيرو الحقيقية»، وتعلم الطريقة الدقيقة لمضغ الورقة مع مسحوق الجير المطفأ الذي يطلق مركباته شبه القلوية. لقد

(1) عالم طبيعة ألماني (1806 ـ 1878).
(2) عالم نبات ألماني (1798 ـ 1868).

مكتبة
t.me/soramnqraa

لاحظ أنَّ الكوكا أُستُخدم بوصفه مساعدًا للطاقة والإنتاجية، إذ يمضغه المزارعون، وخاصةً أولئك الذين يقطعون مسافات طويلة سيرًا على الأقدام. ومع ذلك، وجد فون بيبرا شخصيًا أنَّ تأثيرات الكوكا المنشطة متواضعة، وبخلاف فقدان الشهية الطفيف، فهو لم يلاحظها، وعلى حدِّ قوله: «ليس ثمة إحساسٌ في نفسي يمكن أنْ يشير إلى إثارة عصبية».

التقرير الأكثر شمولًا، والذي أثَّر بدرجة أقوى في فرويد، هو تقرير طبيب الأعصاب الإيطالي باولو مانتيغازا[1]، ذلك الطبيب الذي عمل في الأرجنتين وباراغواي في خمسينيات القرن التاسع عشر وأجرى تجارب ذاتية مع المنشطات النباتية المحلية، مثل الغوارانا والكوكا. وبعكس فون بيبرا، فقد أدرك مانتيغازا تأثيرات المنشط الناجمة عن الكوكا على الفور، وتابعها بحماسة. كتب مانتيغازا في دراسته «عن القيم الصحية والطبية لنبات الكوكا» التي نشرها عام 1859:

> فور مضغ جرعة أو جرعتَين، تتبع الإثارة العصبية دائمًا حركات مُبالغ فيها أو عنيفة، وغالبًا غير منتظمة؛ ثمة اضطراب عامّ في الأفكار والنشاط العضلي، في حين يبدو أنَّ النشوة التي تنتجها الكوكا تتسرب تدريجيًا إلى كلِّ خلايا الجسم، كما يمتصُّ الإسفنج الماء. وهكذا، تتمثل بهجة هذه الفترة بشكل شِبه كامل في زيادة الوعي بكون الإنسان حيًا.

لم يجد مانتيغازا في الكوكا منشطًا يعزز قدراتِ اليقظة، بل أحدثَت حالة متغيرة جذريًا من الوعي. فهي بعكس الكافيين، لم تُحدِث الجرعات العالية منها حالة التنشيط الزائد، بل تأثيرًا أكثر لذة وأكثر وضوحًا. وبمضغ

---

(1) طبيب أعصاب وعالم نفس وعالم أنثروبولوجيا إيطالي (1831 ـ 1910).

8 دراخمات[1] في اليوم و10 أخرى في المساء، وهي أقصى حدٍّ يستطيع تحمُّله بدنيًا، حقق ما وصفَه بقوله: «جنون سُكْر الكوكا، ويجب عليَّ أنْ أعترف بأنني وجدتُ هذه المتعة أفضل بكثير من جميع الأحاسيس الجسدية الأخرى التي جرَّبتها سابقًا». وقد قاس نبضَه قبل الجرعة المسائية بـ 83 نبضة في الدقيقة، وبعد نصف ساعة ارتفع إلى 120. لقد شعر بسعادة غامرة، وعند إغلاق عينَيه ظهرَت له «أروع وأكثر مشاهد الأخيلة غير المتوقعة»، صور رسومات متعددة الألوان تتبع بعضها بعضًا بسرعة كبيرة جدًا بحيث لا يمكن وصفها، أو حتى إخبار زميله الجالس بجانبه عنها. حاول تدوين وصفها، وفشل في التقاط عشر صور من كلِّ حالة تقريبًا:

كهف من القِيطان يمكن من خلال مدخله، هناك في الخلف، رؤية سلحفاة ذهبية جالسة على عرش مصنوع من الصابون...

كتيبة أقلام فولاذية تقاتل جيشًا من المَثاقيب...

صاعقة مكونة من خيوط زجاجية تخترق جبنة بارميزان مغطاة باللبلاب والتوت...

محبرة صفراء اللون يولد منها فطر زمردي مُرصَّع بثمار الورد...

سُلَّم مصنوع من ورق نشّاف مبطن بالأفاعي الجرسية، ومنه ينزل العديد من الأرانب الحمراء ذات آذانٍ خضراء، قفزًا...

علم مانتيغازا جيدًا خصائص الكوكا المنشطة للمزاج والرؤى البصرية، والتي أقنعتْه بأنَّ «كلّ هذا سيصبح علمًا رائعًا في المستقبل القريب». فالرغبة والقدرة على الشعور بالنشوة ثابتتان على مرّ التاريخ البشري، بيد أنه يعتقد أنَّ حدودها لم تُستكشف بعد. وعند عودته إلى إيطاليا، أصبح أستاذًا للطب في بافيا، وأسس الجمعية الإيطالية لعلم الإنسان، وبدأ العمل

(1) وحدة قياس مستخدمة في النظام الإنجليزي القديم.

في دراسة واسعة النطاق عن السُكْر والطبيعة البشرية، والتي بلغَت 1200 صفحة عند اكتمالها عام 1871.

شملت فئته الواسعة من المسُكرات منشطات غير كيميائيّة مثل الفرح والحب والطموح والشباب والنشوة الدينية، وادّعى أنَّ «كل شغفٍ قد يكون له نوبة تشبه السُّكْر». ووضع المتعة الناتجة عن المواد المُخدِّرة مثل الكوكا في قلب رؤيته لمستقبل تقدُّمي ستُحقق فيه الإنسانية شكلًا جديدًا من «السُكْر الناجم عن الاستبصار والتفاؤل». ومع تقدُّم العلم، ستكشف الطبيعة والكيمياء «ألْفَ طعام جديد مغذٍ للأعصاب»، وسينشأ مجتمع يتخلله «دومًا الولائم والمُسكرات». أما من ناحيته، فقد استمر مانتيغازا في استخدام الكوكايين بطريقة «حكيمة وغزيرة» حتى في شيخوخته المتقدمة.

اعتمد فرويد في أول ورقة بحثية له حول هذا الموضوع في عام 1884، «عن الكوكا» أسلوبًا أدبيًا مبتكرًا مثيرًا، ومختلفًا تمامًا عمّا سيكتبه فيما بعد، وهدف من خلاله إلى إيجاد التوازن بين النهج الكمي الصادق لأبحاث أشينبراندت مع الصفات المخملية لمنتيغازا. وهكذا، بدأ بكتابة علم النبات وتاريخ نبات الكوكا بأسلوب تقليديّ، لكن في القسم الفسيولوجيا «تأثيرات الكوكا على جسم الإنسان السليم»، تحوَّل فجأة إلى شهادة من منظور الشخص الأول: «لقد جربتُ آثار الكوكا على جسم الإنسان السليم ودرستُها في نفسي وفي الآخرين، وتتفق نتائجي في الأساس مع وصف مانتيغازا لآثار أوراق الكوكا». ووصف فرويد جرعته الأولى بدقة سريرية ـ 0.05 جرام من الكوكايين في محلول مائي بنسبة 1 % ـ ثم تحوَّل صوتُه مرة أخرى إلى الصيغة غير المباشرة في الحديث، «أنت» أو «الشخص»:

> بعد بضع دقائق من تناول الكوكايين، يشعر الشخص بنشوة مفاجئة وشعور بالخفة. ويشعر الشخص بنعومة معينة على الشفاه والحنك، يليها إحساس بالدفء في هذه المناطق. وإذا شرب الشخص الآن ماءً باردًا، فسيشعر بالدفء على الشفاه، والبرودة في الحلق.

وحينما تحوَّل فرويد من التركيز على التأثيرات الجسدية إلى التأثيرات النفسية، تحوَّل الصوت مرة أخرى، حيث أصبح يتناوب بين الخطاب المباشر والشخصي إلى القارئ، وبين النبرة غير الشخصية للسلطة العلمية:

> يتمثل التأثير النفسي لمُركب كلوريد الكوكايين في جرعات تتراوح بين 0.05 ـ 0.10 جرام، في شعور بالابتهاج والنشوة الدائمة، التي لا تختلف عن أيٍّ شكل من أشكال البهجة الطبيعية التي يشعر بها الشخص المعافى. إنَّ الشعور بالحماس الذي يرافق النشاط بسبب الكحول غير موجود إطلاقًا؛ والرغبة الطبيعية في النشاط الفوري التي يسببها الكحول غير موجودة أيضًا. فالشخص يشعر بزيادة ضبط النفس، وبمزيد من النشاط والقدرة على العمل. من ناحية أخرى، إنْ كان الشخص يعمل، فإنه سيفتقد تعزيز القوى العقلية التي ينتجها الكحول أو الشاي أو القهوة. ويكون الشخص ببساطة طبيعيًا، ويجد بعد فترة قصيرة صعوبةً في تصديق أنه كان تحت تأثير أيٍّ مُخدِّر على الإطلاق.

يصف فرويد الكوكايين في بعض الأحيان، بطاقة تسرّع الأنفاس، بهدف نقل الإحساس الذي يسببه المُخدِّر ودعوة القارئ للمشاركة في الإقرار الصريح بمتعته. ويصوره في أوقات أخرى على أنه «منشط» بلا تأثيرات ذاتية ملحوظة. وفي بعض المقاطع يتخذ فرويد نبرة حيادية وابتعادًا مهنيًا، بينما يتميز أسلوبه في بعض الأحيان بالاعتراف الشخصي،

حيث يدعي سلطة التجربة ومصداقيتها. إنَّ استخدام «الشخص» أو «أنت» في الحوار يحتل منزلة متذبذبة ووسطية بين الاثنين؛ حميم ومباشر، بيد أنه مع الفحص الدقيق لا يستند على نحوٍ صلب إلى الأدلة أو التجربة.

تُعد هذه التحولات في الأسلوب حلولًا مُعدلة بعناية لمفارقات التجربة الذاتية، التي اعتُرف بها جيدًا. وقد لاحظ إرنست فون بيبرا أيضًا في مقالته عن الكوكا: «كأنَّ ثمة شخصَين معًا؛ أحدهما واقع تحت تأثيرات التخدير كلها، والآخر واعٍ بها». ويمكن أنْ يضيف وجهة نظر ثالثة، وهي وجهة نظر الكاتب، الذي يتوازن بين أصوات المراقب والشخص الخاضع للتجربة لتقديمها إلى القارئ. غير أنه عند النظر إلى أبحاثه حول الكوكايين، يصبح فرويد أكثر تحديدًا: «أُدرك أنَّ مثل هذه الملاحظات الذاتية لها جانب سلبيّ عند الشخص الذي يجريها، حيث يدعي نوعَين من الموضوعية»، وجهة نظر الباحث وتلك الخاصة بالشخص الخاضع للتجربة.

انعكسَت هذه التحولات في الأسلوب أيضًا على نطاق واسع، على طموح فرويد للوصول إلى جماهير مختلفة في وقت واحد، وهم زملاؤه الأطباء، وأرباب عمله، وكذلك تجار الأدوية الذين كان مصير نجاح الكوكايين أو فشله يعتمد عليهم، والجمهور العام الذي سيصبح عملاءه في النهاية. كان فرويد يحاول تقديم نفسَه في الوقت ذاته بوصفه خبيرًا طبيًا، وبائعًا لدواء جديد ثوري، وفاتحًا لعوالم العقل. وكيْ يفعل ذلك، كان يحتاج إلى جمع مدرستَين متناقضتَين لطريقة التجربة الذاتية التي تعايشتا منذ بداية العلم الحديث؛ فالأولى تطالب بالتمايز المهني والموضوعي عن التجربة، والثانية تدفعه إلى الغوص أكثر في ميدان الاستبطان والذاتية.

***

«لا تؤمن بمجرد كلمة!»[1] هذا هو الشعار الخاص بالجمعية الملَكية التي تأسسَت في عام 1660، ويعني هذا أنه لا يجب تصديق أيٍّ من الأقاويل المنتشرة، بل يجب الاعتماد على الأدلة المباشرة التي تتمثل في التجربة والملاحظات الشخصية المباشرة. ويجب تأكيد التجارب من خلال تكرارها. وعندما عُرضت التجارب في الفضاء شبه العام للجمعية الملكية، وفر دفتر تسجيل للشهود ليشهدوا ويؤيدوا ما رأوه. كان قراء مجلة *وقائع الجمعية الملكية*[2] الصادرة عن الجمعية الملكية يدعو لتكرار التجارب بأنفسهم، وكتابة الأدلة التي تؤكد نتائج التجارب المنشورة أو تنفيها.

طوّرت الشخصيات الرئيسة في الجمعية الملكية، ومنهم روبرت بويل، وإسحاق نيوتن، نظرياتٍ ميكانيكية ومادية أنشأتْ تمييزًا بين نوعَين مختلفَين من الأدلة، هما: الصفات «الأساسية» مثل الحجم أو الشكل أو الوزن وهي قابلة للقياس المباشر وكما نقول اليوم، موضوعية، والصفات «الثانوية» مثل الملمس أو الطَّعم أو الشعور التي تصف أحاسيس الإنسان واستجاباته.

لقد فضَّلت أبحاث الجمعية إظهار الصفات الأساسية، لكن الإحساس والإدراك مَثَّلا مجالاتٍ مشروعة للبحث، وأنواعًا معينة من البيانات لم يمكن إظهارها إلا عن طريق التجربة الذاتية. وفي مثال شهير وواضح، عندما أراد إسحاق نيوتن تأكيد ما إذا كان تغيُّر في درجة تقعُّر العين سيؤدي إلى تشوُّه الصورة التي يتلقاها المراقب، أخَذ إبرة كبيرة و:

وضعتُها بين عيني والعظم قريبًا من الجزء الخلفي من عيني قدْر

---

(1) باللغة اللاتينية: «Nullius in Verba».

(2) المجلة البحثية الرئيسة للجمعية الملكية، منذ عام 1831.

المستطاع؛ وأخذتُ أضغط على عيني بطرفه (حتى أجعل درجة تقعُّر عيني تتغير أ، ب، ج، د، هـ، و) ظهرَت العديد من الدوائر البيضاء والمظلمة والملونة ص، ق، ر. وكانت هذه الدوائر واضحة على نحوٍ أفضل عندما واصلتُ تدليك عيني بطرف الإبرة، لكنني إذا حافظتُ على عيني والهامة ثابتتَين، فإنَّ الدوائر ستصبح خافتة وتزول كثيرًا حتى أُجدِّدها بحركة عيني أو الإبرة.

هذه الحروف هي مفاتيح للرسم التوضيحي المصاحب لنيوتن، الذي يُظهر شكل العين المتقعر. لم يكن من الممكن تقديم أدلة مباشرة على الدوائر الملونة؛ لأنها كانت موجودة في عقل نيوتن ليس إلا، ومع ذلك لم يكن على زملائه الفلاسفة ببساطة قبول كلامه بشأنها. لقد وُصفت النتائج بطريقة تجعل أيَّ متشكك يستطيع تكرار التجربة على نفسه، إذا أراد ذلك.

كان الأمر ممَّاثلًا مع المواد المُخدِّرة التي تؤثر في العقل. فبمثل الدوائر التي ظهرَت في رؤية نيوتن، فإنَّ التغييرات التي تسببَت فيها المواد المُخدِّرة على الفكر والمزاج والإحساس أو الإدراك هي خصائص ثانوية ليس لها وجود مادي، لكن هذا لا يعني أنها وهمية أو مُبالغًا فيها. إذ ليس ثمة طريقة صحيحة أو مثالية لعرضها، ومع ذلك فقد قدَّمت رؤى فريدة حول وظائف العقل. ولغة الطب هي اللغة الأكثر ملاءمة لوصف هذه الخصائص الثانوية، حيث يمكن للطبيب أنْ يصف مجرد الإحساس وحالة العقل للمريض بشكل غير مباشر، وكذلك يمكنه إضافة تعليقات وتفسيرات حكيمة مستندة إلى تعلُّمه المهني وخبرته في حالات ممَّاثلة.

أحد الأمثلة المبكرة على ذلك هو روبرت هوك[1]، منسق التجارب في

(1) فيلسوف طبيعي ومعماري وعالم موسوعي إنجليزي وعضو الجمعية الملكية (1635 ـ 1703).

الجمعية الملَكية، الذي تُسجل مذكراته آثارَ العديد من المواد المُخدِّرة التي استخدمها لأغراض متداخلة؛ وهي التحقق من الادعاءات الطبية، وإدارة ألمه ومزاجه، و«تنشيط» نفسه في أثناء اللقاءات الاجتماعية والأعمال في مقاهي القهوة التي يتردد عليها في فترة بعد الظهر، عند انتهاء الروتين الصباحي المتضمن أداء التجارب وصناعة الأدوات. إذ سجّل هوك انطباعاته حول الكحول والشوكولاتة والشاي والقهوة والتبغ. وفي 18 ديسمبر 1689، ألقى محاضرة في الجمعية الملَكية بعنوان «تقرير عن النبات المسمى بنغ»، أو القنب. وقال: «إنها نبتة معينة تنمو بكثرة في الهند، واستخدامها عامٌّ ومتكرر للغاية، على الرغم من أنَّ تأثيراتها غريبة، ومخيفة في البداية»:

> يُمضغ هذا المسحوق ويُبتلع، أو يُشرب مع مقدار قليل من الماء، ويأخذ قليلًا من الوقت قبل أنْ يؤثر في الذاكرة والفهم بالكامل. حيث يفقد المريض القدرةَ على فهم أو تذكُّر أيِّ شيء يراه أو يسمعه أو يفعله، وفي حالة النشوة، يصبح المريض غير قادر على الحديث بكلمة ذات معنى، ومع ذلك، يشعر بالبهجة ويضحك ويغني، ويتلفظ بكلمات غير منطقية وغير منسجمة، ولا يدرك ما يقول أو ما يفعل، ولا يشعر بالدوار أو السُكْر، بل يمشي ويرقص ويؤدي العديد من الحركات الغريبة. وبعد فترة قصيرة يغفو المريض وينام بعمق وهدوء، وعندما يستيقظ، يشعر بالانتعاش والجوع الشديدَين...

يبدأ هوك بإعلان أنَّ لديه حكاية تبدو خيالية، ويحرص على وضعها في سياقها الجغرافي، ولكن صوته السردي البعيد عن الشخصية يجعل مصدر القصة موضع شك. فمن الصعب تحديد هوية المريض أو المجرب والمراقب من النص. إذ لا يحدد المؤلف نفسَه على أنه أيٌّ منهما، على الرغم من أنه قد يكون أحدَهما أو كليهما.

اهتم هوك بإجراء تجارب على نفسه، وكتب في مذكراته عن المواد المُخدِّرة بصيغة المتكلم «تناولتُ الأمونيا وصبغة الأفيون مع الحليب لثلاث ليالٍ سابقة. نمتُ على نحوٍ جيد». ومع ذلك، فإنَّ مراقب هذه التجربة، هو صديقه روبرت نوكس، البحّار الذي أعطاه عينة من مستخلص النبات عندما التقيا في أحد المقاهي لندن في نوفمبر 1672. ونوكس بدوره لديه قصة مذهلة، فقد حُبس في سريلانكا لعدة سنوات قبل أنْ يهرب على متن سفينة مسروقة وكاد أنْ يموت بسبب الحُمى، ولم يُنقذه إلا اكتشافه أنَّ القنب يعمل «علاجًا ومضادًا للسموم الموجودة في المياه القذرة والملوثة».

وفقًا لمعيار «لا تؤمن بمجرد كلمة» الجديد، فإنَّ الشهادة التي قدَّمها هوك كانت تفتقر نوعًا ما إلى دليل علميّ. إذ إنَّ قصص المسافرين عن الأدوية الغريبة وعلاجات الأمراض المعجزة تُمثل تراثًا من الأدب الكلاسيكي، وتعيش في منطقة ضبابية بين التاريخ وعلم النبات والفولكلور، تمامًا كما في القرن السابع عشر. وقدِّم هوك للجمعية تفسيرًا معقولًا، لكنه لم يخضع للفحص إلا عن طريق التجربة الذاتية، والنتيجة التي ظهرت كانت شيئًا شبيهًا بالتاريخ الطبي لحالة مرضية؛ مجرد حكاية قصيرة بدلًا من بيانات، غير أنها موثَّقة ومؤيَّدة من شاهدٍ خبير.

لم تكن التجارب الفردية والجسدية ـ مثل تلك التي يستحضرها الأطباء عندما يطرحون السؤال: «كيف تشعر؟» ـ قادرةً على إنتاج نوع من النتائج المتكررة التي تُولِّدها مضخات التفريغ أو ميزان الحرارة التي استخدمتها الجمعية. وظهر بدلًا منها، معيار غير رسمي للتجربة، أطلق عليه المؤرخ

في العلوم سايمون شافر[1] اسم «ديكارتية الطبقة الراقية»، وهو افتراض أنَّ المراقبين المدَّربين أو المتعلمين كانوا قادرين على استخدام عقولهم لتقييم أدلة أجسادهم، أو، وفقًا للمصطلحات التي أرسْتها فلسفة جون لوك[2]، فصْل العقل عن المشاعر. وهكذا، أصبحت العادة ـ كما هو الحال لدى هوك ـ هي نقل هذه الأدلة بصيغة الطرف الثالث أو الضمير المبني للمجهول التي يُفضلها الأطباء، مع استخدام صيغة المتكلم الاعترافية في يومياته وسجلاته فقط.

أصبحَت لغة التقارير الشبيهة بتقارير الأطباء مع تطوُّر علم الصيدلة خلال القرن الثامن عشر متأصلة بقوة، والتجارب الذاتية على الأدوية شائعة بين الأطباء والباحثين، وذلك لأسباب أخلاقية وعملية؛ فالأطباء ملزَمون بمعالجة المرضى وفقًا لقسَم أبقراط، الذي ينصُّ على عدم إيذاء المرضى، أما التجارب عليهم فتُعد علامة من علامات الدجّال عديم الضمير.

ومن خلال تعامُل الأطباء مع الأدوية ذات النقاء غير المعروف، ومع فهمٍ جزئي لمبادئها الكيميائيّة الفعالة، سجلوا التجارب بقدْر المستطاع من خلال القياس الخارجي للعلامات الفيزيائية: النبض، درجة الحرارة، البراز، أو البول، وهم على دراية أنَّ استجابة الأفراد للأدوية يمكن أنْ تختلف على نحوٍ كبير، ولذلك وصفوا أنظمة علاجية وأدوية مصممة خصيصًا لكلِّ مريضٍ بحسب حالته، مقابل رسوم محددة. أما إعطاء

(1) مؤرخ للعلوم، عمل سابقًا أستاذًا لتاريخ وفلسفة العلوم في قسم التاريخ وفلسفة العلوم في جامعة كامبريدج، ومحررًا في المجلة البريطانية لتاريخ العلوم (مواليد 1955).
(2) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي (1632 ـ 1704).

الأدوية فهي مهنة الصيادلة، وهي دور ذي مكانة أقل، وممَّارسو هذه المهنة هم مَن يتعاملون مع الجرعات القياسية بشكل أكبر.

كشَف تطوُّر الملاحظة الفيزيائية والقياس أنَّ العقل والجسد يؤثّر كل منهما في الآخر على نحوٍ غامض، وأنَّ حتى الظواهر المختبرة مباشرة يمكن إثبات خطئها. وأحد الأمثلة الشهيرة على ذلك هو اللجنة التي أنشأتْها الأكاديميات الملَكية الفرنسية للعلوم والطب في عام 1784، تحت رعاية بنجامين فرانكلين، للتحقيق في نظرية فرانز أنطون مسمر[1] حول المغناطيسية الحيوانية[2] أو الإغواء الحيواني. وأظهرَت سلسلة من التجارب العمياء، التي تم فيها تبادل الأشياء المغناطيسية وغير المغناطيسية دون علم المشاركين، أنَّ تأثيرات «المغناطيسية الحيوانية» الدرامية من الشلل إلى الحركات الالتوائية، وحتى الشفاء الذاتي، يمكن أنْ تظهر حتى عندما لا تطبق أيّ مغناطيسية.

ظهر هذا التأثير الذي نُطلِق عليه الآن اسم «تأثير الدواء الوهمي»، على بعض أعضاء اللجنة، الذين شعروا بخفقات وإحساسات كهربائية، إلا أنها كانت بدرجة أقل من المؤمنين الحقيقيين بالنظرية. وتوصل تقرير اللجنة إلى استنتاج: أنه لا يوجد دليل على وجود سائل المغناطيسية الحيوانية، وأنَّ الخيال وحدَه بدون مساعدة المغناطيسية يمكن أنْ يُسبب تشنجات، ولكن المغناطيسية بدون الخيال لا يمكن أنْ تُنتج شيئًا. ومن هنا، فإنَّ الدرس

(1) طبيب ألماني مهتم بعلم الفلك (1734 ـ 1815).

(2) نظرية علمية مبكرة وضعها الطبيب الألماني فرانز مسمر في القرن الثامن عشر بشأن ما ادَّعى أنه قوة طبيعية خفية تمتلكها جميع الكائنات الحية، وأنَّ هذه القوة يمكن أنْ تُسبب الشفاء.

الذي يمكن استخلاصه للذين يجرون التجارب على أنفسهم، هو أنَّ اليقظة الزائدة لإحساسات الشخص الذاتية قد تفسر بشكل مفرط أدلة الجسم أو تولّد أعراضًا مستندة إلى التوقعات ليس إلا. وكما ذكر في التقرير النهائي «فإنَّ الأولوية الأهم التي يجب على المشاركين في التجربة الانتباه إليها هي عدم ملاحظة ما يحدُث داخل أجسامهم على نحوٍ دقيق جدًا».

أصبحت الذاتية عند الجيل التالي، هي الحدود الجديدة للمعرفة العلمية. فقد ظهر هذا الميل الداخلي بفضل فلسفة إيمانويل كانط[1]، الذي قدَّم في أطروحته في عام 1781 «نقد العقل الخالص»، تمييزًا أساسيًا بين العالَم «المظاهر» (الفينومينا) ـ الواقع كما يُكشف عنه من خلال الإحساس والإدراك ـ وعالم «الأشياء في ذاتها» (النومينا) من الأفكار والمقولات، شاملًا (الربَّ)، الذي كان موجودًا قبل عن التجربة البشرية وعلى نحوٍ مستقل. ووفقًا لتمييز كانط، فالعالم لا يُعد كما يُستقبل عبر الحواس انعكاسًا دقيقًا لواقع خارجي؛ بل ما شكلته الحواس البشرية، ومحدودًا بمعايير العقل البشري.

عُززت هذه النظرية على نحوٍ مثير للدهشة بسلسلة من تجارب الأدوية التي أجراها الكيميائي الشاب همفري ديفي، والتي يشار إليها عادة كمعيار لممَّارسة التجارب على النفس في عصر سيغموند فرويد. ففي عام 1799، عُيّن ديفي وهو في العقد الثالث من عمره، مساعدًا كيميائيًا في المعهد الطبي للهواء المضغوط في بريستول، وهو مشروع تجريبيّ بدأه الطبيب الرائد توماس بيدوز[2] لتخليق الغازات واختبارها في علاج أمراض

(1) فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر (1724 ـ 1804).

(2) طبيب وكاتب علمي إنجليزي (1760 ـ 1808).

الرئة. أحد المركبات الأولى التي صنعها ديفي في المختبر هو أوكسيد النيتروز، وهو غاز اكتُشف حديثًا يُعتقد أنه سامٌّ جدًا، واشتبه ديفي في أنَّ هذا الاعتقاد يعود إلى الخلط مع مُركب مرتبط به، وهو أوكسيد النيتريك، وهو غاز أحمر بُنّي يُسبِّب تهيجًا قويًا. وفي أبريل 1799، كتب إلى ديفيز جيدي[1]، الذي كان صديقًا له ولبيدوز، «لقد اكتشفتُ شيئًا يوم أمس يثبت مدى ضرورة تكرار التجارب. وهو أنَّ أوكسيد النتروجين الغازي (أوكسيد النيتروز) يمكن استنشاقه بسهولة عندما يكون نقيًا تمامًا».

تحمسَ ديفي وبيدوز لاكتشاف مجال جديد في الأبحاث، ولذلك قاما بتسخين بلورات نترات الأمونيوم في قارورة تقطير وجمع الغاز الناتج في حاوية الهواء، ومن خلالها استنشق ديفي بواسطة أنبوب التنفس. وحينما ملأ رئتَيه بالغاز، لاحَظ إحساسًا غير متوقَّع «شعور ممتع للغاية بالإثارة في الصدر والأطراف». ومع استمراره «أصبحَت الأشياء من حولي باهرةً، وسمْعي أكثر حدة»، وبلغَت الأحاسيس الذروة حيث «أصبح شعوري بالقوة العضلية أكبر، وأخيرًا نزعة لا تقاوَم نحو العمل». أما بيدوز فقد سجل أنَّ ديفي قفز بعنف في المختبر صائحًا من الفرح. أما هو فقد استعاد ذكريات غامضة عن لحظات النشوة هذه، ولولا الملاحظات المكتوبة التي اكتشفها صباح اليوم التالي، «كان يجب أنْ أشك في حقيقتها».

لم يكن ثمة شك في السبب المادي لنوبات المتعة هذه، فبعكس سوائل الحيوانات التخمينية للدكتور مسمر، فإنَّ أوكسيد النيتروز ـ الذي عزله جوزيف بريستلي[2] لأول مرة، وأطلق عليه اسم «غاز النيتروز الخالي

(1) مهندس وكاتب وسياسي (1767 ـ 1839).
(2) عالم إنجليزي وعضو الجمعية الملكية (1733 ـ 1804).

من الفلوجستون» ـ كان مادة كيميائية ذات تركيب معروف، ويمكن تكرار التجربة والتحقق منها في أيِّ مختبر منزلي. ومع ذلك، لا يمكن معرفة آثار الغاز إلا بشهادة الشخص الأول، وديفي كان سريعًا في الحصول على مثل هذه الشهادات، وفي وضع مثالي للقيام بذلك؛ إذ كان المعهد الطبي للهواء المضغوط مركزًا للكُتاب والفلاسفة والأطباء ذوي التفكير الحُر في بريستول، وخلال صيف عام 1799 جاء العشرات منهم لزيارة المعهد وتجربة الغاز الذي وصفه الشاعر روبرت ساوذي[1]، أول أصدقائه الذين قدَّمه لهم ديفي «إنه غاز اللذة الأسطوري المعجز»، وكتب لأخيه بعد تعاطي جرعته الأولى، أنَّ «ديفي اخترع بالفعل متعة جديدة ليس لها اسم». وكان استكشاف هذا الغاز يمثل دعوة وتحديًا لأذكى عقول بريستول، وكانوا يتطلعون بشغف لقبوله.

أدرك ديفي مع تقدُّم التجارب، أنه يحتاج إلى «لغة جديدة للتعبير عن الإحساس»، ووصف تأثيرات الغاز. وأصبح السؤال القياسي في وصف الحالة الطبية هو «كيف تشعر؟» من ضمن اللغة الجديدة التي طوَّرها ديفي مُختبرةً إلى أقصى حدودها، من خلال وصف مشاعر متنوعة ومتلاحقة شملت الدوخة والخدر والإحساس بالحماسة الذهنية والتجلي الكوني المتدفق الذي يتحوَّل بسرعة إلى عدم التماسُك، والضحك الهستيري المتكرر بدون سبب واضح.

أجرى ديفي وبيدوز بعدة تجارب على مرضى يعانون من أمراض الرئة، وكانت هذه التجارب تهدف إلى تحسين التنفس وتخفيف الأعراض. وفي إحدى هذه التجارب، سأل ديفي أحد المرضى عن شعوره بعد استنشاق

---

(1) شاعر إنجليزي من المدرسة الرومانسية (1774 ـ 1843).

الغاز، فأجاب المريض: «لا أعرف، ولكنه غريبٌ جدًا». وفي تجربة أخرى على مريض آخر، سأل ديفي المريض عن شعوره، فأجاب بغموض، ولكن بطريقة توحي ببعض الإحساس الإيجابي، قائلًا: «أشعر وكأنني صوت قيثارة!». وفي المساء، كانا يُجريان مزيدًا من التجارب على متطوعين أصحاء لدراسة تأثيرات الغازات المختلفة على الجسم والعقل.

عندما يُجري ديفي التفاعل الكيميائي ويقدم حقيبة حريرية خضراء تحتوي على الغاز للمشاركين الجدد في التجربة، يبدأ في بعض الأحيان بإعطائهم جرعة من الهواء العادي، وذلك لاستبعاد أيِّ عوامل تتعلق بالإيحاءات أو التوقعات. وبعد أنْ يتعافى المشاركون من استنشاق الغاز، يطلب منهم ديفي كتابة وصف موجز عن تجربتهم. وكتب أحدهم، وهو الجرّاح توماس هاميك، بعد تعرُّضه لتأثير الغاز: «يجب علينا إما اختراع مصطلحات جديدة للتعبير عن هذه الأحاسيس الجديدة والغريبة، أو إضافة أفكار جديدة إلى الأفكار القديمة، لكي نتمكن من التواصل مع بعضنا بعضًا بوضوح لوصف عمليات هذا الغاز الاستثنائي».

يُعد أوكسيد النيتروز عند ديفي ومجموعته وسيلة أنهت التمييز بين العقل والمشاعر، فهو يحفزهما معًا بالدرجة نفسها، ويقدم تجربة متجسدة بشكل عميق، يمكن قياسها خارجيًا ـ على سبيل المثال، كمية الغاز التي استُنشقت، أو التي حلّت في مجرى الدم ـ فير أنها ليست مقتصرة على هذه القياسات فحسب. فقد طرحت التجربة أسئلة عميقة حول العلاقة بين العقل والجسد، مثل كيف يمكن أنْ يؤثر استنشاق مادة كيميائيّة مُعدة اصطناعيًا، ليس في التنفس والنبض فحسب، وإنما في المشاعر والشعور بالدهشة والخيال؟

لقد ربط تقرير ديفي الرائد عن التجارب، الذي يحمل عنوان *أبحاث كيميائيّة وفلسفية وفي مقدمتها أوكسيد النيتروز واستنشاقه* (1800)، بين الجسد والعقل، والفكر والعاطفة مع هيكل يتصاعد من الجوانب الكيميائية، ثم الطبية، ثم العاطفية المتصاعدة. فقد احتوت مقدمة التقرير على وصف لكيمياء أوكسيد النيتروز وطريقة تحضيره، ثم تضمَّن القسم التالي شرحًا مفصلًا لتأثيره الفسيولوجي. واختتم التقرير بذكر روايات شخصية لأكثر من ثلاثين متطوعًا شاركوا في التجارب.

أسهَم ديفي بتقريره الشخصي، بعد استنشاق أكبر كمية ممكنة من الغاز بإغلاق نفسه في صندوق محكم لمدة ساعة وربع، ممَّا مكّنه من التعبير بكامل الحرية عن مشاعره:

> كنتُ في الصندوق أصغي إلى كلِّ الأصوات وأميّز بينها، ومدركًا تمامًا لوضعي. شيئًا فشيئًا، ومع تزايُد المتعة واللذة التي أحسستُ بها، فقدتُ كل اتصال بالأشياء الخارجية المحيطة؛ وتوالت صور واضحة ومرئية في ذهني بسرعة، وارتبطت هذه الصور بكلمات على نحوٍ ما أنتجت إحساسات جديدة تمامًا لا أعرفها من قبل. كنتُ أعيش في عالم من الأفكار المرتبطة والمعدلة حديثًا. كوَّنتُ نظريات؛ وتخيَّلتُ أنني أحرزتُ اكتشافات... عندما استعدتُ وعيي وإدراكي الطبيعي مرة أخرى، شعرتُ بميل لمشاركة الاكتشافات التي حققتها في أثناء التجربة. حاولتُ أنْ أسترجع الأفكار، لكنها كانت ضعيفة وغير واضحة. لكن مجموعة من المصطلحات عرضَت نفسها أمامي. *لا شيء موجود سوى الأفكار! فالكون مكّون من الانطباعات، والأفكار، والمتعة، والألم!*

دفع طموح ديفي العلمي إلى إجراء تجاربه إلى الحد الأقصى، وتجربة

آثار المُخدِّر في أبعد حدودها. ولهذا، كان يتعين عليه الإعراض عن المعايير الموضوعية للتقارير الطبية، لصالح شهادة شخصية تمزج بين دور المراقب والمشارك في التجربة. وقد طوّر ما أسماه «لغة الشعور» بالتوازي مع تطوُّرها لدى الشعراء الشباب من المتطوعين في تجاربه، روبرت ساوذي، وصاموئيل تايلور كولريدج[1]، اللذَين كانا يسعيان أيضًا إلى ابتكار لغة جديدة وتأملية متعمقة لتوصيف مشاعر وحالات ذهنية لم يسبق وصفها.

طمح ديفي أنْ يكون بطلًا علميًا، حيث قارن نفسَه في مذكرات كتبها في فترة شبابه بالسير إسحاق نيوتن، غير أنَّ نسخته من العلم اكتسبَت خصائص العصر الرومانسي الناشئ وأنبل ميزة فيها؛ وهي العبقرية. ومن الناحية النظرية، لم يكن ثمة مكان للعبقرية في العلم التجريبي، حيث أنَّ البيانات هنا متكررة ومنفصلة عن الشخصية الفردية، ولكن التجارب الذاتية التي أجراها ديفي أسفرت عن نتائج لا يمكن فصلها عن عقله المذهل.

وجد هذا المنهج المعرفي مكانًا له في العلوم الألمانية الجديدة، مثل دراسات يوهان

فون غوته[2] حول الخصائص الذاتية لإدراك الألوان، ولا سيما النظريات الناشئة للفلسفة الطبيعة[3] التي هدفت إلى تجاوز السطح الظاهر للعالم المادي للوصول إلى التيارات والتقلبات غير المرئية التي أنتجتْه. وادَّعى أنصار هذه النظرية أنَّ الوعي البشري والعالم الطبيعي

(1) شاعر وناقد وفيلسوف إنجليزي (1772 ـ 1834).
(2) شاعر وعالِم طبيعي ألماني (1794 ـ 1832).
(3) باللغة الألمانية: Naturphilosophie.

كانا كالمرايا المتقابلة، وأنَّ المراقب يُعد جزءًا أساسيًا من الظواهر التي يدرسونها. ووضّح هذا المبدأ بجلاءٍ الباحثون في الكهرباء، مثل ألكساندر فون همبولت[1]، والكيميائيّ الشاب الجريء يوهان فيلهلم ريتر[2]، اللذَين نقلا اختبار التيار الكهربائي على الحيوانات والمتطوعين إلى نفسيْهما.

كان ريتر، مثل ديفي، من أوائل المجربين لبطارية عمود فلطائي، وهي سلسلة من الخلايا الكهربائية منسقة لتوفير شحنة قوية ثابتة. وأحرز ريتر تقدُّمًا في تجربته في جعل أرجُل الضفادع المجزأة تتقلص من خلال إغلاق دائرة كهربائية مؤلفة من 100 بطارية باستخدام جسده. وسجل الآثار والأحاسيس التي كان يشعر بها عند تمرير التيار الكهربائي خلال مناطق مختلفة من جسده. واكتشف أنه عند تمرير التيار مباشرة على عينَيه يستطيع إدراك ألوان مختلفة، كما اكتشف أنه عند تمريره على آذانه كان يسمع أصواتًا مختلفة، وذكر ريتر: «بما أنه يمكن إجراء هذه التجارب فقط على النفس، فإنَّ هذه التجارب مؤلمة إلى حدٍّ ما»، ومع ذلك، استمر في التجارب حتى حقق آثارًا عاطفية متصاعدة:

> أُبقي عينَيّ متجهتَين نحو القطب الموجب لعمود كهربائي قوي يتكون من 100 أو 150 أو 200 بطارية، ثم أدهن يدي التي ستغلق الدائرة جيدًا بمحلول ملح أو كلوريد الأمونيوم وأغطيها بشرائح معدنية. وبعد ذلك أغلق الدائرة، أولًا مع عدد قليل من البطاريات، ثم أزيد العدد تدريجيًا حتى أنتهي بإدخال كامل بطاريات العمود في الدائرة. في البداية كان إدراكي للون أزرق كالعادة. يزداد هذا

(1) مؤلف موسوعي، وعالم جغرافي، وعالم تاريخ طبيعي، ومستكشف ألماني (1769 ـ 1859).

(2) عالم كيميائي وفيزيائي ألماني (1776 ـ 1810).

اللون قوة كلما زادت كمية التيار المارِّ في عيني. إلا أنه في نهاية الأمر يستقر هذا اللون الأزرق ويصبح أكثر قتامة، ثم يبدأ لون أخضر مختلط بالظهور، على الرغم من أنه لم يكن أخضرَ واضحًا مثل اللون الأزرق الأول. ثم تحوَّل هذا اللون إلى أصفر، وهكذا، حتى أصبح في النهاية أحمر زاهيًا شديد الكثافة لم أرَ مثله من قبل، حتى عند وضع القطب السالب للبطارية.

يُعد ريتر مثل نيوتن الذي أجرى تجارب على نفسه باستخدام إبرته الخاصة، إذ أجرى تجارب ذاتية وسجَّل رؤى ذاتية. ورغم أنَّ مثل هذه التجارب والرؤى كان من الممكن تأكيدها نظريًا من باحثين آخرين، فإنَّ ديفي وريتر يمثلان نوعًا جديدًا من الباحثين، فهما ميكانيكيان دقيقان في تجاربهما، وعبقريان ملهمان في اكتشافاتهما، وكانا على استعداد لتحمُّل أيِّ مخاطر من أجل الوصول إلى أقصى حدود الاكتشافات العلمية. أما فرويد، فقد كان في شبابه طبيبًا مفتونًا بالجيل الرومانسي الذي يمثله غوته وهمبولت وريتر، وورث من هؤلاء المفكرين اقتناعًا بأنَّ العلم يتطلب أكثر من مجرد الملاحظة الدقيقة للوظائف الفسيولوجية، وهو الأمر الذي حدد مسار حياته المهنية حتى ذلك الحين. وبعد أنْ قضى فرويد عدة سنوات في دراسة تشريح أعصاب وحبل شوكي لسمك الجَلَكَيات والسلطعون النهري، كانت أطروحته «عن الكوكا» محاولة منه، ليس لتحقيق النجاح في مهنته بوصفه طبيبًا فحسب، وإنما لتسجيل تجربته الذاتية وكتابتها في عمله أيضًا.

* * *

مثلت بدايات القرن التاسع عشر أيضًا عصرًا ذهبيًا لاكتشاف المُخدِّر.

ففي عام 1803؛ أيْ بعد أربع سنوات من تجارب ديفي على أوكسيد النيتروز، بدأ صيدليّ مبتدئ ألماني يُدعى فريدريك سيرتونر[1] تجاربه على تركيز الأفيون المقطرن، حيث حاول تقليله إلى مكوناته الحمضية. ولاحظ سيرتونر، مثلما فعل آخرون، أنَّ عينات الأفيون تختلف في فعاليتها، واشتبه في أنَّ الراتِينَج اللزج ينبغي أنْ يحتوي على مركبات فعالة بتراكيز مختلفة، وقد استغرقَت أبحاثه سنوات عديدة، وأنتجَت عدة مواد غامضة، اختبرها على نفسه وعلى الآخرين.

وانتهى به المطاف في عام 1817، إلى عزل مُركب شكَّلَ بلوراتٍ واضحة قابلة للذوبان في الحمض، على الرغم من أنها قابلة للذوبان في الماء بشكل طفيف فقط. فقد استعان بثلاثة من جيرانه، وهم أولاد في سنِّ المراهقة، ليشربوا معه محلولًا من البلورات، وكانوا يزيدون الجرعة بحذَر كلَّ مرة بمقدار نصف حبة، بيد أن المُخدِّر كان أقوى بكثير ممَّا كان يتوقعه. إذ تعرَّض هو وزملاؤه لنوبات قوية من القيء وسقطوا في غيبوبة شديدة، لم يُنعَشوا منها إلا بشرب الخَل القوي. وقد أطلق سيرتونر على مستخلصه اسم المورفين، نسبة إلى مورفيوس، إله النوم في الأساطير القديمة.

وتُعد المرة الأولى التي تُعزَل فيها مادة كيميائيّة نقية وغير معروفة سابقًا من نبات، وليس مجرد مستخلص أو شراب كحال معظم المستخلصات النباتية آنذاك. وفي هذه العملية، أجرى سيرتونر التجربة على نفسه في مركز إجراءات العمل، وقدَّم العديد من الملاحظات التي أرست الأساس لعزل المزيد من المستخلصات النباتية الصيدلانية. وبعد أنْ أثبت بصعوبة

---

(1) صيدلي ألماني (1783 ـ 1841).

على مدار عقد من الزمن أنَّ المكونات النشطة التي حصل عليها ليست أحماضًا، كما توقع هو وغيره، صنَّفها على أنها «قلويات نباتية»، والتي أصبحَت تُعرف فيما بعد باسم أشباه قلويات. كما أثبت أنَّ التبلور هو أفضل طريقة لعزل هذه المواد الكيميائية، وبمجرد عزلها، يمكن الحفاظ عليها خاليةً من التلوث من المواد الأخرى.

شكَّلت هذه المبادئ أساسًا لعزل الكافيين في عام 1819 ـ على يد الكيميائيِّ الشاب فريدليب فرديناند رونجه[1]، كنتيجة للقائه مع الشاعر غوته البالغ من العمر 70 عامًا في مدينة يينا ـ وعزل النيكوتين من التبغ في عام 1828. وفي عام 1832، عُزل مستحضر شبه قلوي منفصل يسمى الكودين من الأفيون، وفي عام 1842، عُزل الثيوبرومين من الشوكولاتة. وقد أدت هذه الاكتشافات إلى تحويل الكيمياء، وخاصة في ألمانيا، إلى علم صناعي يحدد مركباتٍ جديدة مشتقة من النباتات، ويوفرها على نطاق واسع لسوق صيدلاني ضخم.

أسهمَت التجارب الذاتية باستخدام المواد المُخدِّرة أيضًا في دراسة العقل الناشئة، وغذَّت جذور ما أصبح فيما بعد علم النفس والعلوم العصبية. ففي عام 1819، بدأ عالِم وظائف الأعضاء التشيكي جان بوركيني أبحاثه الشهيرة حول الصور داخل العين أو «صور بوركيني»، حيث وسع نطاق التجارب الذاتية التي قام بها نيوتن وريتر برسم خرائط لظواهر الرؤية الذاتية. بدأ بوركيني أبحاثه باستدعاء لعبة من طفولته، حيث كان يقف مواجهًا للشمس مع إغماض عينَيه ويمرر أصابعه المفرودة أمامها

(1) كيميائي وأستاذ جامعي ألماني (1794 ـ 1867).

لتوليد ألوان متوهجة. ثم تولى بوركيني حصْر وتصنيف الصور اللاحقة، والأطياف، والدوائر، والهالات والبقع العمياء التي يمكن إنتاجها بأساليب ممَّاثلة، وربط كل منها بأسبابه الفيزيائية في الانعكاسات من القرنية والعدسة والأوعية الدموية في العين.

ابتكر بوركيني خلال مسيرته المهنية الطويلة، حيث أصبح أستاذًا لأول قسم جامعيّ لعلم وظائف الأعضاء في العالم في بريسلاو، مصطلحَ «البروتوبلازما»، ووصف الخلايا الحيوانية ونواتها لأول مرة، وحدَّد الغدد المعوية وقنوات التعرق، وشهد تلقيح الحيوانات المنوية للبويضة. وأدت دراساته للمنطقة الرمادية غير الواضحة بين التأثيرات القابلة للملاحظة الفيزيائية والذاتية، إلى إثارة اهتمامه بالمواد المُخدِّرة والنباتات المؤثرة في العقل. فقد لاحظ أنَّ نبات البيلادونا أحدثَ تغييرات فيزيائية في العين، حينما تعاطى هذا النبات، واستخدم أنبوب مشاهدة خاصًّا لتكبير التشوهات البصرية والأنماط اللونية التي تشكلَت عندما أرخى المُخدِّر حدقة العين، وشتَّتَت العدسة الضوء داخل العين.

وهو بهذا العمل، يُعد أول مَن سجل آثار نبات الديجيتاليس على البصر، ورسم الأنماط التي رقصَت أمام عينَيه بعد شرب مستحلب من أوراق هذا النبات السامِّ. وذات يوم، عانى من اضطراب عقليٍّ عميق، عندما أكل ثلاثة من جوز الطِّيب في برلين، وذهب للتجول في المسرح الملَكي:

> كانت المسافة طويلة، واعتقدتُ هذه المرة أنها *بلا نهاية*. حركاتي تبدو مناسبة تمامًا، غير أنها ضاعت للحظاتٍ مع صور الأحلام التي اضطررتُ للتخلّص منها بجهد كبير من أجل الاستمرار في المشي. أدَّت قدماي واجبهما، ولأنّني كنت مضطرًا للسير على طريق مستقيم،

لم يكن هناك خطر التيه. تقدمتُ في هذا الحلم، لأنني إذا حاولت تحديد مكاني، فلن أستطيع حتى من معرفة تقاطعات الشوارع. بدا الوقت طويلًا. وصلتُ إلى الجانب المقابل من المكان الذي كنتُ ذاهبًا إليه. خلال هذا الوقت تصارعَت الأحلام والنشاط البدني مع بعضها بعضًا.

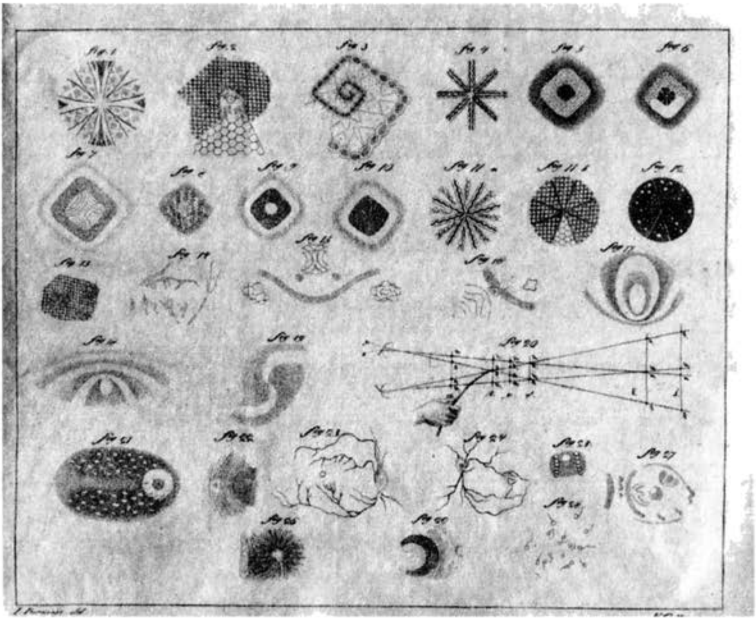

خريطة جان بوركيني للآثار البصرية الذاتية، من أطروحته للدكتوراه عام 1823.

أتبَع بوركيني هذه بتجربة أخرى، حيث أذابَ 8 غرامات من جوزة الطيب في البراندي وشرب المحلول. وفي هذه المرة كان التأثير مختلفًا تمامًا، إذ شعر حينها بالدوار، وانقبضَت عضلاته تلقائيًا، وأصبحت قدرته على المشي الطويل مستحيلة. بدا أنَّ أحد المواد غيّر من فعالية الآخر، فقد ظهر أنَّ زيوت جوزة الطيب تعمل على نحوٍ مختلف على الوظائف الحركية عندما تُذاب في الكحول. واكتشف بوركيني أنَّ تفاعلات المواد

المُخدِّرة معقدة وغير قابلة للتنبؤ، واعتقد أنها تحمل مفتاح العديد من العمليات الفسيولوجية التي كانت غير قابلة للفهم. فهو بخلاف ديفي وريتر، كان يهدف إلى القضاء على التأملات الشخصية في تجاربه الذاتية، وتحويلها حيثما أمكن إلى بيانات خارجية وقابلة للقياس. كتب موضحًا: «إنه في الوضع المثالي، يجب إجراء تجارب من هذا النوع على أعداد كبيرة من الناس، لتوليد استجابة متوسطة تُقلل من الذاتية الفردية والتباين».

***

وصية بوركيني بوجوب أنْ تصبح دراسة المواد المُخدِّرة أكثر موضوعية وقائمة على البيانات، لاقت قبولًا واسعًا في الجيل التالي، غير أنَّ الاتجاه المعاكس كان أيضًا في ازدياد، حيث امتدت أدبيات التجارب الذاتية خارج حدود العلم. ومثلما استخدم همفري ديفي لغة الشعراء الرومانسيين «لغة الشعور» لأغراض علمية، معتمدًا على الجوانب الجمالية والعاطفية المتصاعدة لتجربة المُخدِّر، فإنَّ الأصوات الأدبية الرومانسية استخدَمت الآن لغة العلوم والطب لأغراضها الخاصة.

أكثر الأشخاص تأثيرًا في هذا الصدد هو توماس دي كوينسي[1]، المُقَرَّب من صاموئيل تايلور كولريدج، الذي كوَّن صداقة حميمة مع همفري ديفي بعد مشاركته في تجارب الأخير مع أوكسيد النيتروز في عام 1799. أصبح دي كوينسي في سنِّ المراهقة معاوِنًا لكولريدج وويليام وردزورث[2]، وسكرتيرًا لكولريدج في وقت كان يعتمد بشدة على

(1) كاتب إنجليزي (1785 ـ 1859).

(2) شاعر رومانسي إنجليزي (1770 ـ 1850).

الأفيون، وكان شاهدًا على حالات متكررة من ملذات مرشدُه وانهياراته التي أخفاها عن الرأي العام. وفي عام 1820، واجه توماس دي كوينسي نفسه الذي كان مولعًا بالأفيون ملاحقاتِ المحررين والدائنين الذين يطاردونه بسبب كتابة مقالات غير مكتملة، وسداد فواتير غير مدفوعة، وقدَّم وجهة نظره الشخصية حول هذا الموضوع في *مجلة لندن* الجديدة والمموَّلة بسخاء. كانت هذه الخطوة الأخيرة لمساعدة دي كوينسي على مواجهة صعوبات مهنية ومالية في حياته. ومع ذلك، فإنَّ الكتاب الذي نتج عنها، وهو *اعترافات متعاطي أفيون إنجليزيٍّ*[1]، لاقى نجاحًا مثيرًا للدهشة، وأبقى دي كوينسي على قيد الحياة المهنية والمالية للخمسين عامًا التالية.

عندما اُقترح إصدار مجلد من تقاريره التجريبية الشخصية، أصرَّ يوهان ريتر على «ألّا تكون مجرد مجموعة من كتاباتي؛ بل نوعًا من السيرة الذاتية الأدبية، ربما تهم أيَّ شخص يريد ـ أو يجب أنْ يثقف نفسه ليصبح عالِم فيزياء ومُجربًا». تبنّى توماس دي كوينسي نهجًا ممَّاثلًا للسيرة الذاتية في وصف التأثيرات النفسية والجسدية لتجربته مع الأفيون، إذ أصرَّ على أنه يجب فهم متعاطي الأفيون على نحوٍ جيد قبل فهم التأثيرات النفسية والجسدية للمُخدِّر. وقُدمت «اعترافاته» نفسها بوصفها تاريخًا شخصيًا ملاحَظًا بدقة، ومقالًا من خبير طبي فريد من نوعه. فقد كتب في صفحة الكتاب الافتتاحية: «عن كلِّ ما كُتب حتى الآن حول موضوع الأفيون،

(1) سيرة ذاتية كتبها توماس دي كوينسي عام 1821، عن إدمانه على الأفيون وتأثيره في حياته. وكان هذا الكتاب أول عمل كبير نشره وأكسبه شهرة كبيرة. وترجم نسخة إلى العربية عمار كاظم محمد، وصدرت عن دراين للكتب، عام 2019.

ليس لدي سوى نقد واحد حازم لأصدره ـ كذب! كذب! كذب!». شملت روايته قصة حياته بأكملها، لكنها كانت أيضًا:

مذهب الكنيسة الحقيقية في موضوع الأفيون، التي أُقرَّ بأنني العضو الوحيد فيها، من الألف إلى الياء، بيد أنه من المهم أنْ نتذكر أنني أتحدث من موقع تجربة شخصية كبيرة وعميقة، في حين أنَّ معظم الكتاب غير العلميين الذين تناولوا الأفيون بشكل ما، وحتى أولئك الذين كتبوا صراحة عن المواد الطبية، يُعبِّرون بوضوح عن رعبهم منه، وأنَّ معرفتهم التجريبية بتأثيره لا وجودَ لها على الإطلاق.

وصف دي كوينسي ما سوف يشخصه فرويد في وقت لاحق باسم «الإدمان» ـ ملذات وآلام الشهوة والتحمل والانسحاب ـ أكثر تقدُّمًا بكثير من معظم الأطباء في عصره. ومع ذلك، فإنَّ ادِّعاءه السلطة العلمية كان أيضًا ساخرًا، إذ كان ردًا مستهزئًا على ادعاءات المعرفة الكلية بالطب.

كان الأفيون عقارًا مألوفًا، ليس للأطباء فحسب، بل للجمهور عمومًا، إذ يُعد حينئذٍ أفضل مُسكن متاح، ويُباع بحُرية في الأسواق والمحلات والصيدليات بوصفه علاجًا شاملًا لكل شيء من الصداع إلى الروماتيزم والإسهال وآلام الحيض. ودي كوينسي في إعادة تصوُّره للأفيون كمصدر للمتع والآلام الشديدة، كان يلعب جزئيًا لعبة بايرونية[1]، حيث يعلن نفسه بطلًا للرذيلة الجديدة، ويثير سخط المتزمتين ويُسعِد العقول الضجرة. وظهر ادعاؤه للسلطة العلمية بالروح نفسها، فحين يرفضه الأطباء بوصفه غير مؤهل، يجيبهم بشعار العلم نفسه «لا تؤمن بمجرد كلمة!».

(1) نسبة إلى الشاعر الرومانسي جورج غوردون بايرون (1788 ـ 1824)، الذي كان يتمرد على القيم الاجتماعية والأخلاقية التقليدية في شعره وكتاباته.

تكمن أصالة دي كوينسي وسر تأثيره الهائل في العقود التالية، في الطريقة التي استخدم بها المُخدِّر بوصفه آلية لاستكشاف الأماكن الخفية في عقله:

> بدا فجأة أنَّ مسرحًا قد افتُتح وأُضيء داخل دماغي، يقدم عروضًا ليلية أكثر جمالًا من روعة الأرض... «بدا لي كل ليلة أنني أنزل، ليس مجازيًا، بل حرفيًا، إلى هاويات وغياهب ظلام لا أرى فيها ضوء النور، أعماق تحت الأعماق، بدا أنه من المستحيل أنْ أعود إلى الصعود مرة أخرى.

لم يستخرج دي كوينسي من هذه الأعماق الخفية، مجرد تفاصيل تكمن خارج نطاق الذاكرة الواعية، بل عوالم كاملة لم يشتبه العقل الرشيد بوجودها. ولقد دافع الفلاسفة في القرن الثامن عشر عن قوى العقل غير العقلانية، غير أنَّ دي كوينسي قرأ عميقًا في التقليد المضاد الحديث الذي كان في ألمانيا على وجه الخصوص، الذي أشار إلى وجود عقل خفي أو «لا واعٍ» بأعماق وقوة رهيبة. وربط بعض الفلاسفة هذا العالم الداخلي المدفون بالطبيعة، المحيط اللامتناهي الذي تسبح فيه إنسانية تافهة، بينما رأى آخرون هذا العالم الداخلي في العملية الإبداعية، حيث يبدو الإلهام والفن متدفقَين بتكامُل دون جهد أو إرادة.

يعتقد فريدريك شيلر[1]، الذي قرأ دي كوينسي أعماله بنَهم، ومارس تأثيرًا قويًا على كلٍّ من فرويد وكارل يونغ[2]، أنَّ الشِّعر الأصيل يجب ألا يتوسطه العقل الواعي والعقلاني والمُجَمِّل. كما ادَّعى يوهان فولفغانغ

(1) شاعر ومسرحي كلاسيكي وفيلسوف ومؤرخ ألماني (1759 ـ 1805).
(2) عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي (1875 ـ 1961).

فون غوته أنه كتب روايته *آلام فرتر* (1774) بينما كان في حالة ذهول أو نشوة، «فاقدًا للوعي عمليًا».

يصف دي كوينسي في *اعترافاته* كيف استخدم الأفيون لدخول هذا المجال الغامض برغبته، وإعادة كتابة قصة حياته من جديد من الأجزاء التي استرجعها من أعماقها. فهو من خلال تخيلاته تحت تأثير المواد المُخدِّرة، انفتح عقله على متاهة من الغرف السرية والأبواب والممرات الشاسعة والغامضة والسامية مثل الأقبية والأبراج المحصنة في رسومات بيرانيزي[1] التي وصفها كولريدج له ذات مرة.

بدت مشاهد الأحلام الأسطورية في مسرحه العقلي تحت تأثير الأفيون تُنسَج مع مشاهد منسية من الطفولة، ومناظر الأحلام الخانقة، وصور قصيرة من حياة اليقظة، تُلمح من سطح مقطورة أو من بين حشد فوضوي في منطقة كوفنت غاردن[2] ليلة السبت. وقدَّمَت هذه الرواية تصويرًا حيًا لا مثيلَ له لحياة العقل وقوة المواد المُخدِّرة، في حين أُهمل الطب والعلم إلى حدٍّ كبير.

في الطبعة المنقحة والموسعة من كتاب *الاعترافات* في عام 1856، لم يعُد دي كوينسي العضوَ الوحيد في الكنيسة الحقيقية للأفيون؛ فقد رقّى نفسَه إلى منصب البابا! إذ بحلول ذلك الحين، كانت الهوية البديلة التي صاغها بمهارة، «متعاطي الأفيون»، قد اكتسبَت حياةً عالمية مستقلة

(1) نسبة إلى المعماري والنقّاش والمصمم الإيطالي جوفاني باتيستا بيرانيزي (1720 ـ 1778) الذي اتسمت أعماله المنقوشة بلمسة مثيرة للاهتمام، وتحمل فكرة سمو الشعور بعظمة الماضي القديم.
(2) منطقة في وسط العاصمة البريطانية لندن.

بذاتها. ففي روسيا، قام نيكولاي غوغول[1] في قصته القصيرة *شارع نيفسكي* (1835) بتكييف رحلات أحلامه في لندن لتتناسب مع مدينته سانت بطرسبرغ. وفي أمريكا، أثنى عليه رالف والدو إمرسون[2] وقلّده إدغار آلان بو[3]. وفي فرنسا، ألهمَت ترجمة ألفرد دي موسيه[4] الحرة والموسعة لكتابه، كلًا من تيوفيل غوتييه[5]، وأونوريه دي بالزاك، لخلْق نسختهما الخاصة من النمط الجديد في أعمالهما، وهكتور برليوز[6] لنقل مقامات الكوابيس المرعبة التي وصفها دي كوينسي إلى موسيقى في *سيمفونية من الخيال* (1830). وقُبيل وفاة دي كوينسي عام 1859، كان شارل بودلير يعمل على ترجمته لكتاب كوينسي *الاعترافات*، التي نُشرَت بعنوان *الفراديس المصطنعة*[7] (1860) وصارت مرجعًا لا يمكن إغفاله عن ثقافة المواد المُخدِّرة الملتهبة في نهاية القرن.

* * *

وفي الوقت ذاته، أصبحت التجارب الشخصية في العلوم باستخدام المواد المُخدِّرة تواجه تحديات وتهميشًا من جيل جديد من المفكرين. ففي فرنسا، ألهمَت فلسفة أوغست كونت[8] الوضعية العديد ممّن كانوا

(1) روائي وكاتب قصة قصيرة وكاتب مسرحي روسي (1809 ـ 1852).
(2) كاتبُ مقالات وفيلسوف وشاعر أمريكي (1803 ـ 1882).
(3) ناقد أدبي ومؤلف وشاعر أمريكي (1809 ـ 1849).
(4) شاعر فرنسي ومسرحي وروائي (1810 ـ 1857).
(5) شاعر وروائي فرنسي وكاتب مسرحي (1811 ـ 1872).
(6) مؤلف موسيقى فرنسي (1803 ـ 1869).
(7) صدرت النسخة العربية بترجمة ناظم بن إبراهيم عام 2019 عن منشورات المتوسط.
(8) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي (1798 ـ 1857).

يرغبون في إعادة تشكيل دراسة العقل من خلال تجريده من التكهنات الميتافيزيقية. لقد ادَّعى كونت أنَّ الأحداث العقلية ليست حقائق، وأنَّ «علم العقل» يُعد تناقضًا لفظيًا. وفي عام 1830، كتب كونت: «التأمل المباشر للعقل بنفسه هو وهْمٌ خالص»، وأشار إلى أنَّ خبراء دراسة العقل يختلفون جوهريًّا حتى في المفاهيم الأساسية لهذه الدراسة، وأنه لا يوجد أيُّ فحص أو مرجع يمكنه حلُّ هذه الخلافات. لقد تحوَّل العقل الذي يراقب نفسَه ببساطة إلى ارتداد لا نهائي، وتراكمَت التخمينات على التخمينات.

بدأ جيل جديد في ألمانيا من علماء وظائف الأعضاء بالتحقيق في آليات الإحساس والإدراك باستخدام أدوات دقيقة. وقد أدرك هؤلاء طموحَ يوهان بوركيني في أنَّ دراسة التجربة الذاتية يمكن أنْ تتقدم من خلال التجارب والقياسات المنهجية؛ ممَّا يقلل من القوى الحيوية والتدفقات وشرارات الحياة التي افترضتْها الفلسفة الطبيعة في القوانين المادية للفيزياء والبيولوجيا.

أثبت الألماني هيرمان فون هلمهولتز[1]، عالم وظائف الأعضاء، والخبير في مجالات الميكانيكا والأحياء والكيمياء، أنَّ الطاقة يمكن قياسها بدقة وتحويلها عبر أشكال مختلفة ـ كالكيميائية والكهربائية والمغناطيسية ـ وبدأ في رسم خرائط للهياكل العصبية الدقيقة التي تنقل هذه الطاقة خلال أنسجة الحيوانات. وفي عام 1851، اخترع منظار العين لفحص الهياكل الصغيرة التي تولد الهلاوس البصرية التي اكتشفها بوركيني. وقد رفض

(1) فيزيائي وطبيب ألماني (1821 ـ 1894).

هلمهولتز وأتباعه، ومنهم أستاذ فرويد ومُعلمه إرنست بروك[1]، صراحةً التكهناتِ الميتافيزيقية حول القوى الحيوية غير المادية، وأصروا على المبدأ الذي ينصُّ على أنه «لا توجد قوى أخرى غير القوى الفيزيائية والكيميائية المشتركة التي تعمل داخل الكائن الحي».

وفي عام 1862، أسَّس عالِمٌ رائد آخر، وهو عالم وظائف الأعضاء الألماني فيلهلم فونت[2] مختبرًا لاختبار زمن رد الفعل البشري، وتحديد العمليات الفورية التي تُميّز تحوُّل الإحساس الأولي إلى إدراك واعٍ. ففي عام 1879، وفي أثناء عمله في مختبره للأبحاث في جامعة لايبتزغ[3]، أصبح فيلهلم فونت أول شخص يُطلِق على نفسه لقب «عالم نفسي». وفي النموذج الميكانيكي الذي اعتمده فونت، ابتعدت دراسة العقل عن الروايات الذاتية التي يُقدِّمها مراقب فرديّ واحد، إلى مجموعة من الأدوات الدقيقة المصنوعة من النحاس والتي تستطيع قياس الظواهر التي تحدُث تحت عتبة الوعي.

ومع تطوُّر العلوم وتعقيدها، زادت التوقعات المتعلقة بالعلماء والباحثين، وتطلَّب من الممَّارسين المعاصرين الحصول على مجموعةً من المهارات والمفاهيم تختلف تمامًا عن القفزات البديهية والملاحظات الشعرية للجيل الرومانسي الذي سبقهم. وبحلول منتصف القرن، جُمِعت هذه المهارات والمفاهيم تحت مصطلح «الموضوعية»؛ وهو مفهوم

(1) طبيب وعالم فسيولوجي ألماني (1819 ـ 1892).
(2) طبيب وعالم فيزيائي وفيلسوف يُعرف كواحد من مؤسسي علم النفس الحديث (1832 ـ 1920).
(3) واحدة من أقدم الجامعات في العالم، وثاني أقدم جامعة في ألمانيا. تأسست عام 1409.

جديد، يرتبط بمفاهيم علمية تقليدية مثل «الحقيقة» و«اليقين». إنها مشتقة من فلسفة كانط، حيث كان عالم النومينات ذاتيًا؛ ومن ثَم خارج نطاق العلم، وكان العلم دراسة الظواهر «الموضوعية» والقابلة للقياس. ومع حلول منتصف القرن، دخلَت «الموضوعية» الكلام المنطوق العام. عندما استخدمها توماس دي كوينسي في الطبعة المنقحة لعام 1856 من كتابه *اعترافات متعاطي أفيون إنجليزيٍّ*، وفسرها بالتعليق:

> أصبح هذا المصطلح، الذي كان غير واضح على نحوٍ كبير في عام 1821 وشديد التعقيد المنهجي، وعليه، عندما تحيط به العبارات العامية والمألوفة، يبدو مصطلحًا مُتحذلقًا، ومع ذلك فإنه ضروري في التفكير الدقيق والواسع، قد أصبح المصطلح بعد عام 1821 شائعًا لدرجة أنه لا يحتاج أيَّ تبرير.

كانت العلوم الموضوعية مستندة إلى القياسات والبيانات؛ التي تتطلب الصبر والملاحظة الدقيقة والقياس الدقيق. كما وضعَت هذه العلوم قيمة عالية لمهارات المراقب الذي حصل على تدريب علميّ ولحُكمه وإدراكه، والذي يعرف أيّ الحقائق يجب اختيارها وما الانحرافات المهمة، ويُسجّلها في دفاتر مرتبة على نحوٍ جيد. ففي دراسة المواد المُخدِّرة، أعطت الأولوية لقياس التأثيرات الخارجية بعناية ـ الجُرعة، أوقات البدء، تسجيل الأعراض ـ على حساب ما يُطلق عليه الآن «الاستبطان»، والذي يمكن أنْ يُشكِّل الظواهر العقليَّة إلى سرد يُلائِم المُراقب الذاتي.

لقد عُدَّ هذا النوع من الإبداع مصدرَ إلهامٍ للفن، لكن ليس له مكان في العلوم الواقعية أو المادية. وحرص الجيل الأول من الباحثين في علم النفس، على التميز بين أنفسهم وبين المحاولات الأدبية للتجربة

مثل دي كوينسي، وتقديم نتائج تتوافق مع المتطلبات والمعايير الجديدة للخصوصية، ودرسوا المواد المُخدِّرة بجدية واعية للذات.

مَن الذي اعتُبر مراقبًا مدرَّبًا، وممّ يتكون التدريب؟ ثمة عدد متزايد من الممَّارسين تلقّوا تعليمهم في الجامعات والمدارس الطبية، ومع ذلك، لا يُعد الحصول على درجة أكاديمية شرطًا ضروريًا للتأهل كممَّارس محترف. فقد كان التمييز بين الممَّارسين ثقافيًا بقدْر ما هو تقنيًا، متجذرًا في «ديكارتية الطبقة الراقية». ونادرًا ما تَحدّدت معايير التمييز بوضوح، ولكن البارون إرنست فون بيبرا[1] ـ الذي كان هو نفسه هاويًا ثريًا وليس خريجًا جامعيًا ـ قدَّم مثالًا دالًا في عام 1855، في أثناء وصف تجربته الأولى مع الحشيش، حين ابتلع 14 حبة (تقريبًا جرام) من حبوب «الشراس» المصري، وأشار إلى «طعمه المُرّ، الصمغيّ، غير المقزز»، وبعد قرابة ساعتَين وجد نفسَه تحت تأثير أقوى بكثير ممَّا كان يتوقع. وبينما كان يحدق في جدار مكسو بألواح، ورأى نوافذ مكتبه أصبحت جزءًا من الحائط نفسه، ولاحظ أنه يستطيع «تحريك هذا الجزء من غرفتي إلى مسافة، ومن ثَمَّ توسيع مكتبي إلى شقة كبيرة بحجم لا نهائي». ومع ذلك، «يمكنني حسب إرادتي أنْ أجعل كلَّ هذه الأوهام تختفي وأنْ أقمع أيضًا نشوتي». وختم بالقول: «إذا أثير مُسلِم فظّ بجرعة زائدة من الحشيش أو الأفيون فإنه يصبح قاتلًا، والملاوي يستولي عليه جنونٌ فظيع، في حين أنه في الحالة نفسها، يقوم طبيب أوروبي مثقف ومتعلم بإجراء ملاحظات على نفسه».

استفادت العلوم التجريبية منذ بداياتها في الجمعية الملَكية على نحوٍ

(1) عالم ومؤلف التاريخ الطبيعي الألماني (1806 ـ 1878).

كبير من المعرفة المكتسَبة في أجزاء أخرى من العالم، لكن كان من الضروري دائمًا إعادة صياغتها بمصطلحات تُحوِّلها من حكايات رحلات المسافرين المثيرة، إلى بيانات علمية قابلة للاختبار. إذ عندما قام روبرت نوكس مثلًا بتمرير عيِّنة من *البنغ* إلى روبرت هوك في عام 1672، أخبر صديقه أنه «يسمونه باللغة البرتغالية *بانغا*»، ممَّا يدل على أنه معروف للصيادلة في أنحاء أخرى من أوروبا. كان هناك العديد من ممثلي هذه المهن في لشبونة الذين كان بإمكانهم وصف تأثيرات المُخدِّر، ناهيك عن عدد لا يُحصى من السريلانكيين الذين كانوا مصدر المُخدِّر لنوكس، غير أنَّ هوك قدَّم العينة للجمعية الملكية على أنه اكتشاف جديد. وقبل أنْ يُعترف بتجارب المواد المُخدِّرة بصفتها معرفة علمية، كان يتعين تقديمها باللغة الإنجليزية من مراقب مدرَّب.

لقد حُدِّدَت معايير التقارير الموضوعية بناءً على الجنس والعِرق بشكل كامل، كما كان التعليم العالي الرسمي مقتصرًا تقريبًا على الرجال، وظلَّ علم الطب مجالًا ذكوريًا على نحوٍ ساحق حتى عقود متأخرة من القرن العشرين. وضمن هذا النطاق، فمن النادر توظيف مُشارِكات من النساء في التجارب، وخاصة مع المواد المُخدِّرة التي تُسبِّب فقدان السيطرة أو التصرف بطريقة غير لائقة. والنساء على دراية تامة بهذا الخطر، ولقد لوحِظ ذلك في أُولى التجارب مع أوكسيد النيتروز.

يُعد توماس بيدوز[1] داعيًا صريحًا لحقوق المرأة، وفي بداية تجارب همفري ديفي في عام 1799، كان قد قدَّم للتوِّ أول دورة محاضرات علمية

(1) طبيب وكاتب علمي إنجليزي (1760 ـ 1808).

عامة للنساء في بريستول. وحرص هو وديفي في البداية إلى تحقيق توازن بين الجنسَين من المتطوعين في التجارب، بيد أنَّ تجربة المتطوعة الأولى من الإناث، التي تحولَت إلى «مجنونة مؤقتًا»، حيث خرجَت من المختبر وهي تركض في الشارع، «أرعبَت السيدات بشكلٍ شديد، حتى لم يتمكن أيٌّ منهنَّ بعد ذلك من النظر إلى أوكسيد النيتروز بدون شعور بالرعب».

كان من السهل جدًا على المشاركين الذكور الضحكُ على العروض العامة في فقدان السيطرة الذاتية بوصفها عرضًا لامعًا، أو في إطار النظرة المستقبلية كسعي بطوليٍّ وراء المعرفة. بيد أنه لا يمكن لأيٍّ امرأة، مثلما فعل همفري ديفي، خلْعُ قميصها في غرفة مُحكَمة الإغلاق مملوءة بأوكسيد النيتروز، وتُطلق نفسها نحو بُعد غير مكتشَف من الفكر المجرد. والتجارب الذاتية كذلك، لم تكن كلها علنية، ولكن لجميعها بُعدًا عامًّا، لأنه كان يجب أنْ تكون قابلة للعرض والتكرار. وكما لاحظَت المؤرخة ناومي أوراسكس[1]، فإنَّ الأقطاب المتعارضة للممَّارسة التجريبية في القرن التاسع عشر ـ البطولة والموضوعية ـ وضعت الباحثات في مأزق مزدوج.

كان يُنظر حينها إلى الموضوعية على أنها صفة ذكورية، حيث تتطلب القدرة على النظر إلى البيانات بتجرُّد بدلًا من تلوينها بالمشاعر. ونتيجة لذلك، اقتصرَت تجارب تعاطي المواد المُخدِّرة على الإناث إلى حدٍّ كبير على تاريخ الحالة الطبية، وشهادات المرضى، وفي حالات نادرة، تم إشراكهنَّ في تجارب أقاربهم الذكور. ووجدت حالات في كثير الأحيان

(1) مؤرخة علوم أمريكية (مواليد 1958).

من النساء اللواتي يُجرين تجارب على أنفسهنَّ خارج عالَم العلوم، على سبيل المثال في الأوساط الأدبية أو جلسات الطقوس الباطنية، ولكن حتى هنا كانت ممَّارستهنَّ غير موثقة في كثير من الأحيان، حيث إنَّ الاعتراف العلني يجعل المشاركات عرضةً للفضائح المحتمَلة. وظهرَت أول عالمات نساء محترفات تشارك في تجارب المواد المُخدِّرة فقط في القرن العشرين، وحتى ذلك الحين كن عرضةً للاستهداف، والكشف عنهنَّ من وسائل الإعلام.

أضحى العالَم العلمي الذي عاش فيه فرويد الشاب في جامعة فيينا يهيمن عليه تلاميذ هلمهولتز وفونت والتقدم المذهل الذي حققوه في رسم خرائط ميكانيكا الإحساس والإدراك. ومع ذلك، فإنَّ تأثيرات المواد المُخدِّرة على العقل، والعمليات البيولوجية والعصبية التي تكمن وراءها، ظلَّت لغزًا عميقًا. إذ كان فونت يميل إلى اعتبارها، إلى جانب لأحلام والجنون، ظواهر غير مناسبة للدراسة الموضوعية. إلاّ أنّه خارج المختبر، وعلى نحوٍ خاص عند الأطباء الذين يرون في الطب فنًا بالإضافة إلى علم، كانت الاستجابات الذاتية التي يستحضرها السؤال «كيف تشعر؟» ضرورية للغاية.

لاحظ جيمس جونستون[1] في الدراسة الشاملة والمشهورة للصيدلة التي أجراها بعنوان *كيمياء الحياة اليومية* ـ التي نُشرت لأول مرة في عام 1855 وأعيد طباعتها بانتظام لعقودٍ من الزمن ـ أنَّ «معرفتنا بالطبيعة الكيميائية والتأثير الفسيولوجي للمواد المُخدِّرة التي نستخدمها غير كافية

(1) كيميائي وعالم معادن إسكتلندي (1796 ـ 1855).

للغاية»، وحثَّ على معالجة هذا العيب بالطريقة الفعالة الوحيدة المتاحة حاليًا، وهي «التجربة المباشرة على الإنسان».

رفض العديدُ من المتخصصين في دراسة المواد المُخدِّرة المؤثرة في العقل قيودَ الوضعية والمطالب الجادة للذاتية العلمية الجديدة، واعتبروا مجال دراستهم حالةً خاصة للغاية، حيث إنَّ أهمَّ البيانات كانت خاصة وشخصية بشكل أساسي ولا تقبل التقليل. ودافَع عن هذا الموقف بشكل مقنع ومؤثِّر للغاية الطبيبُ الفرنسي جاك جوزيف مورا1[1]، الذي ظلت أطروحته الصادرة عام 1845 *الحشيش والأمراض العقلية* هي المعالجة الأكثر ثقلًا للآثار العقلية للحشيش طوال القرن. وصرَّح مورو في صفحة الأطروحة الافتتاحية: «لقد أصبحت على دراية بتأثيرات الحشيش من خلال تجربتي الشخصية، وليس مجرد روايات الآخرين». وذكر بعد ذلك:

> في الواقع، ثمة نهجٌ واحد فقط صحيح لدراسة هذه الحالات، وهو الملاحظة. عندما لا تتركز الملاحظة على المراقب نفسه، فإنها تمسُّ المظاهر فحسب، ويمكن أنْ تؤدي إلى استنتاجات كاذبة على نحوٍ كبير. في البداية، يجب أنْ أوضح هذه النقطة التي لا جدالَ في صحتها؛ فالتجربة الشخصية هي معيار الحقيقة هنا. أُشكِّك في أحقية أيِّ شخص يناقش آثار الحشيش إذا لم يتحدث نيابةً عن نفسه، وإذا لم يكن في موقع يُمكِّنه من تقييم تلك الآثار بناءً على استخدامٍ متكررٍ كافٍ.

شملَت تجارب مورو على الحشيش جرعاتٍ كبيرة عن طريق الفم أغرقتْه في ساعات من الهلوسة، وهي تجربة جعلتْه أبعد من حدود الموضوعية والموقف غير المتجسد للمراقب المدرب. ولقد تحدى

(1) طبيب نفسي فرنسي (1804 ـ 1884).

الفرضية التي تفيد بأنَّ التجربة على الذات يتم التضحية فيها بمضمونها بسبب طبيعتها المزدوجة؛ وبعكس ذلك، أصرَّ على أنَّ المواد المُخدِّرة التي تؤثِّر في العقل تتطلب باحثًا يشغل دور المراقب والمُجرِب في آنٍ واحد. وقد يلاحظ المراقب أنَّ الشخص الذي تناوَل جرعة كبيرة من الحشيش يستلقي على ظَهره، غير قادر على الحركة أو الكلام، ويفترض أنه مُخدِّر أو غير واعٍ تمامًا؛ لكن مَن يتناول المُخدِّر بنفسه، سيدرك أنَّ السبب في عدم قدرته على التحدث هو أنَّ عقله يعمل بسرعة كبيرة جدًا؛ لكي يتمكن من تشكيل أفكار مترابطة ومتكاملة والتعبير عنها.

كان مورو بصفته طبيبًا نفسيًا ممَّارسًا مقيمًا في مستشفى بيسيتر في باريس، مدركًا تمامًا لحدود الفحص الخارجي للمرضى النفسيّين المضطربين. وكتب: «نحن نرى سطح الأشياء ليس إلا. هل يمكننا أنْ نكون متأكدين من أننا في حالة تفهُّم هؤلاء المرضى المضطربين عندما يُخبروننا بملاحظاتهم؟» وأشار إلى أنَّ تجربة الحشيش تُقدم لمحة متميزة عن العالم كما يظهر لأولئك الذين تعاني عملياتهم العقليَّة اضطرابًا ممَّاثلًا «لفهم الاكتئاب العادي، من الضروري أنْ تكون قد عشت تجربته؛ لفهم هذيان مجنون، من الضروري أنْ تكون قد هذيتَ بنفسك، ولكن دون أنْ تفقد وعيك بجنونك».

ووجد مورو أنَّ الاستخدام الأكثر فعالية للحشيش في العلاج النفسيِّ هو إعطاؤه ليس للمرضى، ولكن لأطبائهم. يمكن أنْ يمنحهم الإحساس الحميمي - كما نقول اليوم، التجربة الحية - بالظواهر العقليَّة مثل الهوس وفقدان الشخصية والوهم، ممَّا يتيح لهم فهم الحالات التي كانوا يعالجونها بتجربتها بأنفسهم.

* * *

وقفَ بحث فرويد «عن الكوكا» في مفترق طُرق بين هذَين التقليديَين. كان يحاول الجمع بين الموضوعية والاستبطان، والجمع بين نقاط القوة في كلا المنهجَين. كان أستاذه في فيينا، إرنست بروك، ينتمي إلى حدٍّ كبير إلى التقاليد الموضوعية، وهو عضو متحمِّس من مجموعة الماديين الملتزمين الذين يشيرون إلى أنفسهم باسم مدرسة هلمهولتز للطب. غير أنَّ هذه المدرسة الاستبطانية للتجربة الذاتية أنتجَت أكثرَ الأوصاف اختراقًا لفعل الكوكايين، متجاوزةً بذلك اللغة المحدودة لعلم الأعصاب. ومن خلال الكتابة بضمير المتكلم، انضم فرويد إلى التقليد البطولي للاكتشاف الذي ضمَّ ديفي، ومورو، ومانتيغازا، لكنَّ حذرَه المعتاد أدى إلى أنْ يفوض البطولة إلى الآخرين.

كتب فرويد: «درسَ مانتيغازا تأثير جرعات كوكا كبيرة في تجارب على نفسه»؛ وفرويد نفسه لم يتجاوز جرعته الأولية التي بلغَت 50 ملغ، ووجد أنَّ «الجرعة الأولى أو حتى الجرعات المتكررة من الكوكا لا تثير الرغبة القهرية في استخدام المنشِّط بشكل أكبر». واعترف بأنَّ مانتيغازا كان «من مُمَجّدي المُخدِّر المتحمسين»، الذي أثار تقريره «الكثير من الاهتمام مع القليل من الثقة» بين الأطباء. ومع ذلك، اعتبر فرويد أنه «وجد الكثير من الملاحظات الصحيحة» في تقرير مانتيغازا بحيث «أنني أميل إلى قبول ادعاءاته».

بدأ فرويد في هذه المرحلة تناوُل جرعات صغيرة من الكوكايين بانتظام خارج إطار بحثه، ووجدها مفيدةً وممتعة ومثيرة، واعترف لمارثا بأنَّ «تعبه كان نوعًا من المرض البسيط؛ ويسمى الوهن العصبي». ومع ذلك، لاحَظ سريعًا في الكوكايين «اختفاء العوامل المسببة للاكتئاب في الحالة

الصحية العامة». وبحلول شهر يونيو، كتب فرويد إلى مارثا قائلًا إنه: «قوي كالأسد، سعيدٌ ومرِح».

اكتشف فرويد أيضًا أنَّ الكوكايين كان مُحسِّنًا للأداء. «يشعر المرء» ـ والضمير هنا لغير المتكلم يضع ادعاءه في مكان ما بين التجربة الشخصية والبيانات الموضوعية ـ «بمزيد من النشاط والقدرة على العمل». الكوكايين «يجعل المرء قادرًا على الجهد الفكري»، حيث «يمكن إنجاز العمل الفكري والجسدي الطويل المدى والمكثف دون إرهاق». كما أنه وجد بشكل ملحوظ أنَّ هذه الزيادة في الطاقة العصبية، بعكس تلك الناتجة عن الكحول أو الكافيين، لم «يتبعها أيُّ شعور بالخمول، أو أيُّ حالة اكتئاب أخرى». وإذا كان جورج ميلر بيرد مُحقًا في أنَّ العديد من تجلياتِ الأعراض التي يصفها بالوهن العصبي هي نتيجة لسبب واحد مشترك، فقد يكون الكوكايين العلاج الرئيس الذي يبحث عنه الكثير.

غير أنَّ للكوكايين خاصية أخرى، فهو بالإضافة إلى كونه مضادًا للاكتئاب ومُحسّنًا للطاقة، كان منشّطًا قويًا للمزاج. واقتبس فرويد ادعاء مانتيغازا بأنه أنتج «حالة من السعادة المتزايدة على نحوٍ كبير»: خلال ذروة تسمُّمه بالكوكا، كتب: «الإله غير عادل لأنه خلق الإنسان غير قادر على تحمُّل آثار الكوكا مدى الحياة». أُفضِّل أنْ أعيش لمدة عشر سنوات مع الكوكا على مليار قرن بدونها!». ووفقًا لرأي مانتيغازا، كان هذا هو التأثير الأساسي للمُخدِّر، وتابع بناء رؤيته الواسعة لمجتمع مستقبلي طوباوي مبنيّ حول سُكر النشوة.

تكررَت ملاحظات مشابهة في الأدبيات المتعلق بالمواد المُخدِّرة المُسكِرة الأخرى، من الأفيون إلى أوكسيد النيتروز وحتى الحشيش.

على سبيل المثال، أكد مورو أنَّ السعادة هي التجلي الرئيس لتسمُّم الحشيش:

> في لحظة معينة من الانتشاء، عندما يستحوذ فوران لا يُصدق على جميع الملَكات العقلية، تظهر ظاهرة نفسية، ربما تكون الأكثر فضولًا على الإطلاق، والتي أشعر باليأس من وصفها بشكل مناسب. إنه شعور بالسرور الجسدي والعقلي، والرضا الداخلي، والفرح الذي لا يمكن تحديده، ومن المستحيل تحليله أو فهمه أو شرحه... بعد هذه السعادة التي تهز كلَّ جوارحك بشدة، يأتي شعور لطيف بالإرهاق الجسدي والعقلي، نوع من اللامبالاة والاطمئنان الكامل، الذي يترك لعقلك التفرغ له بسعادة.

إذا كان هناك شيء مثل مَركز السعادة في الدماغ، وثمة أدوية قادرة على تحفيزها بإرادة، فسيكون هذا اكتشافًا ذا أهمية هائلة. كما أنه سيكون محفوفًا بالمخاطر، إذ ما الذي يمنع متعاطي المواد المُخدِّرة من السعي وراء هذه المتعة بأيِّ ثمن، على حساب الآخرين وسلامة عقولهم على حدٍّ سواء؟ وبصفته طبيبًا للأمراض العقلية، فقد كان مورو على دراية تامة بأنَّ السعادة الزائدة والضحك يمكن اعتبارهما شعورًا مرضيًا أو شاذًا أو هستيريًا. ولذلك أصرَّ على أنَّ سعادة الحشيش، على الرغم من كونها مفرطة وغير عقلانية، تُعد تعبيرًا عن عقل سليم.

ولاحَظ همفري ديفي ورفقائه بالمثل أنَّ الأشخاص كثيرًا ما كانوا يضحكون بصوت عالٍ، ثم لا يستطيعون بعد لحظات تفسير سبب ضحكهم. وهذه الاستجابة يُنظر إليها عادةً على أنها أحد أعراض الاضطراب النفسيِّ، إلا أنها كانت تحدث باستمرار لدى متطوعين بكامل

صحتهم. كيف يمكن لهذا الشعور العميق بالسعادة أنْ ينشأ من مجرد استنشاق الغاز نفسه دون وجود أيِّ عوامل أخرى؟

وتُعد نشوة الكوكايين عند مانتيغازا حالةً من الوعي المتغير لها القدرة على إعادة توجيه أصحابها نحو مجتمع ثوريّ مبنيّ على المتعة. وفي المقابل كان فرويد حريصًا على وصف ارتفاع المزاج الناتج عن الكوكايين على أنه معتدل بشكل أساسي، مشددًا على أنَّ «البهجة والنشوة الدائمة» التي تتجلّى بعد تناول 50 ـ 100 ملغ من الكوكايين «لا تختلف بأيِّ شكل من الأشكال عن النشوة الطبيعية لشخص معافى». كان التأكيد على «الطبيعي» و«المعافى» يخدم هدفَين: أولًا، للتأكيد على أنَّ الكوكايين لا يُغيِّر الشخصية أو يُهدِّد الذات الرصينة. وثانيًا، لمواجهة الروابط غير الصحية التي بدأت تكتسبها كلمة «النشوة». ففي الأصل، كانت النشوة تعني ببساطة الشعور بالراحة؛ والشعور بالصحة، كما وصفها المريض.

فهم فرويد النشوة أنها عرَض إيجابي، إشارة إلى أنَّ احتياجات الجسد والعقل قد تم تلبيتها، مثل صوت طنين محرك مُحكم. غير أنَّ أصوات طبية أخرى بدأت تعتبرها علامة خطر، ممَّاثلة للشعور المتناقض بالاسترخاء والارتياح الذي يصفه أحيانًا أولئك الذين تم إنقاذُهم من المراحل الأخيرة للغرق. وفي بعض الحالات، كانت ترتبط على نحوٍ خاص بالمراحل اللاحقة من بعض الأمراض، حيث كان المرضى يوصَفون غالبًا بأنهم يُظهِرون «نشوةً أو أملًا مَرضيًا» كلما ساءت حالتهم.

زعم الطبيب الفرنسي تشارلز فيريه[1] بعد دراسة حالة في عام 1892،

---

(1) طبيب فرنسي (1852 ـ 1907).

أنه يمكن العثور على «نوبات النشوة» عند مرضى الصرع والهستيريا، واعتبرها انفصالًا خطيرًا عن الجسد يؤدي إلى خداع المرضى باعتبار حالتهم المرضية صحية. ففي هذا الاستخدام الطبي الحديث، تُعد النشوة متعةً مصحوبةً بتحذير. عندما تنتج النشوة عن طريق محفز غير طبيعي مثل المُخدِّر، فإنها قد تكون وهمًا للشخص الذي يتعرَّض في الواقع للتسمم تحت شعور السعادة.

ربما كان من المناسب لفرويد أنْ يُقلل من آثار الكوكايين المفرطة، غير أن اهتمامه بها تعدّى ذلك. فقد تساءل، كما فعل مورو مع الحشيش، ما إذا كانت النشوة التي أحدثَها الكوكايين هي في بعض الأحيان أول أثر له، بدلًا من أنْ تكون مجرد أثر جانبيّ لخصائصه المنشطة. هل يمكن أنْ يكون المُخدِّر قد أحدَث تغييرًا عقليًا سمح للجهاز العصبي بالوصول إلى احتياطات غير مستغَلة من الطاقة؟

وكما أنَّ رؤى الأفيون أو الحشيش لا تتواجد في المواد المُخدِّرة بذاتها؛ بل في الأبعاد غير المتاحة الأخرى للعقل التي تسمح لها بالوصول، فإنَّ زيادة الطاقة الجسدية والعصبية عند تناول الكوكايين قد يكون نتاج عقل محسن لمستوى أعلى من الأداء. وإذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فيجب أنْ تكون قابلة للقياس، وتحوَّل فرويد بعد ذلك إلى تجارب الآلات النحاسية التي فضَّلَها أستاذه إرنست بروك. لقد كانت النشوة إحساسًا ذاتيًا، غير أنَّ الطاقة العقليّة أو الجسدية الناتجة عنها يجب أنْ تكون لها مقابلات قابلة للقياس بشكل موضوعيٍّ.

وكما تعلَّم فرويد بالفعل من خلال تجربته على عدد قليل من الأصدقاء والزملاء، فإنَّ الكوكايين يتأثر على نحوٍ مختلف على الأشخاص المختلفين؛

لذلك يجب أنْ يكون من الممكن إظهار ما إذا كانت زيادة الطاقة الجسدية ترتبط ببساطة مع الجرعة المعطاة، أو ما إذا كان أولئك الذين يشعرون بنشوة أكبر يُبدون استجابةً منبهة أكثر قوة. ولاختبار ذلك، كان لدى فرويد استخدام جهازَين تجريبيَين: مقياس النوبات العصبية، وهو يقيس الضغط الممَّارس عليه ويقفل إبرته عند نقطة الضغط الأقصى، ومقياس النوبات العصبية، وهو شريط معدنيٌّ مهتز يسجل أوقات الاستجابة. كانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي قام فيها فرويد بالتجربة على أشخاص أحياء، إذ إنه أجرى أكثر تجاربه على نفسه، حيث كانت استجابته للكوكايين أكثر تنبؤًا وإيجابية من استجابات المتطوعين الذين استخدمهم في التجارب.

وفي يناير عام 1885، نشر فرويد نتائجه في ورقة قصيرة بعنوان «إسهام في معرفة تأثير الكوكايين». ومن خلال الأعمدة المجَدولة للتواريخ والجرعات والضغوط الميكانيكية وأوقات الاستجابة، أصبح قادرًا على إظهار أنَّ الشعور الذاتي بالقوة والطاقة المزيدة الذي يسببه الكوكايين كان حقيقيًا بشكل موضوعيّ، إذ عند استخدام المُخدِّر، فإنَّ فرويد والمتطوعون معه يمارسون ضغطًا أكبر على مقياس النوبات العصبية، ويحافظون عليه لفترة أطول ويمتلكون أوقاتَ استجابة أسرع. وكان قادرًا أيضًا على إظهار أنَّ هذه الزيادة في الطاقة تبدأ فور شعور المتعاطي بالنشوة، قبل أنْ يتمَّ امتصاص معظم المُخدِّر في الدورة الدموية. ومن هذا، اعتبر فرويد أنَّ العمل المُحفّز للكوكايين لا ينتجه الجهاز العصبي مباشرةً، بل كان «غير مباشر، ويتم تحقيقه من خلال تحسين الحالة العامة للراحة والصحة».

أسفرَت أساليب فرويد الهجينة، مثل أسلوبه الأدبي الهجين، عن نتيجة مثيرة للاهتمام، وهي استخدام القياس الجسدي لتتبُّع التغيير الذاتي في

الوعي، وإنتاج بيانات موضوعية للإشارة إلى أنَّ العقل كان مصدرًا للتأثير الفسيولوجي. في هذا الوقت، تحوَّل فرويد من حلّ كوكايينه في الماء إلى شمٍّ قوة المسحوق. كان هذا طريقًا أكثر فعالية من حيث التكلفة، إذ بالحلّ تتحطم المادة المُخدِّرة جزئيًا وتضعف فاعليتها في المعدة، لكن الأغشية الأنفية تنقلها مباشرة إلى الدورة الدموية. شمّ المسحوق أيضًا يجعل بدء التأثيرات أسرعَ وأكثرَ وضوحًا.

ازداد الاهتمام الطبي والصيدلاني بالكوكايين في ذلك الزمن، وبدأ أطباء آخرون في اعتباره علاجًا معجزة. ووسعَت شركة بارك ديفيس إمداداتها ومجموعتها من المستحضرات، وأعلن جون بمبرتون[1]، رائد أعمال الأدوية المسجلة ببراءة اختراع في جورجيا، عن مشروب جديد يحتوي على الكوكايين، وهو كوكا كولا، معلنًا أنه «مُنشِّط رائع للدماغ». وأُعيد طبع كتاب فرويد *عن الكوكا*، واعتبره الأطباء والصيادلة المهتمون السُلطةَ الطبية الرائدة في مجال هذا الدواء.

كان فرويد يعمل على إصدار موسع، إذ أظهرَت تجاربه الذكية موازنة بين الموضوعية والاستبطان؛ واستطاع أسلوبه الكتابي المبتكر أنْ يُعبِّر عن المشاعر الذاتية للكوكايين، في حين أكدَت أعماله المعملية على هذه المشاعر من خلال توفير البيانات الكمية، كما كان يأمل في اكتشاف علاج للأمراض الناتجة عن التوتر النفسيِّ في ذلك العصر، ومادة يمكنها تعزيز الأداء لمعالجة الفجوة المتزايدة بين قدرات العقل البشري ومتطلبات الحياة الحديثة. والعالَم وقتها يتابع اكتشافاته بشغف. ولكن، ما الخطأ الكامن هنا؟

---

(1) صيدلي أمريكي (1831 ـ 1888).

الفصل الثاني

آلهة اصطناعية

يُعد كارل كولر [1]، المتدرِّب الشابّ في قسم طب العيون بمستشفى فيينا، من بين الزملاء الذين استعان بهم فرويد في تجاربه على جهاز مقياس القوة العضلية (الدينامومتر). وفي أثناء تناولهما جرعات الكوكايين الذائبة في الماء، لاحَظ كلٌّ منهما الإحساس الفوري بالخدر حول الشفتَين والحلْق الذي وصفه فرويد بعد تجربته الأولى. إلا أنه الإحساس الذي يبحث عن كولر، إذ كان اهتمامه المهني الشديد مُنصبًا على فسيولوجيا العين، لدرجة أنَّ فرويد وجدَه مُملًا بعض الشيء في هذا الأمر، ولكنه فهم على الفور أنَّ هذا يمكن أنْ يجعل الكوكائين قيمةً لا تُقدَّر بثمَن في جراحة العيون. فحتى أقوى المسكناتِ لا تستطيع منْع التشنجات العصبية والوميض، ممَّا يجعل الإجراءات الشائعة مثل إزالة المياه الزرقاء مؤلمة على نحوٍ لا يكاد يُطاق.

جرى التحقق بسهولة من حدس كولر، وحين قَطّر كمية من محلول الكوكايين في عين ضفدع، أثبت أنه يمكنه لمس قرنية العين المنتفخة دون أنْ يجعلها تومض. وقام على الفور بترتيب عرض توضيحيّ حيث أعاد

(1) طبيب عيون نمساوي (1857 ـ 1944).

التجربة على كلب، بحضور شهود من بينهم طبيب عيون كبير. قُرئت ورقة كولر حول اكتشافه أمام الجمعية الطبية في فيينا في 17 أكتوبر 1884. وأعلن كولر: «أنَّ الكوكايين لفتَ انتباه الأطباء النمساويين بشدة من خلال التجربة والورقة العلاجية الشاملة، والمثيرة للاهتمام لزميلي في المستشفى دكتور سيغموند فرويد».

كان فرويد في البداية متحمسًا لأنَّ «زميله وجد تطبيقًا لافتًا للنظر للكوكا في طب العيون»، واكتشافه الجديد في طريقه نحو النجاح. بيد أنه اتضح تدريجيًا أنَّ هذا كان الاستخدامَ الطبي الوحيد غير المثير للجدل للكوكايين، وأنَّ فرويد قد انخفض دورَه إلى دور داعم ثانوي. وقد كان أول مَن اقترح ذلك في مطبوعة، فقد اختتم كتابه «عن الكوكا» بسلسلة من الاقتراحات العلاجية للمُخدِّر، حيث نصَّت الفقرة الأخيرة منها على أنَّ «تأثيره المُخدِّر البارز عند إدخاله في اتصال مع الجلد» قد يؤدي إلى «العديد من التطبيقات الأخرى».

تساءل سيغموند فرويد مع انطلاق مسيرة كارل كولر المهنية، عن سبب عدم اتخاذه خطوة واضحة اقتُرِحَت سابقًا بشأن استخدام الكوكائين مُخدِّرا في الجراحة. وفي بعض الأحيان، كان يشتم نفسه لكونه كسولًا؛ وفي وقت لاحق، بدون أيِّ مبالغة، اتهم مارثا بأنها تُعرقل تقدُّمه. وبعد أربعين عامًا، استنتج أنَّ سبب الأمر هو أنَّ الكوكائين كان يُشتت تركيزه بعيدًا عن تخصُّصه الحقيقي في علم الأعصاب، ولم يكن يُكرِّس اهتمامه الكامل لهذا التخصص. وبقدْر ما كانت جهوده بشأن الكوكايين سعيًا انتهازيًا للتقدم المهني، كان من المفارقات أنْ تذهب الجائزة إلى شخص آخر، فقد استفاد كولر من نجاحه الأولي في التحقق من تأثيرات الكوكايين

ليؤسس ممَّارسة ناجحة في طب العيون في نيويورك. وفي مرحلة لاحقة من حياته، أطلق فرويد عليه لقب «كوكا كولر».

شهد هذا الحدث صدىً دقيقًا وغريبًا لأبحاث همفري ديفي في أوكسيد النيتروز. ففي كتابه *أبحاث كيميائية وفلسفية وفي مقدمتها أوكسيد النيتروز واستنشاقه* (1800)، حيث قدَّم ديفي اقتراحًا مشابهًا جدًا، وهو أنَّ الغاز «قادر على تدمير الألم الجسدي»؛ ومن ثَم يمكن «استخدامه بكفاءة كبيرة عند إجراء العمليات الجراحية». ومع ذلك، لم يؤخذ بهذا الاقتراح إلى مدى أبعد، وعندما ظهر التخدير بأوكسيد النيتروز بعد خمسين عامًا، كان قد نُسي تقريبًا.

كان ديفي وفرويد مهووسَين بحالات الوعي الجديدة التي يستكشفانها، والأسئلة العميقة التي أثاراها حول طبيعة العقل وعلاقته بالجسم، وتحديدًا في كلا الحالتَين، طبيعة الارتباط بين المحفز الكيميائيِّ والمتعة. وكلاهما مهتم بقياس البيانات الفسيولوجية وتسجيلها، ولكن تركيزهما الأساسي هو الانتباه للداخل، ورسم خرائط للمناظر الفكرية والحسية التي لم تُستكشف من قبل.

قد يكون فرويد بطيئًا في تقدير أهمية اكتشاف كولر، بيد أنه مثَّل حافزًا فوريًا لصناعة الكوكايين الناشئة. ففي الولايات المتحدة، زادت شركة بارك ديفيس إنتاجها، وبحلول عام 1887 أصبحت واحدة من المُورِّدين المعدودين الذين يُقدمون الدواء النقي بأسعار الجملة، التي انخفضَت من دولار للحبّة إلى 2 سنت فقط. وبعد ستة أشهر من نشر ورقة كولر، ارتفع سعر الكوكايين الذي تنتجه شركة ميرك، والذي كان مرتفعًا بالفعل بمقدار 6 علامات للغرام، بمقدار أربعة أضعاف، وبدأت شركة ميرك تتبع سياسة

شركة بارك ديفيس في استيراد مستخلصات الكوكايين الخام من جبال الأنديز، بدلًا من شحن أوراق الكوكا غير المصنَّعة بالجملة إلى أوروبا. وتحت ضغط المنافسة الأمريكية، دفع شركة ميرك لتبرير زيادة سعرها بالترويج لأنَّ الكوكايين الذي تُنتجه كان ذا جودة أعلى، مدعومة بما ذكره فرويد عن استخدام منتجهم في كتابه «عن الكوكا».

غير أنَّ أحد اقتراحات فرويد العلاجية جعل بحوثه في الكوكايين تنقلب من نعمة إلى نقمة. إذ أعاد فرويد ـ كجزء من حُجته بأنَّ الكوكايين يعالج الضعف العصبي والاكتئاب ـ نقل الادعاء الذي كانت شركة بارك ديفيس قد أطلقَت الدواء عليه في الولايات المتحدة، والذي يفيد أنه «مضاد لإدمان الأفيون»، ويزيل الرغبة وأعراض الانسحاب. وكما لاحظ فرويد، فإنَّ الأدلة على ذلك اعتمدَت على نحوٍ كبير على *مجلة ثرابيوتيك غازِيت*، وهي مجلة صيدلية داخلية لشركة بارك ديفيس، بدأت بنشر تاريخ حالات وشهادات ناجحة في علاج الأفيون. وقد كانت هذه الحالات حافزًا كبيرًا لبحوث فرويد الخاصة، لا سيما لأنه كان يخطط للتطبيق على مريض مُعين كحالة تجريبية.

كتب فرويد إلى مارثا في الرسالة التي أعلن فيها لأول مرة اهتمامه بالكوكايين، أنه يعتزم تجربته في حالات مرض القلب والإرهاق العصبي، و«خاصة في الحالة الرهيبة التي تلي الانسحاب من تعاطي المورفين (كما هو الحال مع الدكتور فلايشل)». ويُعد إرنست فون فلايشل ماركسو[1] زميلًا أكبر وأكثر تميزًا من فرويد، إذ كان أستاذًا مساعدًا لإرنست بروك في

(1) عالم في وظائف الأعضاء وطبيب نمساوي (1846 ـ 1891).

كلية الطب بجامعة فيينا، وأجرى دراساتٍ رائدة حول النشاط الكهربائي في الأعصاب والدماغ. أما فرويد فقد نظر إليه بإعجاب شديد، ووصف ذلك في رسالته إلى مارثا: «أنا أحترمه وأحبُّه بعاطفة فكرية، إذا سمحتِ لي بهذا الوصف».

عاش فلايشل سنواتٍ عديدة وهو يعاني من إصابة مروعة، فقد تعرض إبهام يده اليمنى بعدوى نتيجة استخدامه لسكين في أثناء إجراء تشريح، ممَّا تسبَّب في تضرُّر الأعصاب وألم مستمر لا يطاق غالبًا. كان يتحمّل حالته بصبر وأناة وبأقصى قدْر ممكن من الرشاقة، غير أنه بحلول عام 1884، أصبح يعتمد على المورفين لإدارة آلامه، ويحقن نفسه بجرعات أكبر وأكبر. إلى أنْ أصبح إدمانه المتصاعد للمواد المُخدِّرة، مقترنًا بالألم الذي قمعه فقط جزئيًا، يدمره في الواقع.

يُعد فلايشل واحدًا من أوائل الذين سمعوا باكتشاف فرويد للكوكايين؛ وكان متحمسًا له وطلب من فرويد تجربة علاج الكوكايين عليه. بدت آثار العلاج فورية، فقد اختفى الألم، ورفع الكوكايين معنوياته، وأصبح قادرًا بسرعة على الحدِّ من تعاطي المورفين ثم التخلص منه بالكامل. ثم كتب فلايشل مذكرة قصيرة حول نجاح حالته، متحدثًا عن نظريته في التعارض بين خواص الأفيون والكوكايين. وفي الوقت نفسه، كتب فرويد في كتابه «عن الكوكا»، قصة مريض مجهول نجح في استبدال الكوكايين بالمورفين، و«بعد عشرة أيام، تمكَّن من الاستغناء تمامًا عن العلاج بالكوكا». بيد أنَّ المعجزة قصيرة الأمد! ففي غضون أسبوع، أصبح فلايشل يتعاطى الكوكايين بكمياتٍ لم يخطر على بال فرويد أنها ممكنة. وخلال الأشهر الثلاثة التالية، عاد إلى المورفين مع استخدام ما لا يقل عن غرام واحد من

الكوكايين يوميًا، عن طريق حقنه تحت الجلد. وأنفق عليها مئة مرة أكثر من إنفاق فرويد خلال فترات استخدامه الأكثر انتظامًا.

تعرَّض فلايشل، الذي كان يتعاطى المورفين والكوكايين، للأرق والاضطرابات النفسية والهلوسة التي فتّتت أعصابه وجعلتْه يشعر كما لو أنَّ الثعابين تزحف على جِلده. وقضى فرويد ليالي مريرة معه يستمع إليه وهو يتحدَّث بلا توقف، وبجنون «كانت تُسمع كل نغمة من اليأس العميق»، ممَّا جعل فرويد يتساءل «إنْ كنتُ سأواجه في حياتي شيئًا مثل هذا الاضطراب؛ المرض والإرهاق والمورفين والكوكايين؟ «إنه شيء لا يمكن وصفه بالكلمات».

مَثَّل هذا الجانب من الكوكايين بُعدًا فشلَت تجارب فرويد الحذرة في الكشف عنه تمامًا. فقد كان يواجه كلَّ صباح إرشاداتٍ مزخرفة على حائطه مكتوب عليها «إذا كنتَ في شك، امتنع»، ولم يشعر بالرغبة في تناول أكثر من «الجرعة الفعالة» التي تبلغ 50 مليغرام، ولا أنْ يتبع جرعة بأخرى بعد ذلك. بل لاحَظ «انزعاجًا طفيفًا» عند تفكيره في تناول جرعة ثانية قبل انتهاء تأثير الجرعة الأولى.

اعتمد فرويد في وصفِه للجرعات العالية على مانتيغازا، الذي «خاض أروعَ أنواع الهلاوس وأكثرها تلونًا، ومضمونها مخيف لفترة قصيرة، بيد أنه دائمًا ممتع فيما بعد». ومع ذلك، كان مانتيغازا يمضغ أوراق الكوكا، ممَّا وضع سقفًا عمليًا على كمية الكوكايين التي امتصَّها. فاعتمادًا على فاعلية الورقة، ربما تبلغ أكثر جرعاته المفرطة حوالي غرام واحد موزَّع على يوم وليلة. وقد أدى أسلوبه التدريجي في البلع، إلى جانب القلويات والمعادن الأخرى في الورقة، إلى تخفيف الآثار العصبية التي زادتها طريقة فلايشل في الحقن.

أظهرَت تجارب فرويد على الحيوانات أنَّ الجرعات العالية تنتج آثارًا جسدية غير مرغوب فيها، مثل ارتفاع معدل ضربات القلب وضغط الدم، واضطراب المعدة، واعتقد أنه على غرار الكافيين، فإنَّ الجرعات الأعلى ستُثبّط ذاتيًا. غير أنَّ فرويد كان مهتمًا بشدة بمعتقده الذي يقول إنَّ الكوكايين هو دواء عجيب، وهو اعتقاد يشاركه فيه العديد من زملائه الأطباء وقتذاك. ففي مارس 1886، وصفت *مجلة تشامبرز جورنال*، وهي مجلة شعبية للفنون والعلوم البريطانية، الكوكايين بأنه «اكتشافٌ تخطّى المعايير التقليدية بما يكفي ليصبح واحدًا من عجائب العصر». وفي عام 1884، وبدعم من فرويد، «ومضَ كالنيزك أمام أعيُن العالَم الطبي، لكنه، بعكس النيزك، أثبتَت انطباعاته أنها دائمة».

كان الكوكايين يُسوَّق في أشكال مختلفة ـ كمسحوق للشمّ، أو شراب، أو قرص، أو سجائر عشبية ـ لمجموعة كبيرة من الحالات، وكانت سُمعته وصورته العامة تعكس المطالباتِ المتحمسة للمروِّجين له. ووجد فيه مستخدموه راحةً علاجية لحالات الشُّعَب الهوائية والجيوب الأنفية، فضلًا عن تحسين المزاج. وفي عالَم حديث حيث يشكل الإرهاق والاكتئاب وباءً، وعد بتخفيف الألم الحاد السابق غير القابل للعلاج والمزمن بطريقة عجيبة.

وأصبح ذا شعبية شديدَة بوصفه محفزًا عقليًا، وكان الأطباء من بين الفئات التي جذبهم على نحوٍ خاص. ففي أكتوبر 1888، ربط بَحث في *مجلة إدنبرة ريفيو* الكوكايين بالدور البطولي الذي يتطلبه الطب في العالم الحديث. وأضاف كاتب المقال أنَّ الأطباء كانوا أكثر انشغالًا من أيِّ وقت مضى، بعمل معقد، ومستمر يمنح «تحفيزًا لأكثر العقول المستنيرة بعيدة

النظر». وأنَّ الممَّارس الحديث الذي «لديه فرصة لممَّارسة التمارين العضلية؛ عليه دائمًا اكتساب معلومات جديدة، ليبقي جهازه العقلي نشطًا». وفي جميع هذه النواحي، كان الكوكايين «دواءً داخليًا لا يُقدَّر بثمن»، يعزز اللياقة والمزاج والقدرة الفكرية. وكانت الصورة الحية التي قدَّمها فرويد للعقل والجسم المعزز بالكوكايين، الذي يعمل بقوة على جميع المستويات لتلبية متطلبات العالم الحديث، تُناسب تمامًا مفهوم الذات للمهنة الطبية الحديثة.

* * *

مثَّلَت حالة فلايشل الأولى من نوعها في الطب، على الرغم من أنها لم تكن بالمعنى الذي كان يتمناه فرويد. ولم يمضِ وقت طويل قبل أنْ تنضم إليها حالاتٌ أخرى. ففي يوليو 1885، نشرت *المجلة المركزية لطب الأعصاب* تعليقًا لمحررها، الطبيب ومدير المصحة فريدريك ألبرت إرلينماير، حيث وصف الحالة الجديدة لإدمان الكوكايين.

يُعد إرلينماير مؤلفًا لأحد أوائل الكتب حول إدمان المورفين وعلاجه، وكان يولي اهتمامًا كبيرًا لأشكال الرغبة المُخدِّرة الجديدة والناشئة. وفي العام التالي، كتب مقالًا آخر في المجلة يصف الكوكايين بأنه «البلاء الثالث على البشرية»، بعد الكحول والأفيون. وضمَّت الطبعة الثالثة من كتابه مقطعًا قصيرًا ينسِب لفرويد دورًا رائدًا في العلاج بالكوكايين، مضيفًا أنه «يوصي بلا تحفُّظ باستخدام الكوكايين في علاج الإدمان على الكحول». كان هذا اتهامًا من الصعب الجدل حوله، خاصة بعد أنْ أصبح إرنست فون فلايشل ماركسو أولَ مريض يُشخَّص بإدمان مزدوج على المورفين والكوكايين، وذلك في أثناء تلقّيه الرعاية تحت إشراف فرويد.

على الرغم من أنَّ الأفيون يمتد إلى العصور القديمة، إلا أنَّ إدمان المواد المُخدِّرة يُعد تشخيصًا حديثًا. ففي عصر اليونانيين والرومانيين القدامى لاحَظ الأطباء والصيادلة أنَّ الأشخاص الذين يستخدمون الأفيون بانتظام مُضطرون إلى زيادة جرعاتهم. ومرَّ نصف قرن منذ أنْ صوَّر توماس دي كوينسي آلام الانسحاب بتفاصيل قاسية. مع ذلك، ظلَّ هذا العامل أقلَّ قلقًا عند الأطباء مقارنةً بخطر الأفيون الأكثر حدَّة، وهي مضاعفة الجرعة الفعَّالة مرتين أو ثلاث مراتٍ ربما تكفي لإحداث اكتئاب تنفسيٍّ قد يكون قاتلًا. غير أنَّ الأفيون ـ وبعد عام 1850، مستخلص المورفين الصناعي الأقوى ـ كان ذا قيمة كبيرة في تسكين الألم لدرجة أنَّ الأطباء لم يتجنبوه لهذا السبب. وكانت ثمة الكثير من الأدوية الأخرى التي يجب تناولها كلَّ يوم، كما أنَّ استخدامه المزمن أصبح مصدرَ قلق أقل في عصرٍ كان فيه الأفيون متوافرًا على نطاق واسع، وبتكلفة منخفضة نسبية.

يُعد فلايشل حالة نموذجية لأول مجموعة شُخصَت باسم «مهوسو المُخدِّر»، ثم سُموا لاحقًا «مدمنو المواد المُخدِّرة» في العديد من الجوانب. ففي الأصل وصف هذا التشخيص الأطباء المتخصصون في أمراض الأعصاب، والذين يُقدِّمون الرعاية الداخلية للمرضى الخاصين، وكان التشخيص حتى ذلك الحين غير مألوف خارج هذا البيئة، إذ صيغَ لأول مرة خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر بوصفه «رغبة مَرضية» من مجموعة من الأطباء ومنهم إدوارد ليفينشتاين، مدير إحدى هذه المؤسساتِ في منطقة شونيبرغ في برلين.

نشر ليفينشتاين في عام 1877، أول كتاب بعنوان *الرغبة المَرضية في تعاطي المورفين*، ووصف أعراضها بالاستناد إلى ملاحظاتٍ حالات

مرضاه، بالإضافة إلى التجارب على الحيوانات لقياس الجرعة والسُّمِّية. ورأى أنَّ الرغبة ليست مرضًا عقليًا، بل هي إضافة جديدة إلى «فئة العواطف الإنسانية الأخرى، مثل التدخين والمقامرة والطمع في الربح والإفراط الجنسي وما إلى ذلك». وكان واضحًا أنه ليس انخفاضًا في الذكاء. وفي الواقع، كان العديد من مرضاه «قادة عسكريين وفنانين وأطباء وجراحين، وأسماء ذات سُمعة عالية». من الواضح أنَّ المورفين يختار ضحاياه بشكل رئيس من الطبقات العليا في المجتمع ـ كما هو الحال بالطبع في العيادات الخاصة مثل عيادة ليفينشتاين.

يُعد الإدمان من وجهة نظر ليفينشتاين، في نهاية المطاف نتيجة ثانوية، أو أثرًا جانبيًا، للحضارة الحديثة، نتيجة لتقدُّم العلم، والحياة المتسارعة، والانتشار العالمي للمعرفة، والتسويق الجماعي، واختيارات المستهلك، والحرية الفردية. وعلى هذا النحو، بدا الأمر متماثلًا على نحوٍ مثير للفضول مع حالة الوهن العصبي المُضنية التي لجأ العديد من المصابين بسببها إلى المورفين لأول مرة طلبًا للعلاج.

يرى جورج ميلر بيرد أنَّ مخاطر المواد المُخدِّرة «امتدَّت وتعددَت على نحوٍ كبير مع تقدُّم الحضارة، وخاصة في العصر الحديث»، وجمعها مع أمراض أخرى من «الإفراط في الحضارة» مثل الانتحار، ومُمَارسة الجنس قبل الزواج، والمِثلية الجنسية. بوصفها ظواهر ثانوية غير مرغوب فيها ـ غير أنها حتميَّة ـ للاختراعات، التي رأى أنها المحركات الأساسية للحداثة، مثل المطبعة والمحرك البخاري والتلغراف.

أصبح واضحًا مع زيادة عدد الحالات وانتشار المتخصصين الطبيين، أنَّ هذا المرض المتعلق بالحضارة يؤثر في فئتَين رئيستَين؛ الأولى تتمثل

في المرضى الأثرياء الذين يتلقون العلاج الخاص، والثانية هي الأطباء أنفسهم. إذ في عام 1883، زعم الطبيب الأمريكي جيه بي ماتيسون أنَّ زملاءه الأطباء يُشكلون أكبر مجموعة من المدمنين على المورفين في البلاد، وأنهم قد يشملون ثُلث مجموع الأطباء، والجراحين، وأطباء الأسنان، والممرضات. وقدَّر الصيدلي الألماني الرائد لويس ليوين في بداية القرن العشرين، أنَّ حوالي 40% من المدمنين كانوا أطباء، و10% أزواج أطباء. وبحلول عام 1886، بدأ بعض الأطباء يعتبرون الكوكايين ممَّاثلًا في خطورته للمورفين؛ كما ذكرت *المجلة الطبية البريطانية*، «لقد اكتشفنا بالفعل أنَّ هذه الوردة الجميلة في باقة علاجنا لها شوكٌ مُؤلِم».

كان الإدمان على الكوكايين شائعًا على نحوٍ خاص بين أطباء التخدير والجراحين؛ أيْ الاختصاصيين الذين كانوا يتعاملون معه يوميًا. لم يُعانِ مدمنوه من آلام الانسحاب نفسها التي يعانيها مدمنو المورفين، لكنه يمكن أنْ يكون أكثر خبثًا؛ فقد كتب الاختصاصي الإيرلندي في علم الإدمان كونولي نورمان[1] في *مجلة العلوم العقلية* عام 1892: أنَّ «الكوكايين أكثر جاذبية من المورفين؛ فهو يتشبث بضحيته بشكل أسرع، وقبضته على الضحية على الأقل تشبه قبضة المورفين».

تَسبب أسلوب الحقن تحت الجلد الذي قدَّمه الجراح الفرنسي تشارلز برافاز[2] في تفاقُم مخاطر تَعاطي المورفين والكوكايين. ففي الجملة الأولى من كتابه، أشار إدوارد ليفينشتاين إلى أنَّ الحالة الجديدة كانت مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بـ«أسلوب برافاز» للحقن تحت الجلد، الذي سُمّي على

(1) طبيب نفسي أيرلندي (1853 ـ 1908).
(2) جراح عظام فرنسي، ويُعد رائد أسلوب الحقن تحت الجلد (1791 ـ 1853).

اسم برافاز الذي صمّم وأمَر عام 1853 بصنع حقنة تحت الجلد مصنوعة بالكامل من الفضة، لتوزيع واحد سنتيمتر مكعب من السائل من خلال إبرة رفيعة ومجوَّفة. وأدت حرب الولايات المتحدة الأهلية، وحرب القرم في أوروبا إلى ترسيخ حقن المورفين في الطب الميداني، وخلال السبعينيات من القرن التاسع عشر، أصبحَت حقنة برافاز، إلى جانب قوارير المورفين وأقراصه، عنصرًا لا غنى عنه في حقيبة الطبيب.

ارتبط تشخيص «الرغبة المرضية» الجديد أو الإدمان ارتباطًا وثيقًا بالاستخدام سريع النمو للإبرة تحت الجلد.

بدأ الحقن تحت الجلد بعد اعتماد التخدير الجراحي في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، عصرًا جديدًا منتصرًا في الطب. إذ على مرِّ التاريخ البشري، كان الألم ثابتًا عالميًا، فكل مَن كُتب له العيش كان يتوقع أنْ يعاني آلامًا لا تطاق في بعض الأحيان في حياته، وغالبًا قُبيل موته. ولكن مع تركيبة المورفين والحقنة تحت الجلد، يمكن الآن فورًا إزالة الآلام التي لا يمكن السيطرة عليها بالكامل. ويمكن تتبُّع الوعي المتزايد لخطورة هذا الأمر من خلال واحد من أوائل النصوص التي علمَت هذه التقنية الجديدة، وهو *دليل العلاج بالحقن تحت الجِلد* للطبيب فيليب بارثولو الذي يعمل في فيلادلفيا.

لم يذكر بارثولو في الطبعات الأولى لكتابه عام 1869 و1873، الإدمان على المورفين سوى بشكل موجز. غير أنه في الطبعة التالية لعام 1879، وضع في الكتاب فصلًا كاملًا حول هذا الموضوع، وتحذير بأنَّ «إدخال الحقنة الجلدية يضع في يدي الإنسان وسيلةً للتسمم أكثر جاذبية من أيِّ شيء أثار رغبته في التحفيز النفسيِّ حتى الآن».

يمكن مع المواد المُخدِّرة الجديدة والأسلوب الجديد، التخلص من الألم فورًا وخلق المتعة تلقائيًا. ورُبط الإحساسَان معًا في تجارب أوكسيد النيتروز لهامفري ديفي، الذي أشار إلى أنهما شكلان متضادان من المنشطات فالغاز، كما نظر، يزيل الألم مؤقتًا عن طريق غمر الأعصاب نفسها بالمتعة. وأشاد توماس بيدوز بهذا الاكتشاف ووصفه بأنه بزوغ عصر علميٍّ جديد حيث سيصل الإنسان إلى «السيطرة على أسباب الألم والمتعة، بسُلطة مطلقة مثل تلك التي يمارسها حاليًا على الحيوانات الأليفة». ومع المورفين والكوكايين وإبرة برافاز، تحققَت نبوءة بيدوز، لكن تَبيَّن أنها

أكثر جدلًا ممَّا تخيّل. فقد ثبت أنَّ النشوة في جرعاتٍ غير محدودة هي مشكلة طبية بحدٍّ ذاتها. وربط إدوارد ليفينشتاين، في كتابه *الرغبة المَرضية في تعاطي المورفين*، بينها وبين مشكلة الإدمان من خلال الإشارة إلى أنَّ آلام الانسحاب كانت عكس صورة الميزات الأولية للمُخدِّر، إذ «يتبع هذه النشوة، والدرجة العالية من الشعور بالذات، حالة عميقة من الاكتئاب».

***

أكد أطباء آخرون تحذيرَ الدكتور إرلينماير من الوباء الجديد الذي أصاب الإنسانية، وسرعان ما انضمَّ تشخيص «إدمان الكوكايين» إلى تشخيص إدمان المورفين. في الوقت نفسه، كانت شركات الأدوية تروِّج بنشاط للكوكايين بوصفه معجزة العصر. ففي كُتيبهم الترويجي لعام 1885، احتفلَت شركة بارك ديفيس به بوصفه «علاجًا شاملًا» يمكن أنْ «يحلّ محلَّ الطعام، ويجعل الجبان شجاعًا، والصامتَ بليغًا». واقتبسَت الشركة من أطباء الأعصاب الذين كانوا يستخدمون الكوكايين بنجاح في علاج الاضطرابات العصبية، ومنهم الطبيب الذي نصح به لعلاج غثيان الصباح في فترة الحمل. كما زعمَت الشركة أنَّ قيمة الكوكايين أُعتُرف بها أيضًا في علاج إدمان الكحول والأفيون. وأحد المصادر الذي اقتبسَت منه الشركة كان «الدكتور سيغموند فرويد من فيينا»، الذي عالج حالة إدمان شديدة على المورفين في عشرة أيام بطريقة الكوكايين و«يرى أنَّ ثمة تعارُضًا مباشرًا بين المورفين والكوكايين». وقد تمَّ تأييد رأي فرويد من قِبل مريضه الدكتور فلايشل، الذي أضاف أنَّ الكوكايين كان فعالًا إلى حدٍّ كبير في علاج عادة تعاطي الكحول «بحيث يمكن الآن الاستغناء تمامًا عن ملاجئ علاج السكارى».

وفي صيف عام 1885، تواصلَت شركة بارك ديفيس مع فرويد لتقييم منتجهم، كما فعل مع شركة ميرك. ووافق فرويد على ذلك، واستخدم جهازه لقياس القوة العضلية (الدينامومیتر) مرة أخرى لقياس تأثير المنتج:

> لقد فحصتُ كلوريد الكوكايين الذي أنتجته شركة بارك ديفيس، للوقوف على آثاره الفسيولوجية، ويُمكنني القول إنَّ تأثيره يُساوي تمامًا المستحضَر الذي يحمل الاسم نفسه من إنتاج شركة ميرك. عندما يؤخذ داخل الجسم، يُحدث النشوة المميزة للكوكايين. تم قياس الزيادات في قوة العضلات باستخدام دينامومتر بعد جرعاتٍ متساوية من الكوكايين من بارك وميرك، ووُجد أنها نفسها. عند استخدام كوكايين بارك بتركيز 2%، يُخدر القرنية والملتحمة في العين بالتساوي مع منتَج ميرك.

كان فرويد يستثمر حينئذ خِبرتَه المهنية للدعوة إلى منتج صيدلاني تِجاري، وهي عملية تُشكل تطبيقاته والطريقة التي فهم بها تأثيراته. قد تكون خصائصه المسبِّبة للنشوة مصدر قلق لاختصاصي الإدمان، ولكن عند الصيادلة والأطباء العامّين، كانت تُعد مصادر بيع مميّزة. فالشعور بالرضا والسرور الذي يولده، كما ذكر أحد الأطباء، كان علاجًا رئيسًا للاكتئاب، «الحزن، بعبارة أخرى». وأكد أطباء آخرون في مجلة شركة بارك ديفيس على فوائدها القوية لـ«الأعصاب والمكتئبين» وفي حالات السَوداوِيّة. وأثنى أحدهم على «الدقة الحسابية للتأثير» في تجديد الأعصاب المتعبة. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يبيعونه، لم يكن الوله سببًا أو عرَضًا لضعف الأعصاب، بل كان علاجًا له، بالتحديد كما كان فرويد يأمل عندما بدأ أبحاثه.

في خريف عام 1885، منحتْه جامعة فيينا منحة سفر بناءً على توصية

حارَّة من إرنست بروك، واتخذ فرويد باريس مقرًا لإقامته في أثناء دراسة علم الأعصاب في مستشفى سالبيترير تحت إشراف طبيب الأعصاب الشهير عالميًا جان مارتن شاركو[1]. كانت مهمةً مثيرة وصعبة، حيث وجد نفسه في عالَم من المحاضرات وزيارات المستشفيات والمناسبات الاجتماعية مع كبار الشخصيات في المهنة المنوطة بها في مدينة مذهلة ومخيفة، وهو يتحدَّث القليل من الفرنسية وحاول العيش بدخل دون مستوى الفقر، ليجد نفسَه يتناول الكوكايين بانتظام أكثر، وبطرق تجمع بين العلاج الطبي والمتعة الشخصية.

بعد تقشُّف مستشفى فيينا العام والتركيز الضيق على الأحياء الدقيقة حسب وصية بروك، أُعجِب بالقدْر نفسه بكاريزما شاركو، وأسلوب حياته الجميل، واهتمامه الوثيق بالمريض ككيان حيٍّ وجسديّ ومتناقض. وصف في رسائله إلى مارثا، شاركو بأنه «مثل قِسٍّ عالميٍّ يتوقع منه المرء الجاهزية وتقدير الحياة الناجحة»، واعترف لها بأنه يتعاطى الكوكايين لتهدئة أعصابه والتغلب على خجله وضَعف مهاراته اللغوية في أثناء العشاء الرسمي، وعلاجًا لضعف الأعصاب الناجم عن «الضغوط والهموم والإثارة في هذه السنوات الأخيرة».

***

عند عموم الناس، كانت الأدوية الجديدة التي أحدثَت تحوُّلًا في الطب تظهر في معظم الأحيان من خلال إحدى عجائب العصر التجارية، وهي الصيدلية الحديثة. فحتى منتصف القرن، كانت محلات

(1) طبيب أعصاب فرنسي (1825 ـ 1893).

الكيميائيّين أكشاكًا مظلمة الإضاءة، تحتوي على رفوف مليئة بزجاجات الأدوية البسيطة؛ ومساحيق عادية ومستحضرات سائلة للأدوية والمواد الكيميائية، تُصَبُّ حسب الطلب في أكياس ورقية ملفوفة أو زجاجات صغيرة. ومع حلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، أصبحت المتاجر الكبرى في المدن الرئيسة خاصة قصورًا ومعابد استهلاكية للتقدم الطبي، مداخلها الزجاجية والمرايا عبارة عن بوابات مضاءة بالغاز أو الكهرباء حيث تتراصّ الحبوب والأقراص والحلوى الدوائية الملونة بشكل حيويّ كقوس قزح عبر أرفف الخدمة اللامعة وخلفها وتحتها. والشعار المميز لهذه المحلات، الذي لا يزال موجودًا حتى اليوم، هي الدامجانة؛ قنينة زجاجية على شكل دورق، توضع عادةً في صفوف منتظمة في واجهة المتجر أو على الرفوف العلوية، مملوءة بسوائل ذات ألوان زاهية ومضاءة من الخلف لتتوهج مثل الجواهر الثمينة.

وترمز صبغة الأنيلين التي أعطَت اللون، إلى وعد مشرق للكيمياء الصناعية الحديثة، في حين أنَّ شكل الدامجانة يوحي أيضًا بسوق الشرق مع بضائعه الغريبة من العطور والمستحضرات والكحول التي تذوب فيها اللآلئ أو الياقوت. وأصبحت توقُّعات العملاء للأدوية الجديدة ملونة بالبيئة المحيطة بهم، التي قامت بتأطيرهم على حدٍّ سواء كمعجزات للعلوم الحديثة، ومستحضرات غامضة وشبه سحرية.

توافرَت «الأدوية البسيطة»، بما في ذلك الكوكايين النقي، في الصيدليات الجديدة، غير أنَّ المبيعات الكبيرة هي المنتجات الاحتكارية، المعلن عنها بجرأة ومسماة بالعلامات التجارية. فقد قدَّمت الشركات الصيدلانية مثل بارك ديفيس، وميرك ما عُرف باسم «المنتجات الأخلاقية»، التي تمَّ

تصنيعها وفقًا لمعايير المختبرات الحديثة والنظيفة، مع جرعاتٍ ذات قوة ونقاوة معروفة وموضَّحة بدقة.

ووراء هذه الأدوية ثمة سوق أكبر للأدوية «المسجلة»، وهي تسمية خاطئة؛ لأنَّ مكوناتها عادةً لا تكون مدونة، ناهيك عن أنها مسجلة ببراءة اختراع. وعادة ما كانت تمتلئ بمواد حاملة غير فعالة مثل الصابون، وزيت التربنتين، والشمع ـ أظهرَت إحدى العلامات التجارية الرائدة، حبوب ومراهم هولواي[1]، أنها لا تحتوي على شيء آخر ـ لكن بحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تضمن الكثير منها موادَّ مُخدِّرة ومنشطاتٍ مثل الأفيون والمورفين والكوكايين.

تحمل هذه المنتجات غالبًا علامة تجارية تتضمن شخصية شعبية، مثل «شراب مرطب السيدة وينسلو» أو «مشروب جودفري العطري»، وتُخفَّف مُركباتها شبه القلوية المُرَّة مع شراب السُّكَّر. وسواء كانت هذه الأدوية «مفيدة» أمْ لا، فقد كان جوهرها في عقل المستهلك، الذي من المرجَّح أنْ يشعر بتحسُّن بعد تناولها. كما كانت بعض العلامات التجارية خليطًا قويًا من المنشطات ذات الطيف الواسع التي سيتم تصنيفها على أنها «مواد مُخدِّرة» في العقود القادمة، ومنها مثلًا « كلوريدين الدكتور جي. كولز براون»، وهو مكون أساسي في الصيدليات البريطانية، يحتوي على الكلوروفورم والإيثر والمورفين والقنب. وكتب على ملصقه أنه «صندوق أدوية في حدِّ ذاته».

(1) نسبة إلى توماس هولواي (1800 ـ 1883) صاحب أدوية ذات براءات اختراع إنجليزيٍّ، الذي جمع ثروته من خلالها.

كانت الصيدليات في أواخر القرن التاسع عشر تُعد من عجائب العصر الحديث في نظر المستهلك.

ظهرَت تأثيرات الأدوية الصيدلانية الجديدة، والوعود والمخاطر التي مثّلتْها، كعناصر أساسية في أعمدة الصحف، ومصدر إلهام لروايات الخيال الشهيرة سريعة الانتشار، التي رسخت شعبيتها في المجلات الأمريكية مثل لِبنكوتس[1] وسكريبنرز[2] وانتقلَت بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر إلى بريطانيا، لتستهلّ ما أصبح يُعرف باسم «عصر رواة القصص». ففي قصته القصيرة «المُعجِّل الجديد»، التي نُشرت إلى جانب حلقة جديدة من

(1) مجلة أدبية نُشرت في فيلادلفيا (1868 ـ 1916).
(2) مجلة أدبية أمريكية (1887 ـ 1939).

قصة شيرلوك هولمز الشهيرة «كلب آل باسكرفيل» في مجلة *ذا ستراند*[1] في ديسمبر 1901، والتي بيع منها نحو نصف مليون نسخة، نظر هربرت جورج ويلز[2] إلى مسألة المنشطات بعين متسائلة. وهي مثل معظم قصص المواد المُخدِّرة في تلك الحقبة، كانت تدور حول عالِم يُجري تجربة ذاتية.

يُعد البروفيسور الشهير جيبيرن خبيرًا في مجال «المنومات والمهدئات والمواد المُخدِّرة»، وهو يبحث عن مُنشط عصبي شامل يُعيد النشاط للأشخاص الكسولين في هذه الأيام المليئة بالضغوط، ويكتشف «شيئًا قادرًا على إحداث ثورة في حياة البشر». والراوي، الذي يُعد جارًا للبروفيسور جيبيرن، يوافق على تناول جرعة من المركَّب الذي أطلق عليه البروفيسور اسمَ «المُعجِّل الجديد». وبعد وقت قصير من ابتلاع المحلول المذاب في الماء، يلاحظ أنَّ سرعة العالَم الخارجي تباطأت تقريبًا إلى حدٍّ التوقف التامّ، ويدرك أنَّ تصرفاته الخاصة تحدُث في فترات زمنية صغيرة لا يمكن تصوُّرها من الزمن الطبيعي.

يتجول الثنائي حول مدينة فولكستون الساحلية البريطانية الراقية بسرعة عالية لدرجة عدم قدرة المارّة على رؤيتهم، ويلاحظون تصرفات المارة المثيرة للدهشة ذات التفاصيل البطيئة. تكون التجربة مثيرة ومقلقة بالقدْر نفسه. تُشير هذه القصة إلى مستقبل يمكن للناس فيه اختيار السرعة التي يتحركون بها عبر الزمن، ممَّا يتيح لهم قضاء يوم كامل في جزء صغير من الثانية. يتحدث جيبيرن بحماس عن الإمكانات التي ستفتحها هذه التقنية، قائلًا: «لا يمكن المبالغة من ملاءمة تأمين فترة طويلة ومتواصلة وسط يوم

(1) مجلة نُشرت في المملكة المتحدة من 1891 وحتى 1950.

(2) كاتب إنجليزي (1866 ـ 1946).

مزدحم بالمواعيد». ويبدأ العمل على مادة مثبطة؛ دواء لتخفيف فعالية المُعجِّل المفزعة، وربما تحقيق التأثير المعاكس الذي يتيح مرور فترة طويلة ومملة من الزمن في لحظة ذاتية. وفي هذه الأثناء..

> سيظهر المُعجِّل في السوق خلال الأشهر القليلة المقبلة بشكل ملائم وقابل للتحكم والاستيعاب. وسيكون متوافرًا في جميع الصيدليات ومحلات بيع المواد الكيميائية، في قوارير خضراء صغيرة، وبسعر مرتفع نوعًا ما، بيد أنه مع الأخذ بعين الاعتبار خصائصه الاستثنائية، فهو سعر ليس مبالغًا فيه. سيُسمى بمُعجِّل جيبيرن العصبي، وهو يأمل أنْ يتمكن من توفيره بثلاثة تركيزات: واحد بنسبة 200، وآخر بنسبة 900، والأخير بنسبة 2000، مميزة بملصقات صفراء ووردية وبيضاء على التوالي.

كان هربرت جورج ويلز في تلك الفترة صحفيًا علميًا بالإضافة إلى كونه أديبًا، وأخذ يتابع الاكتشافات الطبية والصيدلانية عن كثب مهتمًا بفكرة منشط يمكن أنْ يعزز الطاقة المتاحة للجهاز العصبي. كان «المُعجِّل الجديد» تخيُّلًا بحتًا للكوكايين، إلى جانب المحفزات الغدية والكهربائية الأكثر حِدَّة والأقل احتمالًا. وتلمّح القصة إلى الاحتمال المثير والمخيف لوجود عالَم يمكن أنْ تخفف فيه المواد المُخدِّرة الروابط بين الأفراد حتى يصلوا إلى أنْ يعيشوا؛ ليس في عوالم عقلية خاصة وذاتية فحسب بل في واقع مختلف تمامًا.

تعكس القصة السوق الحديثة التي تتقدَّم فيها المواد المُخدِّرة التي تُغير العقل بكلِّ سهولة من الاكتشاف المذهل، إلى السلع الرائجة في السوق، وتعيد كتابة الحالة الإنسانية بصمت. وكل هذا يحدث بدون رقابة أو وسائل فعالة للتحكم، وتنتهي القصة بحل جيبيرن الخيالي *بلا تدخُّل*:

مثل جميع التحضيرات الفعالة، فإنها قابلة للاستخدام السيئ. ومع ذلك، لقد ناقشنا هذا الجانب من المسألة على نحوٍ شامل للغاية، وقررنا أَنَّها مسألة خاصة بالقانون الطبي وخارج نطاق اختصاصنا. سنقوم بتصنيع المُعجِّل وبيعه، وعند العواقب، فسوف نرى.

في عام 1887، نشرَت *المجلة الطبية البريطانية* تصريحًا يفيد بأنَّ «ثمة رد فعل قويّ لا يمكن إنكاره بدأ بالفعل ضد المزاعم المفرطة التي صدرَتْ باسم هذا المُخدِّر». ومع ذلك، لم يكن الحكم محسومًا بأيٍّ حال من الأحوال. فقد كانت مخاطر الكوكايين عند البعض اتهامًا للاستهلاكية، وعند البعض الآخر مؤشرًا على ضغوط الحياة العصرية؛ ورأى آخرون أنها كشفَت عن وجود أقلية من المنحطّين أخلاقيًا. وتباينَت آراء الأطباء والصيادلة والجمهور عمومًا على نحوٍ كبير. فيما لا يزال العديد من الأطباء يجدون الكوكايين مفيدًا، ولا يستغنون عنه في الممَّارسات الطبية التي تتراوح من طب العيون إلى الاكتئاب، ومن التخدير الموضعي إلى الشكاوى المعوية، ويعتقدون أنَّ القول بخطورته مُبالَغ فيه. ومن الواضح أنَّ الحقن جلب مخاطرَه الخاصة ـ تسمُّم الدم، والإدمان، والانهيار العصبي ـ ولكن لم يكن ثمة دليل يُذكر على أنَّ المستهلكين العاديين لنبيذ الكوكا وأقراص الاستحلاب كانوا يعانون من أيِّ شيء أسوأ من تخفيف الأعراض الخفيفة لآلام الأسنان أو الربو أو «الكآبة».

أظهر الإسهام التالي لفرويد في هذا النقاش، وهي ورقته البحثية «الرغبة في الكوكايين والخوف منه» التي نُشرت في عام 1887، مدى صعوبة الحديث عبر هذا الانقسام. فقد جادل فرويد بأنَّ إدمان الكوكايين ليس مرضًا، بل مجرد عرض لأمراض نفسية أخرى. ورفض تصوُّر إرلينماير

للمُخدِّر بأنه «الوباء الثالث» للبشرية، واعتبره «مثيرًا للشفقة»، مُجادلًا بأنَّ «جميع الروايات التي تتحدث عن الإدمان على الكوكايين، والتدهور الناتج عنه يشير إلى إدمان المورفين»، والذي كان استخدامه جزءًا من نمط مسبق متأصل من إيذاء النفس الفوضوي. ولإثبات هذه الحُجة، اضطرَّ للتراجع عن توصيته بالكوكايين بوصفه علاجًا من إدمان المورفين، وهو ما نسبَه وقتها إلى شركة بارك ديفيس التي أعلنَت عنه، وجذبَت من خلاله اهتمام الأطباء على نحوٍ عامّ. ولكن للأسف، فقد جذبَت اهتمام المدمنين على المورفين أيضًا.

اعترف فرويد بوجود أمثلة نادرة من الإدمان على الكوكايين، ولكنها يمكن تُنسب بشكل أكثر دقة إلى إبرة الحقن تحت الجلد، وهي الأداة التي توفر إشباعًا فوريًا، ولكن مع خطر تحمُّل يتزايد بسرعة ويدفع إلى استخدام الكوكايين إلى مستوياتٍ سامة، ممَّا يُسبب الاضطراب الجسدي والشعور بالهذيان وهوس الاضطهاد.

لقد تجاهَل فرويد حقيقة أنه هو نفسه قد أوصى بالحقن في ورقته البحثية في عام 1885، وأنَّ فلايشل كان يستخدم هذه الطريقة، إنْ لم يكن بموافقة صريحة من فرويد فعلى الأقل تحت إشرافه، في الوقت الذي كان فرويد يستخدم حالة مجهولة بوصفها قصة نجاحٍ. وفي محاولته إنقاذ الكوكايين من «الافتراءات» الموجَّهة إليه، دفعَه ذلكَ إلى التناقضَ الذاتي والكذب ـ أو على الأقل، وفقًا لتفسير أول مؤرخ له إرنست جونز، إلى محو الحقائق التي تقوّض موقفه بشكل لا واعٍ.

حظي انتقاد إرلينماير للكوكايين بتأييد الأوساط الطبية المتحفظة تجاه المخاطر، ومع تقدُّم الزمن، تلاشَت طموحات فرويد الشخصية مع

المُخدِّر. ومع ذلك، كان ثمة أطباء آخرون غير راغبين في وصفه «وباء» للبشرية. واستشهد فرويد في ختام ورقته، بتقرير التجربة الذاتية لويليام هاموند[1]، المُدافع العنيد عن الكوكايين الذي لم يكن لديه نيّة لتغيير رأيه، ونقل تجربته بالتفصيل. يُعد هاموند من بين أشهر الأطباء في الولايات المتحدة؛ فقد عمل جرّاحًا عامًّا لجيش الاتحاد خلال الحرب الأهلية، وعمل بجد لإعادة هيكلة الطب الحربي وتحسينه. وعلى نحوٍ مثير للجدل، أُزيح هاموند عن منصبه لرفضه إعطاء العاملين المرضى جرعاتٍ من الكالوميل المليئة بالزئبق كعامل تحفيزي للقيء. وقد ادَّعى أنه ليس آمنًا ولا فعالًا، وتبيَّن في وقت لاحق أنه كان على حقٍّ. وطالب بإجراء محاكمة عسكرية، والتي انتهَت بإقصائه عن العمل بذريعة «عدم الانتظام»، بيد أنه استطاع بعد ذلك تحقيق نجاح مهنيّ كطبيب أعصاب، حيث أصبح أستاذًا للأمراض العصبية في جامعة نيويورك عام 1874.

كشف اختبار هاموند للكوكايين بصفته ليبراليًا وعقلانيًا على الدوام الادعاءات المرتبطة بالروحانية والمنتحلين، كما كان مؤيدًا للعلاجات الكيميائية الجديدة مثل الليثيوم لعلاج الهوس. وقد أجرى تجربة شاملة للكوكايين على نحوٍ أكبر بكثير ممَّا فعله فرويد:

> بدأت بحقن حُبيبة من المادة تحت الجلد في الذّراع في الساعة الثامنة مساءً. وظهر التأثير الأول بعد حوالي خمس دقائق، وكان عبارة عن شعور ممتع يبدو وكأنه مُرِّر في أنحاء الجسم بالكامل. وبعد خمس دقائق، قيس النبض ووُجد أنه 94، في حين بلغ قبل الحقن 82. مع هذه الظواهر الجسدية، كان ثمة شعور بالحماس وزيادة في

(1) طبيب عسكري أمريكي (1828 ـ 1900).

النشاط الذهني واضحًا ومشابهًا إلى حدٍّ ما لتلك، التي تتبع عادةً شرب كأس أو اثنين من الشامبانيا. كنتُ أكتب في ذلك الحين، ووجدتُ أنَّ أفكاري تتدفق بحرية متزايدة ومُعبرة على نحوٍ غير معتاد.

زاد هاموند الجرعة بعد يومَين إلى 130 مليغرامًا، ولاحظ الأحاسيس الجسدية نفسها و«رغبة كبيرة في الكتابة»، ممَّا أسفر عن نصٍّ «كان مُنسجمًا تمامًا ومنطقيًا، وجيدًا إذا لم يكن أفضل في الطابع العام من أيِّ شيء كتبتُه سابقًا». وفي الأمسيات التالية، زاد الجرعة على نحوٍ أكبر حتى وصل إلى حقن 12 حُبيبة، وهي ما يقرب من غرام واحد، وعند هذا المستوى «زاد تأثيره على القلب، وأصبحَت نبضاته غير مُنتظمة في القوة والإيقاع؛ لدرجة أنني كنت خائفًا من حدوث نتائج خطيرة». وهذا لم يمنع هاموند من إجراء تجربة مُجازفة أخيرة باستخدام 18 حبة؛ أيْ أكثر من غرام واحد، تناولها في أربع حقن خلال خمس دقائق. وفي هذه الحالة، كتب:

شعرتُ بأنَّ عقلي أفلت من سيطرتي، وأنني أصبحتُ شخصًا غير مسؤول. أظن أنني فقدتُ الوعي بجميع أفعالي في غضون، أعتقد، نصف ساعة بعد الانتهاء من تناول الجرعة. ربما، مع ذلك، تدخلَت أمزجة أخرى، لأنني في اليوم التالي عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي، بعد ثلاث ساعات من موعدي المعتاد، وجدتُ أرضية مكتبتي مليئة بالموسوعاتِ والقواميس والكتب المرجعية الأخرى، وهناك كرسيّ أو اثنان مقلوبان.

استنتج هاموند قائلاً: «بالتأكيد في هذه الحالة، كنتُ قريبًا جدًا من تناول جرعة قاتلة، ولا أنصح أيَّ شخص بتكرار التجربة». ومع ذلك، لم يلاحظ أيَّ رغبات مَرضية أو أعراض انسحاب، وهو ما أكده في محاضرة أمام جمعية الأعصاب في نيويورك عام 1886 بعنوان «عادة الكوكايين

المزعومة»، إذ أخبر الحاضرين إنَّ عادة الكوكايين في الواقع «ممَّاثلة لعادة الشاي والقهوة، وغير ممَّاثلة لعادة الأفيون»، حيث تُشكل «حماسة ذهنية ممتعة» لا تؤدي إلى اعتماد الجسم الحيوي عليها. كل ما يتطلبه الأمر هو قوة الإرادة لمقاومتها، «وليس مثل الكحول أو التبغ».

لم يعارض هاموند شهادة إرلينماير التي تقول إنَّ مدمني الكوكايين موجودون، تمامًا كمدمني القهوة، وشدد على أنَّ إدخال الكوكايين على عادة الأفيون كان «تركيبة سيئة للغاية». في رأيه، لم يكن الكوكايين وباءً يضر بالإنسانية، بل مجرد إضافة أخرى إلى القائمة الطويلة من المواد التي تصبح ضارة عند الجرعات العالية غير الملائمة. واستمر في الاستمتاع بكأس من نبيذ الكوكا بانتظام «في نهاية أعماله اليومية».

كشفَت ردود الفعل على محاضرة هاموند، عن وجود نقص عميق في الاتفاق بين أطباء نيويورك. فقد شهد أحد الأطباء في حيّ بروكلين سبعَ حالات إدمان الكوكايين ـ خمسة أطباء واثنين من الصيادلة ـ ويعتقد بقوة أنه يُسبب ضررًا فيسيولوجيًّا «أكثر سوءًا حتى من المورفين». في حين وجد آخرون أنَّ الكوكايين فعّال في علاج حالات الاكتئاب، أو عن طريق الحقن لتخفيف آلام العصب الوركي، كمُخدِّر في عمليات البواسير أو في علاج التهاب الملتحمة. ورأى أحدهم بشدة أنَّ القلق بشأن خصائص الإدمان للكوكايين يخلق «تحيزًا ضد علاج مفيد للغاية».

أكد فرويد قد في كتابه «عن الكوكا» أنَّ استجابات الأفراد للكوكايين تختلف على نحوٍ كبير؛ من القلق إلى النشوة، وزيادة الطاقة إلى الدوار أو الغثيان. كما لاحَظ أيضًا اختلافًا واسعًا في الاستجابة للجرعة؛ «لقد وجدتُ العديد من الأشخاص الذين لم يتأثروا بجرعة 5 سنتيغرام (50

مليغرامًا)، وهي جرعة فعالة لدي وللآخرين»، وهذا هو أحد الأسباب التي دفعتْه لإجراء معظم اختباراته على نفسه باستخدام دينامومتر. وعلى وجه الخصوص، «تختلف الظواهر الشخصية بعد تناول الكوكا من شخص إلى آخر، ويشعر فقط عددٌ قليل من الأشخاص، مثلي، بنشوة خالصة».

يبدو أنَّ الرأي الطبي المتزن والمتقارب غير واضح مع المواد المُخدِّرة التي تؤثر في العقل. إذ كانت آراء الأطباء متغيرة بشدة بحُكم تجاربهم الشخصية، التي تختلف اختلافًا كبيرًا؛ وبدورها، أكدت تجاربهم التحيزات التي سبقتْها. بالنسبة لويليام هاموند، ولكل مَن يؤيد وجهة نظره، ثمة مثل ويليام هالستد[1]، أكثر الجراحين براعةً في أمريكا والمقيم في مستشفى بيليفو بنيويورك. يُعَدُّ هالستد ممَّن تبنّوا الكوكايين مبكرًا، حيث زار فيينا في عام 1880 وقرأ بحث كولر المنشور حول التخدير بالكوكايين. وبحلول نهاية عام 1884، كان هالستد يجرب استخدام الكوكايين في عيادته الجراحية، حيث يشلّ الأعصاب والعضلات بدقة ويختبر العمليات الجراحية التي يمكن استخدامها فيها. وفي المساء، يحقن مساعديه وطلاب الطب في مواقع مختلفة، ثم بدأ هؤلاء في استنشاقه قبل الخروج إلى المسارح، أو التوجُّه إلى منزل هالستد الفخم في الشارع الخامس والعشرون.

وبحلول ربيع عام 1885، تفاقم إدمانه على الكوكايين وخرج عن السيطرة، وبدأت حياته المهنية تتفكك. فقد فوّت محاضراته، وكلَّف زملاءه بالقيام بالعمليات التي يُفترض أنْ يُجريها، وفي اجتماع في شهر أبريل لجمعية الجراحة في نيويورك، حيث كان يتألق عادةً بذكائه وخبرته،

(1) طبيب وجراح أمريكي (1852 ـ 1922).

ظهر بمظهر مشوّش ومُرتبِك. وبحلول هذا الوقت، كان قد غادر مستشفى بيليفو واختبأ في منزله مع كميات كبيرة من الكوكايين. وحين يأتيه الزوار يبدو متسلطًا ومتحمسًا حيث يُلقي عليهم أحاديثَ طويلة «عن كل شيء فوق البسيطة؛ من تحرُّك كوكب الزهرة إلى بكتيريا النيسرية البُنِّية».

تدخَّل زملاء هالستد الأطباء لمساعدته، حيث أرسلوه في رحلة بحرية إلى منطقة البحر الكاريبي مع كمية كافية من الكوكايين من أجل تقليل جرعاته تدريجيًا حتى تصل إلى الصفر. كان هالستد يستلقي في سريره، يحسب بهوَس المدة التي سيدوم فيها مخزونه، حتى إنه ذات ليلةٍ كسر قفل صندوق الأدوية الخاص بالقبطان. وعندما وصلَت السفينة إلى فلوريدا، أصبح هالستد مرهقًا ويعاني من الأرق والوسواس والتشنجات العضلية المؤلمة التي ما برحَت مشدودة بإحكام لأسابيع. وعند عودته إلى نيويورك، قرر بضغط من الأصدقاء والزملاء، دخول مصحة عقلية في منطقة بروفيدنس. وبعد عدة أشهر إضافية من محاولة التخلص من الإدمان في المصحة، تعافى هالستد وأصبح أول أستاذ للجراحة في جامعة جونز هوبكنز.

لم يتوصل الأطباء والمختصون في ذلك الحين، أو بعد ذلك إلى اتفاق حول السبب الذي أدى إلى انجراف هالستد بشكل مخيف نحو الكوكايين، أو حتى ما إذا كان قد تعافى حقًا من إدمانه. وفي أول سيرة ذاتية له، التي نُشرت في عام 1930، تم التغاضي بسرعة وبحذر عن الحادثة، ووُصفت بأنها حادث وقع على العديد من مستخدمي الكوكايين الأوائل الذين كانوا «بريئين تمامًا من أيِّ معرفة بطبيعته القابلة للإدمان»، وركزَت القصة على كيفية «تغلُّبه عليها بفضل قوة خارقة وعزيمة ماضية، وعاد إلى حياة رائعة من الإنجازات».

وحسب ما لاحظه صديقه الطبيب وجراح الأعصاب هارفي كوشينغ[1]، بدا هالستد شخصًا صارمًا ومتكلفًا ومتحدثًا لبقًا قبل تعاطيه للكوكايين. وقد عزَّز تعاطي الكوكايين جميع هذه الصفات، و«الحقيقة هي أنه لم يتغلب عليها». وعلى الرغم من أنَّ التعاطي لم يدمر مهاراته، أشار كوشينغ أنَّ الكوكايين ربما زاد من دقة هالستد واهتمامه بالتفاصيل والنظافة، ممَّا أدى إلى إنشاء «مدرسة هالستد للجراحة» التي أكدَت على السلامة والدقة في تقنياتِ الجراحة.

ظهرَت بعض القصص الأكثر إثارة للقلق من قصة هالستد بانتظام في الأدبيات الطبية. فعالِم السموم الألماني لويس لوين، الذي يُعتبر في ثمانينيات القرن التاسع عشر مرجعًا دوليًا في النباتات والمواد المُخدِّرة المؤثرة في العقل، كتب عن مريض يعاني من الألم العصبي الوجهي والذي لجأ إلى المورفين لتخفيف الألم حتى قدِّم له الكوكايين. وبعد ذلك بوقت قصير، بدأ المريض في استخدام أكثر من غرام واحد يوميًا من الكوكايين، حيث كان يغمس الكوكايين في قطعة من القطن ويضعها بين أسنانه، ومن المحتمل أنه تمَّ امتصاصها عبر اللثة. تُبرز هذه القصة الإمكاناتِ الخطيرة للإدمان والإساءة المرتبطة باستخدام الكوكايين، وكذلك المخاطر الناجمة عن تناول الأدوية بدون إشراف طبي صحيح. عبَّر الرجل المنكوب بكلماته الخاصة على النحو التالي:

فيما يتعلق بتأثيره في شخصيتي، يمكنني أنْ أقول وبكل صدق: إنَّ السنوات الخمس الماضية يمكن اعتبارها من أسعد سنوات حياتي، وأنا

---

(1) طبيب أمريكي مختص بجراحة الأعصاب (1869ـ 1939).

مدينٌ لذلك في المقام الأول للكوكايين. لا شيء يمكن أنْ يُفند هذه الحقيقة البسيطة.

واختتم رسالته المكونة من اثنتي عشرة صفحة بالكلمات التالية:

أحتاج إلى الكثير من الوقت قبل أنْ ينتهي تصوُّري للعالم عند نقطة تستند إلى هذه الجملة: «الإله مادة!».

مع انتشار الإدمان بين الأطباء وأطباء الأسنان والجراحين وعائلاتهم، أصبحت المخاطر التي يتعرض لها الأشخاص العاديون بدون إشراف أكثرَ إثارة للقلق. إذ أصبحت حرية الحصول على المواد المُخدِّرة مثل الكوكايين من الصيدليات مصاحبةً لسوق مزدهرة للإرشادات الطبية المنزلية، والأدلة الأخرى التي تشجع الجمهور على تجنُّب رسوم الأطباء من خلال تعلُّم أُسس الصيدلة بأنفسهم. فقد كانت الصيدليات ومحلات العطارة تغذي دائمًا ثقافة الطب الذاتي بين الجمهور «العلاج بنفسك»، كما يطلق عليه في القرن الثامن عشر، والعقاقير الجديدة سمحَت للأفراد بتجربة مزاج وتصوُّر جديد، على طيف يمتد من النشوة المعتدلة التي يمكن التحكم فيها، إلى الإفراط والإكراه والانهيار العقلي.

وكما هو الحال الآن، فإنَّ الأدلة الطبية والرأي كانت موجَّهة نحو الحالاتِ التي شهدها الأطباء، والتي تعود إلى التجارب الذاتية التي أسفرَت عن كوارث. ومن الصعب تقدير عدد أفراد الجمهور الذين قاموا بتجارب آمنة ومنتجة، حيث ثمة العديد من العوامل التي لا تشجع للإعلان عن استخدام المواد المُخدِّرة الشخصي؛ بيد أنَّ ثمة مثالًا واحدًا موثقًا على نحوٍ جيد، يوضح أنَّ بعض الأشخاص العاديين قد طوَّر فهمًا للمواد المُخدِّرة، على نحوٍ يفوق ما فعله كثير من الأطباء.

بين عامَي 1895 و1914 عمل المهندس البريطاني جيمس لي في مجال البناء ومشاريع التعدين في مستعمرات معظمها في جنوب وشرق آسيا. وبعد تقاعُده في عام 1935، نشر مذكراته تحت عنوان *العالَم السفلي للشرق: تجربة مدتها ثمانية عشر عامًا في عالم الجحيم ومطاردة المواد المُخدِّرة والأدغال في الهند والصين وشبه جزيرة الملايو*. تُقدِّم هذه القصة منظورًا مختلفًا تمامًا عن الأدبيات الطبية، وهي مقاربة عقلانية وعملية لاستخدام المواد المُخدِّرة وإدارة مُتعها وآلامها:

> يمكن أنْ تكون حياة متعاطي المواد المُخدِّرة سعيدةً تفوق أيَّ حياة أخرى، أو قد تكون حياة مليئة بالمعاناة والبؤس؛ وذلك يعتمد على معرفة المتعاطي. لن يتم الوصول إلى الفترة الأكثر إثارة إلا بعد سنواتٍ عديدة، وعندها فقط، إذا حافظ على صحته بحالة مثالية.

ربما تكون تجربة جيمس لي استثنائية، بَيد أنَّ خلفيته ليست كذلك. لقد كان واحدًا من جيل جديد من العمال البريطانيين الذين تعلَّموا في المدارس الحكومية بعد قانون التعليم لعام 1870، وانتفعوا بشبكة من الجمعيات العلمية والمكتبات المدعومة، وكانوا حريصين على توسيع آفاقهم الشخصية. وُلد جيمس لي في عائلة تمتهن تجارة الحديد في شمال شرق إنجلترا الصناعي، وفي سنِّ السابعة عشر بدأ عمله متدربًا لدى مهندس في منطقتَي شيفيلد وتيسايد، ثم انتقل إلى لندن ليعمل مدرسًا مساعدًا في مدرسة للميكانيكا. وفي سنِّ الحادية والعشرين، قدَّم لوظيفة مشرف التعدين المعلن عنها في ولاية آسام الهندية، وقال إنه كان يشعر بالملل من الحياة في إنجلترا: «هناك الكثير من الروتين؛ مكان لا يوجد فيه الكثير من الحرية الحقيقية، وحيث يتعين على المرء تقليد ما يفعله الآخرون. كان

يتعين علينا ارتداء نوع الملابس نفسه مع طوق وربطة عنق، والحديث يدور عن كرة القدم وسباق الخيل، وإلا فلن يُعتبر الشخص رياضيًا».

بدأت مسيرة جيمس لي في تعاطي المواد المُخدِّرة خلال مهمته الأولى في منطقة ريفية نائية بآسام في شمال شرق الهند، حيث سرعان ما وجد نفسَه يعاني من قشعريرة الملاريا والحمى. فأعطاه الطبيب المحلي على الفور حقنة مورفين جعلته «يهرهر بهدوء [كقِطّ]»، وعاد إلى المنزل مع مجموعة حقن وأنبوبة تحتوي على أقراص المورفين. لم يمرّ وقت طويل حتى وجد لي نفسَه «يتطلع إلى فترة ما بعد الظهر عندما ينتهي العمل لليوم، حتى يتمكن من تناول جرعة أكبر ويتخيل أحلامًا وردية». علّمه الطبيب أساسياتِ الحقن الآمنة، وتعلَّم كيفية تطهير الإبر وتعقيمها، وكيفية التعرف على علامات التهاب الدم. وبعد بضعة أسابيع لاحظ أنَّ تحمُّله للمورفين يزداد؛ ومن ثَم قرر التوقف عن تعاطيه، ولكن القول أسهل من الفعل!

بينما كان يقلل من جرعته، عانى جيمس من تشنجاتٍ وأرق و«شعور فظيع بالاكتئاب والحزن». وعاد إلى الطبيب الذي قال له: «سيدي، المورفين دواءٌ غريب جدًا، فهو يجلب الجنة والجحيم معًا. من الصعب جدًا التوقف عن تناوله، ولكن يمكن فعل ذلك!». بعد ذلك، حقَنه بنصف حبة من الكوكايين. ووجد جيمس أنَّ المُخدِّر الجديد «مُنشط ومثير، ويُسبب شعورًا بالسرور والابتهاج والمعنويات الجيدة»، غير أنه بعد فترة من الزمن أصبح يُسبب له الأرق.

أصبح علاج الطبيب هذه المرة دعوة جيمس للحضور إلى منزله لتدخين غليون الأفيون في المساء. وبعدها عاد النوم إلى حياته. ومع ذلك، قرر جيمس التخلص من هذه العادة التي اكتسبها عن طريق الخطأ. وفي

حين أنَّ الإدمان هو المصير النهائي الذي يُذكر في معظم الأدبيات المتعلقة بالمواد المُخدِّرة، كان الإدمان في حالة جيمس لي، مجرد بداية الرحلة. فقد كتب: «بدأتُ الآن أستخدم المواد المُخدِّرة بأسلوب علميّ»، كما أدرك أنَّ استخدام الكوكايين بإفراط سيؤدي في النهاية إلى انحدار الجسم نحو هيكلٍ عظميّ منهَك للغاية، وسيصبح المورفين مسارًا مسدودًا يستنزف الوعي تمامًا، بيد أن الجرعة المناسبة من كلا المُخدِّرين، وعند استخدامها بحكمة، ساعدتْه في الخروج من هذه المسارات المدمرة.

وضع جيمس نظامًا يعتمد على تبادل استخدام الدواءين، حيث يقلل جرعة أحدهما ويستبدل الآخر بها بجرعات محسوبة بعناية، وأنشأ نظام إزالة السموم يشرحه بالتفصيل، حبة بحبة. ولاحظ، كما فعل أرنست فلايشل، أنَّ «هذَين الدواءين يكونان بطريقة ما مضادَّين لبعضهما بعضًا» «يمكن استخدام كلٍّ منهما لتقليل الرغبة في تناول الآخر، وتخفيف الاثنين تدريجيًا».

> أعترف أنني في النهاية شعرتُ برغبة طفيفة، غير أنها لم تكن شيئًا حقيقيًا، وكنتُ أتخلص منها يومًا بعد يوم. ومع ذلك، قررتُ أنَّ النظام ليس مثاليًا، وكنتُ أنوي مواصلة التجارب والبحث حتى أجد علاجًا مضمونًا وسهلًا.

لجأ جيمس إلى استخدام هذا العلاج خلال رحلاته العائدة إلى إنجلترا، إذ كانت الأسابيع الستة التي تستغرقها الرحلة البحرية كافيةً لأنْ يكون في صحة جيدة وجسمه خاليًا من المواد المُخدِّرة حينما ينزل من السفينة في مدينة بورتسموث. ولقد أدرك من هذه النظرة الشاملة أنَّ «مُخدِّرا واحدًا يعني الكارثة»: فمن خلال مزج المواد المُخدِّرة المختلفة يمكن الحفاظ

على تأثيراتها المرغوبة. عندما تابع «هوايته» الذاتية على مرِّ السنين، اكتشف أنَّ فترات الامتناع التامّ أيضًا ضرورية للسماح بالتعافي الجسدي الكامل.

ثمة جانب مهم في رواية لي، وهو أنه يُظهر جهلًا تامًا بالمناقشات حول الكوكايين. من الواضح أنه ليس على دراية بفرويد والجدل القائم حول علاج المورفين والكوكايين، ويبدو أنه لم يسمع عن توماس دي كوينسي، أو شارل بودلير، أو أيٍّ من أدبيات المواد المُخدِّرة الشهيرة التي أكدَت على أنَّ آلام المواد المُخدِّرة ستسود دائمًا على مُتعها. فهو لا يقرأ الصحف ويتجنَّب رفقة مواطنيه الأوروبيين، الذين يلتقي بهم نادرًا في المناطق النائية من الهند، وفيما بعد، في أرخبيل الملايو والصين. وفي المقابل، استفاد جميس من معلومات طبيبه الهندوسي، ومن السكان المحليين خلال رحلاته، حيث سعى لزيارة مواطنهم التقليدية والتردد عليها. وتزوج امرأة محلية تُدعى مولكي، التي هربَت من زواج تقليدي مُرتب في المقاطعات الوسطى مقابل حياة عمل شاقّ في مناجم آسام، غير أنَّ مصدر معرفة جيمس لي الأساسي هي تجاربه الذاتية.

طوّر جيمس لي، على مرِّ السنين، شكًا صحيًا في الآراء الطبية الغربية، التي عادةً ما تقوم على معرفة أقل بكثير ممَّا يعرفه بنفسه. وفي إحدى رحلات عودته إلى أوروبا، تعرضَت خُططه الدقيقة للتخلص من الإدمان للخطر بسبب زميله في حجرة السفينة، وهو طالبُ طب شابٌّ:

> لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشف أنني أتعاطى المواد المُخدِّرة، وألقى عليّ محاضرة حول التبعات الفظيعة لهذه العادة. سألتُه عما إذا كان قد تعاطى بعضها بنفسه، فأكد أنه لم يفعل، وأنه يعتمد على ما سمِعه من الآخرين.
>
> بعد وقت قصير، لاحظتُ أنَّ حقنتي اختفَت من يدي!

«في المورفين تجتمع الجنة والجحيم معًا»، كما كتب لويس ليوين، متبعًا كلام طبيب جميس لي الهندي، ورغم أنَّ الفرق يكمن عند ليوين في أنه «إذا وُضع المركَّب بيد الطبيب، فإنَّ قوته تكون إلهية». ولكن يبدو أنَّ النتيجة لا تعتمد في كثير من الأحيان على التجربة الطبية، وإنما على شخصية المستخدِم ووضعه.

يرتبط الفرق بين جيمس لي، وإرنست فلايشل، في كيفية اكتسابهما لعاداتهما والخطر المهدد حين التوقف عنها. كان تعلُّق جيمس لي بالمواد المُخدِّرة عرضيًا، والتغلب عليه يُعد مسألة فخر واحترام للذات. أما فلايشل فيعاني آلامًا مستمرة ومؤلمة، والامتناع عن المورفين والكوكايين يعيد إليه تلك الآلام فورًا. وفي مواجهة هذا الموقف تصرف بأسلوب يختلف تمامًا عن طبيعته العادية؛ إخفاء إدمانه، والكذب على أصدقائه، واستخدام الكوكايين على نحوٍ مفرط وذاتي التدمير. وبالنسبة للأصدقاء والجهات الطبية على حدٍّ سواء، بدت هذه تحولاتٍ كبيرة في شخصيته، كما لو أنَّه وقع تحت سيطرة شخصيةٍ أخرى ذات قوة غريبة أو شيطانية.

عندما كتب هارفي كوشينغ مذكراته عن ويليام هالستد في عام 1931، وصف كيف حوَّلت الكوكايين هالستد من «جراح مبدع مفعم بالحيوية ومثير للإعجاب» إلى وحش يتسم بالأنانية والانغماس في الذات. ومع حلول ذلك الوقت، ظهرَت طريقة مختصرة معروفة جيدًا لوصف هذا التحول. فقد أصبح هالستد، بكلمات كوشينغ، «شخصيات جيكل وهايد».

* * *

ظهرَت رواية *قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة* في عام 1885، في الوقت ذاته الذي نشر فيه سيغموند فرويد أوراقه البحثية عن الكوكايين، وسرعان ما أصبحَت الرواية استعارة رئيسة عن تغيُّر الشخصية بسبب تعاطي المواد المُخدِّرة. فهذه الرواية يمكن قراءتها بطرق شتى، مثلًا مع رواية فرانكنشتاين[1] أو قصة بروميثيوس[2]، بوصفها حكاية عن غطرسة العلماء؛ أو بكونها حكاية رمزية عن الصراع بين الخير والشر من أجل الإنسان؛ أو أنها جغرافيا نفسية للمدينة الحديثة، حيث تتصل المنازل الراقية في المنطقة العليا بالمدينة سرًا بجوانبها المظلمة المتمثلة في المباني المتداعية والأحياء الفقيرة. أما على المستوى الأدبي الأكثر حِرفية، فتروي الرواية قصة الكارثة التي يُسببها باحثٌ طبيٌّ موهوب لنفسه، عند تجربته تعاطي مسحوق أبيض مُسكِر.

(1) فرانكنشتاين هي رواية للكاتبة الإنجليزية ماري شيلي، صدرت عام 1818، تروي قصة عالم شاب يخلق مخلوقًا غريبًا عاقلًا في تجربة علمية غير تقليدية.
(2) من أهم القصص في الميثولوجيا الغربية، وترمز شخصية بروميثيوس في التقليد الكلاسيكي الغربي إلى الكفاح البشري، لا سيما البحث عن المعرفة العلمية، وخطر التجاوز والعواقب غير المقصودة.

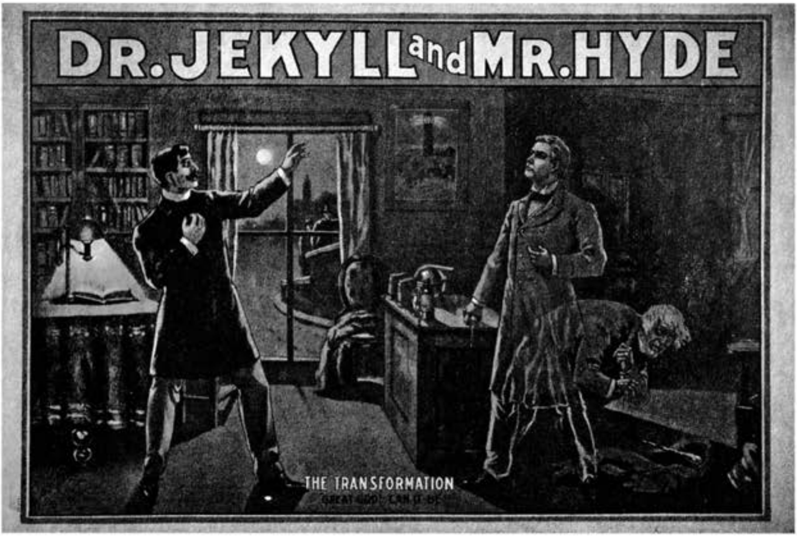

رواية قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة (1886) أصبحت الحكايةَ الرمزية الكلاسيكية للتجارب الذاتية، ومخاطر المواد المُخدِّرة المغيِّرة للشخصية.

كتب روبرت لويس ستيفنسون[1]، الذي عانى من الإرهاق العصبي المزمن، النسخة النهائية من روايته في ثلاثة أيام وليالٍ، وكان يستند إلى نظام ملتبس من المنشطات والمحفزات العصبية التي تضمنَت النبيذ المخلوط بالكوكا. ولكن سواء كان ذلك مصدرَ إلهام مباشر أمْ لا، فإنَّ ردَّ فعل الدكتور جيكل الأول على جرعته يتمثل في نوع من نشوة خالصة يشبه على نحوٍ كبير ترنيمة بهجة كتبها باولو مانتيغازا:

> ثمة شيء غريب في مشاعري، شيء جديد لا يوصف، ومن حداثته، حلو بشكل لا يُصدَّق. شعرتُ بأنني أصغرُ سنًّا، وأخفُّ وزنًا، وأسعدُ جسدًا. كنتُ أشعر في داخلي برعشة من الجنون، وتدفُّق صور حسية منفلتة تجري مثل مجرى الطاحونة في خيالي.

(1) روائي إسكتلندي (1850 ـ 1894).

لم تكن هذه النشوة الزائدة شيئًا طبيعيًا أو صحيًا. فهي تفتقر إلى براءة السعادة الحقيقية؛ كانت شيئًا «أكثر شرًّا بعشرة أضعاف»، ظِلُّ ذاتي مكبوت استولى على مضيفه الرصين. كان هايد لا يزال مدركًا لهويته كدكتور جيكل، ولكنه عندما تخلَّص من شخصيته العلمية الرصينة «أحسُّ بأنَّ الفكرة في تلك اللحظة أعطتْني الشعور بالحيوية والسرور مثلما يفعل النبيذ». يتضح أنَّ مصدر الشر هو عادته على مرِّ السنين في قمع رغبته في المتعة، التي وجد أنه من «الصعب التوفيق بينها وبين رغبتي الجبارة في السير برأسٍ مرفوعة، ورسم ملامح أكثر جدية من المعتاد أمام الجمهور». أما حياته فكانت «سلسلة من الجهد والفضيلة والسيطرة»، ومع هذه الجرعة، أطلق عن غير قصد رغبة بدائية، واستغلت ذاتٌ مكبوتة فرصتها للاستيلاء عليه.

ظهرت قصة ستيفنسون في الأصل في خياله إليه على شكل كابوس أدرك عند استيقاظه أنه سيكون «حكاية خيالية رائعة». إذ لم تكن مخصصة بوصفها بحثًا أخلاقيًا، ولم تُقدم إجابة عن سؤال ما إذا كان جيكل قد ارتكب خطأً في «إخفاء متعته» أو ما ينبغي عليه أنْ يفعل بدلًا من ذلك. مثل مدمن الكوكايين، كانت «أنا» جيكل الأخرى تملك احتياطيات أكبر من الطاقة، وذكاءً أكبر من نفسه الطبيعية، ووجد جيكل شيئًا غريبًا في السطوع الخارق للطبيعة الذي التقاه في المرآة. إلقاء نظرة على «طبيعتَين تتصارعان في مجال وعيي»، على حدّ تعبير جيكل، جعلتْه يواجه بإدراك أنَّ النفس الدنيوية والغرائزية لا بدَّ أنْ تكون لها اليد العليا. من هذا المنطلق، فإنَّ الجرعة التي يتناولها جيكل تُحذر من عواقب مجتمع يعاني من تأثير المواد المُخدِّرة الغريبة والأكثر فتكًا، تلك التي تمنح الإنسان الفرصة للتحرر الكامل من «ثنائية الإنسان البدائية». وعندما يرى جيكل الوجه الوحشي في المرآة:

لم أشعر بأيِّ اشمئزاز، بل كنتُ أشعر بالترحيب الحارِّ. هذا، أيضًا، كنتُ أنا. بدا ذلك طبيعيًا وإنسانيًا. في عيني، كان يحمل صورةً أكثر حيوية للروح، وبدا أكثر تعبيرًا وأكثر اتحادًا من الوجه الناقص والمنقسم الذي اعتدتُ حتى الآن على أنْ أُسميه: وجهي.

أصبحَت رواية *جيكل وهايد* ظاهرة شعبية، ولها تأثير واسع الانتشار في العديد من القصص القوطية في أواخر القرن، وقد دارت أحداثها حول شخصية مُجرِب للمواد المُخدِّرة ذي طبيعة مزدوجة. كثيرًا ما كان البطل ـ الضحية «عاملًا في المجال العقلي»، وهي فئة مُعرَّضة بنسبة عالية لخطورة للإرهاق العصبي والاستخدام الزائد للمنشطات التي وصفها الطبيب الفسيولوجي الفرنسي الرائد تشارلز ريشه في مجلة *العلوم الشعبية الشهرية* «سموم الذكاء».

لم يكن العقل الاستثنائي في منأى من المنشطات؛ فكلما كان صاحب الفكر أكثرَ حدّة، فهو أكثر عُرضة للتحول إلى مدمّر تحت تأثيرها. فالمفكرون المنهكون يتعرّضون لخطر الجنون، على الأقل في الأدب، بسبب ليالي السهر تحت تأثير القهوة أو الشاي، ولكن مع ظهور المنبهات الأكثر فاعلية، دفعت هذه الظروف الكُتاب لتوسيع نطاق العواقب إلى «مجال خارق للطبيعة».

فعلى سبيل المثال، يتحدث الكاتب جورج جريفيث[1]، في قصته القصيرة «عبقرية لمدة عام» (1899)، عن كاتب يعاني من شكوك بقدرته الفنية المتواضعة، ويدفعه الفضول إلى تجربة بعض الحشيش الذي أرسله له شقيقُه من كلكتا. وبعد تناول الجرعة الأولى من الحشيش، شعر وكأنه

(1) مؤلف من ويلز (1863 ـ 1947).

يراقب نفسَه من مكان بعيد، حيث يكتب هو ـ أو شخصيته البديلة ـ صفحة تلو الأخرى بسهولة، وعيناه تتوهجان «بضوء عنيف قد يكون إما جنونًا أو عبقرية». وحين تلاشى تأثير المُخدِّر، «بدا أنَّ كيانَيْه يندمجان معًا ليصبحا كيانًا واحدًا»، وغطَّ في نوم عميق بلا أحلام. وعند استيقاظه وقراءته لما دوّنه ليلًا، أدرك أنَّ العمل يُعتبر تحفة فنية تفُوق كلَّ ما كتبه من قبل. ولمدة عام، غمرتْه العبقرية، لكن عندما قرأ روايته التي أوشكت على الاكتمال، قال «لقد كانت رائعة، بيد أنها غريبة تمامًا عليَّ! مَن كتبها؟» وفي لحظة استنارة، ابتلع كل حبوب الحشيش المتبقية لديه، و«تتابعَت رؤى الروعة الفوضوية بسرعة هائلة خلال مشهد رقصة الموت لحواسِّه المُحتضرة». وفي الأخير، عثروا عليه ميتًا، وطاولته مكدَّسة بصفحاتٍ «مليئة بأبشع هراء»، وفي الصفحات الأخيرة من عمله خربشة غير مفهومة.

ثمة مصير مشابه لاقاه البطلُ في قصة آرثر ماكين «رواية البودرة البيضاء» (1895)، حيث تحوّل فرانسيس، الشاب القلق والمُحبّ للكتب، تدريجيًا بفضل «بودرة بيضاء تبدو نظيفة، تذوب في كأس من الماء البارد»، إلى «عاشق للمتعة، ومسترخٍ ومرِح، يتجول في الشوارع الغربية، وباحث عن المطاعم الراقية، وناقد رائع للرقص الفانتازي». ففي البداية، كان أصدقاؤه، الذين ألقوا باللوم على ساعات دراسته الطويلة أنها سببَت له «بعض المشاكل في الجهاز العصبي»، سعداءَ بهذه التغيرات، لكن أخته شعرَت بالقلق عندما لاحظَت علامة مخيفة على جِلده بين إبهامه وسبابته. وسرعان ما اعتزل فرانسيس في غرفته، ورفض الزيارات، وعندما اضطر أصدقاؤه أخيرًا لفتح الباب، كانت الصدمة عندما كُشف عنه في حالة متقدمة من التدهور الجسدي المرعب.

استند ماكين إلى رواية أوسكار وايلد *صورة دوريان غراي* (1890) بقدرٍ ما اعتمد على رواية *جيكل وهايد*، وكانت النهاية الحسية والوهمية تُبشر بجوهر قصص الرعب في القرن العشرين، وخاصة ما كَتبه عشاقه الكبار مثل هوارد فيليبس لافكرافت[1]. وتبين أنَّ البودرة البيضاء هي كمية سامَّة تحللَت على رفوف الصيدلية المحلية الرطبة منذ عقود، ويكمن خطرها الحقيقي في أنها تُعطي متعة غير مكتسَبة، وهي تأثير فاسد يُبطل الشعور بالذنب، أو بعبارة ماكين الفريدة في أدب الرعب «الاشمئزاز الذاتي». ويعكس انحلال فرانسيس النهائي في غرفة نومه نظريات نهاية القرن من الأمراض العصبية والتدهور، ويربط المتعة المستفادة من مُخدِّر مثل الكوكايين «بالرذيلة المنعزلة» للتلوث الذاتي؛ متعة فارغة وآلية لا تزيد من احتياطياتِ الطاقة العصبية في الجسم، بل تستنزفها حتى لا يمكن إصلاحها.

بالطبع، كانت أكثر الروايات هذه الحقبة التي تطرقت إلى الكوكايين بإسهاب، هي قصص شخصية شيرلوك هولمز. إذ إنَّ تعامُل آرثر كونان دويل[2] مع هذا الموضوع يوضح ببلاغة التحول في الرأي العامِّ خلال عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر. وتُعد مغامراتُ المحقق العظيم الأولى الأكثر تشبُّعًا بالإشارات إلى المواد المُخدِّرة. في البداية، يبدو أنَّ عمل هولمز بوصفه محققًا يؤدي دورًا ثانويًا تقريبًا بالمقارنة مع تجاربه على نفسه. ففي أول قصة قصيرة نُشرت، «فضيحة في بوهيميا»، نقرأ أنه «كان يتناوب من أسبوع لآخر بين الكوكايين والطموح»، حتى «استيقظ

(1) كاتب أمريكي للخيال العلمي والرعب (1890 ـ 1937).
(2) طبيب وكاتب اسكتلندي (1859 ـ 1930)

من أحلامه الناجمة عن المُخدِّر، وأصبح مندفعًا نحو معضلة جديدة». وفي قصة «بذور البرتقال الخمس»، التي نُشرَت في مجلة *ذا ستراند* في نوفمبر 1891، يصف الدكتور واطسون شيرلوك هولمز بأنه «مُسمم ذاتي بالكوكايين والتبغ». ويعكس هذا الوصف المعاملة السلبية لاستخدام هولمز للكوكايين والتبغ، وهو مؤشرٌ آخر على تغيُّر الرأي العامِّ حول المواد المُخدِّرة في ذلك الحين.

ومع ظهور رواية *علامة الأربعة* في عام 1890، الذي أُشتُهرَت فيه مجلة *ذا ستراند* كأبرز مُوزِّع للقصص المصورة، وشيرلوك هولمز الذي اعتُبر نجمها اللامع، أصبحت المناسبة التي أسست على نحوٍ لا يُنسى عادة المحقق هولمز في تعاطي المواد المُخدِّرة. في السطور الافتتاحية الشهيرة:

> التقط شيرلوك هولمز زجاجته من فوق زاوية رفِّ المِدفأة، وحُقنته من داخل غلافها الأنيق المصنوع من جِلد الماعز. وبأصابعه البيضاء الطويلة المتوتِّرة ضبَط سنَّ الحقنة الرفيع وشمَّر كُمَّ قميصه الأيسر. لوهلةٍ تأمَّل ساعدَه ورُسغه القوِيَّين اللَّذَين تُغطيهما علاماتُ وندوب حُقَن لا تُعدُّ ولا تُحصى. وأخيرًا، غرَس سنَّ الحقنة في مكانه، وضغط على مكبسها الصغير، ثم استرخى في مقعده المكسوّ بالمخمل، وتنهَّد تنهيدةَ ارتياحٍ طويلة[1].

يسأل الدكتور واطسون: «ما الذي ستختاره اليوم، المورفين أَم الكوكايين؟» هذه هي المرة الوحيدة التي يصف فيها هولمز باستخدام المورفين، أما في القصص اللاحقة، فتقتصر عادته على التعاطي مع الكوكايين. من الممكن أنَّ دويل قرَّر أنَّ حقن المورفين يجعل الأمر يبدو

(1) من النسخة العربية للرواية بترجمة سارة ياقوت، هنداوي، 2017.

وكأنه حالة طبية، في حين يمكن تفسير تعاطي الكوكايين على أنه عادة سيئة أو غرابة في الشخصية. فخلال ممَّارسة دويل مهنة الطب في ذلك الزمن، كان على دراية بكلا المُخدِّرين. في الواقع، في عام 1891 قضى بضعة أشهُر يدرس طب العيون في فيينا، حيث غيّر اكتشاف كولر لتخدير الكوكايين جراحة العيون.

كانت نظرة الأطباء المحافظين مستندة على نحوٍ دقيق إلى تعليقات الدكتور واطسون المنتقدة لعادة هولمز ـ «إنه عملية مَرضية ومضطربة، تشمل زيادة تغيُّر الأنسجة، وقد تترك في نهاية المطاف ضعفًا دائمًا» ـ تشخيص يبدو خطيرًا، غير أنه مُبهَم لدرجة أنه قد يشير إلى أيِّ شيء بدءًا من العادة السرية، وحتى السهر لساعاتٍ متأخرة، أو العيش في المناطق المدارية.

ومع ذلك، ينجح في دفع هولمز للتعبير الأكثر وضوحًا واستمرارية عن دوافعه. يجيب قائلًا:

> عقلي يرفض الركود. أعطني مشاكلَ، أعطني عملًا، أعطني أكثر الرموز المبهمة تعقيدًا أو التحليلات المعقدة، وأنا في الجو المناسب بالنسبة لي. يمكنني بعد ذلك التخلص من المنشطات الصناعية. لكنني أكره الروتين المُملَّ للوجود. أتوق إلى الرفعة العقلية. هذا هو السبب في اختياري لمهنتي الخاصة، أو بالأحرى إنشائها، لأنني الوحيد في العالم الذي يمارسها.

هنا يضع دويل المنشطاتِ المُخدِّرة في مركز عالَم هولمز المهني وحياته الداخلية. إنه يعمل في المجال العقلي، ويتوق إلى التحفيز؛ ولكنه يندفع أيضًا للوهن العصبي والتدميري الذاتي. يوصف في مكان

آخر بأنه ضحية «المزاج السوداوي»، حيث يتأرجح باستمرار بين العمل المهووس وفترات الاكتئاب ـ «في أسوأ حالاته» ـ ولا يتحدث إلى أحد لعدة أيام متتالية. في الوقت نفسه، فهو عاشق للجماليات؛ فأدواتُ حقنه ذات النقوش اليدوية تدل على أنه متذوق للفنون بالقدْر نفسه الذي يدل عليه غليون ميرشوم [المصنوع من معدن السبيوليت]، وكذلك آلة كمان ستراديفاريوس[1] اللذَان يقتنيهما.

كان دويل في ذلك الوقت، منغمسًا في الكتابات «الصفراء» الانحلالية[2] لأوسكار وايلد، الذي التقى به في عام 1889 خلال مأدبة عشاء في فندق لانغهام في منطقة بلومزبري، ورتَّب اللقاء جيه. إم. ستودارت، رئيس تحرير مجلة *لِبنكوتس*. وأصبح ذلك اللقاء سببًا في نشر روايتَي *علامة الأربعة*، و*صورة دوريان غراي*.

يُعَدُّ هولمز عاشقًا للفن والمتعة، ويبدو أنه لا يهتم على نحوٍ كبير بالرأي العامِّ. ومن المرجح أنَّ دويل كان يفكر في وايلد، وغيره من الأشخاص، عندما صاغ شخصية البوهيمي، ونمط حياته المترف والعصري. ويظل هولمز استثناءً بين المُحقِّقين فيما يتعلق بأنه لا يعمل من أجل العدالة أو التعاطف مع ضحايا الجرائم، بل يعمل ببساطة من أجل إبقاء نفسه مستمتعًا. فالكشف عن الجرائم لديه، هو فنٌّ يمارسه من أجل الفن في حدِّ ذاته.

ومع ازدياد شعبية قصص شيرلوك هولمز في الفترة بين 1890 و1900،

(1) أحد الآلات الوترية التي طوّرها أفراد من عائلة ستراديفاريوس الإيطالية، خلال القرنَين السابع عشر والثامن عشر، وتُعد عناصر ثمينة للهواة.
(2) حركة فنية وأدبية في أوروبا الغربية أواخر القرن التاسع عشر، اتخذَت المبالغة والاصطناعية أيديولوجيةً جمالية لها.

جاء تعاطي الشخصية للكوكايين ليشير إلى جانب شنيع ومشين غير مقصود من قِبَل دويل. ففي أوائل القرن العشرين، استحوذَت مجلة *كوليرز* على قصص هولمز، وهي لاعب رئيس في سوق المجلات الأمريكية المربح حيث تبيع أكثر من 250 ألف نسخة أسبوعيًا. غير أنَّ مجلة *كوليرز* كانت تعمل في الوقت نفسه على سلسلة من المقالات التحقيقية بعنوان «الاحتيال الأمريكي العظيم» التي تكشف عن انتشار المواد المُخدِّرة في الأدوية المسجلة ببراءة اختراع، وهي حملة أسهمَت في تنظيم مهنة الصيدلة بإصدار قانون الأغذية والأدوية النقية لعام 1906.

كانت شخصية المحقق الذي يتعاطى الكوكايين خارج سياق العصر الجديد. وبدأ دويل يقلل من تفاصيل تعاطي هولمز للمواد المُخدِّرة في القصص الجديدة، ثم سرعان ما تخلَّص من هذه السمة. في القصة القصيرة التي تحمل عنوان «مغامرة لاعب الرجبي المختفي»، التي نُشرت في مجلة *كوليرز* في نوفمبر 1904، أعلن الدكتور واطسون أنه نجح في «فطْم» هولمز عن «هوس المواد المُخدِّرة» الذي كان يهدد مسيرته المذهلة.

جرت مزيد من التعديلات عندما قدَّم الممثل والكاتب الأمريكي ويليام جيليت[1] شخصيةَ شيرلوك هولمز على خشبة المسرح، أولاً في الولايات المتحدة في عام 1899، ثم في عرض ناجح في مسرح لايسيوم في لندن في عام 1901. وقد أدى هذا إلى تغييراتٍ إضافية في شخصية هولمز وفي القصص المكتوبة عنه. تم تضمين مشهد الحقنة من بداية رواية *علامة الأربعة*، ولكن الحوار بين هولمز وواطسون أُعيدَت صياغتُه في العرض المسرحي:

---

(1) ممثل وكاتب مسرحي (1853 ـ 1937).

واطسون: هذه الأدوية سموم بطيئة، غير أنها مؤكدة. إنها تنطوي على تغيرات في الأنسجة ذات طابع خطير للغاية.

هولمز: هذا بالضبط ما أريد! أنا مشمئز من الأنسجة الحالية، وأبحث عن مجموعة جديدة تمامًا!

واطسون: أها، هولمز ـ أنا أحاول إنقاذك! (يضع يدَه على كتف هولمز)

هولمز: (في لحظة حازمة، يضع يده اليمنى على ذراع واطسون) لا يمكنك فعل ذلك يا صديقي القديم؛ لذا لا تضيع وقتك.

انطفأ الشعور بالرضا الكسول الذي يشعر به هولمز بسبب عادته، واستبدَّت به التعاسة اللاشعورية للمدمن المحكوم عليه بالهلاك.

* * *

يظهر في هذا المشهد من مسرح برودواي في الولايات المتحدة عام 1899، الممثل ويليام جيليت يجسد شخصية شيرلوك هولمز، وهو يحقن نفسَه بالكوكايين، بينما ينظر إليه بعدم استحسان الدكتور واطسون الذي أدَّى دوره الممثل بروس مكراي.

أزيل الكوكايين من مشروب كوكاكولا في عام 1905، وحُظر بيعُه بشكل عام في الولايات المتحدة بموجب قانون هاريسون للمواد المُخدِّرة في عام 1914، وفي بريطانيا بموجب قانون المواد المُخدِّرة الخطيرة لعام 1920. في وقت لاحق من حياة سيغموند فرويد، نادرًا ما ذكر «تجربة الكوكايين»، وهو المصطلح الذي اعتمده مؤرخ حياته إرنست جونز. تناولت سيرة جونز الذاتية هذا الموضوعَ بشكل موجز وجزئيّ ومراوغ؛ حيث وُضعَت جُملته هذه الحادثة بوصفها انحرافًا عن السرد الرئيس لحياة فرويد وعمله، أو ربما كان انهيارًا عصبيًا ينبغي تجاوُزه بتحفُّظ.

كتب فرويد في كتابه *تفسير الأحلام* (1900)، عن حُلمه المسمى «حقنة إيرما»[1]، الذي اصطدم فيه مع خطأ طبي سابق؛ وقاده الحلم إلى تذكُّر وفاة فلايشل، غير أنه فسر الحلم بأنه يعني ضرورة أنْ يتقدَّم ويتغلَّب على شعوره المستمر بالذنب بسبب هذه المأساة. لم يُكشف عن التفاصيل المؤلمة لحادثة إرنست فلايشل بالكامل إلا بعد عقود، عندما اُكتُشفَت نُسخ من رسائله الطويلة السرية إلى مارثا في أرشيفاته.

وتناول فرويد في كتابه *دراسة السيرة الذاتية* عام 1935، دراسته للكوكايين في فقرة واحدة، حيث أشار إليها على أنها «اهتمام جانبيّ، رغم أنه عميق». أشار فرويد إلى أنَّ كارل كولر قد سبقه في اكتشاف الخصائص المُخدِّرة

---

(1) «حقنة إيرما» هو اسم الحلم الذي رآه فرويد في ليلة 23 يوليو 1895، والذي أدى إلى نظريته بأنَّ الأحلام هي تحقيق للرغبات. كان فرويد يعالج مريضة تدعى إيرما واقترح علاجًا لها، ولكنها لم توافق. بعد مرور الوقت، سأل فرويد عن حالتها وأخبروه بأنها تحسنَت قليلًا. وفي تلك الليلة، رأى فرويد هذا الحُلم. وهو أول أحلامه التي كرّس لها مستوى متقنًا من التفسير.

للكوكايين، لأنَّ فرويد كان قد قطع عملَه من أجل زيارة مارثا. وحسبما تذكَّر، كان فرويد سعيدًا جدًا بأنْ يحصل كولر على الفضل بالاكتشاف، «وأنا لم أحمل لخطيبتي أيَّ ضغينة بسبب انقطاعي عن عملي».

لم يُشِر فرويد في هذه الكتاباتِ اللاحقة، إلى خصائص الكوكايين المنشطة والمسبِّبة للشعور بالسعادة، ولا إلى أيِّ رؤى مبكرة ربما أتاحها المُخدِّر له في العلاقة السببية بين الحالات العقليَّة والاستجابات الفسيولوجية. ومع ذلك، لم يفقِد فرويد اهتمامَه تمامًا بالبحث عن طرق لزيادة الطاقة العصبية في جهازه العصبي. في عام 1923، خضع فرويد لتجربة أخرى أقل شهرة على هذا النحو؛ وهي تجربة تجديد الشباب التي طوّرها اختصاصي الغدد الصماء النمساوي أوغين شتايناخ[1]، والذي ادَّعى أنَّ عمليته يمكن أنْ تُعيد مرضاه «شبابًا مرةً أخرى» من خلال «إعادة تنشيط الجهاز الغُدِّي».

ووفقًا لنظرية شتايناخ، كان الإرهاق وفقدان الحيوية في المراحل المتقدمة من العمر ناجمَين عن انخفاض هرمون التيستوستيرون. ويمكن وقف هذا الانخفاض وعكْس مساره عن طريق استئصال جزئيٍّ للحوصلة المنوية عند الرجال، وتعريض المبايض عند النساء للأشعة السينية. وعلى النحو الذي كان يفترض به فرويد الشابّ أنَّ الكوكايين قد يزيد من احتياطي الطاقة في العقل والجسم، جادل شتايناخ بأنَّ إجراء «ربط الأوعية الدموية» الخاص به يعيد إلى قنوات السائل المنوي الفعالية، ويزيد من مستوياتِ الحيوية والطاقة المتاحة للنظام الأيضي.

---

(1) عالم وظائف أعضاء نمساوي (1861 ـ 1944).

شُخص فرويد في ذلك العام بالسرطان الذي سيؤول به إلى الموت في نهاية المطاف، وربما اقتنع بأنَّ العلاج سيُبطئ تقدمه. ووصف الرأي الطبي التقليدي «عمليات شتايناخ» بأنها ممَّارسة شاذة، إلى جانب علاج «غدة القرد» التي روّج لها في ذلك الحين لتجديد الشباب. ففي عام 1923 نشر كونان دويل القصة القصيرة المرعبة «مغامرة الرجل الزاحف» وهي قصة كلاسيكية لشيرلوك هولمز، حيث تتسبب العلاجات التجريبية لأحد الأساتذة المسنّين مع «مصل شبيه البشر» في جعله يتسلق حوائط منزله ليلًا مثل القرد.

كان عمل شتايناخ استمرارًا لعلاج الهرمونات الذي جرَّبه أولًا تشارلز إدوارد براون سيكارد من خلال تجاربه على نفسه، باستخدام الدم والمَنِيّ والخصيتَين المهروستَين في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، في الوقت الذي كان فرويد يدرس الكوكايين. وكما هو الحال دائمًا مع التجارب الذاتية الرائدة، فقد استغرق الأمر بعضَ الوقت لظهور التطبيقات المثمرة لهذه الأبحاث. ففي عام 1894، أسفر «العلاج بالغدد» عن أول دواء واعد، استُخلص من الغدة الكظرية وأُطلق عليه اسم الأدرينالين.

يعمل الأدرينالين على الجهاز العصبي بطريقة مشابهة للكوكايين، حيث يوسِّع حدقة العين ويعزز عمل القلب. دفع الأدرينالين البحث عن أدوية مُنبِّهة جديدة، وتم اكتشاف مُركّب اصطناعي يحمل خصائص ممَّاثلة في عام 1929، وهو الأمفيتامين. إذ في هذا الوقت، اقتصر الاستخدام الطبي للكوكايين على التخدير الموضعي إلى حدٍّ كبير. وتولى الأمفيتامين العديد من التطبيقات التي كانت قد ادُّعيَت للكوكايين في ثمانينيات القرن التاسع عشر، من منشط ميدان المعركة إلى مُحسِّن معرفي، ومن قرص للَّحمية إلى مضاد للاكتئاب. ولم يمضِ وقت طويل حتى قُوِّضَت الوعود

الطبية للأمفيتامين بسبب استخدامها غير الطبي كمُخدِّر للمتعة، تمامًا كما كان الحال مع الكوكايين قبل نصف قرن.

في عام 1929، وهو العام نفسه الذي تمَّ فيه تخليق الأمفيتامين، تأمل فرويد في كتابه *قلق في الحضارة*[1] فيما إذا كانت مثل هذه الأدوية علاجات لمرض الحضارة أَم أعراضًا له. كتب فرويد: «إنَّ ما يقرر هدف الحياة هو ببساطة نهج مبدأ المتعة»؛ ومع ذلك، لا يمكن لمطاردة المتعة أنْ تتجنب الوقوع في صراع مع الواقع. وفي هذا الصراع القديم، يقول فرويد: «أحد أقسى طرق التأثير، بيد أنه أيضًا من أكثرها فعالية هو الطريقة الكيميائية ـ التسمم (التعاطي)». تمنحنا المواد المُخدِّرة ميزة على ظروفنا «ليس فقط من حيث الإشباع الفوري للمتعة، ولكن أيضًا درجة عالية من الاستقلال عن العالَم الخارجي المرغوب»، ومن خلال توفير ملاذ مؤقت من الألم والتعب أو الملل. ومع ذلك، فإنها لا يمكن أنْ تحلَّ فعليًا صراعاتنا مع العالَم الخارجي، وغالبًا ما تنتهي بإضعاف قدرتنا على إدارتها. فالمواد المُخدِّرة في حدِّ ذاتها، ليست مرضًا ولا علاجًا. وتتوقف فوائدها ومخاطرها، كما ادَّعى جيمس لي، على كيفية استخدامنا لها.

يكمن دور المواد المُخدِّرة الدائم والعميق في تاريخ الحضارة في قدرة الإنسان على التحكم في قوى الطبيعة؛ إنها جزء من مجموعة أدواتٍ رائعة تمتد من إتقان استخدام النار إلى التقنيات الحديثة التي تُوسع نطاق تفكيرنا من خلال كلِّ شيء؛ بدءًا من الكتابة إلى التصوير وحتى الهاتف. وفي العصر الحديث:

(1) صدرت النسخة العربية بترجمة جورج طرابيشي عام 1977 عن دار الطليعة.

وكأنَّ الإنسان أصبح إلهًا اصطناعيًا بمعنى ما، إذ حينما يستخدم الإنسان كلَّ أجهزته المساعدة، فإنه يكون عظيمًا بحقٍّ؛ بيد أن هذه الأجهزة لم تنمُ معه، ولا تزال تُسبب له الكثير من المتاعب في بعض الأحيان... وستحمل العصور القادمة معها تطوراتٍ جديدة، وربما هائلة لا يمكن تصوُّرها في مجال الحضارة، وستزيد تشابُه الإنسان مع الإله أكثر فأكثر.

أدرك فرويد من خلال ممَّارسة العلاج النفسيِّ التحليلي، أنَّ أحد أصعب العقبات التي يواجهها العلاج هو رغبة بعض المرضى في عدم الشفاء. ولم يكن من السهل فصل الألم عن المتعة؛ فبطرقهما المختلفة، يمكن أنْ يكون لإرضاء غرائزنا وتخلّينا عن معاناتنا احتمالات صعبة ومخيفة.

الجزء الثاني

ما وراء الحجاب

المواد المُخدِّرة وحُدود الوعي

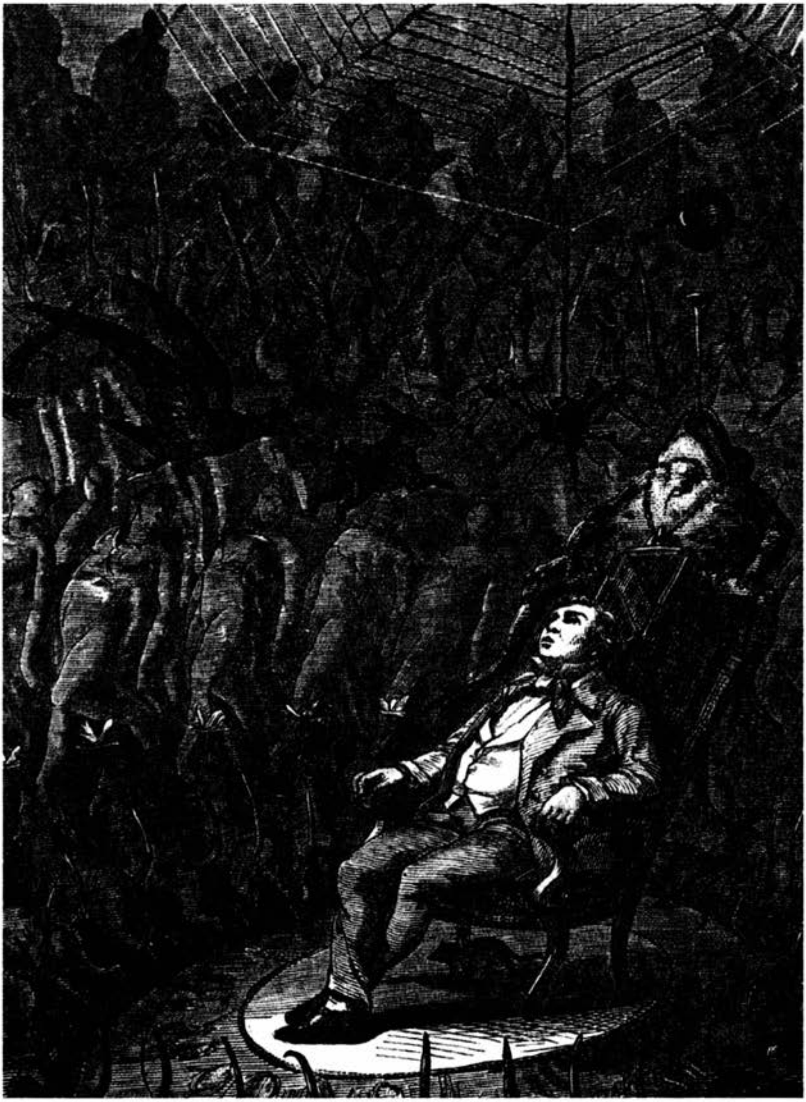

«أحلام الإيثر» رسم توضيحي لكتاب «عجائب العلم» للبروفيسور الكيميائي لويس فيجييه (1868).

الفصل الثالث

عالَم من التجربة النقية

كان ويليام جيمس قد بلغ الأربعين من العمر، وعُيِّن مؤخرًا أستاذًا مساعدًا للفلسفة في جامعة هارفارد، في عام 1882، عندما أجرى تجربةً خاصة في مختبرات الكيمياء بالجامعة، مُتَّبِعًا الوصفة التي وضعها همفري ديفي في المعهد الطبي للهواء المضغوط قبل ما يقرب من قرن من الزمان، حيث سخَّن قارورةً زجاجية من نترات الأمونيوم بلُطف، والتقط أوكسيد النيتروز المنبعث في حامل الغاز واستنشقه، وقد وضع قلمًا ودفتر ملاحظات أمامه. بعد بضع دقائق ـ أو ربما بعد مدة طويلة لا يمكن حسابها ـ وجد نفسَه يُحدِّق في «صفحة بعد صفحة من العبارات التي دُوِّنَت خلال حالة السُّكْر».

تركَت التجربة انطباعًا لا يُمحى من ذهن جيمس، وظلَّت حية في ذاكرته لعقود. ومع ذلك، كان المعنى الحقيقي لهذه التجربة سؤالًا يناضل معه جيمس طوال حياته. كتب في أول وصف منشور له: «المفتاح الرئيس للتجربة هو الشعور الاستثنائي المثير ببزوغ حالة من الكشف الميتافيزيقي الكثيف. وتتجلى الحقيقة أمام العين في عمقٍ يتدفق بالأدلة تكاد تحجب النظر». وضمّ قائمة طويلة من الملاحظات التي كتبها تحت تأثير المُخدِّر

في ملحق لورقته البحثية القصيرة حول فلسفة جورج فيلهلم فريدريش هيغل[1] في مجلة *مايند*، إحدى المجلات الرائدة لعلم النفس الحديث:

توافق النقيضين؛ اليقِظ والسَّكران، كلاهما واحد!
الخير والشر متوافقان في ضحكة!
يفلت، يفلت!
ولكن،
ما الشيء الذي يفلت؟ ما هو؟

هنا توافق!
توافق. وافق!
«يا إلهي، كم أنَّ هذا مؤلم! يا إلهي، كم أنَّ هذا لا يؤلم!»
توافق بين قطبَين.
باسم جورج، ليس شيء سوى شيء!»
هذا يبدو كلامًا بلا معنى، لكنه لا معنى له![2]

كتب معترفًا: «إلى القارئ الواعي، قد يبدو هراءً لا معنى له»، غير أنه لم يتورَّع عن تقديمه إلى مجلة محترمة. وتذكر «في لحظة التدوين» كنتُ «منصهرًا في نار العقلانية اللانهائية». وإذا بدا الأمر سخيفًا للقراء، فذلك لأنهم لم يشعروا بأنفسهم بهذا التوافق بين النقيضَين. وأضاف: «أحثُّ الآخرين بشدة على تكرار التجربة، وهي قصيرة وغير ضارة بما يكفي بالغاز النقي». وقد تشجع جيمس على تنفيذ التجربة على نفسه بفضل كُتيِّب مطبوع على نحوٍ خاص بعنوان *الوحي التخديري وجوهر الفلسفة*، والذي

(1) فيلسوف ألماني (1770 ـ 1831).
(2) في النسخة الإنجليزية كُتبت بعض الكلمات بأخطاء إملائية كما كتبها جيمس تحت تأثير المُخدِّر.

نشره بنجامين بلود[1] عام 1874. ينتمي بنجامين بلود إلى مدينة أمستردام في ولاية نيويورك الشمالية، ولم يكن يملك شهادات علمية، ولكن لديه سيرة مهنية متنوعة، تتضمن وظائف مثل: مهندس، ومطوّر براءات اختراع ومقامر، ولاعب كمال أجسام وملاكم، ومُحاسب عبقري، ومشارك نشِط في صفحات الرسائل في الصحف المحلية.

أعلن جيمس في المراجعة القصيرة التي كتبها في *مجلة أتلانتيك الشهرية*، عن نفسه في البداية «أنا أكثر من متشكك في أهمية اكتشاف السيد بلود المزعوم» وتوقَّع أنَّ «الغباء، سيكون حُكم معظم القراء». إلا أنه انبهر بالثقة المهيبة لخطاب بلود ـ «لديك أعظم هبة في إلقاء الخطاب بعد شكسبير»، قال له في وقت لاحق ـ وقرر عدم «العواء مع الذئاب أو الانضمام إلى الجموع في التهكم عليه». فيما بعد، سيدرك أنَّ ذلك كان حجَر الزاوية الحاسم في فلسفته الناضجة، وسيظل «أحد ركائز أو علامات تميُّز» رؤيته للعقل حتى آخر عملٍ منشورٍ له.

---

(1) فيلسوف وشاعر أمريكي (1832 ـ 1919).

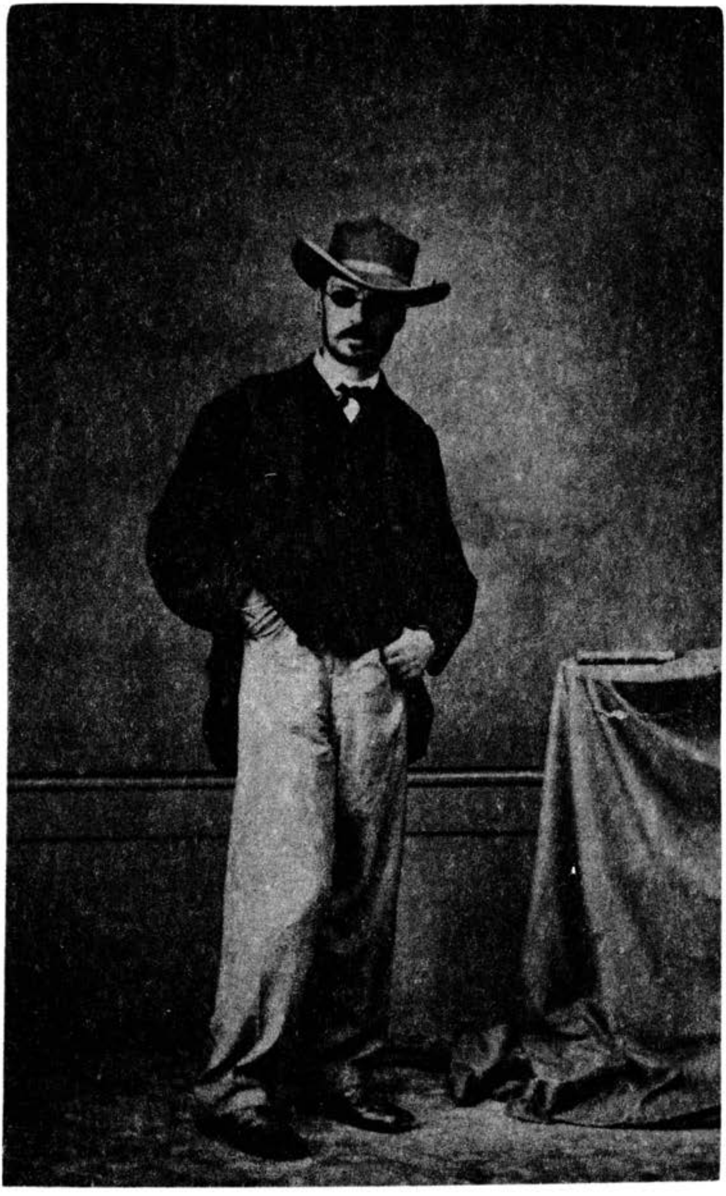

الشاب ويليام جيمس في البرازيل عام 1865.

تعرَّف بلود على أوكسيد النيتروز لأول مرة في عام 1860 بالطريقة نفسها التي تعرَّف بها الآلاف من الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر؛ «من خلال استخدام أدوية التخدير الضروري» عند طبيب الأسنان. وعندما عاد إلى وعيه، متأثرًا «بالوحي أو الإدراك المفاجئ للسرِّ الأزلي» الذي لم يتوقَّعه على الإطلاق، استفسر من الأطباء وأطباء الأسنان عن تفسير هذا الإلهام:

عرفتُ أنَّ معظم المستشفيات وعيادات طب الأسنان لديها ذكريات مرضى، أخذوا يتفوّهون بعد تخدير قصير، بكلماتٍ مبعثرة وغير مفهومة تتعلَّق دومًا بغموض الحياة والمصير والاستمرارية والضرورة والمفاهيم المشابهة، وجميعها تطالب بالإجابة عن السؤال: «ما هذا؟ ماذا يعني ذلك كله؟ ما الذي يترتب عليه؟

لم يتلقَّ بلود إجابات شافية سوى الابتسامات والتقليل من الأمر، غير أنه لم يتمكن من تجاهُل هذه الأسئلة المهمة. وواصَل البحث عن الغاز لإجراء المزيد من التجارب بفترات منتظمة، حتى بعد مرور أربعة عشر عامًا قام بتطوير الوحي التخديري إلى فلسفة متكاملة. وأقنع جيمس باتباع طريقته بالجدل نفسه، تلك التي استخدمها جيمس لإقناع قُرائه؛ إنَّ هذا الإدراك هو من نوع آخر عن مقولات الفلسفة المعتادة، ويمكن الوصول إليه من خلال التجربة المباشرة فحسب. كتب بلود عن «الوحي التخديري»:

أعني حالة معينة مستمرة (أو غير مشروطة)، حيث تُرضى فيها الفلسفة من خلال تقدير عبقرية الوجود، وهذا التقدير لا يمكن إخراجه من تلك الحالة إلى عقلانية الإحساس الطبيعية؛ لا يمكن تذكُّره شكليًّا، بيد أنه يبقى غير شكلِيّ، منسيًا حتى نعود إليه.

أصرَّ بلود على أنَّ وحيه لم يكن غامضًا أو تقنيًا؛ بل من الصعب

استرجاعه من المكان الذي يمكن العثور عليه. كتب: «الحقيقة الواضحة هي أنَّ طالب الفلسفة الحديث متشكك وخائف ومرتبك بسبب العلوم الخفية الزائفة، والتقنية الاعتباطية من حيث المصطلحات والافتراضات». في الواقع إنَّ سرَّ الكون مفتوحٌ أمامنا على مصراعَيه، لكن في حالات معينة من الوعي ليس إلا، وهذا ما عبّر عنه بلود باقتباسه من تنيسون[1]:

كما في حالة النشوة،
ينسى الناس الحُلم الذي يراودهم في تلك الحالة،
حتى يسقطوا في نشوةٍ جديدة.

لم تُكتشف الحقيقة في أثناء التحول من حالة اليقظة إلى حالة من النشوة والارتباك بسبب الغاز، بل في لحظة العودة إلى وعي اليقظة. وغالبًا ما يلمح الأشخاص الذين يستفيقون منها في كرسي طبيب الأسنان، حين يتبدد الغاز ويتشتت، مُخلفًا إحساسًا خافتًا ومتلاشيًا عن زيارة عالَم آخر. ومن خلال تجاربه الذاتية، تعلَّم بلود تفسير هذه الظاهرة من خلال تطبيق مبادئ فكر هيغل. وأوضح أنَّ «العقدة المستعصية أو المتشابكة التي تُحير الفلسفة» هي مسألة «الهُوية والاختلاف». يبدو لنا العالَم ككل موحَّد واحد، لكن ما إنْ نبدأ في وصفه حتى نضع أجزاءه المكونة في مواجهة بعضها بعضًا؛ العقل والمادة، والواقع والمظهر، والمنطق والعاطفة، وشيء ما ولا شيء. لقد نشأ الواقع كما ندركه ونصِفُه من هذه الأضداد، وقد نظر الفلاسفة منذ اليونانيين القدماء إلى الصراع بينها على أنه القوة الدافعة للكون. بيد أنَّ هيغل، أوضح أنَّ الأضداد يمكن رؤيتها ليس كوحدات بنائية للواقع، بل مرحلة في عملية، الطريحة والنقيضة؛ على مستوى مراقبة أعلى، يتَّحدان

(1) شاعر إنجليزي (1809 ـ 1892).

في وحدة، تترأسها روح المطلق التي تجمع بين العقل والمادة. لا يمكن تفكيك هذه الأضداد عن طريق العقل، لأنَّ هذا الأمر يتجاوز مبادئ المنطق الثنائي. يمكن التجربة مباشرةً تحت تأثير أوكسيد النيتروز، حيث تتعايش الأضداد دون تناقض «الواحد يبقى، والكثيرون يتغيرون ويمرون». هذه فلسفة، بيد أنها في الوقت نفسه حالة انشراح تحت إشراف النور المشع للمسيح، ونقل بلود هذا المفهوم بقوة ملهمة كأنها نبوءة:

> هذا العالَم لم يعُد ذلك المرعب الغريب الذي عُلمته. رافضًا الأسوار المتسخة بالغيوم والتي لا تزال حارَّة حيث هبَّت رياح رعود يَهْوَه مؤخرًا، يرفع نَوْرَسي الرمادي جناحَه في مواجهة الغسق، ويقطع المسافات البعيدة بعين جريئة.

* * *

كان همفري ديفي في يوم الصناديق[1] عام 1799، أول مَن اكتشف أنَّ استنشاق أوكسيد النيتروز يمكن أنْ يخلق حالة وعي يبدو فيها أنَّ العقل موجود على نحوٍ مستقل عن العالَم المادي. لقد وصل بلود بتجربته على نفسه إلى الحدود القصوى من خلال الجلوس في صندوق مُغلَق، صمَّمه المهندس جيمس واط لاستخدامه في علاج المرضى الذين لا يملكون قوة كافية للاستنشاق، وملأ الصندوق بعشرين كوارت من الغاز كلَّ خمس دقائق. بعد ساعة وربع، عندما شعر بأنَّ جسمه قد تشبَّع، خرج من الصندوق واستنشق عشرين كوارت إضافية من الغاز من كيس هوائيّ ضخم مصنوع من الحرير. وعند هذه المرحلة، سجَّل بلود أنه «فقَدَ الاتصال بكلِّ الأشياء

(1) يوم عطلة يُحتفل به بعد عيد الميلاد (26 ديسمبر) ظهر في إنجلترا خلال العصور الوسطى.

الخارجية» واندفع إلى عالَم مكون بشكل كامل من الأحداث العقلية. فقد كان «يعيش في عالَم من الأفكار المتصلة حديثًا، والمعدلة لاحقًا» والتي تتجمع «بطريقة ما، لتنتج انطباعاتٍ جديدة تمامًا».

حتى هذه المرحلة، كانت هذه الحالات تعيش في الظّروف الاستثنائية فحسب؛ أيْ في الرؤى أو الاستغراق أو النشوة، أو عند الإصابة بالصدمات الجسدية أو التشنجات، أو نتيجة لممَّارسة روحية صارمة وطويلة، أو الاقتراب من لحظة الاحتضار. والآن، يمكن لأيِّ شخص يمتلك جهازًا كيميائيًا أساسيًا أنْ يُجربها عند الرغبة. ومن المثير للاهتمام أنَّ هذه الحالة من الوعي قد أصبحَت متاحة تجريبيًا بالتزامن مع دخول الفلسفة الألمانية المثالية إلى العالَم الناطق بالإنجليزية.

لقد كان الألماني توماس بيدوز، صاحبُ عمل ديفي، قارئًا شرهًا، وفي عام 1793 قد يكون أول مَن كتب تعليقًا بريطانيًا على إيمانويل كانط؛ وفي عام 1799، كان صاموئيل تايلور كولريدج قد عاد لتوِّه من الدراسة في ألمانيا عندما ربطتْه صداقة عميقة مع ديفي حول كيس من الحرير الأخضر مملوء بالغاز. اقترحَت فلسفة كانط أنَّ تجربة الإنسان ومعرفته متجسدة، ومحدودة بالحواس والفئات المبرمجة مسبقًا للتفكير، مثل الزمان والمكان. مع ذلك، تحت أوكسيد النيتروز، مع انحسار العالَم المادي، تلاشَت هذه الفئات وتحرّر العقل لاستكشاف ما سيُطلِق عليه ويليام جيمس فيما بعد «عالَم التجربة النقية».

تدفّق الإلهام الذي حصل عليه ديفي، كما وصف بلود، في ذهنه في اللحظة التي كان يستعيد فيها وعيَه العادي بعد فترة النوم. كانت الكلمات التي تكلَّم بها «بأشدِّ الطرق حِدَّة ونبوءة» تعكس المبدأ المركزي للفلسفة

الألمانية الجديدة؛ «لا شيء موجود سوى الأفكار! الكون مكون من الانطباعات، والأفكار، والمتعة، والآلام!» مثل العديد من لحظات يوريكا الشهيرة في العلوم، قد تكون هذه النبوءة غير العفوية أقل عفوية ممَّا زعمه، مصوغة فنيًا في وقت لاحق.

غير أنها مع ذلك، أصبحَت أكثر لحظاتِ النشوة المُخدِّرة تذكُّرًا واقتباسًا في القرن التاسع عشر. نادرًا ما لاحَظ أنَّ الجملتَين عبَّرتا عن فلسفتَين مختلفتَين تمامًا. أعلنَت الجملة الثانية نظريةً مألوفة لدى ديفي وبيدوز ودائرتهما منذ فترة طويلة، وغالبًا ما يشار إليها باسم «الحسية» أو «الترابطية»؛ مفادها أنَّ الأفكار تنشأ من المثيرات الحسية، على هيئة مجموعات من الأفكار والمشاعر تتشكل من خلال التكرار والعادة. لكن الأولى، أن «لا شيء موجود سوى الأفكار»، هي مطالبة أكثر تطرُّفًا وإثارةً للانتباه بكثير. في رواية ديفي، فإنه يشير إلى تأثير كولريدج، الذي كان في ذلك الحين تحت سيطرة فلسفة المثالية لجورج بيركلي[1]، وشكلَت أرضية على أساسها أقام بنجامين بلود نظريتَه بعد سبعين عامًا.

اتبعَت التجارب على أوكسيد النيتروز في تلك الأثناء مسارًا متعرجًا حتى وصلَت إلى التطبيق الأساسي للمُخدِّر في عيادات الأسنان. ففي البداية، حاول العديد من الأشخاص الوصول إلى عالَم الفكر النقي الذي وصل إليه ديفي، غير أنَّ القليل نجح في ذلك. وتُعد لحظة إلهامه مُعززّة بمشروع المعهد الطبي للهواء المضغوط الرائد، مع إحساس وفير بالإمكانات؛ وأولئك الذين حاولوا التجربة خارج بريستول، حتى حلفاء بيدوز وديفي

(1) فيلسوف أيرلندي (1685 ـ 1753).

المقربون مثل جيمس واط، كانوا «أقل تأثرًا» ممَّا أملوا. وتساءل واط في النهاية ما إذا كان قد اصطنع الغاز الخطأ عن طريق الخطأ؟!

حتى بين المتطوّعين في تجارب ديفي، فللكثير منهم تجربة مختلفة تمامًا. فقد لاحظَت الروائية ماريا إيدجوورث[1]، وهي مراقبة ساخرة لتجارب المعهد الطبي الهوائية، أنَّ محاولات المتطوعين كثيرًا ما تتمخض عنها «معِدة مضطربة ورأس دائخ». على الرغم من استخدام ديفي الرائد للعلاج الوهمي في شكل كيس من الهواء الطبيعي، فقد اعتقدت أنَّ التوقع أدّى دورًا كبيرًا في التجربة. واختتمَت إيدجوورث حديثها قائلًا: «الإيمان، الإيمان العظيم، أعتقد أنه ضروري لإحداث أيِّ تأثير».

أما أولئك الذين تمكَّنوا من تحقيق النشوة الموعودة فقد كانوا، مثل معظم متطوعي ديفي، أكثر إثارة بالمتعة المفاجئة من أيِّ تجاوز ميتافيزيقي. ففي معظم الحالات، رُدِّدت أوصافهم تلك التي نشرها ديفي، واعتمد الرأي السائد للتجربة التي ظهرَت على نحوٍ كبير على عباراته الأكثر شهرة. أول تجربة مسجلة في الولايات المتحدة في عام 1808، بواسطة طالب الطب ويليام بارتون[2] ـ أستاذ علم النبات في جامعة بنسلفانيا ـ دمجت رؤية ديفي مع مديح روبرت ساوذي:

> بدت رئتاي كما لو أنهما تتوسعان، واستمرت في إيصال هذا الشعور بالتوسع حتى افترضت أنها احتلت المختبر بأكمله بضخامتها. أصبحت الآن غير قادرة على تحمُّل انطباعات الأشياء

---

(1) روائية أنجلو أيرلندية (1768 ـ 1849).

(2) طبيب أمريكي (1786 ـ 1856).

الخارجية، والنشوة الرائعة التي أسرَت حواسي في ذلك الحين تعيق محاولتي الضعيفة لوصفها. لا يمكن وصف هذه النشوة الفائقة إلا بأنها ما يشعر به الملائكة؛ ولا عجب أنْ يصرخ الشاعر ساوذي بنشوة عند تجربتها قائلًا: «يجب أنْ يكون جوُّ جميع السماوات الممكنة مكونًا من هذا الغاز».

لم يتمكن أوكسيد النيتروز على الرغم من هذه التقارير المذهلة، من إرساء تطبيق طبي مُقنِع. لقد توقَّع ديفي استخدامه في المستقبل مُخدِّرا جراحيًا، تمامًا كما فعل فرويد مع الكوكايين؛ قام بتضمين مسارات بحثه المستقبلية المقترح التالي: «بما أنَّ أوكسيد النيتروز في تطبيقاته الواسعة يبدو قادرًا على تخفيف الألم الجسدي، ومن المحتمل أنْ يُستخدَم بميزات كبيرة في أثناء إجراء العمليات الجراحية». لكن هذا الاقتراح لم يلقَ أيَّ اهتمام لمدة نصف قرن.

ظلَّ غالبية الجراحين يعارضون بشدة التخدير حتى أربعينيات القرن التاسع عشر، ويرجع ذلك جزئيًا لأسباب عملية ـ لم تكن غرفة العمليات مكانًا مناسبًا لتفاعلات المواد الكيميائية القابلة للاشتعال ـ وكذلك إلى النظرية الطبية السائدة التي مُفادها أنَّ الألم لا يمكن التخلص منه في الجراحة، حيث كان الاحتفاظ بوعي المرضى أمرًا ضروريًا للحفاظ على حياتهم.

وفي الوقت الذي تحوَّلَت فيه التجارب العلمية مع الغاز إلى السعي وراء مُتعه الغريبة، قضى العالَم الألماني الشاب كريستيان فريدريش شونباين[1] ـ الذي سيكتشف لاحقًا الأوزون ويخترع خلية الوقود ـ عدة

(1) كيميائي ألماني سويسري (1799 ـ 1868).

أشهُر في عام 1826 في بريطانيا، حيث اشترك مع باحث كيميائيّ تجريبيّ، في صنع «كمية جيدة» من أوكسيد النيتروز في مختبر منزله.

وفي ظهيرة أحد الأيام المشمسة، التقى عددُ كبيرٌ من الأشخاص في الحديقة لاستنشاق الغاز المُسكِر في الهواء الطلق. فعل العديد من الشباب ذلك مع «ظواهر واضحة على السرور والمتعة»، ممَّا دفع رجلًا أكثر نضجًا بدوره، «للرقص وتحطيم النباتات المزهرة في الجوار في أثناء نشوته بهدف إسعاد جمهوره. أُعجِبَ شونباين بالتركيبة البريطانية الغريبة من التفلسف المبالَغ فيه والفكاهة السفيهة، وتساءل: «ربما ستصبح من عادتنا استنشاق غاز الضحك في نهاية حفل عشاء، بدلًا من شرب الشمبانيا».

ظلَّ مسمى «غاز الضحك» قائمًا منذ 1824، عندما ظهر على ملصق لأمسية متنوعة في مسرح أديلفي في لندن يقدم «أوهامًا غير مألوفة، وتحوُّلات رائعة، وكيمياء تجريبية، لوحات متحركة وغيرها». وأُسسَت تقاليد عروض أوكسيد النيتروز العامة بسرعة. إذ يقوم رئيس الحفل، الذي عادةً ما يتبنّى شخصية المعلم العلمي، بوصف أدوات المختبر، ويصف الخصائص الكيميائية للغاز ويطلب من المتطوعين استنشاقه. وغالبًا ما وقع أول اختيارٍ على متعاون يضحك بصوت عالٍ (لم يكن مسموحًا للنساء) قبل أنْ يُعطى لجرعة من الغاز، ويبدأ في التصرف على نحوٍ فاضح - الدوران فوق خشبة المسرح، وترديد الشِّعر، وافتعال مشاجرة - لمتعة الجمهور. وعادة ما يتبع ذلك المزيد من المتطوعين، حيث يحاول كلٌّ منهم تجاوُز الآخر.

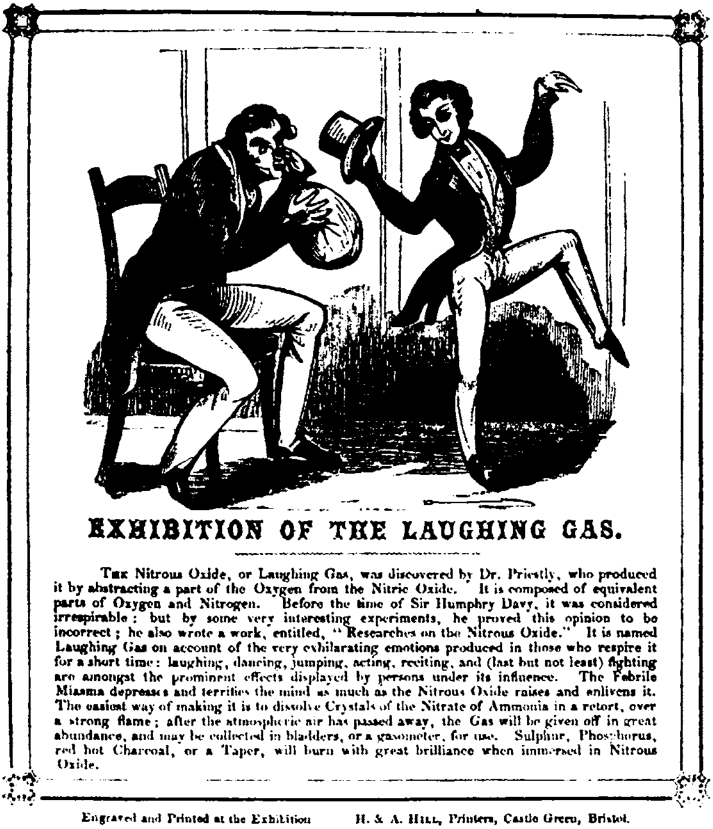

اكتسب أوكسيد النيتروز تسميته الدائمة «غاز الضحك» في العشرينيات من القرن التاسع عشر، عندما أصبح استخدامه في التجارب الذاتية جزءًا رئيسًا من الترفيه الشَّعبي.

تبيَّن أنَّ آثار الغاز كانت أكثر إبهارًا وموثوقية في هذا السياق منها في المختبر. وقد وصف أول عرض لأوكسيد النيتروز المسجل في الولايات المتحدة، الذي نظمه في فيلادلفيا في عام 1814، طابعٌ وناشرٌ محليّ يدعى

موسى توماس، وأعطى إحساسًا واضحًا بسير الأمور. كانت التجربة جزءًا من سلسلة محاضرات أسبوعية، وكانت المنصة في تلك الليلة محجوبة عن كلٍّ من معدات المختبر والجمهور، ممَّا زاد من احتمال حدوث مفاجآتٍ غير متوقَّعة. افتُتحت التجربة بطبيب يُلقي محاضرة عن «طبيعة أوكسيد النيتروز وخواصه» ويُظهر «عددًا من التجارب غير المهمة التي لا يوليها الحضور اهتمامًا كبيرًا» قبل أنْ ينتقل إلى العرض الموعود. قُدِّم المتطوع الأول، وهو شابٌّ في الخامسة عشرة من عمره، مع «كيس كبير» مملوء «بالغاز المنشط»، الذي استنشقه، ثم:

> فجأة رمى الكيس، بنظرة ازدراء منتصرة، وبدأ يمشي في الفناء بخطواتٍ مسرحية، حتى اقترب من الصف الأمامي، لاحَظ أنَّ أحد الأشخاص الذين يجلسون هناك يضع عصا في الوسط ليدافع عن نفسه من اقترابه الزائد. أثار ذلك غضبَه ـ فانفجر فجأة في نوبة غضب، وقال: «ذلك الطاغية! استولى على عصاي. أعيدوها إليَّ. هذه. الآن. أو سأكون سبب موتكم!» وفي اللحظة نفسها، قفز فوق الحاجز وتشبَّث بالرجل مُمسك العصا، أسقط كلَّ شيء يعترض طريقه، واستلزم الأمر أربعة أو خمسة رجال مجتمعين لكبح جماحه حتى انتهى مفعول الغاز، ثم التفت إلى الحضور بمظهر مرِح وودود.

ازداد عدد المتطوعين الذين أظهَروا «درجات مختلفة من الحيوية أو الوحشية، والرقص والركل والقفز والمبارزة، وأحيانًا ملاكمة أيِّ شخص يقف في طريقهم. كانت هذه النوعية من التصرفات «الطريفة» ميزة مستمرة في تجارب معهد الهواء المضغوط؛ إذ كثيرًا ما كان المتطوعون يقفزون حولهم ويتسابقون صعودًا ونزولًا على السلالم، أو يلقون قصيدة أو خطابًا غاضبًا قبل أنْ يعودوا إلى وعيهم دون أنْ يتذكّروا كلماتهم أو تصرفاتهم الغريبة.

سمح الغاز للعقل الواعي بالهروب من قيود الجسد، غير أنه عند القيام بذلك ترك الجسد رهينة لقوى عشوائية أو تلقائية. غالبًا ما يبدو أنَّ هذه القوى تُعبِّر عن شخصية ثانية ومخفية، واستغل تنسيق المحاضرات الشعبية هذا الأمر للترفيه بطريقة مشابهة لعروض التنويم المغناطيسي المسرحي في الوقت الحاضر. فعلى المسرح، أصبحت التجربة الذاتية ثانوية؛ وبُنيت للاستفادة القصوى من مظاهرها الخارجية. ولم يتمّ التحقيق في لحظة العودة إلى الوعي بوصفه بحثًا عن إلهام روحيٍّ، بل عُرضت للسخرية الحائرة والمرح.

كان غاز أوكسيد النيتروز مناسبًا ومثاليًّا لعروض الكرنفال المتنقلة التي امتدَّت عبر المناطق الداخلية الواسعة وقليلة الكثافة السكانية في شمال أمريكا وكندا قبل الحرب. إذ يمكنها تقديم أوكسيد النيتروز بوصفه عجيبة من عجائب العلوم الحديثة، وترفيه صاخب في آنٍ واحد، وجديد ومفيد ومُبهر للعقل. ويمكن تنفيذ العروض كلَّ ليلة لسنواتٍ أمام جمهور جديد ومذهل. وكانت خزانات الغاز والأنابيب وأكياس التنفس تتطلب مصاريف تجعل الترفيه خارج متناول الأفراد، بيد أنه بعد ذلك أصبحت أرباح كل جرعة من الغاز طائلة. وصارت عبارة روبرت ساوذي عن «جوّ الجنَّة»، شعار الإعلان المثالي، يظهر على نحوٍ متكرر على المظلات والملصقات الإعلانية. وتوجَّه رواد الأعمال والمبتكرون ورجال الطب والمروِّجون، والمحتالون، والمتصيدون، والأفراد الذين يعيشون على الحدود من شتى المشارب، لتجربتها والاستفادة منها.

في عام 1832، سافر صمويل كولت البالغ من العمر 18 عامًا بعرض أوكسيد النيتروز من كندا إلى ماريلاند، مع مختبر متنقِّل، يحمل اسم

عائلته القديم «كولت»؛ وقام بتوزيع جرعات على ما يقرب من عشرين ألف متطوع بمقابل خمس وعشرين سنتًا للمرة الواحدة، واستخدم عائداته لتمويل التجارب ونماذج أولية لمسدسه الدّوّار ذي الطلقات المتكررة. كتب كولت في إعلانه لعرض في بورتلاند: «الأحاسيس التي ينتجها شديدة المتعة». وأعلن كولت عن «عروض انتقائية» للسيدات، «لا يشوبها أدنى عيب».

***

وجد أوكسيد النيتروز في هذه البيئة البائسة، والحيوية للمخترعين وبائعي الأحلام، التطبيقَ الطبي الذي استعصى على فلاسفة المعهد الطبي للهواء المضغوط. والشخص الذي حوّله من وسيلة للمتعة إلى مُحارب للألم كان محاضرًا طبيًا لامعًا يُدعى غاردنر كوينسي كولتون[1]، وكان عرضُه الأصلي هو مشهد يسمى «محكمة الموت»، وهو عرض ديوراما[2] ضخم يُصور شرور الشراب وفضائل الاعتدال.

كان كولتون يقوم في كل ليلة بإعداد متطلبات المشهد في خيام الإحياء، وقاعات اللقاءات الماسونية، والفنادق وقاعات المحاضرات، ويفرض رسوم الدخول القياسية التي تبلغ خمس وعشرين سنتًا للتذكرة. وفي أوائل الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أضاف أوكسيد النيتروز إلى أدائه، مقدمًا محاضرة تعزز موضوعه. وزعم أنَّ الغاز يُقدِّم دليلًا حيًا على الخطيئة الأصلية، وسوف يكشف الطابع الحقيقي لأيٍّ شخص يستنشقه.

---

(1) مخترِع أمريكي (1814 ـ 1898).

(2) عرض فني ثلاثي الأبعاد يستخدم الإضاءة والمؤثرات البصرية لإنشاء مشهد طبيعي أو تاريخيّ أو من الحياة اليومية.

وأتخذ كولتون الاحتياطات المعتادة في المسرح ـ حواجز حول المسرح، ورجال أقوياء في الصف الأمامي، ومقاعد «آمنة» للسيدات ـ وطمأن الحشد إلى أنَّ الإجراءات ستُقدم «باللياقة والاحترام الذي يستحق دعم فئة محترمة من السيدات والسادة».

بدأ المتطوعون بعد تعرُّضهم لأوكسيد النيتروز، يتصرفون وفقًا لما كان من المفترض أنْ تكون عليه أعمقُ غرائزهم ورغباتهم؛ القتال، والغناء، والضحك، والرقص، وإلقاء الخُطب، وإعطاء الأوامر للجمهور، أو الكشف عن أسرار. وكان كولتون يُخمِّن في كثير من الأحيان تصرُّفات كلِّ متطوع قبل تعرُّضه للغاز، ممَّا يمثل مزيجًا فعالًا من التوقع والتحدي. وزعم أنَّ هذه الطريقة هي دليل أكثر دقةً على الشخصية حتى من علم فراسة الدماغ.

وخلال عرض مسائيّ في عام 1844 في هارتفورد بولاية كونيتيكت، أصبح عرض كولتون مصدر إلهام غير متوقع لاكتشاف طبي عظيم في ذلك العصر. وأعلن عن ذلك في صحيفة محلية بعبارة مشهورة لروبرت ساوذي، مع التأكيد على أنَّ «ثمانية رجال أقوياء يقفون على المقاعد الأمامية، لحماية المتأثرين بالغاز من إيذاء أنفسهم أو الآخرين». ما حدث هو أنه برغم ذلك، انطلق بعنف أحد المتطوعين من الجمهور، وهو محاسب شابّ في متجر أدوية، تحت تأثير الغاز واصطدم بمقعدٍ، وعانى من جرح ونزيف حادّ، ولكن، كما لاحظ طبيب أسنان محليّ بين الجمهور، لم يصاحب ذلك أيُّ ألم.

فحص طبيب الأسنان هوراس ويلز[1]، معدات كولتون بعد العرض؛

(1) طبيب أسنان أمريكي (1815 ـ 1848)

وهي عبارة عن كيس مطاطي بسيط مملوء بأوكسيد النيتروز متصل بصنبور خشبيّ يشبه برميل التفاح. وكما هو الحال مع جميع أطباء الأسنان، كان عمل ويلز محدودًا بمدى الألم الذي يستطيع عملاؤه تحمُّله، وفي تلك اللحظة كان يعاني بنفسه من ألم شديد في ضرس العقل المعطوب. طلب ويلز من كولتون توليد الغاز له، في حين قام طبيب أسنان آخر بإزالة الضرس المتضرر. عاد ويلز إلى وعيه بدون أيِّ شعور بالألم، وأصبح لديه الآن اكتشافٌ أكثر قيمةً عمليةً من مواجهة مفهوم الوجود المطلق في فلسفة هيغل. فأطلق البشارة: «إنه عصر جديد في خلع الأسنان!».

تسبَّبَت تجربة ويلز الذاتية في تحفيز اكتشاف ما سيُطلق عليه قريبًا اسم التخدير. كانت نصرًا حاسمًا للطب الحديث في ذلك العصر، غير أنها انبثقَت من سلسلة من مشاعر الغيرة، والمؤامرات، والمشاجرات، والفواجع. ففي عام 1845، أقنع ويلز الجراحَ الرائد في بوسطن جون كولينز وارن[1] من مستشفى ماساتشوستس العام، بالسماح له بإعطاء الغاز للمرضى في أثناء العملية. كان كل شيء يمضي قدُمًا كما هو مخطط له، حتى تأوَّه المريض بصوت عالٍ؛ وأُطلِقت صيحات الاستهجان ضد ويلز داخل غرفة العمليات، على الرغم من أنه اتضح بعد ذلك أنَّ المريض كان فاقدًا للوعي تمامًا، وأنَّ الصوت ظهر لا إراديًا.

لم يتعافَ ويلز أبدًا من مشاعر الإذلال، وأصيب بالاكتئاب وانتحر في نهاية المطاف. في هذه الأثناء، لم يهدر زملاؤه ومنافسوه في عالَم طب الأسنان الصغير في بوسطن الوقتَ في إجراء تجاربهم الخاصة. فقد

(1) طبيب وجراح أمريكي (1778 ـ 1856).

استعان شريكه السابق، ويليام تومس جرين مورتون[1]، بكيميائيٍّ في البلدة يدعى تشارلز جاكسون[2] للتشاور حول بدائل محتملة لأوكسيد النيتروز، واستقر رأيه على استخدام الإيثر الإيثيلي.

يُعد الإيثر مُركَّبًا طيّارًا، نصفُه غاز ونصفُه سائل عند درجة حرارة الغرفة، وكان مألوفًا لدى الكيميائيين لقرون بوصفه مذيبًا. وصف الطبيب الألماني فاليريوس كوردوس[3] تركيبه من الكحول الإيثيلي وحمض الكبريتيك في عام 1540، وأطلق عليه اسم «زيت الزَّاج». كتب عنه الطبيب والكيميائي باراسيلسوس[4] في الفترة الزمنية نفسها تقريبًا: «إنه حلوٌ جدًا، إنَّ الدجاج يأكله ثم ينام، لكنه يستيقظ بعد حين دون أيِّ تأثير سيئ». أشار باراسيلسوس أيضًا إلى أنه «يُطفئ الألم»، وقد شاع استخدامه في الطب منذ القرن الثامن عشر؛ فقد خفَّف تبخُّره البارد من حالات الرئة عند استنشاقه، كما أوصى به بعض الأطباء كمهدّئ عصبي. بدأ مورتون تجاربه على الحيوانات، ولاحظ أنَّ الكلب «يذبل» عندما يُحجب رأسه فوق وعاء الإيثر. تابع مورتون باستنشاق الإيثر بنفسه من منديل مبلل، واستمر في زيادة الجرعة حتى أصبح يفقد الوعي لمدة سبع إلى ثماني دقائق. وفي سبتمبر 1846، جرَّبه على أحد مرضاه وخلع سنَّه دون ألم.

في الشهر التالي، تبع مورتون هوراس ويلز إلى غرفة العمليات

(1) طبيب أسنان أمريكي (1819 ـ 1868).

(2) كيميائي أمريكي (1845 ـ 1935).

(3) طبيب وعالم نبات وصيدلاني ألماني (1515 ـ 1544).

(4) طبيب سويسري وكيميائي وعالم لاهوت وفيلسوف من عصر النهضة الألمانية (1493 ـ 1541).

الجراحية في مستشفى ماساتشوستس العام، حيث أقنع جون كولينز وارن بأنَّ مركبه الجديد أفضل بكثير من أوكسيد النيتروز، وفي محاولة لتسجيل براءة اختراع اكتشافه قدَّمَه على أنه مادة غريبة أسماها «لاثيون». كان من المقرر إعطاؤها عن طريق جهازه الخاص الذي أسماه «مخروط النسيان»، وهو أساسًا قنينة زجاجية مع قطعة قماش مملوءة بالإيثر في قاعدتها، وكان من المفترض وضعها فوق وجه المريض.

لقيَت حُجج مورتون التسويقية تشكيكًا من الأطباء الحاضرين، غير أنه نجح حيث فشل ويلز. واستنشق مريض وارن، وهو رجل يبلغ من العمر عشرين عامًا مصابًا بتشوُّه خَلقيّ في رقبته، من مخروط النسيان وغطَّ في سُبات عميق. التفت مورتون إلى وارن قائلًا: «مريضك جاهزٌ يا دكتور»؛ وفي أثناء إجراء الشق الأول، رفع وارن رأسه ليخاطب الجالسين على المقاعد المزدحمة: «أيها السادة، هذا ليس هراء».

بعد العملية، أدلى المريض بشهادته قائلًا: «لم أشعر بالألم في أيِّ وقت، على الرغم من أنني كنتُ أعلم أنَّ العملية مستمرة». كانت هذه لحظة شهيرة، خُلدت ذكراها بإعادة تسمية القاعة الجراحية باسم «قبة الإيثر»، وهو الاسم الذي يُحتفظ به بفخر حتى اليوم. ففي اليوم الذي يصادف 22 أكتوبر من كل عام، تصبح قبة الإيثر محطَّ اهتمام اليوم الذي يحمل اسم «يوم الإيثر»، حيث تُوزع شرائط ودبابيس تذكارية، ويُكريم العاملون في المستشفى الذين خدموا لفترة طويلة.

لم تكن نتيجة الأمر مجيدة عند الأبطال، إذ استمر مورتون لسنوات في تقديم طلبات براءة الاختراع، التي واجهَت معارضة شديدة من تشارلز جاكسون، الذي ادعى أنَّ فكرة استخدام الإيثر سُرقت منه. فقد تقدَّم

جاكسون بطلب إلى الأكاديمية الفرنسية للعلوم للحصول على مكافأة قدرها خمسة الآلف فرنك المعروضة للاكتشافات العظيمة، ومُنحت له على شرط أنْ يشاركها مع مورتون.

رفض مورتون هذا الاتفاق، مدعيًا أنه هو المخترع الوحيد، وأقنع في النهاية الكونغرس بإصدار مشروع قانون تخصيص مبلغ مئة ألف دولار لصالحه. رفضَت أرملة هوراس ويلز هذا المشروع حيث زعمَت أنَّ زوجها المتوفى مستحقٌّ لحصة في الاكتشاف، وكذلك رفَضَه أنصار الجراح كرافورد ويليامسون لونغ[1] من ولاية جورجيا، الذي تبين أنه كان يستخدم الإيثر على مرضاه منذ عدة سنوات سابقةً.

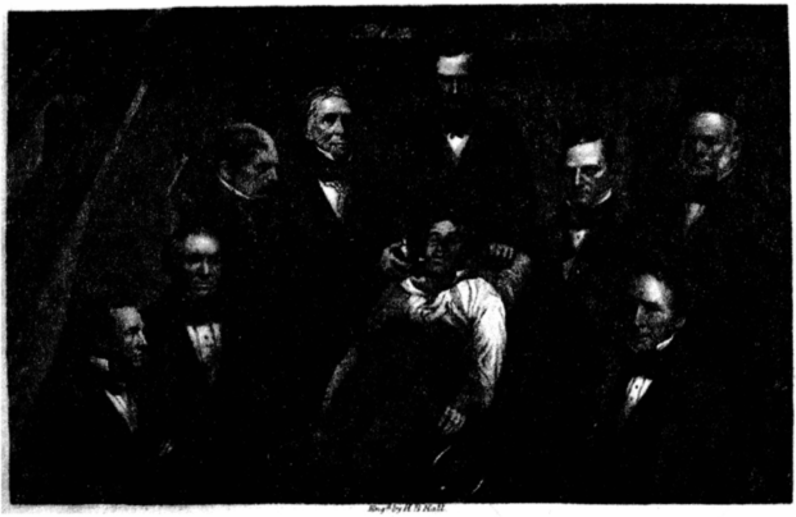

العملية الشهيرة في مستشفى ماساتشوستس العام في 22 أكتوبر 1846 والتي أظهرَت فعالية الإيثر بوصفه مُخدِّرا جراحيًا.

(1) جراح وصيدلي أمريكي (1815 ـ 1878).

وبعد ذلك، ألغى مجلس الشيوخ جائزة مورتون بسبب وجود العديد من المدعين؛ ومن ثَم أفلس مورتون بسبب الدعاوى القانونية التي لم تفلح ضد جاكسون، الذي كان بدوره متورطًا في خلافات قانونية مع شخص آخر من شركائه السابقين، وهو صاموئيل مورس[1]، بشأن اختراع التلغراف. وفي الوقت نفسه، ترك غاردنر كوينسي كولتون تقديم ديوراما «محكمة الموت» وتغيير مسار اهتمامه نحو «جمعية كولتون للأسنان»، وأسَّس سلسلة من المكاتب والعيادات على طول الساحل الشرقي. وبحلول عام 1886، ادعى أنه أجرى 125,000 عملية خلع أسنان غير مؤلمة باستخدام أوكسيد النيتروز.

* * *

فشلَت محاولة ويليام مورتون الانتهازية لإعادة تسويق الإيثر باسم «لاثيون» بعدما وصلت رائحة المذيب القوية إلى أنف جون كولينز وارن. وجد وارن نفسَه يتعرَّف على الرائحة فورًا، ليس من صيدلية الجراح فحسب، وإنما من «حفلات الإيثر» بين طلاب الطب، التي كما يتذكر، «كانت تظهر في مكانٍ ما في نهاية المحاضرات الطبية المنظمة في بعض مناطق البلاد». فقد نشأتْ هذه الحفلات من ظاهرة الاحتفالات بغاز أوكسيد النيتروز في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وانتشرَت لأنَّ الإيثر كان أسهل في الاستخدام؛ فبدلًا من التفاعلات الكيميائية والأنابيب والمضخات وأدوات الاستنشاق، يتطلب فقط زجاجة من الإيثر وقطعة قماش لامتصاص الإيثر ووضعها تحت الأنف.

---

(1) مخترع أمريكي (1791 ـ 1872).

جمعت «حفلات الإيثر» بين التجربة والترفيه، مع طابع يقع في مكانٍ ما بين الحركات المتسعة المستوحاة من أوكسيد النيتروز والروح المرحة لنُدماء الخمر القوية. وتؤدي بضع استنشاقات عميقة للإيثر إلى الشعور بانتفاخ الرأس، ودوّي في الأذُنين، وخدر في الحلق، وتصاعُد متزايد من الارتباك الشديد الذي يمكن أنْ يتحول، مثل غاز أوكسيد النيتروز، إلى إدراك واضح للغاية، أو شعور غريب لوهْم سبْق الرؤية «ديجا فو».

يُعد الإيثر أكثر سُميّة من أوكسيد النيتروز، ويؤدي استنشاقه لفترة طويلة إلى الارتعاش والانهيار وفقدان الوعي؛ ويتعافى الشخص بسرعة غير أنه يشعر عادة بغثيان وتهيُّج في الجلد حول الأنف وصداع نصفيّ حادّ. وبعد جلسة من هذا النوع في أثينا بولاية جورجيا، لاحَظ الجراح كرافورد لونغ[1]، الذي اجتمع «مع عدد من زملائي الشباب ونستخدمه للتحفيز الذي ينتجه»، أنَّ جسده مليء بالكدمات التي لم يتذكر سببها. وبدأ ـ يُزعم أنَّ ذلك كان في عام 1842 ـ بتجريب استخدامه في العمليات الجراحية.

كانت عيوب الإيثر واضحة على الرغم من إسهامه الهائل في عالم الجراحة منذ البداية. فهو قابل للاشتعال الشديد، وتخرج منه رائحة كالبنزين، ويسبب طفحًا جلديًا مزعجًا، وتُعد آثار استنشاقه المطول على مريض ضعيف قاسية للغاية. والبحث عن بديل عنه يعدُ بمكافآتٍ كبيرة.

يُعد جيمس يونغ سيمبسون[2]، أستاذ الطب وعلم الولادة في جامعة إدنبرة، واحدًا من مُؤيدي الإيثر في بريطانيا في مرحلة مبكرة. في البداية،

---

(1) جراح أمريكي (1815 ـ 1878).

(2) طبيب إسكتلندي (1811 ـ 1870).

كان الجراحون البريطانيون متشككين في هذا المُخدِّر المعجزة، بل أيضًا في فكرة ظهور اختراع طبي من الولايات المتحدة؛ فقد أشار روبرت ليستون[1]، أكثر جراحي لندن تميزًا، إليها على أنه «خدعة يانكي [أمريكيّ]». بيد أنَّ نتائج الإيثر المعجزة كانت واضحة للعيان، إذ أعتقد ليستون أنه مفيد فقط للعمليات القصيرة، بينما رأى سيمبسون أنه يمكن أنْ يجعل العمليات المعقدة ممكنة، واستخدمه بشكل مكثف في عيادته في إدنبرة. وخلال صيف وخريف عام 1847، استعان سيمبسون بخدمات الكيميائيين، واتخذ مساعدًا، وهو طبيب شابٌّ يُدعى جيمس ماثيوز دنكان[2]. وهكذا، سرعان ما امتلأ صالون منزل سيمبسون بزجاجات الصيدلية، وقضى الثنائي المساءات في صبِّ محتوياتها في صحون، واستنشاقها وتدوين ملاحظات حول آثارها.

عمل سيمبسون وفريق من المساعدين المتنوعين على تجربة مجموعة متباينة من المذيبات بما في ذلك الأسيتون (الذي تبيَّن أنه سامٌّ للرئتَين)، ونترات الإيثيل (تسبب صداعًا حادًا)، والبنزين (يسبب طنينًا في الأذُنين)، وثنائي كبريتيد الكربون (يسبب صداعًا ورائحة كريهة)، قبل أنْ يقترح كيميائيٌّ معروف عليه الكلوروفورم، أو «إيثر الكلوريك»، الذي استُخدم سابقًا في صناعة مزيج البارود.

في الرابع من نوفمبر 1847، جلس سيمبسون وزملاؤه، بالإضافة إلى أفراد من عائلته، حول طاولة الطعام واستنشقوا ببطء بخار الكلوروفورم من كؤوس. بدت الرائحة مستساغة، تشبه لسعة عِرق السوس اللطيفة أو

(1) جراح إسكتلندي (1794 ـ 1847).
(2) طبيب إسكتلندي (1826 ـ 1890).

المنثول، ومع استنشاقهم للغاز، لمعَت أعينهم، وتدفّق الحديث المفعم بالحيوية. يتذكر سيمبسون أنَّ هذا أفضل بكثير وأقوى من الإيثر، ثم «أصبحنا جميعًا في لحظة تحت الطاولة المصنوعة من شجرة الماهوجني». استفاق سيمبسون ليجد نفسَه مستلقيًا على الأرض، يُحدِّق في الجانب السفلي من الطاولة ويستمع إلى سلسلة من الصدمات الثقيلة حيث انهار زملاؤه بجواره على السجادة. كانوا مستمتعين للغاية بالتجربة، لدرجة أنهم قرَّروا إعادتها مرةً أخرى.

اكتشف جيمس يونغ سيمبسون، أستاذ الطب وعلم الولادة في جامعة إدنبرة، خواصَّ مُخدِّر الكلوروفورم من خلال تجارب ذاتية في غرفة معيشته.

نظرًا لأنَّ التجارب التي أجراها سيمبسون على نفسه جرت في محيط منزليّ، فإنها تُعد غير عاديةً لأنها تضم شهادات النساء. كانت زوجة سيمبسون وأختها وابنتها جميعًا حاضرات خلال هذه التجربة الشهيرة. يُذكر أنَّ ابنة أخت زوجة سيمبسون، أغنس بيتري، التي جلست على الطاولة

تتنشق الكلوروفورم، ثم وضعت ذراعَيها وتغفو وهي تتأوَّه قائلة «أنا ملاكٌ! يا ليتني كنتُ ملاكًا!» وعند استفاقتها، تسأل «كيف حالكم جميعًا؟». شاركوا في عدة جلسات خلال الصيف، وفي إحدى المرات شهد الكاتب المشهور هانس كريستيان أندرسن[1] الزائر للمنزل تلك التجربة.

زار هانس كريستيان أندرسن إسكتلندا في أغسطس عام 1847، وقدَّم سيمبسون دعوة على العشاء إلى «والتر سكوت الدنماركي»[2]، كما أطلقَت عليه الصحف المحلية. وبعد العشاء، وهو الأمر الذي فاجأ أندرسن، أُدير الإيثر بين الحضور:

ظننتُ أنه أمرٌ مُخزٍ، وخاصةً رؤية السيدات في هذه الحالة المُسكِرة، يضحكنَ بأعينٍ مفتوحة خالية من الحياة، كان ثمة شيءٌ غير مُحبب، وقلتُ ذلك، مدركًا في الوقت نفسه أنها اختراع رائع ومبارك يُستخدم في العمليات المؤلمة، ولكن ليس لغرض اللعب به، كان من الخطأ فعل ذلك، يبدو الأمر كما لو كنا نحتجب من الربِّ.

ألقَت سيطرة التخدير على الألم ضوءًا جديدًا على استخدامه للمتعة. في البداية، تم رؤية وجهَي المواد المُخدِّرة باعتبارهما متكاملَين. اعتقد جون كولينز وارن أنَّ تعذيب الجسم الجراحي يقترن الآن «بحُلم لطيف» أو «رؤية سماوية» ممَّا يُعد مفارقةً ممتعة. أثار آخرون من الأطباء التساؤلات الفلسفية التي شغلَت بال ديفي؛ «ما أغربَ الظواهرَ التي تُقدمها! العقل مستيقظ وواعٍ، في حين أنَّ الجسم غير متأثر. وتصبح الروحُ وكأنها غريبة عن الجسم، حتى في هذه الحياة».

(1) كاتب وشاعر دنماركي وأحد كتاب الحكايات الخرافية (1805 ـ 1875).
(2) تشبيهًا بالروائي والكاتب المسرحي والشاعر الإسكتلندي السير والتر سكوت (1771 ـ 1832).

ومع انتشار التخدير بسرعة في جميع أنحاء العالم، نُوقِشت مثل هذه الألغاز على نطاق واسع. فقد كتب تقرير في المجلة الإسكتلندية *مجلة الشعب* لعام 1847: «أنَّ التجارب الشخصية للمُخدَّرين بالإيثر مثيرة للاهتمام للغاية». «يبدو أنَّ العقل محتار ممَّا يجب أنْ يفعله مع حالته الجديدة!»، يطفو خارج الجسد مع «شعور وكأنَّ القيود التي تربطه بالأرض تحطمَت». وشعر العديد من الأشخاص بأحاسيس «تحمل طابعًا أغرب وأكثر إثارة».

مثلت هذه اللحظة لبعض الأفراد لحظة مبهجة، بثّت فيهم شعورًا بأنَّ أرواحهم قد غُمرَت في «جوّ من النور، والتمتع بسعادة عالَم آخر على ما يبدو»، تاركة وهجًا زاهيًا يتلاشى عند الاستيقاظ. بينما رأى أفراد آخرين التجربة ـ وكان من المستحيل التنبؤ بهُوياتهم ـ مختلفة تمامًا، حيث وجدوا أنفسهم مدفوعين نحو كابوس حيّ:

> يتجادل بعضهم بعنف مع أقاربهم؛ يتدحرج آخرون في أعماق لا قرار لها؛ وتتزاحم الأهوال من كلِّ الأنواع على عقول البعض الآخر. وحينما تظهر هذه الحالة، فإنَّ انتهاء العملية يُعد فرحة لا يمكن أن يصفها المُخدِّر بالإيثر، بيد أن تجربة شبه عامة تُشير إلى أنه لم يشعر بأيِّ ألم حقيقي: «كان يشبه حلمًا مخيفًا!»، أو «كنت أعتقد أنَّ شيطانًا يمسك بي!».

أصبحَت التجارب الذاتية من هذا النوع مع انحسار حداثة الإيثر، نادرة التدوين في الأدبيات الطبية. وظلت أسباب هذه التجارب ومعانيها لغزًا، كما بقيت أسباب تجربة الحالة على نحوٍ مختلف جدًا بين الأفراد محيرة. بيد أنَّ الأوصاف السريرية للرؤى أصبحَت أقصر، واستخدمت الصيغ اللفظية الثابتة أكثر، وقورنت التجربة الذاتية بشكل أكثر شيوعًا بحالة السُّكر. ولم

يمضِ وقت طويل قبل أنْ يُحذر وارن من أنَّ متعة الإيثر والكلوروفورم تمثل دعوةً خطيرة لإساءة استخدامها. وفي كُتيبه الذي أصدره عام 1849، بعنوان *آثار الكلوروفورم والإيثر الكلوري القوي كعوامل مُخدِّرة*، كتب قائلًا: «استفقنا بسرور من أحلامنا المتعلقة بالتأثير الممتع للعامل الجديد، بسبب عواقب مؤلمة ومؤسفة».

كانت إحدى هذه النتائج اكتشاف أنه في حالات نادرة يمكن أنْ يوقف الكلوروفورم القلبَ ويُنهي الحُلم الممتع دائمًا بشكل مأساويّ. لكن الأكثر شيوعًا هو استخدام هذه المواد المُخدِّرة الجديدة علاجًا للتهيج العصبي، والاعتراف بأنها قد تقود إلى عادة إدمانية ومتصاعدة ومدمرة. كتب وارن أنَّ العديد من الأشخاص من كلا الجنسين «لجأوا إليها بغرض الحصول على متعة هذيان مؤقت»، واستشهد بحالة:

> ثمة طبيب في نيويورك حاز بعض الشهرة، وكان يعاني من مشاكل عقلية. لجأ إلى استخدام الكلوروفورم على نحوٍ متكرر حتى أصيب في النهاية بالهذيان؛ وفي أثناء هذا الهذيان، ارتكب بعض التصرفات الغريبة وأخيرًا، أنهى حياته.

يشير وارن في هذا المقطع إلى هوراس ويلز، الذي اعتاد استخدام الكلوروفورم خلال فترة الاكتئاب التي تلت محاولته الفاشلة لتقديم أوكسيد النيتروز في غرفة العمليات التابعة لوارن. فقد كان ويلز قد انتقل من هارتفورد إلى نيويورك، حيث تجوَّل في الشوارع في حالة من الارتباك تحت تأثير الكلوروفورم، وفي عام 1848 اعتُقل بعد إلقائه حمض الكبريتيك على وشاحَي بائعتَي هوى في الشارع. وبعد اعتقاله وسجنه، أنهى حياته بقطع شريان فَخِذِه.

ربما يُعد هوراس ويلز أول ضحية لهذه العادة السيئة الجديدة، غير أن وارن أكد أنَّ «عدد الذين عرفتُهم يستخدمون الكلوروفورم بهذه الطريقة كبيرٌ للغاية، بحيث يجعلني أعتقد أنَّ عدد الأشخاص الذين يستخدمونه بسرّية يجب أنْ يكون كبيرًا جدًا». كما لاحظ طبيب آخر، لم تكن المتعة مجرد عرَض جانبيٍّ غريب للأدوية المُخدِّرة الجديدة، بل تهديدًا للصحة العامة؛ فهي «تُبهج الأحاسيس الحيوانية بينما تدمر المشاعر الأخلاقية؛ وتُدخل ضحاياها جنة الحمقى؛ تخدعهم بأفراحٍ مصيرها الأحزان».

الابتعاد عن الذاتية صار مثالًا حيًا في شخصية أوليفر ويندل هولمز[1]، وهو طبيب ومُحامٍ وشاعر وعالِم متعدد المواهب وأستاذ في جامعة هارفارد، وأحد أفراد عائلة ويليام جيمس، الذي ابتكر مصطلح التخدير في عام 1846 في مراسلته مع هنري مورتون[2].

لقد تنافسَت مصطلحات مختلفة في البداية، غير أنَّ جميعها كان إما محددًا للغاية، مثل «تأثير الإيثر»، أو عامًّا جدًا كما في «التسكين»، أو معقدًا على نحوٍ كبير، مثل «التخدير الإيثري». وشعر هولمز أنَّ مثل هذا الاكتشاف المهم يستحق إضافة إلى اللغة. واقترح استخدام مصطلح «التخدير»، الذي يعني «فقد الحس»، بخلاف «التسكين» الذي يشير فقط إلى غياب الألم. واقترح أيضًا أنْ تكون الصفة المستخدمة هي «مُخدِّر». وفي محاضرة ألقاها لجمعية في بيتا كابا[3] في هارفارد عام 1870، قدَّم هولمز قصة مشهورة ومأثورة:

---

(1) طبيب، وشاعر، وموسوعيّ أمريكي (1809 ـ 1894).
(2) كيميائي أمريكي (1836 ـ 1902).
(3) أقدم جمعية شرفية للفنون المتحررة والعلوم في الولايات المتحدة، تأسست عام 1776.

استنشقتُ في إحدى المرات جرعة كبيرة نسبيًا من الإيثر، وأنا عازم على تدوين أول فكرة تتبادر إلى ذهني عندما أستعيد وعيي في أقرب وقت ممكن. صدحَت موسيقى المسيرة النصرية العظيمة إلى العدم في دماغي وملأتني بإحساس بالإمكانات اللانهائية، ممَّا جعلني ملاكًا في تلك اللحظة. كُشف الستار الأزلي. تلك الحقيقة العظمى التي تكمن وراء كلِّ تجربة بشرية، والمفتاح لكلِّ الألغاز التي حاولَت الفلسفة حلَّها دون جدوى، تلألأتْ أمامي في وحي مفاجئ. منذ ذلك الحين، أصبح كلُّ شيء واضحًا: قليل من الكلمات رفع ذكائي إلى مستوى معرفة الملائكة. عندما عادت حالتي الطبيعية، تذكرتُ قراري. ومترنحًا فوق مكتبي، كتبتُ، بخط مشوَّه متبعثر، الحقيقة الكلية التي لا تزال تلمع في وعيي. وكانت هذه هي الكلمات (قد يبتسم الأطفال؛ ويتأمل الحكماء): «تسود رائحة قوية لزيت التربنتين في كلِّ مكان».

ستظل ذكرى سخرية هولمز من الوحي التخديري أبقى من معظم التجارب التي أشارت إليها، بفضل تكرارها في مصادر بارزة في القرن العشرين مثل *تاريخ الفلسفة الغربية* لبرتراند راسل[1] (على الرغم من أنَّ راسل نسبَ هذه الكلمات إلى ويليام جيمس، واستبدل غاز الضحك بالإيثر، وحرّف كلمة التربنتين إلى البترول).

إنه يؤكد للقارئ بعبارات أنَّ مزاعم التجارب الروحانية تحت تأثير التخدير وهميةٌ؛ إنها أوهام عظيمة تتلاشى إلى لا شيء تحت الضوء البارد للعقل العقلاني. لقد كانت رسالة طمأنَت الجيل الصاعد من طلاب الطب بجامعة هارفارد، وكان لها صدى مع التقاليد الفلسفية الموقرة في بوسطن.

(1) فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني (1872 ـ 1970).

على الرغم من تقدير المؤمنين بالفلسفة المتعالية[1] للتجربة المباشرة، وحُبّهم للطبيعة وفضولهم برؤى البوذية الروحية، اعتبروا المواد المُخدِّرة الاصطناعية مصدرًا غير جدير بالثقة ومن شأنه أنْ يُفسد الإنسان. وأوضح رالف والدو إمرسون، صديق أوليفر ويندل هولمز، وهنري جيمس الأب[2]، والد ويليام جيمس، موقفه ضد «مُروِّجي النشوة الحيوانية» في مقالِته عام 1846 بعنوان «الشاعر»:

> لا يمكن أبدًا الاستفادة من الطبيعة بواسطة خدعة. فإنَّ روح العالم، ووجود الخالق الهادئ العظيم، لا يظهر أمام سِحر الأفيون أو النبيذ. تقع الرؤية السامية في روع النفس النقية والبسيطة في جسد طاهر وعفيف. هذه ليست مصادر إلهام ندين به للمواد المُخدِّرة، ولكنها تمثل بعض الإثارة والغضب المزيفين.

اتخذ هنري ثورو[3] موقفًا ممَّاثلاً بعد إجراء عملية طبية في أسنانه في عام 1851. فقد كتب في مذكراته أنَّ الإيثر لا يُقدِّم معرفة روحية حقيقية لأولئك الذين يُنصِتون لتوجيهات العقل أو الضمير. ومع ذلك، فإنَّ تجربة الانفصال عن الجسد هي تجربة فريدة من نوعها:

> من خلال أخذ الإيثر في ذلك اليوم، كنتُ مقتنعًا إلى أيٍّ مدى يمكن للرجل أنْ ينفصل عن حواسّه. يخبرونك بأنها ستجعلك فاقدًا للوعي ـ ولكن لا أحد يستطيع تخيُّل ما هو الوعي: مدى الابتعاد عن حالة الوعي وكل ما نسميه «هذا العالم» ـ حتى يجربها بنفسه...

---

(1) حركة فلسفية تطورت في نهايات عشرينيات وثلاثينيات القرن الثامن عشر في الولايات المتحدة الشرقية، كردّ فعل للاحتجاج ضد الروحانية السائدة في ذلك الحين.
(2) فيلسوف أمريكي (1811 ـ 1882).
(3) كاتب مقالات وشاعر وفيلسوف أميركي (1817 ـ 1862).

أنت عقل سليم بلا أعضاء ـ تتلمَّس بحثًا عن أعضاء ـ ومَن لم يستعِدْ
حواسَّه القديمة فسيحصل على حواسّ جديدة.

كانت تجربة غريبة، دماغ منفصل عن الجسد يبحث عن مؤثراتٍ في الفراغ، لكن لم تكن لها علاقة واضحة بواقع الحياة اليقظة إلا من خلال الاعتراف، كما عبَّرت عنه إميلي ديكنسون[1] في عام 1861:

مسمارٌ واحدٌ من الجسد
هو كل ما يربط الروح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

يُعد بنجامين بلود رجلًا سابقًا عصره، حيث بدأ في مطاردة الوحي التخديري في الستينيات من القرن التاسع عشر. لقد مضى زمنُ ازدهار عروض أوكسيد النيتروز ومرح الإيثر؛ وطغَت معجزة الغاز والأبخرة الطبية على أسرارها الميتافيزيقية. ومع ذلك، ظلت الأسئلة المستعصية التي طرحتْها التجربة بلا إجابة.

أرسل بلود نسخًا من كتيبه إلى كلِّ شخص بارز يمكنه التفكير فيه، ولكنه لم يتلقَّ سوى قليلٍ من الردود. واحدًا من الاستثناءات المدهشة هي الردود التي تلقّاها من ألفريد لورد تنيسون[2] الذي خضع لعملية جراحية، وأجاب بأنَّ «الصديق الذي كان يُمسك بيدي وقدَّم لي منديلًا مشبعًا بالإيثر، قال لي إنني عندما عدتُ إلى وعيي، نطقتُ بمصطلح ميتافيزيقي طويل لا يستطيع تكراره». قدَّم تنيسون دعوة كريمة، ولكنها غير عملية

(1) شاعرة أمريكية (1830 ـ 1886).
(2) شاعر إنجليزيّ (1809 ـ 1892).

لبلود لزيارته، وصنَّف بلود رسالته في الملف الذي يتضمن تجارب القراء والمراسلين التي لا يمكن وصفها بكلمات.

كانت مثل هذه الأسئلة: ما هو؟ ماذا يعني هذا كله؟ أو ما قيمته؟ تلك التي يطرحها مرضى الجراحة وتزعج ويليام جيمس. وكتب في مراجعته عام 1874 عن الكتيب: «إنَّ تفسير الظاهرة التي يصفها السيد بلود لا يزال ناقصًا». في الأوساط الفكرية التي ينتمي إليها جيمس، ربما اعتُبرت الرؤى التخديرية اضطرابات عشوائية لا معنى لها في دماغ منفصل، بيد أنه في عام 1882 اقتنع جيمس بعد غوص قصير في عالم التجربة النقية للبحث في مصادر هذه الرؤى ومدلولاتها، وربط الإلهامات التي استقاها منها بالواقع اليومي.

تُعد نقطة انطلاق جيمس هو نضاله الطويل لفهم فلسفة هيغل، إذ يشعر بالرفض الفطري تجاه عقيدة هيغل؛ لإصرارها المتكبر على الحقيقة المطلقة، وتجريداتها العقيمة، وازدرائها المفرط للأمور العملية والخاصة. اعتقد جيمس أنَّ الفلسفة تتحدد على نحوٍ كبير بواسطة الطباع، ولاحظ على نحوٍ ذاتي أنَّ الأشخاص الذين أُسرتهم عقيدة هيغل من بين زملائه، خلال رواجه الأمريكي في أوائل الثمانينيات، يميلون إلى الغرور والتعالي.

في المقال الذي كتبه «عن بعض نظريات هيغل»، وضح لماذا لم يكن هيغليًا: «لا يمكن تجاهُل الصراعات والتناقضات ببساطة من خلال الاستدلالات السطحية على وجود تركيب أعلى». وفي الهامش الذي كتبه بعد تجربته مع غاز أوكسيد النيتروز، أعلن أنَّ الغاز قد «جعلني أفهم على نحوٍ أفضل من أيِّ وقت مضى كلًا من قوة فلسفة هيغل وضعفها». أصبح

الآن قادرًا على إيجاد التحرر في النظام الهيغلي الذي لا يوجد فيه شيء ثابت أو نهائي، وكل شيء هو مرحلة أو جانب من كلٍ أكبر، ويجب أنْ ينظر إليه دائمًا في علاقته بذلك الكل.

كانت الصراعات والتناقضات من هذه النظرة العالية في النهاية مسألة تتعلَّق بالمنظور، وهذا يجعل تجربة أوكسيد النيتروز صالحة مثل أيِّ تجربة أخرى. وخلص جيمس إلى أنَّ قصور هيغل هو في معظمه نابعًا من المزاج، حيث إنه مصمم على الإصرار على الحقيقة المطلقة لنظامه بتحجيم غير مرنٍ جعله دون معنى. غير أنه ضمن العالم المتغير جذريًا الذي أنتجه الغاز، أصبحَت الحقيقة المطلقة نسبية بحدِّ ذاتها؛ ويمكن الاعتراف بها «إما من خلال الضحك على العدم النهائي، أو في مزاج من الدهشة الدوارة تجاه شيء لا نهائيّ وخالٍ من المعنى».

أصبح للوحي التخديري تأثير عميق بالقدْر نفسه على المجال المهني الآخر لجيمس، وهو علم النفس. لقد كانت دراسات جيمس متأصلة في علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح، وخلال زيارته إلى ألمانيا في عام 1867 درس مع رواد «علم النفس الفيزيائي» الجديد، وتعرَّف على التجارب المعملية التي كان فيلهلم فونت، وهيرمان فون هلمهولتز يستخدمانها لقياس العمليات العقليَّة بدقة غير مسبوقة. فقد رأى جيمس كيف قُلّصت الأفكار والتفاعلات إلى مكوناتها الأساسية، ثم جُمِعَت في جداول تتضمن المدخلات الحسية والاستجابات، مع قياس الفجوات الزمنية بينها بالثانية وأجزائها. تم تحليل مفاهيم مثل «الانتباه» عن طريق تعريض المشاركين في التجارب للأضواء المتقلبة، وطلب منهم الضغط على المفاتيح ردًا على هذه التحفيزات، ممَّا أدى إلى إنشاء توقيت دقيق

لقوس الردِّ الانعكاسي، والذي يمكن تعيينه مقابل مشاهدات الخلايا العصبية والألياف.

تابع جيمس هذا العمل التجريبي عن كثب، غير أنَّ تجربته مع الغاز أعادت تعزيز الإحساس المتزايد بأنَّ محاولة تقليل الوعي إلى أجزائه المكونة وتحديد موقعه في الدماغ كانت معيبة جوهريًّا. كان لديه مختبر تجريبي صغير في جامعة هارفارد، غير أنه وجد أنَّ قيمته محدودة. ففي رأيه، كانت التجربة العقليَّة عبارة عن كلٍّ مترابط لا يمكن تجزئته ومتغير بشكل فوضويّ دائمًا، ولا يمكن إعادة إنتاج أيٍّ لحظة مستقلة منه بدقة تامة، حتى عند تحفيزها بالمؤثرات الحسية نفسها تمامًا. والعمليات الذاتية والمتغيرة والغامضة تحدد بصمة كلٍّ عنصر في العقل الواعي. فعلى سبيل المثال «الانتباه»، لم يكن مجرد ردّ فعل فسيولوجي؛ وإنما يُمثِّل وظيفة يستخدمها العقل لاختيار خيط واحد من تشابُك الأفكار والمشاعر والانطباعات الحسية، وغالبًا ما يكون ذلك بطرق لا يكون الفرد مدركًا لها بوعي.

وكتب قائلًا: «ما نسميه «تجربتنا» يتحدد إلى حدٍّ كبير بعادات انتباهنا»؛ نفشل في ملاحظة الغالبية العظمى ممَّا يدخل في مجال إدراكنا، غير أنَّ ملاحظة واحدة غير عادية قد تبقى محفوظة في أذهاننا مدى الحياة. فالوعي أو الإدراك لا يمثل سلسلة خطية من الأفكار المنفصلة أو «ذرّات الشعور» التي يمكن اقتلاعها من الدماغ وتحديد مواقعها وجدولتها. بل هو، كما كتب في وقت لاحق، أشبه بالنهر أو الجدول: «دعونا نسميه تيار الفكر، أو الوعي، أو الحياة الذاتية». كان تيار الوعي، كما سيُعرف فيما بعد، بالتأكيد منعكسًا في بعض «الأعمال الدماغية» التي تتوافق مع كلٍّ من

عناصره المتداخلة، بيد أنَّ هذه الوحدات من الانتباه أو الإدراك هي في النهاية نتاج للقياس العلمي، وليس للفكر نفسه.

إذا كانت الفلسفة مسألة تكوين نفسيّ، فإنَّ موقف جيمس تجاه التجربة الصوفية قد تأثَّر بعلاقته المعقدة والمستحيلة بوالده. فقد كان استياؤه من المطالب المطلقة والجازمة لهيغل بديلًا عن تلك التي يتمسك بها بجمود هنري جيمس الأب، وهذا الصراع مع والده الحازم وضعه في مسار عنيد وغير تقليدي.

كان قد حُرِم من ثروة عائلية هائلة وانجرف في «الصحوة الكبرى الثانية»[1]، ووُلد من جديد كمسيحي تبشيريّ قبل أنْ يعاني من انهيار عصبي ـ «خراب»، كما سماه بعد ذلك ـ وآمن بمعتقدات إمانول سفيدنبوري[2]، المهندس السويدي الذي زارته رؤى إلهية في عام 1744، ومُنح (كما آمنَ هو وأتباعه) بالرؤية الخارقة للطبيعة.

طوال طفولة ويليام، كتب والده الكثير من المقالات النبوئية، المليئة بالمُثُل الأفلاطونية والحقائق المطلقة التي لا تجد مَن يقرأها. كان ربَّ عائلة في حالة من الاضطراب المستمر، حيث ما برح يتنقل بين نيويورك وبوسطن وأوروبا؛ كما أنَّ تربية ويليام متنوعة ومحفزة، فقد تعلَّم اللغتَين الفرنسية والألمانية خلال رحلاته الخارجية، غير أنَّ هذا تركه بلا جذور ومفتقرًا للسكينة.

---

(1) مثلت إحياءً دينيًا بروتستانتيًا خلال أوائل القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة. بينما كانت الصحوة الكبرى الأولى سلسلة من الإحياءات المسيحية التي اجتاحت بريطانيا ومستعمراتها الثلاثة عشر في أميركا الشمالية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر.

(2) عالم وفيلسوف سويدي وصوفي وعالم إلهيات مسيحي (1688 ـ 1772).

ولِكون ويليام الابنَ الأكبر، واجه مجموعة شيطانية من الروابط المزدوجة. فقد أعجب بوالده وسعى لاحترام معتقداته ووصاياه الأخلاقية، غير أنه لم يستطع الهرب من حقيقة أنه كان يجدها سخيفة. كان يخشى أنْ يُجبر على تأدية دور المُنكر والساخر العقلاني، غير أنه كان عاجزًا عن تأدية دور الابن المبارَك. وبسبب عدم قدرته على التوفيق بين احترامه لقوة والده وسلطته وتدينه المتعصب، كان منزعجًا من الشك حول مدى عقلانيته. وفي مرحلة شبابه، كان ويليام جيمس سريع التأثر عقليًا، وعانى من انهيار عصبي عند السنّ نفسه الذي عانى فيه والده من ذلك. وشُخِّصَت حالته على أنها «وهن عصبيّ»، وكافح لسنوات للعثور على مهنة أو مسار وظيفي مناسب.

لم يجرب ويليام جيمس أبدًا نشوة دينية مثل والده، أو الفجوة الروحية التي جعلَت والده ضعيفًا على الرغم من قوته وجاذبيته. كان يخشى أنه فاته جانبٌ حاسم من التجربة الإنسانية ممَّا سيجعل فلسفته ناقصة إلى الأبد. وعلى الرغم من ضعفه الجسدي، سعى إلى التجارب الشديدة والصوفية، فقد مثلَت تجربته لغاز أوكسيد النيتروز، التي اعتبرها عدد من طلابه وزملائه في هارفارد خطيرة، جزءًا من نمط أوسع للاستكشاف الروحي الذي يشمل اليوغا والشفاء الروحي والعديد من جلسة استحضار الأرواح.

إنَّ تجربته المذهلة مع أوكسيد النيتروز كانت أكثر من اختراق نفسيّ أو خارق للطبيعة؛ لقد مثَّلَت تحريرًا عاطفيًا عميقًا. ولم يعُد التصوف لغة غريبة لديه. إذ استطاع أنْ يُقدِّر للمرة الأولى كيف يمكن أنْ تكون رؤية دينية مثل رؤية والده أكثر حقيقةً من الواقع اليومي الذي يعيشان فيه. «لا يمكن انتقاد رؤية الصوفي»، كما قال لاحقًا؛ لكن بالمقدار نفسه، ليس

لرؤى الصوفي الخاصة بشخص ما سلطةٌ سياديةٌ على الواقع الذي يعيشه الآخرون. كانت أفكاره ومعتقدات والده متساوية في الصحة. وتحت تأثير الغاز، قد يكون من الممكن رسم حدود العقل علميًا، والإيمان بالمستحيل في الوقت نفسه.

* * *

منحَت رحلة جيمس إلى عالَم التجربة النقية الأولوية لمشروعه في بناء علم نفس جديد يمكن أنْ يشمل التجربة الصوفية. وبينما تضيق علوم العقل لتستبعد الظواهر التي لا يمكن توثيقها بمصطلحات موضوعية من خلال القياس الخارجي، أصبحَت التجربة الذاتية أقل أهمية. إذ تمَّ تجاوُز إدراك همفري ديفي الواسع الشاعري لعالَم مُكوّن من أفكار، بالإضافة إلى نظرته الرومانسية للطاقات والتدفقات والقوى الحيوية. وبالنسبة لأجيال العلماء الحديثة، فإنَّ الوحي التخديري كان مجرد هذيان مخمور، كما أكد جون كولينز وارن، والادعاءات بالإدراك الروحاني هي أيضًا، كما أشارت قصة أوليفر ويندل هولمز الساخرة، ثرثرة ولا معنى لها. وقد كان يُنظر إلى الأحداث العقليَّة الخاصة ـ تلك التي ليس لها سبب خارجيّ، وغير مدركة للمراقبين الآخرين ـ من خلال منظار الكلمة التي أشارت الآن إلى مثل هذه التجارب، ألا وهي الهلوسة.

يُعد هذا المصطلح حديث المَنشأ ومُفاجئًا، إذ صاغه جان إتيان دومينيك إسكيرول[1] في عام 1817، وهو طبيب في مستشفى سالبترير في باريس، ويدل على الشخصية السائدة التي تتصف بما سُمي بالتصرفات الغريبة،

(1) طبيب فرنسي (1772 ـ 1840).

غير أنه في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بدأ يشار إليها في ألمانيا على وجه الخصوص باسم الطب النفسيّ. أما أهداف إسكيرول فهي متواضعة نسبيًا، حيث كان يهدف إلى إنشاء فئة واحدة لجميع الاضطرابات الحسية.

كانت المصطلحات السابقة مثل «التخيل» و«التوهم» و«الوهم الطيفي» تتركز جميعًا على التجارب البصرية ولا تشمل الحواسَّ الأخرى أو الأحاسيس الجسدية. وقد أراد جان إتيان دومينيك إسكيرول ابتكار مصطلح يمكن أنْ يشمل جميع هذه التجارب، ولا يقتصر على الإدراكات البصرية. أراد إسكيرول أيضًا إجراء تمييز رئيس بين التصورات الخاطئة للظواهر الفعلية، التي سماها «الوهم»، والإدراكات التي تتشكل بالكامل في العقل. فتفسير الظل العابر على أنه شخص، أو سماع صوت في جدول متدفق كانا وهمَين، بيدَ أنه في حالة الهلوسة، يحدث كلُّ شيء في الدماغ؛ فالرؤى والنشوة هما مهلوسان، فهما مثل الحالمين، ولكن في حالة يقظة.

في عصر ويليام جيمس، بدا وصف إسكيرول للشخص الذي يعاني من الهلوسة «كرؤيا» قديمة ومستهلكة. إنها تعود إلى اللغة التي كانت سائدةً قبل تدخُّله، حينما يمكن فهم الأحداث الحسية الخاصة على أنها من منزلات الوحي، أو رسائل من الأسلاف أو الأرواح، أو كصوت الربِّ.

كلمة *alucinari* الإيطالية التي استخدمها إسكيرول تعني: العقل المتجول أو العائم بعيدًا عن فَلَكِه، وقد وظفها دانتي[1] بشكل شهير لوصف

(1) شاعر إيطالي من فلورنسا (1265 ـ 1321).

تأثير أغنية السيرانة[1] على أوديسيوس[2]. ومنذ أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، عندما أُعتمدَت «الهلوسة» في اللغة السريرية واليومية، بدأت تُغير معنى التجربة الخاصة.

وُصفت الحالات الرؤية في السابق بالروح والروحانية، وهي جوانب من الذات يمكن أنْ تتلقى الإدراكات أو الرسائل من مصدر خارق، غير أنَّ مصطلح «الهلوسة» حمل الحكم الضمني بأنَّ هذه التجارب ليست رسائل من خارج الذات، وإنما هي أخطاء في وظيفة العقل. وهذا جعلها بحكم التعريف مَرضية، ومع توسُّع التشخيصات الخاصة بالأمراض العقليَّة وانتشار مستشفيات الأمراض العقلية، أصبح النظر إليها بشكل متزايد على أنها أعراض للجنون.

أُثير جدل حادّ في أوساط الطب الفرنسي في منتصف القرن، حول ما إذا كانت الهلاوس يمكن أنْ تتعايش مع العقل. فعند الوضعيين[3]، بدا الأمران متناقضَين. فبعض الأطباء في ذلك الحين، مثل الطبيب الفرنسي ألفريد موري[4]، الطبيب وعضو في معهد فرنسا ومؤلف كتاب *النوم والأحلام* (1861) لم يترددوا في اعتبار أنَّ ثمة تكافؤًا مباشرًا بين المصابين بالهلاوس والمجانين. فقد قال موري «ما هم، أيْ المجانين، إلا عقول تؤمن بهلوساتها كما لو كانت حقائق مؤكدة؟».

---

(1) في الأساطير الإغريقية القديمة هي حوراء بحرية لها رأس امرأة وجسد طير، تغوي الملاحين بغنائها الساحر حتى توردهم التهلكة.
(2) ملك يوناني أسطوري.
(3) إشارة للمدرسة الفلسفية التي ترى أنَّ كل المعرفة الحقيقية إما صحيحة بالتعريف أو إيجابية.
(4) عالم وطبيب فرنسي (1817 ـ 1892).

صنَّف موري الأحلام على أنها «الهلوسة التنويمية»، واعتبرها أنقاضًا عقلية تظهر عندما ينفصل العقل العقلاني. في «البحث الطبي بأثر رجعيّ»، وهو مصطلح ابتكره في عام 1869 الطبيب والفيلسوف الوضعي إميل ليتريه(1)، وُسعت الحُجة نفسُها لتشمل رؤى الماضي الدينية. فقد شخَّص ليتريه وزملاؤه [شخصيات](2) بأنهم كانوا يعانون من الصرع أو الهستيريا أو الوهم المرضي. في حين رفض أطباء فرنسيون آخرون، والذين كانوا أكثر تعاطُفًا مع الكاثوليكية، هذه التشخيصات المادية والمناهضة لرجال الدين.

يرى الطبيب المتخصص في الأمراض النفسية ألكساندر بريير دي بوازمون(3)، الذي عمل في مصحة للأمراض العقليَّة في حي مونمارتر، في كتابه *الهلاوس* (1845) أنَّ القديسين التاريخيين وأصحاب الرؤى كانوا يُعبِّرون عن الأفكار السائدة في زمانهم، وغالبًا ما استخدموها لخدمة مشاريع إصلاح المجتمع والبشرية.

أصبحت الرؤى من هذا النوع مَرَضيةً فقط في العصر الحديث، حين عُزِلَت عن الإجماع الاجتماعي. ومع ذلك، فإنَّ هذا التفسير، بقدْر ما هو التفسير الذي يراه العلمانيون التقدميون، لم يترك أيَّ مجال لفهم التجارب الصوفية الحديثة خارج نطاق المرض العقلي. ومع تشدُّد الحكم الطبي حول الهلوسة بوصفها عقيدة ثابتة، أصبحت هذه التجارب أقلَّ وضوحًا في الحياة العادية، وبخاصة لأولئك الذين يراجعون الأطباء، ويخشون أنْ يضعهم الأطباء في مصحة عقلية.

---

(1) مؤلف معاجم وماسوني وفيلسوف فرنسي (1801 ـ 1881).

(2) في نص الكتاب «Moses, Socrates and Muhammad».

(3) طبيب فرنسي (1797 ـ 1881).

كانت الظاهرة الغامضة للألم في الأطراف المبتورة، على سبيل المثال، مألوفةً في القصص المتناقلة على الأقل منذ وصفها في تأملات ديكارت. بيد أنه قبل أنْ يتمكن طبيب الأعصاب الأمريكي سيلاس وير ميتشل من تقديم أول وصف كامل لـ «متلازمة الأطراف الوهمية»[1] في عام 1872، كان مضطرًا لقضاء سنوات عديدة في استنباط تاريخ الحالات بدقة من الجنود المعاقين الذين احتفظوا بأحاسيسهم الغريبة لأنفسهم خوفًا من دخول المصحة النفسية.

شهدَت الولايات المتحدة وأوروبا بحلول العقد الثامن من القرن التاسع عشر، تزايُدًا كبيرًا في عدد مستشفيات ومصحات الأمراض العقلية. وامتلأت ملاجئ الدولة والمقاطعات والقطاع الخاص بالمرضى بسرعة تضاهي سرعة افتتاحها، إلا أنَّ معدل شفائهم وتعافيهم ظلَّ منخفضًا على نحوٍ مستمر. ولكن التقدم الطبي الذي أحدث تحوُّلًا في مجالات الجراحة وعلم الأمراض والأمراض المعدية ظلَّ غامضًا في اضطرابات العقل. وافترض أطباء الأمراض النفسية والمصحات أنَّ ثمة أمراضًا عقلية غير قابلة للشفاء، إما لتلف دائم في الأعصاب أو الدماغ ناتج عن الوراثة، أو بسبب العادات السيئة أو الضعف الأخلاقي.

ادَّعى أطباء مثل هنري مودسلي[2] هذا المجال، الذي ترك طب المصحات لتحرير مجلة *العلوم العقليَّة* المؤثرة، ووَضعت ورقته البحثية التي صدرت عام 1878 بعنوان «هلوسات الحواس» حدًا صارمًا ضد

(1) هو إحساس الذين بُترت أو فُقدت أطرافهم، بأنَّ أطرافهم الناقصة لا تزال موجودة بالجسم وتتحرك بشكل مناسب مع أجزاء أخرى من الجسم.
(2) طبيب نفسي إنجليزي (1835 ـ 1918).

أيِّ محاولة للتهاون مع الهلاوس أو إحداثها. وكتب أنَّ ثمة أناسًا كثيرين «يعانون من اضطرابات عصبية أو أخرى»، مقتنعين بواقعية هلوساتهم. ويقول الواحد منهم: «تقنعني، بأنني مخطئ»، ولكنهم لا يتغيرون.

ما الإجابة التي يجب أنْ نُقدِّمها؟ لقد أجبتُ في بعض الأحيان: «نظرًا لأنك وحيد في رأيك وجميع العالم على الجانب الآخر، فيجب أنْ أفكر إما أنك عبقري غير عادي يتفوق بكثير على بقية العالم، أو أنك مجنون متخلف إلى حدٍ كبير؛ ونظرًا لأني لا أراك عبقريًا، فأنا مُلزَم باستنتاج أنَّ حواسَّك مضطربة». ولكن لا تؤدي هذا الحُجة إلى أيِّ تأثير.

إنَّ الهلاوس لها سببان رئيسان وفقًا لما كتبه مودسلي؛ فإما أنها حالة عقلية مثارة، أو عاهة جسدية. وتُعد المواد التخديرية، مع المواد المُخدِّرة الأخرى التي تؤثر في العقل، جزءًا من الفئة الثانية المذكورة، وهي مجموعة الأسباب التي تؤدي إلى الهلوسة والاضطرابات العقلية، وتشمل الحمى وبعض الأمراض الجسدية الأخرى وإرهاق مراكز الأعصاب، أو الوهن العصبي، التي تنجم عن عوامل مثل التعب والجوع والضَّعف الخَلقِيّ. افترض مودسلي أنَّ رؤى جان دارك[1] هي من منتجات الفئة الأولى، وهي حماس العقل الذي كان في حالة مرتفعة للغاية من الشعور الديني والوطني»، [وأخرى] [2].

اعترف مودسلي بأنَّ مثل هذه الرؤى تركَت انطباعًا كبيرًا في التاريخ،

---

(1) تُعدّ بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ادّعت الإلهام الإلهي، وقادت الجيش الفرنسي إلى عدة انتصارات مهمّة خلال حرب المئة عام (حوالي 1412 ـ 1431).

(2) في نص الكتاب «...and the Prophet [...] likely of the latter (epilepsy)».

لدرجة أنَّ «المرء يكاد يقوده إلى اليأس» بسبب ضَعف عقلية الإنسانية، غير أنه أكد لقرائه أنَّ الصحة العقليَّة الجيدة يمكن أنْ تُبقيهم في أدنى حدٍّ ممكن. وأوصى بتنمية العادات الذهنية الصحية، والاعتدال البدني، وتجنُّب الانغماس في الذات لصالح الحفاظ على «الاتصال المعتاد بالواقع في الفكر والفعل».

كانت هذه فترة صعبة لتقديم حالة الوحي التخديري، بيد أنَّ جيمس كان مقتنعًا بأنه من الممكن إيجاد مسار وسط بين العلم الطبي الذي يستهين بتجربته ويعتبرها وهميةً، وبين الإيمان الديني الذي يدعي أنَّ تجربته الخاصة هي الحقيقة المطلقة. ففي كثير من النواحي، تُعد المواد المُخدِّرة وقتذاك الطريقة الأكثر وعدًا لدراسة مثل هذه الظواهر في عصر القياس العلمي.

تُعد التجارب باستخدام المواد المُخدِّرة، بعكس التجارب الروحانية الفجائية، قابلةً للاختبار والتكرار؛ إذ يمكن التحكم بالجرعات بدقة، واستبعاد المتغيرات ودراسة الاستجابات الفسيولوجية في ظروف مُحكمة. وحتى إذا ظلت الظواهر قيد التحقيق غير قابلة للإثبات ولا يمكن التحقق منها، فيمكن ملاحظة ارتباطاتها الفيزيائية، ويمكن تجميع الروايات الذاتية من مجموعة كبيرة من المشاركين في التجربة، ومقارنتها.

في عام 1882، دُشِّنَت جمعية علمية في لندن تسمى جمعية الأبحاث النفسية، بهدف النهوض بالبحوث الدقيقة المماثلة لتجربة جيمس في أوكسيد النيتروز. وفي العشرين من فبراير من العام نفسه، اجتمعَت لأول مرة هذه الجمعية بهدف دراسة الأشباح والتجارب الصوفية والأشياء المشابهة التي تقع «في حدود العلم المعترَف به أو خارجه» على حدِّ تعبير

أحد مؤسسيها، العالِم الكلاسيكي والشاعر فريدريك مايرز[1]. وكانت هذه الجمعية متخصصة في دراسة الظواهر التي تتعلق بالعقل والنفس والكون، والظواهر الخارقة للطبيعة.

في ديسمبر 1882، تُوفي والد جيمس، وغادر جيمس بوسطن للإقامة مع شقيقه هنري في لندن. وهناك قضى مساءاتٍ مُسلية في الجمعية الملَكية والنادي الفلسفي مع مجموعة من الفلاسفة وعلماء النفس البريطانيين الذين يدرسون التجارب غير العادية والحالات العقليَّة الاستثنائية. وبعد أنْ حصلَت الغازات والأبخرة التخديرية على مكانتها الرفيعة في الطب الفيزيائي، انطلقت في رحلة جديدة، إلى أعماق العقل المخفية، أو ربما إلى ما وراءها.

(1) شاعر إنجليزي (1843 ـ 1901).

الفصل الرابع

المنطقة الخفية

تعرَّف جيمس على جمعية الأبحاث النفسية من خلال الموسيقِيّ والمُنظِّر إدموند جورني[1]، أحد معارف شقيقه هنري، الذي دعاه لتناول العشاء مع رفقائه للنقاش الفلسفي. وكان جورني يدرس الهلوسة أيضًا، ويتوصل إلى استنتاجات مختلفة جدًا عن هنري مودسلي. ولم تكن هذه التجارب في رأي جيمس، مَرضية، بل عادية. فبرغم كل شيء، «أليست الأحلام هي أكثر الأمثلة المألوفة على إسقاط العقل للصور التي تُتصوُّر على أنها حقائق؟» كانت للهلاوس خصائص مختلفة، على سبيل المثال؛ تميل الأحلام إلى التلاشي عند الاستيقاظ؛ فيما تحافظ الهلاوس على شعورها بالواقعية، ولكنهُ يصورهما على المستوى نفسه الذي يشمل الرؤى الناتجة عن المواد المُخدِّرة. افترض جيمس في الواقع، أنَّ «أحلام اليقظة التي تنجم عن تسمُّم الحشيش» قد تُشكِّل «نوعًا من الروابط الوسيطة» بينهما.

تَمثَّل اهتمام جورني الخاص في إمكان نقل الهلوسة إلى الآخرين في

(1) عالم إنجليزي (1847 ـ 1888).

حالاتٍ ذهنية متغيرة مثل التنويم المغناطيسي، والذي اشتبه في أنه قد يكون الوسيلة التي يعمل بها الوسطاء الروحانيون في جلسات الاستحضار. كان يرأس لجنة جمعية الأبحاث النفسية للتخدير المغناطيسي، فضلًا عن تولّي منصب الأمين العام الفخري. وبجانب جورني في قيادة المجتمع الجديد، ثمة اثنان من أصدقائه القدامى من جامعة كامبريدج، فريدريك مايرز، وهنري سيدجويك[1] الذي كان حينذاك أستاذ الفلسفة الأكبر في جامعة كامبريدج. وعلى الرغم من أنهم كرَّسوا أنفسَهم لتجميع الأدلة العلمية من واقع التجربة الصوفية، فإنَّ أيًا من الثلاثة لم يكن مؤمنًا بشكل كامل بالمنظور العلمي للعالم.

لقد كان هنري سيدجويك شخصًا ملحدًا متسامحًا ومنفتحًا، غير أنه لم يكن مستعدًا لقبول وجهة نظر مادية للعقل ترفض التجربة الرؤوية بوصفها وهمية. كما أنه ملتزم بإثبات واقع الحياة بعد الموت، ورأى أنَّ جمعية الأبحاث النفسية شبكة دعم لأمثاله ممَّن يجمعون الأدلة على ذلك. أما اهتمامه فهو فلسفي أكثر من كونه علميًا؛ إذ يؤمن بأنه لو انتفَى إمكان وجود حياة مستقبلية، فإنَّ الأساس الأخلاقي للمجتمع سوف يُقوَّض. أما فريدريك مايرز فهو باحثٌ في مجالات العلم والدين، يعتقد أنَّ كليهما يعانيان من تضييق النطاق وعدم إعطاء هذه التجارب مكانتها الحقيقية. كانت رحلته قد أوصلتْه من الأفلاطونية إلى الداروينية، مع تحوُّل قصير إلى المسيحية الإنجيلية والتمسك الدائم بالشِّعر الميتافيزيقي لويليام وردزورث.

بُنيت نظرة مايرز للتجربة الرؤوية على نظرية نفسية يشعر جيمس بأنها

(1) فيلسوف وخبير اقتصادي إنجليزي (1838 ـ 1900).

قريبة منه. فقد رأى الوعي على شكل طيف من تردُّدات ذهنية مختلفة، وهو رأيٌ مُشابه لتيار الوعي الخاص بجيمس. وكتب: «لا أمنح تفوُّقًا لذاتي اليقِظة العادية، إلا أنه من بين ذواتي المحتملة، أظهرَت هذه الذات أنها الأكثر ملاءمةً لتلبية احتياجات الحياة العامة».

كانت الهلاوس في تصوُّر مايرز، «اندفاعات» من أبعاد العقل تحت مستوى الإدراك الواعي. وأشار إلى هذا العقل الخفي باسم «الذات اللاواعية»؛ واعتقد أنه يتجلى في الأمراض مثل الهستيريا، غير أنه شعر به روتينيًا في الأحلام والإلهام الإبداعي، ويمكن أنْ يُولِّد النظرات والرؤى المنسوبة للعباقرة. وقد تنفجر هذه الذات اللاواعية على نحوٍ صادم أو مُحزن نتيجة الصدمات الخفية، غير أنها قد تخدم أيضًا وظائف مفيدة، على سبيل المثال في الشفاء، حيث تقوم بتنسيق «علاجات العقل» بشكل غير مرئيّ في حالات الأمراض العصبية. ويمكن استكشافها بتقنيات مثل النوم المغناطيسي والتواصل مع الأرواح أو الكتابة التلقائية[1]؛ حيث أجرى مايرز بجدٍ عددًا من الأبحاث المتعلقة بهذه الظواهر، وحضر أكثر من ألف جلسة للتواصل مع الأرواح. إذ كان حريصًا بوجهٍ خاصٍّ على احتمالية أنْ تتجاوز هذه الذات اللاواعية حدودَ الجسد وتنبثق في عقولٍ أخرى، وهي القوة التي صاغ لها لاحقًا مصطلح التَخاطُر (قراءة الأفكار).

لقد أحسّ جيمس بالمخاوف التي عبَّرت عنها جمعية الأبحاث النفسية حول أساليب علم النفس المادي وقيوده، وقبِل افتراضاتهم بروحٍ متأرجحة بين الحماس والتردد. وأبقى الباب مُوارَبًا أمام الإمكانات

(1) قدرة نفسية يُزعم أنها تعطي الشخص قدرةً على الكتابة دون وعي.

الخارقة للطبيعة، مع الحرص على التأكيد على أنَّ وجودها لم يُثبت بعد، وكتب قائلًا: «في الأعوام الخمسة والعشرين القادمة» على الأرجح سوف تُحسَم هذه المسألة؛ فإما أنْ ينهال سيلٌ من الظواهر المؤكدة وتُرصد... وإما أنْ تنحسر.

كرّست جمعية الأبحاث النفسية جهودها لجمع مثل هذه الشواهد، وتعاون جورني ومايرز في إجراء مسح تاريخي للحالات البارزة والملهمة، التي شملَت الأحلام التنبؤية، وانتقال الأفكار بين التوائم، والتنويم الروحاني، وحتى رؤى الروحانيين، وظهرَت نتائجه في عام 1886 في كتاب بعنوان *أشباح الأحياء*.

أشار مايرز إلى أنَّ مختلف فئات المواد المُخدِّرة تعمل بدائلَ لمستويات مختلفة من العقل اللاواعي، فقد كتب عام 1886: «شكلَت الاكتشافات المتعاقبة للمُسكِرات، والمسكِّنات، وأدوية التخدير، ثلاث مراحل مهمة في سيطرتنا المتزايدة على الجهاز العصبي». في الواقع، أثارت هذه الدراسات أسئلة مزعجة، سواء عمليًا أو أخلاقيًا. «هل يمكننا حقًا جعل هذه دراسة تجريبية؟»، يتساءل: «هل من الممكن إحداث الهلوسة؟ وإنْ كان ذلك ممكنًا، فهل هو آمن؟» فالمواد المُخدِّرة مناسبة تمامًا للمتطلبات الهدفية للدراسات المخبرية، ولكن لم يكن من الممكن التنبؤ بتأثيراتها.

لاحظ مايرز «أنَّ تأثير المواد المُخدِّرة في إنتاج أصوات وصور وهمية غير مفهوم جيدًا في الوقت الحاضر». ففي المرة الوحيدة التي جرَّب فيها الحشيش بنفسه، ما فعله ببساطة كان النوم. وعلى الرغم من إمكاناتها، قرر أنْ يكون حذرًا «لا أوصي قرائي بتعاطي المواد المُخدِّرة لغرض إحداث الهلاوس».

كان بعض أعضاء الجمعية، بطبيعة الحال، على دراية بأدوية التخدير من طب الأسنان أو الجراحة. فقد ألقى إدموند جورني نظرةً خاطفة تحت تأثير التخدير على كرسي طبيب الأسنان، غير أنه بحلول الوقت الذي عاد فيه إلى المنزل وحاول كتابته لويليام جيمس، «بطريقة ما، يبدو أنَّ الرسالة لا تحتوي على الكثير، ولم أكتبها».

يُعد ويليام رامزي[1] هو العضو الأكثر خبرة في الجمعية، وهو الكيميائيُّ الإسكتلندي الذي فاز بجائزة نوبل عام 1904 عن عمله في عزل وتحديد غازات الأرجون والهيليوم، والكريبتون، والزينون، والنيون. كان رامزي قد عمل سابقًا في لجنة الجمعية الطبية البريطانية التي حققَت في غازات وأبخرة التخدير، وخلال هذه التحقيقات جرّب هذه الغازات بنفسه «على الأقل خمسين مرة»، وقدَّم تجاربه هذه في اجتماع مكتظ لجمعية الأبحاث النفسية في قاعة ببلدة ويستمنستر في يونيو 1893، وأخبر الحضور أنَّ الإيثر والكلوروفورم وأوكسيد النيتروز قد تكون ذات خصائص مختلفة، غير أنها جميعها تنتج في الأساس «الحالة العقلية نفسها»، والتي وصفها بأنها «وهْمٌ غريبٌ».

في البداية، تزاحمَت الانطباعاتُ المتلاشية في ذهنه، متنافسةً على الانتباه مع مهامه المحددة في الإجابة عن الأسئلة، والرد على المحفزات مثل الأضواء الكهربائية المتقلبة. ومع تأثير المُخدِّر الذي أصبح أعمق، تلاشى العالم الخارجي، ثُم:

انتابني انطباعٌ ساحقٌ بأنَّ الحالة التي كنتُ عليها حينذاك هي

(1) كيميائيّ إنجليزي (1852 ـ 1916).

الواقع، وأنني وصلتُ الآن إلى الجواب الحقيقي لسرّ الكون، وهو فهم سرّ عقلي؛ وأنَّ جميع الأشياء الخارجية هي مجرد انعكاسات عابرة على المرآة الأبدية لعقلي.

وجد أنه في كلِّ مرة يخوض هذه التجربة، كان «قادرًا على اختراق هذا اللغز العميق بدرجة ما». وقرأ تقرير همفري ديفي الشهير، ودرس الفلسفة المثالية للأسقف بيركلي (جورج بيركلي). وأصبح أكثر تعرُّفًا على مراحل الرحلة الداخلية، والإحساس الذي يرافقها. وفي كل مناسبة شعر بقدْر أكبر من اليقين. يقول «أنا أعرف حقيقة نظرية بيركلي في الوجود»، حيث لا شيء موجود سوى الأفكار. ومع ذلك، في كل مرة يتأثر بشدة بأنَّ «من غير المُرضي أنْ يدرك أنَّ هدف الكون بأكمله يندرج تحت هذا النوع». والاعتقاد بأنَّ «جميع الكائنات الحية هي نتاج وعيي» كان منطقًا أنانيًا وبلا معنى في النهاية:

> شعوري في بعض الأحيان هو شعور باليأس في العثور على سرِّ الوجود الذي لا يستحق الكثير من الاهتمام. كأنَّ الستار الذي يخفي مصدرنا وما نحن عليه وما سيصبح بنا، انشق فجأة، وكأنَّ لمحة من الوجود المطلق تفجّرت أمامنا. الاقتناع بصدق هذا الشعور ساحق، بيد أنه مؤلم للغاية. لقد صرختُ قائلًا، «يا إلهي! أهذا كل شيء؟».

ختم رامزي محاضرته بتسليط الضوء على تناقُض استخدام المواد المُخدِّرة في البحوث النفسية. وبوصفها موادَّ ملموسة، فإنها تصلح على نحوٍ مثالي للطريقة التجريبية للعلم؛ إذ يمكن إعطاؤها بجرعات محددة لعدة أشخاص في مناسبات متكررة، ممَّا يتيح جمع أدلة أقوى بكثير مقارنةً بالسيناريوهات غير المتوقعة للجلسات الروحانية، والأحلام، أو التجارب الصوفية التلقائية. ومع ذلك، فإنَّ جوهرها المادي جعل مصداقية آثارها

الصوفية موضع تساؤل، ممّا يشير إلى أنها قد تكون مجرد استجابة فسيولوجية منتزعة من دماغ مضطرب أو ضعيف، أو لغز ناتج عن الغياب المؤقت للذات الواعية. وقال رامزي لحضور الجمعية: «أعتقد أنَّ فحص مثل هذه الحالة العقلية لا يخلو من القيمة، ولكني يجب أنْ أترك للآخرين التكهن بشأن طبيعة التغيير الذي حدث في دماغي في مثل هذه الحالات من التحفيز».

قدَّم السير ويليام رامزي، الحائز على جائزة نوبل في كيمياء الغاز، تقريرًا إلى جمعية الأبحاث النفسية في عام 1893 عن الوعي المجهول غير المتصل بالجسد الناجم عن استنشاق أوكسيد النيتروز والإيثر والكلوروفورم.

قرأ بنجامين بلود، الذي قدَّم كُتيبه إلى معظم أعضاء الجمعية، ورقةَ رامزي بحماسة، ولكنه أُصيب بخيبة أمل من الاستنتاجات التي توصل إليها. وكتب بلود قائلًا: «إنَّ الاكتئاب الذي شعر به السير ويليام تجاه الطابع العادي والعلماني لغموض العالم، كان غير مبرر»، و«تكمن خيبة أمله في حقيقة أنَّ الوحي يجعل ما كان يعتبره سابقًا مقدسًا ومهيبًا وغير مألوف، شيئًا علمانيًا بشكل مكثف وحتميًا ومألوفًا».

ومع ذلك، فقد تمكَّنَ آخرون من استخدام المواد التخديرية لتحفيز النشاط الروحي والتنبؤي. كان الطبيب الإسكتلندي جورج وايلد[1] عضوًا في جمعية الأبحاث النفسية، وكذلك في الجمعية الوطنية البريطانية للروحانيين، وهي منظمة تهدف إلى تحقيق أهداف ممَّاثلة، غير أنها أكثر توافقًا مع مجتمع وسطاء الجلسات الروحية وجماهيرهم.

أَلَّف وايلد كُتبًا تقليدية عن الأمراض التي تصيب القلب والكبد والرئتَين، وكان أيضًا ممَّارسًا في مستشفى لندن للعلاج بالمثلية[2] الطبية، ومن أوائل مَن اعتمد العلاج بالتنويم المغناطيسي. وفي عام 1874، كتب في مجلة *ذا لانسيت* عن الحالات الغامضة للشعور بالنعاس التي شاهدها، سواء في المرضى أو في نفسه عند استعادة الوعي بعد التخدير بالكلوروفورم. فقد مرَّ بهذه الحالات بنفسه في أثناء تعرُّضه لآلام حصوة في الكلية، واستنشاقه الكلوروفورم لتخفيف الألم، وفي ذلك الوقت:

> على نحو مفاجئ، كم كانت دهشتي، حين وجدتُ نفسي، أو روحي، أو قدرتي على التفكير، متجسدة، في شكل جسمي، واقفة

(1) طبيب معالجة مثلية إسكتلندي (1821 ـ 1906).

(2) نسبة لقانون أبقراط في الطب الذي يقول: المِثل يعالج المِثل.

على بُعد نحو ياردتَين خارج جسمي، وأنا أتأمل ذلك الجسم مُسجًى ساكنًا على السرير!

في غمرة اندهاشه من هذا الإحساس القصير من الوعي المجهول غير المتصل بالجسد، بدأ وايلد يسأل الأطباء والجراحين الآخرين عما إذا كانوا قد شهدوا أو عاشوا أيَّ تجارب ممَّاثلة، وجاءته الروايات بسهولة؛ فقد ذكر أحد الأطباء أنه كان تحت تأثير الكلوروفورم و«شعر بأنه يُحلِّق في الهواء مستمتعًا»، وأخبره جراح بأنَّ «مرضاي غالبًا ما يقولون إنهم لم يشعروا بالألم في أثناء إجراء العملية، بل أحسوا كما لو أنهم يشاهدون العملية من بعيد».

بدأ عددٌ آخر من الأطباء والجراحين، بعد قراءة تقرير وايلد، يروون قصصَهم. وحملَت بعض هذه القصص لمحاتٍ مثيرة، فقد ذكر أحدهم بعد أنْ خدَّر مريضًا، «وهو مُراجع أدبيٌّ وناقد مشهور» أنَّ المريض قال له بعد أن استفاق: «شعرتُ ـ بطريقةٍ ما ـ بأنني قد فهمتُ الكون والغموض الكبير الذي سعى إليه الجميع فهمًا أعمق... ولكني الآن لا أتذكر شيئًا آخر غير هذا».

وقدَّم أشخاص آخرون ما يبدو أنه دليل ملموس على تجاربهم الروحية أو النفسية. فقد أثارت حالة امرأة من بلدة كيركالدي، التي أُعطيت الكلوروفورم في أثناء الولادة، دهشة وايلد عندما أخبرَتهم بعد استعادة وعيها أنها رأت والدتَها وطفلها معًا ميتَين في عالم الأرواح. وكانت المرأة لم تعلم بوفاة طفلها خلال الولادة حتى استعادت الوعي، وبعد عدة ساعات لاحقًا أخبرها الحاضرون أنَّ والدتها قد تُوفيت أيضًا في اليوم نفسِه.

كانت هذه بالضبط نوع الأدلة التي كان يجمعها جورني ومايرز في كتابهما *أشباح الأحياء*، واعتقد وايلد أنها تشير إلى وجود واقع ليس للذات اللاواعية فحسب؛ وإنما للروح القادرة على الوصول للمستوى النجميّ إلى الطبقات الأخرى من الكون. في عام 1880، أصبح رئيسًا للجمعية الثيوصوفية البريطانية، على الرغم من أنَّ حماسه تضاءل بعد أن التقى بمدام بلافاتسكي[1]؛ وجدها «خشنة ووقحة»، تُذكره بـ«ممثلة تعيسة في أحد مسارح الضواحي بباريس»، وغادر الجمعية عام 1882. وفي عام 1880 نشر كتابًا بعنوان *الثيوصوفية والحياة الأسمى، أو الديناميكيات والإنسان الإلهي والخارق للطبيعة*، حيث ناقش آلية هذه التجارب ومعناها.

طرح وايلد السؤال التالي: «هل أنتج الكلوروفورم وضوحًا روحيًا؟»، وأشار إلى أنَّ الحالات التي جمعها تُعد الطريقة الأكثر فعالية لتوثيق هذه الظواهر علميًا:

> سيرفض المتشككُ الاعتقادَ الشائع بوجود الروح لدى البشر، بدعوى أنه يفتقر إلى أيّ دليل علمي، وسينكر أيضًا قوة الوحي الروحية. سوف يشكك في تجارب المنومين المغناطيسيين، وكذلك تأكيدات النشوة الهندوسية أو المسيحية، غير أنه إذا جرب التخدير الطبي على نفسه، واكتشف كما فعلتُ أنا وآخرون، أنَّ الروح قد تنطلق خارج الجسد، ومع وجوده خارجيًا بوصفه الأنا الحقيقية، فقد يقتنع المُتشكك بوجود الروح البشرية بعد ذلك.

تقول نظرية وايلد، إنَّ المواد التخديرية تزيل الألم الجسدي عن طريق طرد الروح من الجسم، وهي العملية التي تحدث أيضًا في أثناء

(1) هيلينا بلافاتسكي، روحانية روسية ومؤلفة، شاركَت في تأسيس الجمعية الثيوصوفية عام 1875، (1831 ـ 1891).

النوم، والتنويم المغناطيسي، وفي حالة الغيبوبة، والرؤى وحالات الاحتضار، حيث تكون «الحالة الجسدية في انحسار، والروحية في تدفق». وقد عزز رؤيته بمذهب إمانول سفيدنبوري الذي يقول: «إنَّ لكل إنسان عقلًا دنيويًا أو خارجيًا، وعقلًا علويًا أو داخليًا». والعقل الداخلي يختفي عادةً عن صاحبه العقلاني، بيد أنَّ واقعيته في قلب التقاليد الدينية في جميع أنحاء العالم وعبر التاريخ، ولا سيما في مثال يسوع المسيح. وبعكس معظم زملائه الأطباء وأعضاء جمعية الأبحاث النفسية، لم يكن وايلد يشعر بأيِّ تردُّد في توصية الجميع بتجربة هذه الظاهرة «أُحثُّ المنظمات العلمية وعلماء النفس والماديين على إجراء مزيد من التجارب باستخدام المواد التخديرية وسيلةً للوصول إلى إثبات تجريبيّ لوجود الروح البشرية وقواها».

تبنّى العديد من زملائه الروحانيّين تفسيره، وردَّدته الكاتبة والناشطة السياسية والمدافعة عن الديانة الثيوصوفية، آني بيسانت[1]، في عملها الشهير عن تعاليمها، *الحكمة القديمة* (1897)، حيث كتبَت أنَّ: «مواد التخدير تطرد الجزء الأكبر من المزدوج الأثيري[2]، بحيث لا يمكن للوعي أنْ يؤثِّر أو يتأثَّر بالجسم الكثيف». وفي رأي بيسانت، إنَّ تأثير هذه المواد المُخدِّرة مشابه لممَّارسة الوساطة الروحية، حيث يفصل المزدوج الأثيري عن الجسد الوسيط ويكون قادرًا على إحياء الأشياء الخارجية؛

(1) اشتراكية بريطانية، وثيوصوفية، وماسونية، وناشطة في مجال حقوق المرأة (1847 ـ 1933).

(2) يمثل المزدوج الأثيري أو الجسم الأثيري (أو الجسم النجميّ في بعض المفاهيم الثيوصوفية) أحد الأجزاء السبعة للإنسان وفقًا للفلسفة الثيوصوفية.

مثل إنتاج الأشياء من الهواء، وتحريك الصحون الروحية، وحتى تكون موجودات حقيقية في أشكال مثل الإيكتوبلازم[1].

كما قدَّم المرضى الذين أُجريَت لهم جراحة ممن يميلون نحو الباطنية حكاياتٍ حية عن المستوى النجميّ. إذ خضع الكاتب المسرحي الأيرلندي جون ميلينغتون سينغ[2] لعملية جراحية لإزالة غدة متضخمة في رقبته، في الوقت الذي كان اكتشافه لسبينوزا[3] يقوده إلى الأدبيات الثيوصوفية والخفيّة التي أطَّرت العقد الأخير من حياته ذات التوجه الغامض. وكتب في روايته *تحت التخدير* (1897)، أنه قبل إجراء العملية كان مستلقيًا على السرير يقرأ كتابًا لسبينوزا «المؤمن بوحدة الوجود العظيم»، وفي صباح اليوم التالي، في غرفة العمليات، وبينما جهاز التنفس الإيثر يوضع على أنفه وفمه، شعر بأنَّ «سُحُبًا من الضباب المضيء يدور حولي». وسمع نفسه يصرخ فجأة بغضب «أنا صوفي مبتدئ!»، وفي تلك اللحظة «بدا أنَّ حياتي تتلاشى في صرخة حلزونية واحدة نحو المجهول»:

> ما جرى بعد ذلك غامض بالكاد أتذكره! يبدو أنني قطعتُ عصورًا كاملة من الخراب والنعيم. كانت جميع الأسرار مكشوفة أمامي، بسيطة مثل الكون بالنسبة لإلهه. بين الحين والآخر، ثمة شيء يُذكرني بحياتي المادية، وكنتُ أبتسم لما يبدو لحظة ضَعف في مرحلة الطفولة المبكرة... بدت هذه الذكريات الأرضية قليلة وضعيفة، أما عن غير ذلك، فكنتُ مغمورًا بنشوة لا يمكنني وصفها.

وأخيرًا، بدأت السحبُ تلفُّه من جديد، وعندما تبددَت، وجد نفسه

---

(1) مصطلح يُستخدم في الروحية للإشارة إلى مادة أو طاقة روحانية تتشكل خارجيًا.
(2) كاتب مسرحي وشاعر أيرلندي (1871 ـ 1909).
(3) من فلاسفة القرن السابع عشر (1632 ـ 1677).

يُحدق في ضوء الغاز المُعلَّق فوق طاولة العمليات. بدأت رؤيته تتلاشى «يا ليتني أستطيع التذكر!» تأوه، بينما كانت الممرضات ينشغلنَ حوله. لقد «لمحتُ كل حدث مألوف كما لو كان شيئًا قد عدتُ إليه من بلد بعيد». وفي السنوات اللاحقة، عزا الفضلَ في رؤيته، أو رحلته النجميّة، إلى مواءمته مع «أسرار الحياة العميقة». وختم بَحثه بالقول: «كان بداخلي شعور قويّ جدًا بأنني متُّ قبل اليوم السابق وعُدت للحياة مرة أخرى، وهذا الشعور لم يتغير أبدًا».

***

بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، مرَّ مصطلح «نفس» بتحوُّل واضح في المعنى. حيث كان يميل سابقًا إلى الإشارة إلى الروح، ويُستخدم الآن ـ على سبيل المثال، في التخصصات الجديدة لعلم النفس والطب النفسي ـ للدلالة على العقل، والذي أُفترض بدوره أنه قابل للاختزال في النهاية إلى الدماغ. كانت الظواهر الروحية ـ على أيِّ حال ـ ذات قيمة كبيرة للعلم العقلي، تمامًا مثل قبول العلماء لباحثي الظواهر النفسية. إذ انجذب العديد من الجيل الجديد من علماء النفس، ومنهم سيغموند فرويد وكارل يونغ، إلى دراسة جلسة استحضار الأرواح والوسطاء الروحيين.

لم يهتم هؤلاء العلماء بالتحقق من صحة الادعاءات الخارقة للطبيعة أو فضح الاحتيال، بل بدراسة الظواهر النفسية بوصفها مظاهر ـ إلى جانب المشي في أثناء النوم، والكتابة التلقائية، وحالات الشرود ـ للعقل الباطن أو المخفي أو المنفصل. ومن هذا المنظور، لم تكن الذات اللاشعورية والمزدوج الأثيري، نظريتَين متعارضتَين، بل صيغتَين من بين العديد من

الظواهر الغريبة، ومنها تلك المعروفة باسم «الوعي المزدوج»، وهي موضوع فَتن العلماء والروحانيين والجمهور على حدٍّ سواء.

الأداة المميزة للتحقق في الوعي المزدوج هي التنويم المغناطيسي، وهي تقنية استُعيدت من النظريات المشكوك فيها من باحثين مثل الطبيب الإسكتلندي جيمس برايد[1] الذي أظهَر من خلال التجربة الذاتية أنه يمكن تحفيزها عن طريق تقنيات بسيطة مثل التركيز على نقطة ثابتة أو كائن. كانت طريقة عمل التنويم المغناطيسي محلَّ نزاع قويّ، ولكن بدا أنها تثبط الذات الناقدة والمسيطرة، أو الأنا؛ ممَّا يسمح بالوصول إلى أجزاء من العقل خارجة أو مخفية عن الإدراك الواعي. قاد الطب النفسي الفرنسيّ هذا المجال، بعد ممَّارِسه الشهير جان مارتن شاركو[2]، الذي أظهَر عمله مع المرضى المصابين بالهستيريا في مستشفى سالبترير في باريس أنهم تحت التنويم المغناطيسي يمكن أنْ يُظهِروا على نحوٍ متكرر، ليس الأعراض العصبية الغريبة فحسب، بل بعض حالات الشخصية المنفصلة تمامًا.

نقَل العديد من طلاب شاركو بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، بما في ذلك بيير جانيه[3] وألفريد بينيه[4] وتشارلز ريشه[5]، الأبحاثَ من العيادة إلى المختبر. ومن خلال تطبيق التنويم المغناطيسي على المتطوعين،

---

(1) طبيب وفيلسوف إسكتلندي (1795 ـ 1860).
(2) طبيب أعصاب فرنسي (1825 ـ 1893).
(3) فيلسوف ومعالج نفسي فرنسّي (1859 ـ 1947).
(4) عالم نفس فرنسّي (1857 ـ 1911).
(5) عالم وظائف أعضاء فرنسّي (1850 ـ 1935).

مع استخدام أجهزة مثل بَنْدُول الإِيقاع[1]، قاسوا الانتباه وإمكان الإيحاء والتذكر، واستخدموا التجربة لفصل الجوانب الواعية واللاواعية للعقل.

أدت هذه الممَّارسة إلى فتح أبواب الفحص التجريبي لمجموعة من الحالات المتراوحة بين الوعي واللاوعي، مثل حالات النشوة والاستحواذ والوساطة الروحية، حيث يبدو أنَّ الشخصية تُخرج من الجسد على يد كيان آخر، سواء كان لا واعيًا أو روحًا. وأتاحت هذه الحالات الدراسة المعمقة للتفاعلات بين العقل الواعي وغير الواعي، وكيف يمكن لكيانات أخرى أنْ تؤثر في سلوك الشخص وتفكيره.

وطوّر بيير جانيه خلال أبحاثه مفهومَ «الآليات»، وهي الأفعال التي لا تدركها الشخصية المهيمنة، وصاغ مصطلح «الانفصال» لوصف تقسيم الوعي إلى كيانَين لا يدرك كل منهما الآخر. ويُعد مفهوم الانفصال أساسيًا في دراسة العقل البشري والاضطرابات النفسية المختلفة. فقد كان معروفًا منذ فترة طويلة أنَّ بعض الأفراد يتصرفون وكأنّما تسكنهم شخصيتان منفصلتان، مع عدم وجود معرفة أو ذاكرة لبعضهم البعض في كثير من الأحيان. ويبدو بين حين وآخر أنَّ هذه الظاهرة نتجت من حادث أو إصابة في الرأس أو صدمة عاطفية، بيد أنها كانت كثيرًا ما تُلاحَظ بوصفها تأثير مؤقت للأدوية التخديرية. ومنذ تجارب همفري ديفي وحتى ذلك الوقت، اُستخدم كيس مملوء بأوكسيد النيتروز، أو قطعة قماش مشبَّعة بالإيثر في المسارح وداخل غرف العمليات من أجل استحضار الآلاف من الذوات اللاواعية، وإثارة حركات غريبة ومبالَغ فيها، والتي بعد استعادة الوعي لا يتذكر صاحبها ما حدث.

---

(1) جهاز اختُرِع عام 1815 للقياس، ينتج نقرة مسموعة في فاصل زمني منتظم يضبطه المستخدم، وقد يتضمن حركة بصرية متزامنة. استخدمه الموسيقيون للتمرن على العزف.

افترض شاركو أنَّ الأشخاص الهستيريين هم وحدهم عرضة للتنويم المغناطيسي، غير أنَّ انتشار مفهومَي الآليات والانفصال تحت العقاقير التخديرية عزز وجهة النظر القائلة، كما قال تشارلز ريشه، إنَّ كل شخص قد يمتلك عن غير قصد «أنا لا واعية، ونشاطًا لا واعيًا، يراقب باستمرار، ويتأمل، وينتبه، ويفكر، ويشكل استنتاجات، وأخيرًا يؤدي أفعالًا، كل ذلك بدون معرفة الأنا الواعية». وكتب ألفريد بينيه في كتابه عن *الوعي المزدوج: دراسات نفسية تجريبية* (1890): «أليس من الغريب» أنه «يجب أنْ توجد شخصيتان متميزتان، أنانيتان متحدتان في الشخص نفسه؟»

في عام 1885، قاد فريدريك مايرز وفد جمعية الأبحاث النفسية إلى فرنسا ليشهد تحقيقات بيير جانيه في التنويم المغناطيسي والتخاطر، وشارك تشارلز ريشه في تجارب ممَّاثلة تحت رعاية جمعية الأبحاث النفسية في لندن. ولكن إذا كان الوعي المزدوج قد خلق روابط بين الروحانيين والعلماء، فإنه قسَّم أيضًا علم النفس الجديد إلى معسكرات متعارضة.

عند الفئة المهيمنة من علماء النفس في المختبرات، كانت الرحلات الاستبطانية المتعمّقة إلى عوالم اللاواعي خطوة رجعية. إذ وصف فيلهلم فونت السعيَ وراء أطلق عليه «البحث العشوائي عن العجائب» بأنه خطوة رجعية، وقد كان ينظر هو وأتباعه إلى جلسات استحضار الأرواح والظواهر الخارقة للطبيعة على أنها من بقايا العصور الماضية، بخرافاتها وأشباحها وسَحَرتِها، واعتبروا التنويم المغناطيسي في مثل هذه الحالات مجرد تنويم بالإيحاء في الزي العلمي، ممَّا ينتج عنه نسيج من أوهام متوهجة ومضخمة.

تجاوزَت أصداء أسرار الوعي المزدوج الخلافاتِ الداخلية لعلم النفس بكثير، ففي الثقافة الشعبية، أعطيَت المواد المُخدِّرة والتنويم

المغناطيسي هوية قوية ومرعبة بوصفها عوامل يمكنها إطلاق شخصيات مخفية، أو خلق الشبيه (نسخة مطابقة أو مشابهة لشخصٍ على قيد الحياة) أو استحضار كياناتٍ تسيطر على العقل. فقد أعيد تفسير القصص الشعبية حول الاستحواذ والتلبس بالأشباح التي كانت تُعد سابقًا خارقة للطبيعة في ضوء العلم الحديث.

ففي رواية *تريلبي* لجورج دو مورييه[1] (1894)، التي يُعدها الكثيرون أكثر الروايات شهرةً في العصر الفيكتوري، حوّل المنوم الشرير سفنجالي شخصية تريلبي إلى شخصيتَين «تنسى كلٌّ منهما الأخرى»، على حدِّ التعبير الأدبيات النفسية «عندما لا تكون تريلبي تحت تأثير العقل المدبر، لا يمكنها تذكُّر وجودها كمغنية مشهورة». وبالمصطلح ذاته، كان الدكتور جيكل والسيد هايد شخصيتَين مزدوجتَين «مُدركة للطرفَين»، حيث يدرك كل منهما وجود الآخر. وكثيرًا ما كان يُستشهد برواية روبرت لويس ستيفنسون هذه، ومركز غموضها في المُخدِّر المغيِّر للشخصية في المناقشات العلمية حول الوعي المزدوج.

أثارت هذه الروايات أسئلة حول كتابة الروايات نفسها: هل كان الروائيون، الذين غالبًا ما يبدو أنَّ شخصياتهم تظهر وتؤدّى على نحوٍ مستقل في عقولهم، ماهرين في توجيه المحتويات اللاواعية لعقولهم؟ لقد كان تشارلز ديكنز مشهورًا بمحادثة شخصياته في أثناء قيامه بأعماله اليومية، وكانت حالة ستيفنسون مثيرة للاهتمام على نحوٍ خاص، إذ كان يقول في كثير من الأحيان إنَّ «السُمَيْرَاء»[2] أو «كائنات صغيرة» كانوا يأتون

---

(1) كاتب ورسام وروائي إنجليزي فرنسي (1834 ـ 1896).

(2) شخصيات لمخلوقات خرافية تشبه الجنيّات الصغيرة، ظهرَت في الأدب الإنجليزي والإسكتلندي.

إليه في أحلامه بأفكار لقصصه. وفُتن به ويليام جيمس حين علم أنَّ لديه أربعة أنماط مختلفة تمامًا من الكتابة بخط اليد.

وقد كان الشاب هربرت جورج ويلز، كما هو دائمًا، مقياسًا للاهتمامات العلمية في عصره، حيث كتب سلسلة من القصص القصيرة في التسعينيات حول الوعي المزدوج وأسراره المرتبطة به؛ العلاقة بين الذاكرة والهوية، وتعريف الشخصية، وحدود الإقناع والتحكم العقلي. ففي القصة القصيرة «الحالة المدهشة لعيون ديفيدسون» (1895)، تتعرض الشخصية الرئيسة لحادث في المختبر يسبب لها وعيًا مقسمًا بين بصرها، الذي ينظر إلى مساحات ممتدة مجهولة ومقفرة من المحيط، وجسد أعمى، غير أنه لم يتغير، يتعثر في مختبره بكلية تقنية لندن.

وفي «قصة السيد إلفيشام الراحل» (1896)، يتيح مسحوق غامض لعقل رجل ثري محتضر الاستحواذ على جسد شاب مُعافى. وفي القصة القصيرة «الجسد المسروق» (1898)، ينجح باحث نفسيّ في تحقيق الإسقاط النجميّ، ولكن الروح الشريرة تتمكن من دخول جسده الفارغ. وفي قصة «تحت مِبضَع الجراح» (1897)، تُخدّر الشخصية الرئيسة بالكلوروفورم فوق طاولة العمليات الجراحية ويجد نفسه، كما ذكرت حكايات جورج وايلد، يُحلق فوق جسده ويشاهد الجراحين يقطعونه «مثل الجبن». كما لو أنَّ وعيه مجذوب بالمغناطيس، يتسارع صعوده نحو الأعلى، يكشف أولًا عن غرب لندن، ثم عن مناظر جنوب إنجلترا، ثم ملامح الكوكب، وسواد الفضاء خلف النظام الشمسي، وانحسار درب التبانة، وأخيرًا يشعر بالوحي التخديري. وأصبحت الخطوط العريضة الآن مألوفة لقرائه:

هل كان الكون بأكمله مجرد نقطة انكسار على كيان أعظم؟

أكانت عوالمنا مجرد ذرّات في كون آخر، وهل كانت تلك العوالم مرة أخرى في كون آخر، وهلُمّ جرا في تقدم لا نهائي؟ وماذا عني؟ هل كنتُ في واقعٍ غير مادي؟... ثم تحدَّثَ صوتٌ، يبدو أنه امتدَّ إلى أقصى أجزاء الفضاء، قائلًا: «لن يكون هناك المزيد من الألم».

***

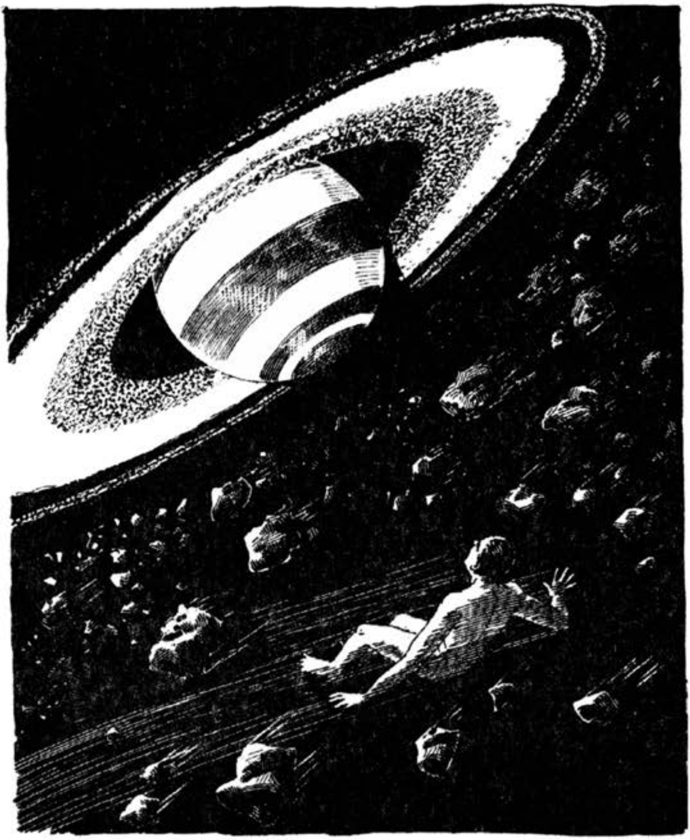

صورة توضيحية لقصة هربرت جورج ويلز «تحت مِبضَع الجراح» (1897)، حيث يتسبب الكلوروفورم في بعث مريض يخضع لعملية جراحية في رحلة كونية منفصلة عن الجسد.

لم يعُد الإيثر والكلوروفورم في ذلك الحين مقتصرَين على غرف العمليات الجراحية فحسب. بل كانا متاحَيْن على نطاق واسع في الصيدليات، حيث يتم استنشاقهما كبخار مهدئ لحالات الصدر والرئة، وكمخفف للآلام والأوجاع، وكمهدئ سريع المفعول لهجمات الهلع وغيرها من الحالات العصبية. إذ ابتداءً من أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، استخدم ويليام جيمس الكلوروفورم بانتظام في الليالي التي شعر فيها بالأرق عندما يخرج «من حالة الخمول إلى حالة الاضطراب»؛ وكثيرًا ما تذبذبَت هذه المشاعر بين الإفراط في الحماسة والإرهاق، وكمثل فرويد، فقد شخَّص نفسه بأنه مصاب بالوهن العصبي، «ضعفه القديم» كما وصفه بحزن عندما كان «يعاني من إرهاق مُضنٍ في القوة العصبية».

تضمنَت أشربة السُّعال وعلاجاته المسجلة ببراءة اختراع عادةً جزءًا من الإيثر أو الكلوروفورم لإعطاء إحساس بالبرودة في أثناء تبخُّرها في الحنجرة، بالإضافة إلى جرعة من الأفيون أو المورفين لكبح ردّ فعل السُّعال. وفي منتجات الصيدلية، كان الكلوروفورم مفضلًا لرائحته ـ أحلى وأكثر طبيعة من الرائحة الحادة للإيثر الصناعي ـ ونقطة غليانه الأعلى التي جعلته أقلَّ تطايرًا وقابلية للاحتراق، وهي ميزة مهمة في زمن كانت المباني تُبنى من الخشب، حيث إضاءة الغاز التي تتسرب في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من أنه يُستنشق عادةً في البيئات المنزلية، فإنَّ بعض المصابين بالتوتر حملوه معهم في الأماكن العامة علاجًا سريًّا لنوبات القلق. وقد علَّق الأطباء والصحفيون رافضين استخدامه «الفاخر» في غرف الشاي والمسارح، ورؤية مجموعات من الفتيات الصغيرات في الأماكن العامة وهن يضحكنَ ويتعثرنَ تحت تأثيره من حين لآخر.

في الوقت نفسه، اكتسب الكلوروفورم سُمعة مخيفة، بسبب عدد من القضايا الجنائية المثيرة للجدل، مثل قضية هنري هوارد هولمز، الذي استخدمه في قتل عددٍ لا يُعرف من الناس في شيكاغو خلال المعرض العالمي لعام 1893. وفي مجالات الجرائم الحقيقية الشهيرة، اكتسب الكلوروفورم رائحة فورية ومعروفة للفساد جعلته مقترنًا بوقوع الجرائم، وخاصة القتل. وفي القضايا القانونية، يؤدي اكتشاف الكلوروفورم في موقع الجريمة إلى بروز شكوك حول حقائق أساسية؛ فقد تتأثر شهادة الشهود بسبب الفقدان المؤقت للذاكرة، أو قد تؤدي ظاهرة الوعي المزدوج إلى وصف الذين ارتكبوا الجرائم بأنهم كانوا غائبين عن الوعي؛ ومن ثَم يُعتبَرون غير مسؤولين قانونًا. وفي أواخر القرن التاسع عشر، ارتبط الكلوروفورم في الصحافة الصفراء والخيال الشعبي بالإدمان والانتحار والاغتصاب والقتل، مع انتشار الفكرة الخاطئة المستمرة بأنَّ وضع قطعة قماش مشبَّعة بالكلوروفورم على وجه الضحية يؤدي إلى فقدان الوعي الفوري (في الواقع، يتطلب ذلك الاستمرار في التنفس العميق).

وممَّا زاد من الخوف والارتباك، حقيقةُ أنه في حالاتٍ نادرة عُثر على أنَّ الكلوروفورم يسبب الموت الفوري بإيقاف عمل القلب. ومن بين الوفيات المأساوية التي نجمَت عن هذا الأمر وفاة إدموند جورني، عضو جمعية الأبحاث النفسية، الذي عُثر عليه ميتًا في فندق في برايتون عام 1888، وبجانب سريره زجاجة مفتوحة من الكلوروفورم. كان جورني يعاني من الألم العصبي الوجهي الشديد، وقد وُصف له العديد من الأدوية بما في ذلك هيدرات الكلورال، وعشبة البيلادونا، والمورفين. وأصدر الطبيب الشرعي حكمًا بأنَّ وفاة جورني كانت عرضية، على الرغم من

وجود إشاعات تتحدث عن انتحار. فقد كان باب غرفة جورني مغلقًا من الداخل، ويوجد كيس إسفنجي مقاوم للماء موضوع فوق أنفه وفمه.

وفي ظل هذه الخلفية، كان من المهم للباحثين العلميين الإشارة إلى أنَّ تجاربهم الذاتية مع مواد التخدير مختلفة تمامًا عن الاستخدام المُسكِر أو «الفاخر» من الجمهور غير الطبي. أجرى جيمس كريتشتون براون[1]، المدير الطبي لمصحة غرب رايدينغ للأمراض العقلية في يوركشاير، سلسلة من التجارب على مرضاه، وكذلك على نفسه، باستخدام المُخدِّر مثل المورفين والقنب وهيدرات الكلورال والإرغوت والإيثر، وأوكسيد النيتروز.

وفي هذه الحالة الأخيرة، التي نُشرت في مجلة ذا لانسيت عام 1872، استدعى مبدأ ديكارتية الطبقة الراقية، مؤكدًا أنَّ الجوانب المعنوية للتجربة متاحة فقط للمراقبين المدربين علميًا، وكتب عن تأثير الغاز:

> يكون تأثير الغاز عند الأشخاص ذوي القدرة العقليَّة المتوسطة لطيفًا ومنشطًا، إلَّا أنه ليس بارزًا بأيِّ شكل من الأشكال؛ أما في الأشخاص ذوي القدرة العقلية العالية، فيصبح تأثيره مثيرًا ورهيبًا. فالعامل الذي يستنشق الغاز يقول بعد إفاقته إنه شعر بسعادة غامرة، كما لو أنه تناول القليل من البيرة، بينما يصرّح الفيلسوف أنَّ سرّ الكون كُشف له في لحظة انتشاء.

جاءت واحدة من أكثر الإسهامات اكتمالًا وتفهُّمًا في الأدبيات الذاتية التجريبية من مصدر غير متوقع، وهو بنجامين وارد ريتشاردسون[2]، الذي

(1) طبيب إسكتلندي (1840 ـ 1938).

(2) طبيب بريطاني (1828 ـ 1896).

كانت سُمعته الحسنة كافية لحمايته من الانتقادات. كان ريتشاردسون طبيبًا ومحاضرًا وكاتبًا غزير الإنتاج، وأشهر ما كُتب عنه هو دعوته الثابتة للامتناع عن الملذات، إذ نادى بحظر تناول الكحول للجميع باستثناء الاستخدامات الطبية الطارئة.

نما إلى علم ريتشاردسون بصفته مفتشًا صحيًا، تفشّي شرب الإيثر في بلدة درابرستاون بجبال سبيرين في شمال أيرلندا، حيث أسهم نشاط قويّ لحركة الاعتدال[1]، وارتفاع ضريبة الاستهلاك في جعل الإيثر أرخص وأكثر توافُرًا من الكحول. «عندما نزل من عربته في ساحة السوق للتأكد من الأمر، زكمَت أنفَه رائحة الإيثر المنتشرة في المكان؛ فقال: «تمامًا كما لو كنتُ في غرفة المرضى وأنا استخدم البخاخ لإجراء عملية جراحية!»».

لاحظ ريتشاردسون أنَّ العديد من التجار في السوق يفوح منهم رائحة الإيثر، وقال: «عندما مررتُ بجانبهم بحيث جلب الهواء البخار من الجزء الأدنى من البلدة، تمكنتُ بسهولة من تتبُّع رائحة البخار لعدة مئات من الأمتار» إلى باب المنزل الذي يباع فيه. قضى عدة أيام في إعداد تقرير كامل، حيث حدد مستخدمي الإيثر وكيف يفعلون ذلك، ووجد على نحوٍ بارز، أنَّ المستخدمين الأكثر استهلاكًا للإيثر اكتشفوا طريقةً لشُربه بدلًا من استنشاقه، من خلال تناول جرعة منه مع كأس ماء لمنعه من التبخر مرة أخرى عبر الحنجرة. وقد سرد تجربته في بَحث طويل حول «التسمم غير الكحولي» انتشر على نطاق واسع وظهر لأول مرة في مجلة *بوبيولار ساينس* الشهرية في عام 1878، حيث ميّز بعناية بين آثار الإيثر الميثيلي،

(1) حركة اجتماعية ضد استهلاك المشروبات الكحولية.

والإيثر الإيثيلي، ووصف آثار الأخير على نفسه. واعتمد ريتشاردسون على «العمل المذهل والمثالي والأصلي» الذي أجراه همفري ديفي مع أوكسيد النيتروز كمرجع له، وقدَّم انطباعاته الخاصة بالروح العلمية والبطولية نفسها:

بدا لي أنَّ مساحة الغرفة الصغيرة الجالس فيها توسعَت نحو فضاء لا يمكن قياسه، ولكن يمكن فهمه والاندماج فيه؛ كما لو أنَّ قدراتي العقلية والجسدية تتكيف مع ضخامة تلك المساحة للحظة. بدا لي أنَّ كل حاسة تتجلى في التقدير الإدراكي. والضوء لامع بصورة لا توصف، بيد أنه غير مزعج؛ وصوت دقات الساعة مثل صوت صاحب موسيقي للصنج النحاسيِّ مع صدى؛ وشعرتُ عند لمس الأشياء كأنَّ ثمة تيارًا لطيفًا متداخلًا يتحرك بينها وبين الأصابع. وأولئك الذين شعروا بهذا الحالة، الذين عاشوا كما لو أنهم في حياة أخرى، مهما كانت عابرة، يمكنهم بسهولة أنْ يقولوا مثل ديفي: «لا شيء موجود سوى الأفكار! فالكون مكون من الانطباعات، والأفكار، والمتعة، والألم!»

***

كانت الخيوط المرتبطة بالطب وتوسُّع الوعي والتسمم والإدمان والجريمة متشابكةً بإحكام في باريس نهاية القرن، حيث يتم تداول الإيثر والكلوروفورم بين مومسات الغجر مع المورفين والأفيون والكوكايين والحشيش، والأفسنتين[1] المعطر بالشيح. وكانت هذه المواد تُعبأ عادةً في قوارير زجاجية صغيرة، وزجاجات الأدوية من قِبَل المصابين بالربو والسل والوهن العصبي المفرط، وتضاف إلى المقويات والمشروبات

(1) من المشروبات المقطرة، والكحولية بدرجة عالية.

المسجلة ببراءة اختراع، وفي بعض الأحيان إلى المشروبات المخلوطة، إذ تسببت فراولة مشرّبة بالإيثر تطفو على سطح الشمبانيا في إحساس قوي بالنشوة، حيث تمنع الفاكهة السائل المتطاير من التبخر بسرعة كبيرة.

ظهرَت الإشارات الأدبية للإيثر بكثرة، سواء كانت دلالة على الانحطاط أو أداةً أدبية لتحويل السرد الواقعي إلى مشهد الأحلام والرموز، حيث أصبحَت خصائصه المنفصلة بوابةً إلى حالات عقلية غريبة وأشباح نفسية ومزدوجات خارقة للطبيعة، وفوارق المكان والزمان. فالإيثر هو موضوع قصة غي دو موباسان[1] القصيرة لعام 1882 «الأحلام»، وفيه تلتقي مجموعة من المنهكين وذوي الوهن العصبي على العشاء، يندبون المللَ الذي يُثقل أيامهم، والأرق والأحلام السيئة التي تُفسد لياليهم. ويؤكد الطبيب الموجود بينهم أنَّ «الحلم الحقيقي»، والذي يُعد «أحلى تجربة في العالم»، يمكن الحصول عليه من خلال الطب الحديث. ويفترض زملاء الطبيب أنه يشير إلى الأفيون أو الحشيش، اللذَين تم تجربتهما بالفعل. ويعلق أحدهم بحماسة: «لقد قرأتُ لبودلير، وحتى جربتُ المُخدِّر الشهير، الذي أصابني بالمرض الشديد». غير أنَّ الطبيب يتحدث عن الإيثر الذي جربه لأول مرة لتخفيف ألمه العصبي، «والذي ربما تعددَت استخداماته بعدها بشكل طفيف». وفي أثناء الاستلقاء مع زجاجة الأثير والتنفس بها ببطء، يتذكر جسده:

> أصبحتُ خفيفًا، خفيفًا وكأنَّ اللحم والعظام قد ذابا ولم يتبقَّ سوى الجلد، الجلد الذي يلزمني لتحقيق متعة الحياة، والاستمتاع بهذا الشعور بالراحة. ثم أدركتُ أنني لم أعُد أعاني. اختفت الآلام،

(1) كاتب وروائي فرنسي (1850 ـ 1893).

ذابت، تبخرَت. وسمعتُ أصواتًا، أربعة أصوات، حوارَين، دون أنْ أفهم ما يقال.

وبعكس أحلام الحشيش أو رؤى الأفيون «المَرضية بعض الشيء»، كانت الحالة التي أعقبَت ذلك حالة من صفاء ذهنٍ متزايد:

فكرتُ بأقصى قدْر من الوضوح والعمق، مع طاقة غير عادية ومتعة فكرية، وحالة سُكرٍ غريبة ناجمة عن هذا الفصل بين قدراتي العقلية... بدا لي أنني قد ذقتُ شجرة المعرفة، وأنَّ كل الألغاز قد كُشف الحجاب عنها، لدرجة أنني وجدتُ نفسي تحت تأثير منطق جديد وغريب لا يمكن دحضه. وظهرت الحُجج والاستدلالات والبراهين في كومة أمام عقلي فقط، ليحلّ محلها على الفور برهان أو تفكير أو حُجة أقوى. في الواقع، أصبح رأسي ساحة معركة للأفكار. كنتُ كائنًا متفوقًا، مسلحًا بذكاء لا يُقهر، وشعرتُ بمتعة هائلة من تَجلي قوتي.

واصل الطبيب استنشاق الإيثر من زجاجته بلا نهاية، مُفتتنًا بتأملاته العقلية، حتى نظر لأسفل ورأى أنها فارغة. وقد كان استخدام موباسان الخاص للإيثر مزيجًا من النواحي الطبية والحسية والفلسفية بطرق ممَّاثلة. إذ جرب الإيثر لأول مرة بوصفه علاجًا لمجموعة متنوعة من الحالات الطبية والعصبية المستمرة التي عانى منها، وتضمنَت الصداع النصفي والروماتيزم والعمى الجزئي والنزيف الداخلي والحمى؛ وقدم أطباؤه آراءً متضاربة حول سبب هذه الحالات، التي ربطت معظمها لاحقًا بفحص رجعيٍّ بتدهوره الصحي ووفاته الناجمة عن الزهري. كما أثَّر فيه الاستخدام المنتظم للإيثر على نحوٍ غريب؛ فقد قصَّ على أصدقائه رؤية رجال صغار حُمر اللون يجلسون على كراسي بذراعَين، وكيف شعر بأنَّ

روحه تنفصل عن جسده، وأنه كان يدخل منزله أكثر من مرة ويرى نفسه جالسًا على أريكته.

خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، ازدادت هلوسات موباسان ونوباته الذُهانية بشدةً، مع تدهور حالته، سواء كان ذلك بسبب مرض تنكُّسي في الدماغ أو بسبب إسرافه في استخدام الإيثر والمواد المُخدِّرة الأخرى. يمكن تمييز تأثير الإيثر في الهلوسات السمعية التي يصفها موباسان، حيث تبدأ بصوت طنين في الأذن، ثم تتصاعد لتصل إلى ذروتها، وتتحول خلال التأمل اللاحق إلى أصوات. قد تكون كلماتهم غير مسموعة أو لا معنى لها في كثير من الأحيان، لكن طابع الناطق ونبرة صوته يظلان واضحَين بشكل حادٍّ.

تُعد الأصوات المنفصلة عن الجسد موضوعًا مشتركًا في الأدبيات الطبية والروحية، وتتجلى وتُفسر بطرق مختلفة. فقد وصف الطبيب البريطاني إرنست دنبار سماعه لهذه الأصوات بينما هو تحت تأثير الكلوروفورم في تقرير لجمعية الأبحاث النفسية:

> بدا لي أنَّ في أعماق وعيي أصواتًا تتجادل وتتشاجر. تبدأ المحادثة بهذا الكلام: «إذًا كما ترى، لقد أمسكنا بك مرة أخرى». ثم أفكر: «ألا تتركونني وشأني؟ أريد أنْ أرتاح»، ويأتي الرد: «سنقول الكلمة الأخيرة»، ثم يتبع ذلك تذمُّر وشكوى من هذه الأصوات، التي تتحول أحيانًا إلى شكوى عالية وصراخ.

عندما سمع باحثو الظواهر النفسية عن التواصل التخاطري، وأرواح الموتى أو أصوات الملائكة، كان موباسان يميل إلى تفسيرها على أنها مزدوجات أو انفصالات لعقله. ومع ذلك، لم يتمكن في سنواته الأخيرة من تجاهل احتمال أنْ تكون هذه الأصوات تحمل إشارات إلى شيء يتعدى الذات، ليس بالضرورة أنْ تكون أرواحًا أو شياطين كما جرى

التفكير بها تقليديًا، ولكنها قد تكون دليلًا على وجودٍ ما خارج الجسد يتعقب العالم الحديث.

أكثر استكشافات موباسان الخيالية المستمرة لهذا الاحتمال هي قصته القصيرة التي كتبها عام 1887 بعنوان «الهورلا»، والتي تخلت عن الواقعية الأنيقة في أعماله السابقة لصالح سرد مُفكك وغامض وتائِه يُسحب فيه البساط باستمرار من تحت قدمَي الراوي. ففي سلسلة من المذكرات اليومية المرعبة، يوثق البطل وجود وعي مزدوج أو تعذيب الذات، حيث يتدخل في الأشياء في غرفته المغلقة. «قد أكون لعبة خيالي المُنهك»؛ أو ربما أصبح مصابًا بفقدان الذاكرة أو المشي في أثناء النوم؛ «أو أنني أُصبتُ بالتأثيرات المسيطرة على العقل ـ مثل إيحاءات التنويم المغناطيسي مثلًا ـ التي يُعرف أنها موجودة، بيد أنها لا تزال غامضة حتى الآن». ولكن إذا كان مجنونًا، فكيف يمكن أنْ يكون عقله صافيًا وعاقلًا؟

> بالتأكيد ثمة اضطراب مجهول نشأ في دماغي، أحد هذه الاضطرابات التي يحاول علماء وظائف الأعضاء في الوقت الحاضر تدوينها وتحديدها بدقة، ويجب أنْ يكون هذا الاضطراب قد تسبَّب في هاوية عميقة في عقلي وفي ترتيب أفكاري ومنطِقها.

تتشكل الحُجج والبراهين كما هو الحال تحت تأثير الإيثر، بمزيد من البراعة، لتحل محلها آراء أخرى. الانحرافات تتصاعد، والهوة تتسع؛ وسرعان ما يبدأ بالتأمل في أنَّ «شخصًا ما يمتلك روحي ويحكمها!» تترسخ الفكرة بأنَّ الباحثين العلميين للوعي المزدوج قد أطلقوا كائنًا يتغذى على العقل الواعي، وليس لهم أيُّ سيطرة عليه:

> لقد تنبَّأ بهذا الكائن فرانز مسمر، وقبل عشر سنوات اكتشف الأطباء طبيعة قوته بدقة، حتى قبل أنْ يمارسها بنفسه. لعبوا بذلك

السلاح الجديد لسيدهم، ونفوذ الإرادة الغامضة على النفس البشرية التي أصبحَت مستعبدة. يطلق عليها تسميات مثل المِسْمَرِيَّة، والتنويم المغناطيسي، والإيحاء. كائن جديد! لمَ لا؟ من المؤكد أنه كان مقدرًا أنْ يأتي! لماذا نكون نحن في الأخير؟

أبرز شخصية أدبية مرتبطة بالإيثر في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر هو الروائي والشاعر والصحفي وكاتبُ القصص القصيرة جان لورين[1]، الذي نشر مجموعة من قصصه السوداوية والساخرة في عام 1895 تحت عنوان *حكايات متعاطي الإيثر*.

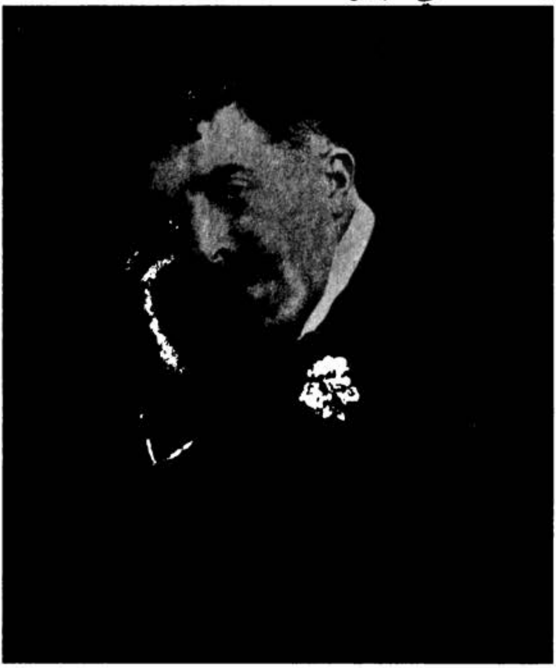

الكاتب والشاعر الرمزي الفرنسي جان لورين، المتعاطي للإيثر، الذي كشفت أعماله آثار الإيثر النفسية الخارقة.

(1) روائي فرنسي (1855 ـ 1906).

كان لورين شخصية متطرفة حتى في باريس المتدهورة؛ متأنق ومرصع بالجواهر، مروج للفضائح والنميمة، وبوهيمي، ومتباهٍ بالممَّارسات الشيطانية، مقيم في العالم السفلي مع المثليين المجرمين والعنيفين في المدينة، وفي الوقت نفسه يُعد كاتب المدينة الأعلى أجرًا.

«ما هو الفساد؟» يهز كتفيه ويقول: «مجرد ذوق لا تشاركه». كان وصفه الواضح لنفسه بأنه «توماس دي كوينسي» المرتبط للإيثر جزءًا من شخصيته، على الرغم من أنَّ القصص تميل إلى ذكر المُخدِّر بشكل غير مباشر فقط، ولم يصف تجاربه معه على نحوٍ مباشر كما فعل موباسان في قصة «الأحلام». يظل وجوده منتشرًا، يمزق الستار الفاصل بين الواقع ويتخلله بمقارنات سريالية ولمحات من الوضوح الخارق للطبيعة. يضع هذا المشهد والمزاج لقصص مثل «جريمة غريبة»، التي يبدأ راويها بالقول:

> كان ذلك قبل عامَين، عندما أصبحت مشكلاتي العصبية في أسوأ حالاتها. لقد تعافيتُ من الإيثر، لكن ليس من الظواهر المَرضية التي ولَّدها: سماع أشياء، ورؤية أشياء، ونوبات الهلع الليلية والكوابيس. بدأ السولفونال والبروميد في تخفيف أسوأ الأعراض، بيد أنَّ معاناتي استمرت على الرغم من العلاج. كانت هذه الظواهر في أسوأ حالاتها في الشقة الواقعة على الجانب الآخر من النهر، في شارع سانت غيوم، الذي أقاسمه هذه الظواهر فترة طويلة. يبدو أنَّ وجودهم قد اخترق الجدران والتجهيزات، بواسطة بعض السحر التعاطفي[1] الضار. ثمة ظلال غريبة متجمعة في الزوايا، وثنيات مثيرة في الستائر عند النوافذ، بينما ستائر الباب تتحرك فجأة بمظهر مفزع لا يمكن وصفه.

---

(1) مصطلح ظهر عام 1905، يُشير إلى السحر المبني على الاعتقاد بأنَّ شيئًا أو حدثًا ما يمكن أن يؤثر على شيء أو حدث آخر عن بُعد؛ كنتيجة لعلاقة تعاطفية بينهما.

استخدم لورين الإيثر أولًا دواءً لعلاج السل الرئوي المزمن الذي يعاني منه، لتخفيف الأعراض، على غرار منافسه موباسان الذي تحداه ذات مرة للمبارزة بسبب اتهامه بالسرقة الأدبية. وأصبح مرضه وعلاجه الذاتي مع الأثير منسوجين في شخصيته العامة المثقفة للغاية. لقد كان لورين صديقًا مقربًا من جوريس كارل هويسمانز[1]، الذي أسست روايته عكس *التيار* (1884) نفسها مرجعًا للحركة الأدبية الانحلالية، وقد امتدت مسيرة لورين الكتابية عبر عوالم الجمال الرفيعة، والصحافة ذات الأجر العالي، والإثارة التجارية الرخيصة، والكتابات غير المقبولة أخلاقيًا التي لا يمكن طباعتها. وبمثل تحفة هويسمانز هذه، لا تُعد العديد من قصص لورين روايات بقدْر ما هي لوحات فنية صغيرة، قطع مزاجية أو دراسات للحالات العقلية، تتكشف في حوارات داخلية تتوقع وعي الحداثيين.

تحوي رواية عكس *التيار* استطرادًا مطولًا حول العطر، والمشاعر والتجارب التي يمكن استدعاؤها به؛ يمكن اعتبار استخدام موباسان ولورين للإيثر في الكتابة نتيجة لهذا الهوس بالعطور المكثف حتى الجنون. وترددت في الصالونات والمقاهي مقولة «يمكنك أنْ تشم وجود لورين في الغرفة حتى قبل أنْ تراه».

ففي رواياته، تنتشر رائحته ومنطق أحلامه في كل مكان، مصحوبة بارتباكٍ في الارتباطات؛ غرفة انتظار المستشفى، وغرفة النوم، وألم الرئتَين، والانفصال اللطيف عن الواقع، والاستيقاظ المفاجئ من كابوس، وفي النهاية، ألم القرحة المعوية التي تسببَت بها عادته بزيادة شدتها.

(1) روائي وناقد فني فرنسي (1848 ـ 1907).

وعلى الرغم من أنَّ قصصه عن الإيثر مليئة بالأشباح، لم يكن لورين مؤمنًا بالأشباح أو الأرواح؛ كما قد يدّعي، نقلًا عن صاموئيل تايلور كولريدج، الذي قال: «لقد رأيتُ الكثير منهم بنفسي».

حقق في المعتقدات والحركات الشيطانية، مثل هويسمانز، إذ كان هذا الثنائي من زوار مقهى *القط الأسود* المعروف في حي مونمارتر، وهو محور الحياة البوهيمية حيث كان تلاميذ جول ميشليه[1] يناقشون السِّحر ويبحثون عن الطقوس السرية في الأقبية وسراديب الموتى، وانتشرت إشاعات عن تجمعات سرية وطقوس مستترة في خلفية قصص لورين. ومع ذلك، في النهاية، لم تُقدم العلوم أو الخوارق ولا حتى الإيثر تفسيرًا كافيًا.

«أوه، لا تلُم الإيثر!» يرد البطل في قصة قصيرة بعنوان «المَمسُوس» على صديق يحاول فهم أوهامه المرعبة:

> ومع ذلك، يتعين عليّ الرحيل. سأمرض بالتأكيد مرة أخرى بمجرد حلول نوفمبر، عندما تصبح باريس مسكونة بالأشباح على نحوٍ خيالي. أنت ترى، الغريب في حالتي أنني لم أعد أخاف من المخفي، أنا مذعور من الواقع!

تُعد رواية لورين الشاذة والصادمة *السيد دي فوكاس* (1901) علامة الذروة المثيرة للجدل في مسيرته الأدبية، وكذلك النقطة الأعلى في الأدب الفرنسي الانحلالي. أفلس لورين ماليًا بسبب دعاوى قضائية بتهمة الانتحال والفحش، وتراجُع شعبيته في بداية القرن الجديد، وفي عام 1906 توفي بشكلٍ مخزٍ بسبب التهاب البطن الناتج عن ثقب القولون بعد

(1) مؤرخ فرنسي وكاتب (1798 ـ 1874).

استخدام حقنة الشرج للتخفيف من قرحة في الأمعاء الناتجة عن الإيثر. فقد أصبح المُخدِّر، مثل أفيون في دي كوينسي، تميمة لورين وعلامته ولعنته أيضًا. لقد فتح هذا المُخدِّر بابًا إلى بُعد غير مرئي للعقل لا يستطيع متخصصو التنويم المغناطيسي، وأطباء العقل تفسيره على نحوٍ أفضل من الوسطاء الروحيين أو طاردي الأرواح الشريرة. مثلما يصرخ أحد أبطاله المتحمسين في قصة «المنظار السحري» (1891): «لم تزدهر الغرائبية بشكلٍ مرعب ومخيف مثلما هو الحال في الحياة الحديثة!»

***

وضع ويليام جيمس بعد مرور عشرين عامًا على نشره لانطباعاته الأولى عن ثاني أوكسيد النيتروز في مجلة *مايند* تجربته مع الغاز في مركز دراسته الشاملة للحالات الصوفية في كتاب *تنويعات التجربة الدينية*[1] (1902). فقد كتب: «أوكسيد النيتروز والإيثر، وخاصة أوكسيد النيتروز»، «يحفز الوعي الصوفي بدرجة غير عادية. يظهر عمقٌ وراء عمقٍ من الحقيقة لمن يستنشق الغاز»، وواصل الحديث، مُستعيدًا بشكل حرفيٍّ تقريبًا فكرته الأصلية التي تقول: «إنَّ الحقيقة مكشوفة للعيان في عمقٍ وراء عمقٍ من الأدلة الساطعة». وقد تُوّجت تأملاته الناضجة بأشهر ترنيماته عن تجربة المواد المُخدِّرة:

> منذ بضع سنين، دوَّنتُ بنفسي ملاحظات حول هذا الجانب من تأثير ثاني أوكسيد النيتروز، ونشرتها في طبعةٍ مكتوبة. توصلتُ في ذلك الحين إلى استنتاج أجبر عقلي على قبوله، وظل انطباعي عن صحته ثابتًا منذ ذلك الحين. وهو أنَّ وعينا الطبيعي اليقِظ، أو الوعي

(1) صدرت الترجمة العربية للكتاب عن دار نهوض عام 2020، بترجمة إسلام سعد وعلي رضا.

العقلاني كما نسميه، ليس سوى نوع محدد واحد من أنواع الوعي، بينما تكمن حوله، معزولة عنه بأدق الحواجز، أشكال محتملة من الوعي تختلف تمامًا. لا يمكن أنْ يكون أيُّ تفسير للكون بمجمله نهائيًا إذا تم تجاهل هذه الأشكال الأخرى من الوعي كليًا.

لم يكن جيمس قد أغلق الباب بعد على معرفة طبيعة أو معنى التجارب الصوفية، ولكن رسم ملامحها بعد أنْ غمر نفسه في مئات الأوصاف، من مذكرات الصوفيين في العصور الوسطى إلى التجارب الشخصية والروحية للصحوات الكبرى، وحتى أكوام المراسلات الشخصية التي ملأت مكتبه وقتها. وخلص إلى أنَّ عدم القدرة على وصفها بشكل مُرضٍ لا يُعد دليلًا على تناقضها، بل على أصالتها.

إنَّ هذه التجارب لا توصف، وتتجاوز الكلمات «يجب أنْ تُعايَش جودتها مباشرةً؛ إذ لا يمكن إيصالها أو نقلها إلى الآخرين». كما كانت هذه التجارب محددة بما أسماه جيمس بالجودة «الإدراكية»، حيث تحمل معها قناعة راسخة بالحقيقة «إنها إشراقات، وكشفٌ للأسرار، مليئة بالدلالات والأهمية، على الرغم من كونها صماء».

كانت تلك التجارب عابرة، حيث تنسل من الإدراك الواعي تقريبًا على الفور؛ كما أنها سلبية، ولا يمكن تحقيقها بممَّارسة الإرادة، ممَّا يعطيها الشعور بأنها ممنوحة من قوة خارقة. كما أنَّ هذه التجارب «ذات سلطة مطلقة على الأفراد الذين يشعرون بها»، مثلما هي لدى لوالده، غير أنها لا يمكن أنْ تمنح أصحابها سلطة على الآخرين، كما طالب والده. وتشير هذه التجارب إلى وجود حقيقة أعمق أو تركيبة شاملة تنطبق على الجانبَين على حدٍّ سواء، وهي أنها «تعطي إمكانية وجود مستويات أخرى من الحقيقة».

«المنطقة الخفية» هو المصطلح الواسع الذي استخدمه جيمس وقتها لوصف مصدر التجارب التي يمكن المطالبة بها أو رفضها، على أنها دينية، أو صوفية، أو مَرضية، أو ناتجة عن المواد المُخدِّرة. وظهرَت من بين أمثلته عدةُ حالات من ملفات جمعية الأبحاث النفسية، بما في ذلك الهلوسات العفوية، والكتابة التلقائية، وظهور الأرواح والوجود الإلهي؛ غير أنَّ التزامه بقضية جمعية الأبحاث النفسية بدا في حالة تراجُع. ففي عام 1894، قَبِل جيمس رئاسة جمعية الأبحاث النفسية بناءً على طلب فريدريك مايرز؛ حيث أقنعه مايرز بأنَّ شهرته الدولية ومكانته تجعله المرشح الأبرز لهذا المنصب. ومع ذلك، استقال جيمس من هذا المنصب في العام التالي لصالح الكيميائي البارز السير ويليام كروكس[1]، الذي اخترع أنبوب الأشعة الكاثودية.

كان الحد الزمني الذي اقترحه جيمس بمدة خمسة وعشرين عامًا لمشروعهم قد انتهى تقريبًا، والعالم لا يزال بعيدًا عن قبول التخاطر أو الحياة بعد الموت. على النقيض، تحركَت الأمور بشكل قاطع في الاتجاه المعاكس؛ فإنَّ ميوله نحو الروحانية والطبيعة الخارقة أسهمَت في التأثير في سُمعته، وتقليل تأثيره في القضايا الأخرى التي كان ملتزمًا بها بالقدْر نفسه. ففي عام 1909، وبينما يتأمل في بحوثه النفسية السابقة، كتب جيمس قائلًا: «لا يوجد تقدُّم نظري بالنسبة لي عندما بدأت، وأعترف في بعض الأحيان كنتُ مغرورًا بالاعتقاد بأنَّ الخالق قصَد أنْ يكون هذا الجانب من الطبيعة غامضًا، ليحفز فضولنا وآمالنا وشكوكنا بالقدْر نفسه».

---

(1) كيميائي وفيزيائي بريطاني (1832 ـ 1919).

كان جيمس أكثر معارضة للعلم الاختزالي[1] والجزمي من أيٍّ وقت مضى، غير أنه وقتها صاغ نهجه تجاه المنطقة الخفية على نحوٍ مختلف. حيث كانت جمعية الأبحاث النفسية مهتمة بحالاتها بشكل رئيس كدليل على واقعية مستوى آخر من الوجود، وأجاد جيمس في الدفاع عن واقعية هذه الحالات بطريقة مستقلة عن هذه التفسيرات الأخرى.

كان تيار الوعي «مزيجًا متفجرًا ومتشابكًا» من العديد من الأنماط المختلفة للتفكير والإدراك، حيث تتداخل التيارات العميقة للتجربة الصوفية في كثير من الأحيان مع قشور الحياة اليومية السطحية. وسواء اعتبرنا هذه التجارب حقيقية أو وهمية، فإنها تؤثر في حياتنا الحقيقية «فعليًا إنها تؤثر على نحوٍ مباشر في شخصياتنا المحدودة، ونتحول إلى أشخاص جدد، وتؤدي إلى عواقب حقيقية تظهر في العالم الطبيعي».

قد يولّد الوحي التخديريّ ادعاءات تتعارض مع العلم والمنطق، غير أنَّ هذا لا يجعله بالضرورة خارقًا للطبيعة، ولا عميقًا بالضرورة. فقد وصل بيير جانيه إلى استنتاج مشابه بعد تحقيقاته الواسعة في التنويم المغناطيسي للوسطاء الروحيين؛ أنَّ نبوءاتهم وتصريحاتهم، على الرغم من كونها في بعض الأحيان مذهلة ومُربكة، في الغالب سطحية ومتوقعة أو عادية.

ومع ذلك، فقد علم جيمس من تجربته الشخصية أنه لا يمكن تقييم الحالات العقلية الاستثنائية على أساس الشهادات التي تنشأ منها. ونظرًا للأدلة الوفيرة التي جمعها حول القوة التحولية للرؤى، فقد استنتج جيمس «أشعر وكأننا لا نملك عذرًا فلسفيًا لإطلاق تسمية غير حقيقي على العالم

---

(1) نهج فكري وفلسفي يفسر النظام المعقد على أنه مجموع أجزائه.

غير المرئي أو الروحاني». ومن خلال جيمس والعديد من المصادر الأخرى، انتقل نموذج العقل والواقع الذي أثاره الوحي التخديري إلى تيار أوسع من التأثيرات التي أعادت تعريف الوعي في القرن العشرين. فالفن الحديث والثقافة التي صحبَت الأجيال اللاحقة، مع منظوراتها المُتشظية وغير المألوفة، كرّست نفسها لاختراق الحجاب من الواقع اليومي إلى عالم التجربة النقية. فقد تنبأت مشاهد العقل التي أثيرت بالإيثر لجان لورين، التي انتابتها الشخصيات المقنعة وظلال الذات المتكررة، إلى الحوار الداخلي في أعمال مارسيل بروست[1]، وجيمس جويس[2]، وسرديات تيار الوعي الخارقة لآرثر شنيتزلر[3]، والتقاربات المستحيلة للسرياليين.

خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بدأ فنانون مثل جورج سيرا[4] بتجريب الفنون التقسيمية[5] والتنقيطية[6]، محولين محور الرؤوية من العالم الخارجي إلى عين المشاهد وعقله؛ وقدَّم بول سيزان[7] وأصحاب المدرسة التكعيبية تعبيرًا بصريًا للعالم الذي رسمه جيمس، وذلك عن طريق دمج منظورات متعددة للكائن نفسه في لوحة واحدة. وقُلِّلت الحدود الصارمة للزمان والمكان بفضل التقنيات الجديدة مثل المسجل

(1) روائي فرنسي (1871 ـ 1922).
(2) كاتب وشاعر أيرلندي (1882 ـ 1941).
(3) روائي وكاتب نمساوي (1862 ـ 1931).
(4) رسام ومصور فرنسي (1859 ـ 1891).
(5) أسلوب في الرسومات الانطباعية يتميز بفصل الألوان لنقاط أو جزيئات منفردة، حيث يمكن التفاعل معها بصريًا.
(6) أسلوب في الرسم تطبق فيه نقاط صغيرة ومميزة من الألوان في أنماط لتشكيل صورة.
(7) رسّام فرنسي (1839 ـ 1906).

الصوتي، والسينما التي جمَّدت اللحظات والتصورات العابرة في كائنات مادية. وعندما انتقل فاسيلي كاندينسكي[1] إلى الفن النقي التجريدي في عام 1910 ـ «رسم الروح» كما تصورها ـ استمدَّ إلهامه من المناطق الخفية التي تصوّرها من خلال التأمل في أشكال الفكر الثيوصوفية.

امتد انهيار الزمان والمكان الذي حدث تحت التخدير في العلم أيضًا، من الذات إلى العالم الموضوعي والقابل للقياس. فقد ذكر ويليام جيمس في كتابه *مبادئ علم النفس* أنَّ الإدراك الذاتي للزمن ـ بخلاف الزمن الموضوعي ـ مرنٌ، ويعكس تردد الأحداث الذهنية التي تحدث؛ «الوعي بالتغيير هو الشرط الذي يعتمد عليه إدراكنا لجريان الزمن». ربط هذا بأفكار هنري برجسون[2]، الذي اعتبره الفيلسوف العظيم للتجربة المباشرة، والذي ادعى أنَّ الزمن يقيم في الجسد كما تفعل الذكريات في الدماغ، كبُعد مُعاش وغير قابل للقياس من الوعي، والزيادات الجامدة للزمن الموضوعي هي في أحسن الأحوال تبسيط لهذا الواقع.

وعندما ظهرت أطروحة ألبرت أينشتاين[3] عن الزمان المكاني في القرن العشرين، أدت إلى انهيارٍ أعمق للموضوعية، إذ لم يعُد الزمن قياسًا واحدًا وشاملًا، بل هو منظوريّ ومتعدد، وفي النهاية يعتمد على العلاقة بين الأشياء. وفي عام 1910 طوَّر الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيجا إي جاسيت[4] أفكار أينشتاين وغيره من الفيزيائيين إلى الاستنتاج الآتي: «لا

---

(1) فنان روسي (1866 ـ 1944).
(2) فيلسوف فرنسي (1859 ـ 1941).
(3) عالم فيزياء ألماني (1879 ـ 1955).
(4) فيلسوف إسباني (1883 ـ 1955).

يوجد مكان مطلق؛ لأنه لا يوجد منظور مطلق. وتُعد نظرية أينشتاين دليلًا رائعًا على التعددية المتناغمة لجميع وجهات النظر الممكنة. وفي عام 1916 استنتج أينشتاين أنَّ «كل إطار مرجعي له زمنه الخاص». كما أصر جيمس بعد كشفه عن أوكسيد النيتروز، أنه من غير الممكن أنْ يكون ثمة تفسير للكون نهائيًا دون أنْ يشمل الوجه الذي يقدمه لكل مراقب فريد.

ثمة رؤية ممَّاثلة في التحوّل حدثت في العلوم الاجتماعية، ففي عام 1888 كان عالم الإنسانيات فرانز بواز[1] أول مَن استخدم مصطلح «الثقافات» بصيغة الجمع للإشارة إلى أنَّ «الحضارة ليست مُطلقة، بل هي نسبية، وأنَّ أفكارنا وتصوراتنا صحيحة فقط بقدْر ما تذهب إليه حضارتنا»؛ إذ توجد ثقافات أخرى وأشكال وعي مختلفة تمامًا خارج التراث الأوروبي.

وفي العام نفسه، دخل الشاب البالغ من العمر عشرين عامًا، ويليام إدوارد دو بويز[2]، الناشط الحقوقي الرائد والداعم لحركة الوحدة الأفريقية من الجيل الجديد، جامعةَ هارفارد ووجد في ويليام جيمس معلمه العظيم المنشود، «صديقي ومرشدي نحو التفكير الواضح»، كما كتب لاحقًا. وأصبح دو بوا أول طالب أسود يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وفي عام 1895، في بَحث نُشر في *مجلة أتلانتيك الشهرية*، عدَّل مصطلح «الوعي المزدوج» لوصف وضع الأميركيين السود، الذين اضطروا إلى التنقل في العالم في الوقت نفسه من خلال منظورهم الخاص، ومنظور الثقافة البيضاء السائدة التي وضعَت قواعدها ومعاييرها. وكتب:

(1) عالم أنثروبولوجيا ألماني المولد أمريكي الجنسية (1858 ـ 1942).
(2) عالم اجتماع وناشط سياسي أميركي من أصول أفريقية (1868 ـ 1963).

«إنه لإحساسٌ غريب، هذا الوعي المزدوج، هذا الشعور بأنك دائمًا تنظر إلى نفسك من خلال أعيُن الآخرين». فقد كان الطريق نحو الهوية السوداء في العالم الحديث يتضمن التوفيق بين «تيارات فكرية شاسعة ومتناقضة جزئيًا» في تركيب أعلى، وهو «النفس الإنسانية التي تتسم بالسيادة».

***

توّجت رحلة جيمس في مقالته «عالم من التجربة النقية» (1904) وسلسلة محاضرات أخيرة ـ أمام أكبر حشد شهده قسم الفلسفة في هارفارد على الإطلاق ـ جُمعت ونُشرت في عام 1909 في كتاب بعنوان كون متعدد. فقد وصف فلسفته بأنها «التجريبية الرادِكالِيّة»، والتي عرّفها بأنها «عكس العقلانية»؛ فبدلًا من تمييز العقل والتجريد، أصرَّت على التجربة المباشرة والحقيقة الفردية. وفي هذه الترتيب، تمثل الواقعية مجموع كل الخبرات سواء المادية أو غير المرئية، ولا شيء أكثر؛ يجب ألا «يتضمن بناؤها أيَّ عنصر لم يُجرب مباشرة، ولا يُستثنى منها أيُّ عنصر جُرب مباشرة». وترفض بالتساوي قيود المنطق والعقل، والحقيقة المكشوفة في الدين، والمطلقات في فلسفتَي أفلاطون أو هيغل. إنَّ الواقعية عبارة عن فسيفساء يمكن تركيب كل قطعة منها معًا لإنتاج نسخة متماسكة من العالم، غير أنَّ الصورة التي أنتجتها اعتمدت على كيفية تجميعها، ومكان وجود المراقب.

تُعد الكلمة التي ابتكرها جيمس للإشارة إلى مجموع الفسيفساء هي *الكون المتعدد*. وكان هذا انقطاعًا نهائيًا وحاسمًا مع علم النفس المختبري الذي حاول عزل وظائف العقل وإيجاد أساس الوعي في فسيولوجيا الدماغ والجهاز العصبي. فالوعي، وفي الحقيقة: الواقع، كما

أكد جيمس، كانا في نهاية المطاف لقطات من عملية تشكل باستمرار من الذات الخاضعة للتجربة.

آخر نص كتبه جيمس قبل وفاته تضمن كلمات امتِنان قصيرة بعنوان «عالم صوفي متعدد» للشخص الذي أسهم في وضعه على هذا المسار:

> الآن ومنذ سنوات، لطالما أثار ذوقي الأدبي والفلسفي على نحوٍ رائع كاتبٌ لا أظنه معروفًا لقراء هذا المقال؛ وأعتقد أنَّ اسمه يجب ألا يظلَّ مجهولًا؛ لذلك لن أبقى صامتًا حيال استحقاقات بنجامين بول بلود.

تذكر جيمس أنَّ بلود قد ساعده على تجنُّب الاختيار غير المُرضي في التعامل مع الصوفيين، وهو إما تأكيد مزاعمهم أو رفضها. كان وحيه التخديري مطلقًا، غير أنه احتوى جميع تناقضات الهوية والاختلاف، والعقل والمادة، والفرضية ونقيضها في كونه المتعدد، جميعها تبدّدت في «نفخة بوق الصوفية التنبؤية». كتب بلود كثيرًا عن «الواحد»، وأحيانًا عرّفه بأنه الرب، لكن في كتاباته الأخيرة اتجه نحو وجهة نظر جيمس؛ حيث أعطى كتابه الأخير عنوان *الكون متعدد الحقائق*. كانت التجربة هي الشيء الوحيد الموجود؛ فيما يتعلق بما وراء المنطقة الخفية، كما كتب بلود في رسالة إلى جيمس بعد تجربته لأوكسيد النيتروز في عام 1882، فإنَّ الحقيقة النهائية هي أننا «لا نعرف!»

الجزء الثالث

ساتورناليا الحواس

المواد المُخدِّرة والخيال الإبداعي

رسم جان مارتان شاركو وهو تحت تأثير الحشيش عندما كان شابًا طالبًا يدرس الطب، حوالي عام 1850.

الفصل الخامس

حكايات متعاطو الحشيش

في أبريل 1892، نشرَت مجلة *الصيدلي والكيميائي* البريطانية، تقريرًا عن رحلات ومغامرات في المغرب، للكيميائي المُصنِّع وقطب التجارة الصيدلانية سيلاس بوروز[1]. وهو أيضًا الشريك المؤسِّس لشركة بوروز ويلكام آند كومباني المبتكرة والناجحة على نحوٍ كبير. دخل بوروز مقهى مغربيًا في طنجة ليحتسي القهوة (وطلب دليلُه المرافقُ الشايَ الأخضر بالنعناع)، وقرّر حينها تجربة الحشيش الذي كان متاحًا أيضًا.

قام صبيٌّ بقطع بعض أوراق نبات القنب الهندي وخلطها مع التبغ، واستنشق بوروز «عدة أنفاس» من الغليون الخشبي الطويل. بدت كلُّ الأشياء حوله تظهر بألوان زاهية، ونقلتْه متعة وهمية «على الفور» نحو حالة من السعادة الشديدة. وجاء وصفه المرويّ لمراسل مجلة *الصيدلي والكيميائي* مثل فنتازيا حكايات *ألف ليلة وليلة*:

> تُنقَل مثل علاء الدين إلى حيث قصر الحمراء المضاء بشعاع القمر، وتسمع موسيقى نوافيره وجداوله، أو تنحدر نحو البحر

(1) رائد أعمال صيدلاني أمريكي (1846 ـ 1895).

الأحمر وتتجاوز قمة جبال سيناء، لتنظر إلى مكة البعيدة، ثم تطفو كما لو أنك محمول في منطادٍ غير مرئيّ، فوق قمم جبال الهيمالايا الثلجية، حتى تصل إلى سفوح التلال الدائمة الخضرة، حيث تنبع الأنهار المقدسة من تحت معابد من الرخام وتجري على جانبَي المزارات الوثنية.

في ظاهر الأمر، لم يبدُ سيلاس بوروز، رائدًا نفسيًا. فقد كان متشددًا في معتقداته البريسبيتارية[1] وممتنعًا تامًا عن شرب الكحول، وعاشقًا للياقة البدنية، ورائدًا نشطًا في ركوب الدراجات. وهكذا، كان أيضًا كما وصَفَ نفسه «رحالة لا يعرف الكلل». فهو من رواد السفر الترفيهي حتى أنه في ذروة نجاحه المهني اعتاد التغيب عن إدارة الشركة ليقضي عدة أشهر من كل عام في مناطق بعيدة، ويطوّر فرص الأعمال الدولية، بينما يسعى لاكتشاف تجارب غريبة وغير عادية.

وجد بوروز الحشيش مبهجًا، وقال: إنه يجعلك «تشعر بخفة شديدة»، حتى «يمكنك الركض على جوانب الأهرام المتعرّجة». تحققَت تجربته من وعود المغرب الحسية والغامضة في أسواقها، حيث أرفُف الصيدليات مليئة من الأسفل إلى الأعلى بالجِرار والزجاجات والأدراج التي تحتوي على تحضيرات غريبة وعُشبية محلية مثل نبات الفشاغ، والنعناع البري، تتزاحم مع التمائم والتعاويذ ضد العين الشريرة، وأدوية براءة أوروبية مخترعة مثل أملاح الكبد الفوارة.

كان سيلاس بوروز مؤيدًا قويًا للحركات الاجتماعية التقدمية والعمل

---

(1) مذهب من التقاليد الإصلاحية داخل البروتستانتية التي انفصلَت عن الكنيسة الرومانيةالكاثوليكية.

المنظم والتجارة الحرة من دون رسوم، وسرَّه معرفة أنَّ الصيدلي كان من بين الفئات القليلة من رجال الأعمال المغاربة الذين لم يكن عليهم دفع الضريبة إلى السلطان على البضائع المستوردة. وقد علَّل بوروز ذلك بأنَّ «هذا الصيدلي يوفر وسائل الشفاء لصحة كثير من المؤمنين».

يُعد القنب واحدًا من الأدوية التي توافرت في أسواق الشرق والصيدليات الحديثة في الغرب، ومع هذا، لم يدّعِ بوروز في تقديره أيَّ إمكانات علاجية له. فقبْلَ جيلٍ في أوروبا والولايات المتحدة، كانت مستخلصات القنب والأشربة المركزة منه تُمجَّد بوصفها إحدى عجائب الصيدلية الحديثة. ومع ذلك، في نهاية القرن التاسع عشر، فقدَت النباتات الطبية بريقها الواعد، فقد ظلَّ القنب عنصرًا ثانويًا ضمن المهدئات المسجلة، وأوصى به أطباء للتخفيف من تشنجات العضلات. وقد تطورَت الصيدلية التجارية، ولم يكن القنب مناسبًا للسوق الجديدة. وبعكس ورق الكوكا وشجرة الأفيون، التي أنتجَت العقاقير النقية الكوكايين والمورفين والكودين، فقد قاوم القنب كلَّ محاولات تقليله إلى مركب كيميائي موحَّد. كما أنَّ القنب يستورد عادةً إلى الصيادلة على شكل الحشيش، وهو مستخلص نباتيّ مُركّز يُجلب من مصر أو الهند، ويختلف من دفعة إلى أخرى؛ ممَّا يجعله غير مناسب للأدوية «الأخلاقية» أو «العلمية» التي تُذكر مكوناتها الفعالة بجرعات دقيقة.

يُعد سيلاس بوروز من طليعة المؤيدين للاتجاهات الحديثة. فخلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بدأت شركة بوروز ويلكام في تطوير «الأدوية المضغوطة»، حيث أُبدلت الأدوية المسحوقة التي يقوم الصيادلة بوزنها في المحلات ليحلّ محلها أقراص مغلفة بألوان مميزة وعلامات

تجارية مميزة، أُنتجَت باستخدام آلات صُنع الأقراص الأولية. وفي عام 1884، وجدَت شركة بوروز ويلكام أنَّ البريطانيين لا يميلون لاستخدام مصطلح «الحبوب»، لذلك قامت الشركة بتسجيل علامة تجارية على كلمة «تابلويد»، وهي كلمة استُخدمت بالإضافة إلى مصطلحات أخرى مثل «إليكسويد»، لتسويق المنتجات النقية التي أصبحَت تهيمن على قصور الصيدلية المضيئة بالكامل.

تضمنَت هذه المنتجات العديدَ من الأدوية القوية التي تؤثر في العقل. وتشمل مجموعة أقراص الحقن المحلولة المضغوطة التي قدمتْها الشركة تحضيرات نقية من المورفين، بالإضافة إلى الستريكنين والأتروبين؛ وفي عام 1885، أنتجت الشركة «تابلويد الصوت» لإلقاء الخطابات العامة، والذي يُعد المكون النشط الرئيس له هو الكوكايين، وهذا الدواء يزيد من الثقة بالنفس ويطهر الشُّعب التنفسية.

وفي عام 1890، أطلقَت الشركة دواء «فورسد مارش»، وهي حبوب تزود الجسم بالطاقة تحتوي على الكوكايين والكافيين، والتي بقيَت واحدة من أكبر المنتجات مبيعًا لديهم حتى سُحبَت من رفوف الصيدليات في بداية الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من موقفه العلني ضد الكحول ـ حيث سينضمُّ بعد فترة وجيزة إلى جمعية الاعتدال الوطنية، ويرتدي شريطها الأزرق في طرف جيب قميصه ـ كان بوروز سعيدًا بسرد تجربته مع القنب لقراء مجلة *الكيميائي والصيدلي* دون أيِّ محاولة لإجراء بحث طبي، بل قدَّمها على أنها حالة إثنوغرافية غريبة.

وقد كتب الصحفي، أنه لم يتناول جرعة من الحشيش ـ المستحضر الطبي المألوف في أوروبا ـ لكنه دخَّن غليونًا من *الكيف*، وهو مستحضَر

ناعم من أوراق وسيقان مفرومة. كانت هذه الطريقة للتدخين مألوفة منذ زمن طويل في المغرب وشمال أفريقيا، وانتشرَت مؤخرًا في بعض المدن الغربية متعددة الثقافات، بيد أنه في أماكن أخرى، فالمُخدِّر يُتناول تقليديًا عن طريق الأكل.

كان الحشيش، وهو تركيز الراتينج المصنوع من رؤوس الزهور لنبات القنب في العالم العربي وشبه القارة الهندية، يُخلط غالبًا مع الفاكهة والمكسرات وماء الورد والشراب لمواجهة مرارته، ممَّا يخلق حلوى لذيذة تُعرف في مصر باسم *الدوامسك*، وفي المغرب باسم *العجينة*. لقد استُهلكت هذه الأدوية الفموية لفترة طويلة بجرعات تنتج آثارًا قوية وغير متوقعة. وغالبًا ما يظل الأشخاص المتعاطون في هذه الحالة مستلقين لساعات عدة، غير قادرين على الحركة أو الكلام، مغمورين في رؤى وخيالات تتعاقب بسرعة، وفوضى عقلية لا يمكن وصفها. فيما يصبح آخرون مهووسين، بالطاقة التي لا يمكن احتواؤها، أو متشبثين بالهواجس والأوهام التي لا يستطيع مَن حولهم فهمها. وفيما يتعلق بطيفها وشدتها ومدتها، كانت هذه التأثيرات مشابهة لما نسميه الآن المُخدِّرات النفسية. وعندما ظهرَت هذه المُخدِّرات لأول مرة في الثقافة الغربية في نهاية القرن التاسع عشر، كان ذلك في بيئة متعاطي الحشيش من البوهيميين، وأصحاب الحركة الجمالية، والروحانيين الذين استكشفوا إمكاناتها كاملةً.

كانت تجربة سيلاس بوروز واحدةً من بين مئات الأوصاف لإدمان القنب (عادة الحشيش) التي جابت العالم الأدبي والفني في نهاية القرن التاسع عشر. وفي ذلك الحين اكتسبَت النبتة سمعة بوصفها بوّابة إلى أبعاد غامضة وغير قابلة للوصول في العقل، وكانت قيد الاستكشاف في

العديد من الأوساط؛ العلمية والأدبية والموسيقية والفلسفية والروحية والباطنية. فهي مثل العقاقير التخديرية، فإنها توسع الوعي وتعززه؛ ولكن بينما يسبب أوكسيد النيتروز والإيثر والكلوروفورم حالة منعزلة من الفكر النقي، فإنَّ إدمان الحشيش كان جسديًا وحسيًا. وقد مثلَت رؤاه الداخلية من خلال جماليات زخرفية الأسلوب الباروكيّ[1]، المستمدة غالبًا من الأشكال الشرقية، وفي اللغات البصرية للرمزية والتخييل الحسي والسحر الاحتفالي، حيث حوَّل ممَّارسوها السُّكْر إلى المستوى النجميّ والبحث عن قوى روحية سامية.

في حين أنَّ الكوكايين أصبح رمزًا للطاقة والأداء المُعزّز، وعلاجًا شاملًا للمطالب الشاقة لعالم حديث مكثف، فقد أصبح الحشيش مؤشرًا على نقيضه؛ كالكسل الحسي، والخيال الحُرّ، والانفصال الكوني. كانت هذه الحالة المحيطية من الفراغ المبهج تُعد غريبة عن العقل الغربي، وتوصف بالمصطلح العربي *الكيف*؛ وهو مصطلح محليّ مغربيّ لمزيج تدخين سيلاس بوروز، غير أنه استُخدم بتوسع في معنى مجرد لوصف حالة من الرضا المثالي والنشوة.

* * *

كان الحشيش في منتصف القرن التاسع عشر مألوفًا لدى الغربيين المتعلمين من مصدرَين جاذبَين وغير موثوق بهما؛ الأول، *حكايات ألف ليلة وليلة*، التي حققَت انتشارًا شعبيًا استثنائيًا خلال القرن السابق، بداية من ترجمة أنطوان غالان[2] الفرنسية المكونة من اثني عشر مجلدًا (أو تأويل،

(1) أسلوب فنيّ يتميز بتعقيد التصميم والزخرفة الزائدة والتعبير الشديد عن العواطف.
(2) مستشرق فرنسي (1646 ـ 1715).

أو وضع) في الفترة ما بين 1704 و1717؛ ومن ثَم في العديد من النسخ المزيفة والمزينة والمُعدلة. وبحلول عام 1882، كانت هذه الحكايات، وفقًا لروبرت لويس ستيفنسون، «أكثر قبولًا على نحوٍ عامّ من شكسبير»، وتُعدُ عالَمٌ يأسر الأطفال ويُسعد الكبار.

في *حكايات ألف ليلة وليلة*، يمثل «الحشيش» ترجمةً أوروبية للكلمة العربية «بنج»، والتي يمكن أنْ تشير إلى مجموعة متنوعة من المواد المُخدِّرة النباتية؛ في الغالب القنب، غير أنها أيضًا تشير إلى الأفيون أو النباتات مسببات الهذيان مثل الداتورا أو السَيكُوران. إذ يظهر المُخدِّر في حكايات تدور أحداثها في شوارع بغداد خلال العصر الذهبي للخليفة هارون الرشيد، بالقرن الثامن، حيث يتناقله المتسولون من طبقات المجتمع المتدنية، والمجرمون الصغار والمنشقّون الدينيون، ممَّن يُعتبرون متعاطين نموذجيين للحشيش من وجهة نظر النخبة الأدبية والثقافية في بلاد فارس في العصور الوسطى.

يظهر الحشيش في العديد من الحكايات ويتبنى دورَين محدَدين. في بعضها، استخدمه المجرمون والخاطفون مُخدِّرا قويًا لإفقاد ضحاياهم الوعي أو الذاكرة. وفي حكايات أخرى، مثل الشهيرة «حكاية متعاطي الحشيش»، كان وسيلة كوميدية لإثارة أوهام العظمة. وفي هذه الحكاية، يتعاطى متسول، أفقرتْه شهوتْه للنساء والترف، قطعةً كبيرة من الحشيش ويتجول في حمام عامّ، حيث تتحول المشهد أمام عينَيه إلى قصر يغسله العبيد ويعطرونه، ويُعطَى من الجاريات الحسناوات. ثم يغطُّ في نومٍ عميق وهانئ، وعند استيقاظه يجد نفسه مغمورًا في مغطس الماشية في الشارع، عاريًا ومنتعظًا، ممًا يثير ضحك الناس المتجمعين في الشارع وسخريتهم. وفي النهاية المضحكة المحبطة، كان ذلك كله حلمًا.

مثلت قصص الحشيش في *حكايات ألف ليلة وليلة* فرصة للاسترخاء والضحك على نحوٍ واسع، بين الطبقات الدنيا من المجتمع ونالت إعجابهم؛ أولئك الذين كان الحشيش لديهم أحد الرفاهيات القليلة المتاحة بأسعار معقولة في الحياة. وكانت شخصيات هذه الحكايات عادةً هم الفقراء الذين يفتقرون للمسؤولية ويحاولون الحصول على المكافآت دون أنْ يستحقوها ببذل الجهد المناسب. ومثل قصة أوليفر ويندل هولمز عن الإيثر، كانت هذه الحكايات تأكيدًا طريفًا للأشخاص المحترمين واليقظين بأن التَجَلِّيات التي تأتي من تعاطي المواد المُخدِّرة سوف تتلاشى دومًا مع ضوء اليوم الساطع، ويتضح أنها مجرد أوهام. ومع ذلك، عندما وصلت هذه الحكايات إلى أوروبا بعد عدة قرون، فتح الحشيش المجالَ لتفسيرات جديدة؛ دافع للأوصاف الخيالية للثراء الشرقي، أو تأكيد على قوة الخيال في رفع المتأمل من الحضيض إلى النجوم، حتى لو كان ذلك مؤقتًا.

أما السياق الثاني الذي ارتبط بالحشاشين، فهو النِّقاش العلمي حول قصة ماركو بولو[1] الشهيرة عن الحشاشين؛ الطائفة الغامضة والقاتلة التي احتلت مكانة سيئة الذكر في الذاكرة الثقافية الأوروبية كأخطر خصوم للصليبيين. ففي رواية ماركو بولو، التي نُشرت لأول مرة حوالي عام 1300، وصفٌ (من خلال الإشاعات) قلعة محصنة وحدائق مخفية عالية في شقٍّ بعيد في جبال شمال بلاد فارس، ويرأسها حاكم يُعرَف باسم شيخ الجبل.

كانت هذه الحدائق المحصنة مُصمَّمة على نحوٍ دقيق، ومجهزة بآلات

(1) تاجر ومستكشف من البندقية (1254 ـ 1324).

ميكانيكية تجعل الأنهار تتدفق بالنبيذ والحليب والعسل. وعندما يصل مجنّدو الشيخ وأتباعه إلى القلعة، يُقدَّم لهم مشروب مُسكِر يجعلهم ينامون عميقًا، ثم يستيقظون ليجدوا أنفسهم في حدائقه، محاطين بمحظيات يرتدينَ الذهب والحرير. وبعد أنْ يستمتعوا بهذا النعيم الحسي ينامون مرة أخرى في النهاية، وفي هذه المرحلة يُعادون إلى القصر. وعند الاستيقاظ، يخبرهم شيخ الجبل أنه نقلهم بطريقة سحرية إلى الجنة، وأنه بعد حياة وموت في خدمته كقتلة سيعودون إلى هناك. فيقسم المجندون على الطاعة التامة له، ويُظهِرون كامل استعدادهم للقفز من جدران القلعة وإلقاء أنفسهم نحو حتفهم من على ارتفاع ألف قدَم، بمجرد إشارة من أصبع شيخ الجبل.

أثارت أسطورة الحشاشين الشريرة والمُخدِّر الذي يستخدمه شيخ الجبل للتحكم في أتباعه القتلة العديدَ من الألغاز لدى علماء الشرق الأوروبيين في القرن الثامن عشر. فقد اعتقد بعضهم أنَّ القصة تشير إلى النزاريين الإسماعيليين، وهي طائفة انفصلَت عن الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة، لكن أصل اسم «الحشاشين» لا يزال غامضًا، كما أن النبتة المُخدِّرة في مشروب شيخ الجبل، غالبًا ما تُرجمت على أنها الأفيون.

في عام 1809، ألقى المستشرق البارز أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي[1] محاضرة مشهورة في معهد فرنسا بباريس، حيث قدَّم حلاً لكلا اللغزَين في آن واحد. إذ قال دي ساسي إنَّ كلمة «حشّاش» (assassin) مشتقة من «الحشيشية»، وهي مصطلح عربي يُشير للطائفة وُجِدَ في

(1) مستشرق فرنسي (1172 ـ 1838).

العديد من المخطوطات القديمة والذي يعني حرفيًا «متعاطي الحشيش». والحشاشون هم أولئك الذين تعرَّضوا لغسيل دماغ بالحشيش لارتكاب جرائم قتل سياسية، وعلى حدِّ تعبير دي ساسي، فقد «سُلِّموا من خلال تعاطي الحشيش، إلى هذا الانقياد المطلق لإرادة زعيمهم».

أثار حلُّ دي ساسي المزيدَ من الألغاز، وخاصة حول طبيعة الحشيش وعلاقته بالقنب ـ الذي كان معروفًا أيضًا، بناءً على المصادر الكلاسيكية باسم القنب الهندي، والذي يُستخرج منه نسيج «الكَنْفاس». إذ كان هذا المحصول الليفي معروفًا جيدًا ويُزرع على نطاق واسع في شمال أوروبا، والنبات ينمو على نحوٍ مختلف في المناطق العربية ـ أقصر وأكثر سُمكًا، مع رؤوس زهور كبيرة ولزجة ـ لكن الغريب أنَّ النوع الأوروبي ليس له خصائص مُسكرة.

نسبَت مصادر دو ساسي، وهي في الغالب من رجال دين مسلمين من العصور الوسطى، تأثيرات رهيبة إلى الحشيش. وقيل إنَّ مستخدميه مسعورون ومخدوعون ومحرومون من عقولهم، ومنحطّون إلى ما دون مستوى البشر. واستشهد بحكاياتٍ لا تزال متداولة تُذكِّر بعالَم *ألف ليلة وليلة*، مثل مدمن الحشيش الفاسق الذي اعتقد أنه باشا، يتمدد على أريكة ويتحدث هازلًا عن الشؤون السياسية العالية، ويحكم على أعدائه بالسجن.

ذكر دي ساسي لجمهوره أنَّ «العرب يستخدمون كلمة *الكيف* لوصف الإغراق المبهج للحواس» و«الخَدر اللذيذ». وكان مصدره في هذا هو عالِم الطبيعة الفرنسي تشارلز سونيني دي مانونكور[1]، الذي راقب

(1) عالم طبيعة فرنسي (1751 ـ 1812).

متعاطي الحشيش خلال رحلاته في مصر في ثمانينيات القرن الثامن عشر. علّق مانونكور بأنَّ «لغتنا ليس لديها مصطلحات للتعبير عن *الكيف*»، والذي اعتبره حالة ذهنية عربية مميزة يُمحى فيها التفكير العقلاني بواسطة الأحلام السعيدة والتأملات الخيالية.

كان من الغريب أنْ يثير المُخدِّر نفسه أيضًا العنف القاتل الذي تتطلبه مهنة الحشاشين، ولكن دو ساسي حلَّ التناقض الظاهر بنظرية مفادها أنَّ شيخ الجبل استخدم «حالة النشوة والأوهام الحلوة والعميقة» التي أحدثها الحشيش لتكريس أتباعه، وبعد ذلك انضموا إلى طائفته القاتلة على نحوٍ لا رجوع فيه، ولم يكونوا بحاجة إلى مزيد من المواد المُخدِّرة لارتكاب أعمالهم الشنيعة. (تأكد تعريف دي ساسي لـ«الحشاشين» على أنهم الإسماعيليون النزاريون فيما بعد. ومع ذلك، فإنَّ ادعاءه بأنهم استخدموا الحشيش يلقى رفضًا واسعًا. يبدو أنَّ الإسماعيلين النزاريين كانوا صارمين ومتدينين ومتعففين، وأنهم حظروا جميع المُسكِرات تحت طائلة الموت).

* * *

حدث أول تفاعُل مستمر بين الغرب الحديث ومتعاطي الحشيش في العالم العربي خلال غزو نابليون لمصر في عام 1798، الذي انتهى بحظر القوات الفرنسية تعاطي الحشيش في أكتوبر 1800، وفقًا لمرسوم الجنرال جاك فرانسوا مينو[1] (حيث اضطر نابليون لمغادرة مصر والعودة لفرنسا وقتها). وأفاد المرسوم بأنَّ الحشيش يتسبب في «فقدان العقل والوقوع في هلوسة عنيفة، التي غالبًا ما تدفعهم إلى ارتكاب تجاوزاتٍ من جميع الأنواع».

(1) جنرال فرنسي (1750 ـ 1810).

لم يُستدلّ بأيِّ شهادة مباشرة من الجنود المتعاطين للحشيش، ويبدو أنَّ مينو كان ينوي حظره لتوحيد نظام الاحتلال مع مصالح النخبة السُّنِّية المصرية التي تربط، مثل العديد من مصادر دو ساسي، الحشيش بالطبقة الإجرامية والتجار المتجولين وغير المرغوب فيهم سياسيًا. ومصطلح *الحشاشين*، كما كان في عصر الحروب الصليبية، يُستخدم استهزاءً على غرار «الأوباش» أو «حُثَالَة المجتمع»، وهو المعنى الذي يبدو أنه طُبِّق على الإسماعيليين النزاريين من أعدائهم.

ثبتَت تأثيرات الحشيش في العقل بطريقة موثوقة، من خلال التجربة الذاتية. وقد كتب جاك جوزيف مورو، الطبيب الذي أصبح اسمه مرادفًا للحشيش في العالم الطبي الأوروبي: «أتحدى أنْ يناقش أيُّ شخص تأثيرات الحشيش إن لم يتحدث عن تجربته الشخصية». كان الدافع وراء اهتمام مورو بالمُخدِّر هو رحلاته في مصر وتركيا وسوريا من عام 1837 إلى عام 1840، كطبيب مبتدئ يرافق المرضى الأثرياء من مصحة تشارنتون في ضواحي باريس.

انضم إلى طاقم المصحة في عام 1826، بينما كان يكمل أطروحته في الدكتوراه الخاصة به، للعمل تحت إشراف جان اتيان دومينيك إسكيرول، عميد علاج الأمراض العقلية الفرنسية. اتبع إسكيرول معلمه فيليب بينيل[1]، في تصوُّر الجنون أو «الاغتراب»، ليس كحكم ديني أو ضَعف أخلاقيّ، بل كحالة جسدية، مرض يصيب الدماغ والأعصاب. وفعل مثل بينيل، فقد حثَّ الأطباءَ على قضاء وقت مع مرضاهم، وإظهار التعاطف

(1) طبيب فرنسي (1745 ـ 1826).

معهم وتوجيههم نحو الملاحظة الذاتية والتفكير في حالتهم. ولأولئك الذين يستطيعون تحمُّل التكاليف، كان يرتب لهم غالبًا علاجات الراحة وتغيير مكان الإقامة أو السفر، مع تعيين طبيب مبتدئ مثل مورو لمرافقتهم.

كان مورو مفتونًا بالحياة في العالم العربي. وقد سمع نصيحة إسكيرول له بارتداء الزي المحلي، ورؤية المعالم السياحية، وانغمس مع الناس وتبع عادات أهل البلد. وبوصفه طبيبًا نفسيًا، كان مهتمًا على وجه الخصوص بالاختلافات بين العقليات العربية والأوروبية، واستجوب مرشده، وهو ترجمان يُدعى كَلِيم عن عالَمه الداخلي. كان كَلِيم مؤمنًا بشدة بالجن، الذين التقى بهم عدة مرات وكانت له تجارب مرعبة، ومؤمنا بقوة الأحلام التنبؤية أيضًا.

تُعد هذه الأشكال من التجارب الخاصة ـ التي يتحدث عنها كليم ـ خيالات عند العديد من الأطباء الأوروبيين، وتُشخَّص على أنها أعراض للأمراض العقلية. ومع ذلك، يبدو كليم عاقلًا للوهلة الأولى، ومعتقداته نموذجية لسكان يظهر لديهم معدلات أقل من الأمراض العقلية مقارنةً بأوروبا.

كانت أطروحة دكتوراه مورو حول الهوس الأحادي، وهو تشخيص طوّره إسكيرول يعتبره مرضًا ناجمًا عن التركيز الزائد الذي يؤدي إلى سلوك مهووس. وبحلول عام 1840، أصبح الهوس الأحادي أشهرَ أشكال الجنون في فرنسا، حيث يمثل ربع مجموع التشخيصات. وتساءل مورو ما إذا كانت الرؤى أو الخيالات التي عاشها كليم، التي تُقرها ثقافة تسمح بالانغماس في حياة داخلية غنية، قد لا تكون علامة على الجنون، بل علاجًا محتملًا له. إذ اهتمّ على نحوٍ خاص بعدم وجود الكحول في الثقافة

العربية والانتشار المقابل للحشيش، الذي يبدو أنه يصاحب ويعزز هذا العالَم الخيالي المجتمعي للثقافة الشعبية، والحكايات والأحلام.

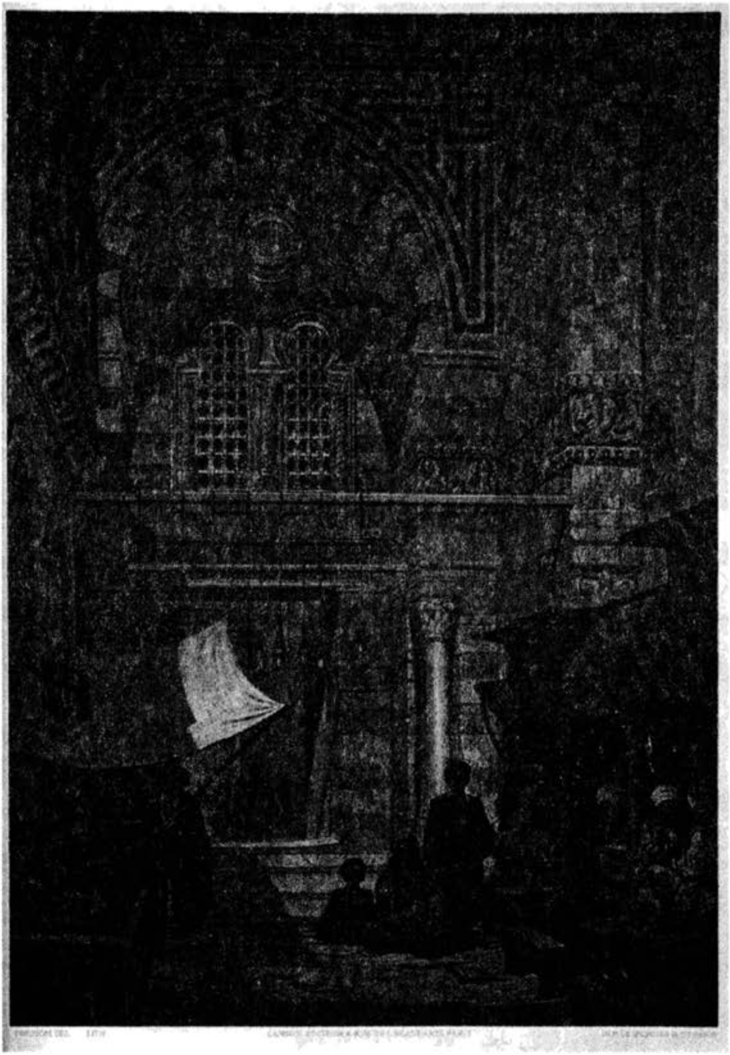

سوق الحشيش في القاهرة في زمنٍ قريب من وقت إقامة جاك جوزيف مورو في مصر.

اكتشف مورو أنه ليس الطبيب الفرنسي الوحيد في مصر المهتم بتعاطي الحشيش. فقد كان عالِم الأوبئة لويس أوبير روش[1]، الذي يقيم في مصر منذ عام 1830، يبحث في استخدامه علاجًا لحُمى التيفوئيد والطاعون الدبلي. لقد اعتقد أوبير روش أنَّ هذه الأمراض هي أمراض الجهاز العصبي التي تنتشر في الظروف غير الصحية، وأنَّ الحشيش قد يساعد على منعها. ويرى أنه «إذا كان لهذا النبات قوى مُسكِرة، فمن المحتمل أنْ يكون له بعض القوى الطبية على الجهاز العصبي». كان أوبير روش يعمل في مستشفى في القاهرة، ويزوّد المرضى والأطباء والباحثين الطبيين المهتمين، بما في ذلك مورو، بالقنب في شكل *دوامسك* الذي يمكن تناوله بسهولة.

***

رُوِّجت فكرة تطوير القنب إلى دواء غربي في ذلك الحين، على شكل مستخلص طبي بجرعة موحدة، على يد منافس فرنسا الاستعماري الكبير، ويليام بروك أوشونيسي[2]، الطبيب والصيدلي الأيرلندي الناشِط الذي يعمل في بنغال البريطانية، الذي كان مثل أوبير روش، مهتمًا في البداية بإمكان علاج الأمراض المعدية المحلية، وفي حالته كان مرض الكوليرا. إذ لم يولِ الأطباء البريطانيون في السابق اهتمامًا كبيرًا للخصائص المؤثرة في العقل الموجودة في هذا النبات، غير أن أوشونيسي سجَّلها على نحوٍ واضح وملحوظ.

إنْ كان أوشونيسي قد أجرى تجارب على نفسه، فهو لم يترك أيَّ سجل

(1) طبيب فرنسي (1818 ـ 1874).
(2) طبيب وصيدلي أيرلندي (1809 ـ 1889).

لذلك. وبدلًا من أجرى التجارب على نفسه، استقدم مواطنين محليين، ومنهم «صاحب مكان مشهور لمدمني الحشيش في كلكتا، الذي يُعد أفضل فنان في مهنته». قام بجمع تصنيف للتحضيرات المحلية التي توازي تلك الموجودة في مصر، ومنه ذلك النبات نفسه (*جونجا*)، وشراب يُحضَّر تقليديًا للطقوس الدينية (*بانج*)، ومستخلص مركز يشبه الحشيش (*تشوروس*)، وحلوى *العجينة*.

عرض أوشونيسي في ورقة بحثية قدَّمها لجمعية الطب الطبيعي والفيزيائي في كلكتا عام 1839، نتائج تجاربه على «هذا العامل الاستثنائي». إذ بدأ تجاربه مع كلب تعرَّض لجرعة «عشر حبّات من التشوروس النيبالي المذاب في الكحول»؛ بعدها أصبح الكلب «غبيًا ونعسانَ»، و«أكل بعض الطعام بشهية»، و«ترنح إلى الأمام والخلف»، مع «نظرة سكرانة تامة وعاجزة». وبعد ستّ ساعات، تعافى وأصبح «بصحة تامة ونشيطًا».

تابع أوشونيسي بإعطاء جرعات إلى أسماك وطيور وثدييات أخرى، ملاحِظًا تأثيرات طفيفة فقط على «الحصان والغزال والقرد والماعز والأغنام والبقر»، قبل الانتقال إلى البشر؛ وهم مرضى مستشفى كالكتا الطبي المحلي. إذ أنتجَت جرعة من تشوروس تأثيرات بدنية ملحوظة على المرضى، ومنها في حالة محددة «تلك الحالة الغريبة والأكثر استثناءً من بين جميع الحالات العصبية»، وهي الإغماء التَّخشُّبي حيث أصبح المريض تمثالًا شمعيًا، مغيبًا عن جميع المؤثرات الخارجية لمدة ساعة. كانت الحالات الغريبة للعقل أكثر شيوعًا، مثل تلك التي شوهدَت في كولي (عامل) مُسّنّ قوي العضلات، يدعي الإصابة بالروماتيزم، الذي:

أصبح ثرثارًا ومولعًا بالموسيقى، وروى عدة قصص، وغنى أمام

جمهور من المستمعين المسرورين، وتناول وجبات عشاء شخصَين في عنبر التنويم، وبحث أيضًا عن رفاهيات أخرى لا يمكنني ذِكرها، وأخيرًا غطَّ في نومٍ عميق، واستمر في النوم حتى صباح اليوم التالي. وفي موعد زيارة الظهيرة، قال إنه لا يعاني من صداع أو أيّ آثار جانبية غير مريحة، وطلب بإصرار تكرار تناول الدواء، وتم تلبية طلبه لبضعة أيام، ثم خرج من المستشفى.

أثارت أبحاث أوشونيسي «أقصى الاهتمام» بين طاقمه الطبي وطلابه، و«بدأ العديد من الطلاب في إجراء تجارب على أنفسهم» باستخدام المستخلصات السائلة التي كان ينتجها التشوروس. ولم يطلب أوشونيسي، بعكس همفري ديفي، شهاداتٍ شخصية من المجربين المحليين؛ إذ اتبع المثال الأقرب لروبرت هوك، حيث نقل تجاربهم وشهد عليها بدلًا من تقديمها بوصفها دليلًا مباشر. لاحظ «أفكارهم الحية» و«ثرثرتهم غير العادية»، وفي حالة ملحوظة محددة، ذكر اسم المُجرِب:

في حالة أحد التلاميذ، ويدعى دينوناث دهور، وهو فتى خجول ذو سلوك قويم، أحدثت عشر قطرات من المستخلص؛ أيْ ما يعادل ربع حبة من الراتينج، في عشرين دقيقة، أكثرَ التأثيرات طرافة التي شهدتها على الإطلاق. بدأت الأعراض بضحكة عالية، وحدثَت حالة مؤقتة من التصلب التَّخشُّبي لمدة دقيقتَين أو ثلاث. عندما دُعيتُ لمشاهدة التأثيرات، وجدتُه يؤدي دور راجا [حاكم] يصدر الأوامر لمستشاريه. ودخل في مناقشات حول الموضوعات الدينية والعلمية والسياسية ببلاغة مدهشة، وكشف عن مدى المعرفة والقراءة والذكاء السريع والمناسب الذي لم يكن أولئك الذين يعرفونه من كثب مستعدين له. من الصعب تخيُّل مشهد أكثر إثارة للاهتمام من ذلك.

كان سلوك دهور مثل متعاطي الحشيش في *حكايات ألف ليلة وليلة* متسمًا بالعظمة والمبالغة، بيد أنه في هذه الحالة لم يكن هناك استيقاظ غير مريح. فقد كان تألقه العقلي في أثناء وجوده تحت التأثير واضحًا، وكان أوشونيسي عاجزًا عن تفسير ذلك. قام برسم مقارنات ذات دلالات بين «التأثيرات التي أنتجها الوسيط الروحي لمعبد دلفي[1] الشهير»، وتكهن بأنَّ «نوع التحفيز نفسه»، وهو نبات مُسكِر أو بخار، قد يكون مؤثرًا في حالة النشوة الغامضة.

تركزت التوصيات التي خلص إليها أوشونيسي في ورقته البحثية على التجارب التي أجراها لاستخدام القنب في حالات الكزاز. وقال إنه فعال للغاية، «في نسبة كبيرة من الحالات، يحقق شفاءً تامًا»، ويرجع ذلك إلى خصائصه المضادة للتشنج والمسترخية العضلية. واختتم بأنَّ الآثار النفسية المتعلقة بالمُخدِّر والمذكورة في الأدبيات الطبية والقانونية البنغالية حقيقية، غير أنها نادرة، ولا يجب أنْ تُثني الأطباء والصيادلة عن استخدام مستحضرات القنب في الصيدلية الغربية. وقد وضح أساسيات صيغة للصيادلة: تُغلى أزهار الجنجا، ثم يُذاب في الكحول (حيث لا يذوب في الماء)، ويُبخَّر حتى يصل إلى تركيز يمكن تحويله إلى حبوب.

***

أثار عمل أوشونيسي موجةً من الاهتمام الطبي في أوروبا. إذ بدأ الكيميائيون في إدنبرة وباريس في تطوير الحبوب والمستخلصات

(1) من الأساطير اليونانية القديمة: بيثيا هي الوسيط الروحي وكاهنة الإله أبولو، وكان مقرها في معبد أبولو في دلفي والذي يقع على مُنحدرات جبل بارناسوس في اليونان.

والجرعات الموحدة لسوق الأدوية. بيد أنَّ تأثيرات الحشيش في عقول الأوروبيين ما زالت تنتظر وصفًا كاملًا. وهذا ما حققه جاك جوزيف مورو، عند عودته إلى باريس في عام 1840 لتولي منصب الطبيب المقيم في مستشفى بيسيتر في جنوب المدينة. وفي أثناء إعداده لورقة بحثية حول الهلاوس وعلاجها، أجرى أول تجربة ذاتية له مع جرعة قوية من *الدوامسك* التي جلبها له أوبير روش في القاهرة، برفقة اثنَين من أصدقائه.

كانت المفاجأة الأولى لمورو هي أنَّ الحلوى المفترض أنْ تكون لذيذة، كانت مُرَّة على نحوٍ فظيع وغير مستساغة، وقال إنه «ابتلعها بجهد كبير». وقد جلس الثلاثة لتناول المحار، وبعد فترة قصيرة، أصيب مورو بنوبات مفاجئة من الضحك. لاحظ أصدقاؤه التأثيرات في الوقت نفسه، ولفتوا انتباهه إلى رأس أسدٍ بدا أنه يتجسد على طبق عشائهم. وهم ممتلئون بمشاعر السرور، انتقل الجميع إلى غرفة الرسم، حيث بدأ مورو بالعزف على البيانو قبل أنْ يتشتَّت انتباهه برؤية شقيقه يقف فوق البيانو. وبعد الكثير من المرح والارتباك و«ألف حديث غير متماسك، مصحوب بالإيماء والصراخ مثل جميع الأقنعة التي اعتقدت أنني رأيتها»، تعثَّر في غرفة مظلمة وظنَّ أنه سقط في البئر داخل حرم مستشفى بيسيتر. شعر بآلاف الحشرات تدب في شَعره، وبعد ذلك داهمته «سعادة مُسكرة» عندما رأى رؤية ملائكية لابنه الصغير يتراقص في سماء زرقاء ساطعة على أجنحة وردية وبيضاء. تسارعَت وتيرة الرؤى، حيث اختلطَت الذكرياتُ والأوهام والكوابيس والخيالات معًا:

> تحدثتُ عن أشخاص لم أرهم منذ عدة سنوات. استحضرتُ عشاءً حضرتُه قبل خمس سنوات في منطقة شامبانيا. رأيتُ الضيوف.

قدَّم الجنرال إتش. سمكًا محاطًا بالزهور. شعرتُ أنني في منزلي، وأنَّ كل ما أراه حدث في وقتٍ بعيد. ومع ذلك، بدا الأشخاص بالنسبة لي كما لو أنهم هناك. فما الذي يجب عليَّ تصديقه؟... لا يمكنني وصف ألف فكرة خيالية مرَّت في عقلي خلال الساعات الثلاث التي كنتُ فيها تحت تأثير الحشيش. بدت تلك الأفكار غريبة جدًا لدرجة أنه من الصعب تصديقها. واستجوبني الحاضرون من وقتٍ لآخر وسألوني إنْ كنتُ أسخر منهم، فقد كان لي عذري وسط كل هذا الجنون.

كان مورو بوصفه طبيبًا نفسيًا، على دراية تامة بأنَّ الأعراض التي عانى منها تحمل كل مظاهر الجنون. في كتابه اللاحق *الحشيش والأمراض العقلية* (1845)، صنَّفها منهجيًّا؛ وشمل ذلك التوتر العصبي، وتشويه الزمن والمكان، والهواجس أو الأفكار الثابتة (على سبيل المثال، قناعة متكررة بأنه تم تسميمه)، والنوبات اللاإرادية، والإدراكات الوهمية. وخلص إلى أنه «لا يوجد أيُّ مظهر أساس للمرض العقلي»، وأنه «يمكن العثور عليه في التغييرات العقلية التي يسببها الحشيش». في الوقت نفسه، ظلَّ عقلانيًا تمامًا؛ قادرًا على تشخيص أعراضه في أثناء تعرُّضه لها، ومراقبة شريط من الظواهر المستحيلة يمرُّ في عقله بهدوء. ووصف هذا الشكل المذهل من الوعي المزدوج بأنه حالة مختلطة، وهي حالة مزدوجة يمكن فيها لشكلَين طبيعيَين منفصلَين من الوعي؛ عالم الأحلام الداخلي وحالة الاستيقاظ للعقل، التعايش ومراقبة بعضهما البعض.

وهنا كان الدليل التجريبي على أنَّ الجنون في جوهره حالة فسيولوجية يمكن أنْ ينتجه عند الطلب سببٌ مادي؛ كما عبَّر عنه مورو: «النتيجة الظاهرية لمادة سامة على الجهاز العصبي». لقد طغت عليه إمكانات

فهم العقل وعلاج الأمراض العقلية وتحرير الخيال. حتى عندما أغرق الحشيش متعاطيه في الجنون، فقد قدَّم لمحات من عقل أسمى. وخلص إلى أنَّ أعراضه الأولية كانت السعادة، والتي ـ كنظيرتها التي يسببها أوكسيد النيتروز ـ نشأت دون أيِّ سبب محدد بخلاف المُخدِّر نفسه؛ «تشعر بالسعادة؛ تقول ذلك؛ تعلنه بحماس؛ تسعى إلى شرحه بكل الوسائل المتاحة لك؛ تكرره حتى التَشَبُّع. ولكن تعجز الكلمات عن وصف كيف ولماذا أنت سعيد؟». مكتبة سر من قرأ

اعترف مورو برواية همفري ديفي بوصفها مقدمة لتجاربه الخاصة، وكتب: «سأحاول عبثًا أنْ أصفها على نحوٍ أفضل». بالنسبة له، كما هو الحال لدى ديفي، «هذا حقًا شديد الغرابة، ويمكن أنْ يستنتج منه نتائج غريبة؛ ومن بينها أنَّ كل الفرح والرضا، وحتى لو أن أسبابها نفسية بدقة، وروحانية عميقة، ومثالية بشدة، يمكن أنْ تكون في الواقع احساسًا جسديًا بحتًا».

كما فعل فرويد مع الكوكايين، مال مورو إلى افتراض أنَّ حالة البهجة المُستحثة كيميائيًا كانت الدافع وراء التأثيرات الواسعة للمُخدِّر على التَخَيُّل. وفي الوقت نفسه، تنبأ استنتاجه بما توصل إليه ويليام جيمس في بَحثه عام 1884 بعنوان «ما هي العاطفة؟»، وهو أننا لا نبكي لأننا نشعر بالحزن، بل العكس صحيح! وبما أنَّ العواطف هي أحداث ذهنية، نفترض أنَّ لها سببًا غير مادي ونتجاهل «مدى ترابط حياتنا العقلية بإطارنا الجسدي».

لا يمكن فصل المزاج والعاطفة عن المؤثرات والاستجابات الجسدية. فكما تساءل جيمس: هل يمكن تخيُّل الغضب بدون «احمرار الوجه، أو

انتفاخ الأنف، أو صرّ الأسنان، أو النزعة للفعل الحازم، ولكن بدلًا من ذلك عضلات ضعيفة، وتنفُّس هادئ، ووجه بارد؟ الحشيش وأوكسيد النيتروز والكوكايين كانت مختلفة تمامًا في آثارها في العقل، غير أنه في كل حالة بدء التأثير مصحوبًا بنشوة حسية تسببَت في تغيير الحالة العقلية، وبذلك فتحت أبعادًا عادةً غير ميسورٍ للوعي الوصولُ إليها.

رأى مورو سعادة الحشيش، مثل «البهجة الطبيعية» التي أطلقها فرويد على الكوكايين، ليست كوهم أو إعاقة؛ بل تعزيزًا للصحة. وكانت محاولته لوصفها دليلًا على غرابتها لدى العقل الغربي العقلاني، على الرغم من أنها ظلت مألوفة منذ فترة طويلة في أماكن أخرى تحت اسم *الكيف*.

واجه مورو ـ مثل ديفي ـ تساؤلًا حول كيفية تحويل اكتشافاته وأفكاره إلى استخدام عمليّ. كانت فكرته الأولى هي تجربة الحشيش في علاج الأمراض العقلية، حيث يشغل منصب الطبيب المقيم في بيسيتر؛ وهذا يجعله في موقع مثالي للقيام بذلك. بدت «مشاعر الفرح والسرور» التي ينتجها الحشيش واعدةً لـ «محاربة الأفكار الثابتة لدى المكتئبين، وتفكيك سلسلة أفكارهم، وإبعاد تركيزهم. فالتشتُّت العقلي الناجم من الحشيش بعكس الهوس الأحادي، وحالته المختلطة تفتح إمكان العلاج البنّاء، حيث يمكن أنْ تتعرض تجارب الهلوسة لضوء العقل وتوليد إدراك حالة المريض وأسبابها. إلا أنَّ الاستجابات في الواقع غير متوقَّعة للغاية.

لم يشعر بعض المرضى بأيٍّ تأثير على الإطلاق من جرعة الحشيش؛ أما آخرون فأصبحوا متحمسين للغاية، أحيانًا مع نوبات من الضحك الهستيري. في بعض الحالات تتبعها مشاعر هدوء ووضوح شبيهة *بالكيف* حيث يمكن إجراء محادثة علاجية، على الرغم من أنَّ المدارك العقلية

يصعب المحافظة عليها بعد انقضاء تأثير المُخدِّر. في حين أصبح بعض الأشخاص الآخرين يشعرون بالارتباك أو التعب وانسحبوا إلى داخل ذواتهم على نحوٍ أعمق؛ وآخرون أصبحوا قلقين وعدائيين ومتوترين، وتطور لديهم هاجس بأنهم تعرَّضوا للتسمم أو أصيبوا بمسٍّ، كان من المستحيل التنبؤ بكيفية استجابة أيِّ مريض فرديٍّ على الأرجح.

أخفقَت تجارب مورو العلاجية إجمالًا، وسأل نفسَه: «هل كانت افتراضاتي مغلوطة؟» غير أني أدرك بدون شكٍّ أمرًا لم ينتهِ بعد». إلا أنه ظل مقتنعًا بأنَّ لحشيش يملك الكثير ليقدمه لعلاج الأمراض العقلية، وتصوَّر اقتراحًا بديلًا؛ وهو أنه يجب ألا يُعطى للمرضى، بل لأطبائهم. وتسأل: «هل يمكننا أنْ نكون متأكدين من أننا نفهم هؤلاء المرضى جيدًا عندما يخبروننا بملاحظاتهم؟». فقد كان من مبادئ علاج بينيل وإسكيرول الأساسية أنْ يحاول الطبيب النفسي، بقدْر المستطاع، الإحساس بمشاعر مرضاه؛ ومع ذلك، كان من المستحيل حتى ذلك الحين معرفة الحدود التي تفصل على نحوٍ حاسم بين العقلانية والجنون:

> أليسوا يتحدثون بلغة غريبة عن لغتنا؟ كيف يمكنهم التعبير عن المشاعر التي تزعجهم؟... نحن نرى مظاهر الأشياء فقط؛ لا يمكننا المُضي قدُمًا لاستكشاف الأسباب وتتابُع الانحرافات العقلية التي يصفونها لنا. أليست العمليات العقلية والمشاعر أو الإحساس من المستحيل معرفتها وتقييمها إلا من خلال الشخص نفسه؟

في حالة الحشيش المختلطة، يمكن أنْ يكون الطبيب مُجرِبًا ومراقبًا في الوقت ذاته، مجنونًا وعاقلًا، نائمًا ومستيقظًا في آنٍ واحد. كان التأثير «نوعًا من تحوُّل الذات أو الشخصية»؛ «يبدأ الحلم عندما تنتهي حرية توجيه

أفكارنا. لا يمكن للعقل التصرف خارج هذه الحرية دون أنْ يتخذ، بطريقة ما، وجودًا جديدًا ومستقلًا تمامًا، غير مرتبط بالوجود السابق. تتبع حياة جديدة الأخرى وتحل محلها».

***

أراد مورو، مثل همفري ديفي، اختبار اكتشافه على العقول السليمة بالإضافة إلى المرضى، ومثل ديفي أيضًا، سعى إلى اختيار موضوعات فنية وأدبية تتمتع بقدرات وصفية وتخيلية قد تخلق لغة لوصف تأثيرات المُخدِّر. وفي عام 1842 تطوَّر هذا المشروع ليكون صالون له شهرة وسمعة تتجاوز أعمال مورو الطبية والعلمية. كان هذا الصالون يُنظم كلَّ بضعة أسابيع في فندق بيمودان على جزيرة سانت لويس، معقل جزيرة في وسط نهر السين حيث الشوارع المرصوفة بالحجارة في العصور الوسطى يحيط بها الضباب والصمت ليلًا، ملاذًا بعيدًا عن المدينة المزدحمة والصاخبة على ضفتَي النهر.

تجري الفعالياتُ في صالة الفندق الكبيرة المزينة على طراز لويس الرابع عشر[1]، حيث الزوايا المذهبة ومدفئة رخامية مزينة بفيل ذهبي ورسومات جدارية كلاسيكية لنمفات[2] تطاردنَ ساتير[3]. تُنظم أمسيات الصالون بشكل هادئ، على الرغم من وجود دعوة مكتوبة موجهة للكاتب

---

(1) طراز في العمارة والفنون في عهد لويس الرابع عشر (1643 ـ 1715).

(2) من الأساطير الإغريقية القديمة: إحدى المخلوقات الأنثوية شبه إلهية تتخذ أشكالاً شبيهة بالإنسان.

(3) من الأساطير الإغريقية القديمة: ذكر من القوات المصاحبة لإله المراعي وملهم طقوس الابتهاج والنشوة.

والشاعر والصحفي تيوفيل غوتييه من الفنان فرناند بواسار[1] الذي عاش في مبنى الفندق:

عزيزي تيوفيل،

في يوم الاثنين القادم، الثالث من نوفمبر، سوف يُقدم الحشيش في مقر إقامتي تحت إشراف مورو وأوبير روش. يُرجى الوصول بين الساعة الخامسة والسادسة على الأكثر. ستحظى بعشاء خفيف وتترقب الهلوسة.

كانت رواية غوتييه شبه الخيالية *نادي الحشاشين*، المنشورة في المجلة الأدبية *ريفيو دي دو موند* في عام 1846، أكمل وأفضل وصف يمكن تذكُّره. كما اعترف في وقت لاحق من حياته، فقد كان أسلوبه مميزًا لعصره وحركة *شباب فرنسا* [الأدبية] التي كان عضوًا فيها؛ محيط من الفنانين الناضجين والأدباء المكافحين المغرَمين بفيكتور هوغو[2]، حيث «كان من السائد في تلك الأيام أنْ يكون المرء شاحبًا ومرهقًا، وأنْ يبدو كأنه يتلوّى من ألم العاطفة والندم، وأنْ يتحدث بحزن وغرابة عن الموت». وكتب غوتييه من منظور مبتدئ متردد، يستقل عربة في ليلة شتاء ضبابية إلى «الفندق القديم المتهالك ذي الزوايا المذهبة، مكان اجتماع المبتدئين». يدق المقارع المنقوش، ويُدار المقبض الصدئ، ويشير بواب عجوز بإصبعه النحيفة نحو الطابق العلوي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) رسام فرنسي (1813 ـ 1866).
(2) أديب وشاعر وروائي فرنسي (1802 ـ 1885).

تيوفيل غوتييه، مؤلف رواية *نادي الحشاشين*، من تصوير نادر (غاسبارد فلكس تورناشو).

كان الشخص الأول الذي قابله هو أحد منظمي حفلة أسرار مليئة بالغموض، «الدكتور إكس»، الذي يضع مقدارًا من العجينة الخضراء

على طبق ياباني أنيق، ويعرضه عليه بمحاكاة ساخرة لطائفة الحشاشين «سوف يُخصَم هذا من نصيبك في الجنة». استقبل مورو الحاضرين بالصالون مرتديًا ملابس شرقية اقتناها في أثناء وجوده في مصر، وثمة رسمة لغوتييه، رُسمَت بسرعة البرق تحت تأثير الحشيش، تُظهِر الطبيب من الخلف وهو يعزف على البيانو مرتديًا جلباب وعمامة، «تظهر النوتات الموسيقية وهي تهرب من لوحة المفاتيح في شكل صواريخ وحلزونات متقلبة ملتوية».

تُغمَس *الدوامسك* وتُذاب برفق في القهوة التركية، ويجلس المبتدئون لتناول وليمة. مأدبة متواضعة من اللحوم والمشروبات تُقدم في كؤوس فينيسية من إبريق فلمنكي، وعلى صحون إنجليزية مزينة برسوم زهرية ذات تصاميم متنوعة، لا تتشابه قطعتان منها. يضم زملاء الراوي مجموعة متنوعة من الشخصيات ترتدي زيًا شرقيًا وجلاليب فضفاضة ولهم لحى طويلة، مسلحين بسيوف وخناجر قديمة المظهر. بينما يأخذ غوتييه مكانه في المشهد الغريب، يلاحظ تأثير المُخدِّر في تشويش حواسِّه تدريجيًا:

> وهكذا، بدأ بعض أعضاء الصالون الأكثر حماسة يشعرون بتأثير العجينة الخضراء. وأنا شخصيًا، كنتُ قد شعرتُ بتغيُّر تامٍّ في التذوق. بدا لي أنَّ الماء الذي شربته يتمتع بنكهة ألذ من النبيذ، وتحوَّل اللحم في فمي إلى توت، والعكس صحيح. لم أتمكن من التمييز بين قطعة لحم وخوخة. تسلل دفء غامض عبر أطرافي، وجنون، مثل موجة تنكسر على صخرة وتتراجع لتقذف نفسها مرة أخرى، وصل إلى عقلي وانسحب منه، حتى غمره تمامًا. وجاءت الهلوسة، ذلك الضيف الغريب، لتبقى معي.

ومع استمرار الوليمة، تتدهور الحواسّ إلى أنْ تصبح المؤثرات الجسدية لا معنى لها، ويعيد الخيال تشكيل العالم الخارجي. يتحول ندماء غوتييه إلى كائنات مشوهة ومختلطة، بشرية وغير بشرية تشبه تلك التي تظهر في لوحات هيرونيموس بوش[1]. تصبح حدقات عيونهم «كبيرة مثل حدقات البُوْم الصَّيّاح» وتتمدد أنوفهم كخرطومٍ طويل.

وبمجرد انتهاء العشاء، يرتفع الهتاف: «إلى الصالون!» في جناح الطابق العلوي المُذهب بفندق بيمودان، «حيث يتنشق المرء الأجواء الفاخرة من العصور البائدة». تمتلئ الغرفة ببطء بشخصيات خيالية «كما تُوجد فقط في نقوش جاك كالو [2] أو نقوش فرانثيسكو غويا[3] الملونة، «حشد غريب» يُغرَق غوتييه في سيل من الرؤى البشعة والمشوهة، ليلة فالبورجيس[4] تُذكِّرنا بتلك التي استدعاها هكتور برليوز[5] في مقطوعته *السمفونية الخيالية*[6].

---

(1) رسام هولندي من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تُصوّر العديد من أعماله الخطيئة والفشل الأخلاقي الإنساني (1450 ـ 1516).

(2) رسام باروكي (حوالي. 1592 ـ 1635).

(3) رسام ونقاش إسباني (1746 ـ 1828).

(4) احتفال في عشية العيد المسيحي للقديسة فالبورجيس التي كانت رئيسة دير في فرنسا بالقرن الثامن.

(5) مؤلف موسيقى فرنسي (1803 ـ 1869).

(6) *Symphonie fantastique* قطعة موسيقية من الفترة الرومانسية المبكرة، عُرِضَت أول مرة في ديسمبر 1830.

الصالون في فندق بيمودان بباريس، حيث اجتمع نادي الحشاشين.

تسخر أشكالٌ شيطانية من الراوي الذي يحاول الهرب، وتصدر صرخات استهزاء عندما تُبطِئ قوة غير مرئية فرارَه إلى سرعة الحلزون. يتبدد هذا الكابوس بفضل عازف البيانو ـ الذي يُفترض أنه مورو ـ ويكسر الأجواء عن طريق إسقاط يدَيه بقوة على مفاتيح البيانو يحول هذا الخلاف إلى لحن سماويٍّ يروض الفوضى الجهنمية. يتحول الهياج إلى «حسّ لا يمكن تعريفه بالسرور، هدوء سرمديّ... كنتُ في هذه المرحلة السعيدة من تعاطي الحشيش التي يسميها الشرقيون *الكيف*. وفي اللحظة التي تشير فيها الساعة إلى الحادية عشرة، يعود الوقت العادي بطريقة سحرية ويستعيد الوعي الطبيعي، ويجد المبتدئ المنهك عربته في انتظاره في الشارع.

جعلت رواية غوتييه من نادي الحشاشين أسلوبًا أدبيًا وفضيحة

شعبية. كانت أسطورة طائفة الحشاشين الشريرة لا تزال قوية في السياسة الرجعية الفرنسية. ففي كتابه *تاريخ الحشاشين*، الذي نُشر في الأصل عام 1818 حدَد دي ساسي الرابطة الغامضة مع الحشيش، ورسم المستشرق والملكي المتحمّس جوزيف فون هامر بورجستال[1] تاريخًا سريًا كان فيه الحشاشون المصدر النهائي للتحرر والثورة. فقد دخلَت أيديولوجية هذا الطائفة إلى أوروبا بفضل فرسان الهيكل[2]، الذين نشروها سرًا عبر الماسونية؛ كان الحشيش سلاحهم السري الأقوى، عامل غسيل الدماغ الذي جعل مبتدئيه «قادرين على القيام بأيِّ شيء أو كل شيء». كان نادي الحشاشين استفزازًا يقلب أسطورة الحشاشين رأسًا على عقب، مدعيًا أنَّ هذه الأسطورة ملكهم، ويتفاخرون بتخريبها للحضارة المسيحية. قال غوتييه في صحيفة *لا بريس*: «لقد حلَّ الحشيش محل الشمبانيا. نعتقد أننا قد استعمرنا الجزائر، بيد أن الجزائر استعمرتنا».

تميز صالون نادي الحشاشين بتأسيس أسطورة عن نفسه بطريقة ساخرة، وخلق فضيحة حوله، ممّا جعله سباقًا لثقافة المواد المُخدِّرة الحديثة المضادة، إذ كان رواد الحركة الرومانسية المترفين في عهد ملكية يوليو[3] يطوّرون أسلوبًا محظورًا من الشَّعر الطويل والملابس الغريبة ويعرفون أنفسهم بالراديكالية السياسية[4] والاحتفالات طوال الليل والتحرر الجنسي. وإذا كان دي كوينسي هو مثال «المُوْلَع بالمواد

(1) مستشرق نمساوي (1774 ـ 1856).
(2) إحدى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي في العصور الوسطى.
(3) فترة ملَكية دستورية ليبرالية في فرنسا تحت حكم لويس فيليب (1830 ـ 1848).
(4) من المبادئ السياسية التي تركز على تغيير البنى الاجتماعية باتباع أساليب ثورية.

المُخدِّرة» في القرن العشرين، فإنَّ نادي الحشاشين وضع قالب «مشهد المواد المُخدِّرة» الحديث.

نجح نادي الحشاشين مثل العديد من الجمعيات السرية التي سخر منها، في إطلاق أسطورة دائمة مع ترك العديد من تفاصيله التاريخية العادية في موضع الشك. كانت سُمعته بوصفه جمعية سرية منظمة مع اجتماعات منتظمة ودرجات من التوجيه، موضوعة بعناية كإشاعة، مستندة إلى أسطورة الحشاشين ومُولَّدة منها. ووفقًا لبعض الروايات، كان أعضاؤه يجتمعون بانتظام مرة واحدة في الشهر؛ بينما يقول آخرون، إنَّ ثمة عددًا قليلًا جدًا من الاجتماعات في المجمل وانتهت فترة نشاطه بحلول عام 1845. ولقد كتب جوتيه بنفسه في وقت لاحق أنه تخلى عن الحشيش «بعد حوالي عشر تجارب»، جزئيًا بسبب التجربة الجسدية الشاقة المتضمنة، وجزئيًا لأنَّ التجربة أدت إلى عوائد متناقصة.

يبدو أنَّ فندق بيمودان قد استُخدم فقط لفترة قصيرة، بعد ذلك انعقدَت صالونات بشكل غير منتظم في غرف أصغر خاصة. وارتبط تقريبًا كل نجم من أدباء باريس من منتصف القرن التاسع عشر بالنادي، وقليلون منهم نفوا ذلك. ربما كان البعض سعيدًا لرؤية أسمائهم تضاف إلى قائمة المبتدئين المزعومين دون أنْ يُضطرّوا إلى ابتلاع عدة غرامات من العجينة المُرّة والخضوع لاضطراب شديد ومطول للحواس.

كان أونوريه دي بالزاك[1] مثالاً على ذلك. فوفقًا لشارل بودلير، حضر بالزاك اجتماعًا في النادي في عام 1845 غير أنه رفض جرعته من العجينة

(1) كاتب وروائي فرنسي (1799 ـ 1850).

الخضراء، لعدم ثقته في أيِّ مادة قد تُضعف إرادته. أعطى جوتيه تفاصيل أكثر عن تلك الليلة، الذي ادعى أنه كان حاضرًا فيه؛ فقد كان مثيرًا للاهتمام، كما كتب، مشاهدة «الصراع بين فضوله الطفولي تقريبًا واشمئزازه» في أثناء توجيه بالزاك الأسئلة ولمس *الدوامسك* وشمّه، وتصوّر فقدان السيطرة العقلية والذي سيتجاوز بكثير تجاربه مع الكافيين. وفي النهاية، «تغلَّب حُبُّ الكرامة».

وفقًا لرواية بالزاك، التي قدَّمها في رسالة كتبها في ديسمبر عام 1845، فقد تناول جرعة صغيرة من الحشيش في النادي، غير أنه لم يشعر بأيِّ تأثير حتى بعد مغادرته الصالون، حيث «سمع أصواتًا سماوية ورأى رؤى إلهية»، وحينما كان نازلًا من درج الفندق، اكتسبَت اللوحات المعلقة على الجدران «تألقًا ساحرًا». كتب بالزاك في وقت لاحق إلى مورو: «أنت تعرف أنك مدين لي بجرعة أخرى من الحشيش، لأنني لم أحصل على قيمة ما دفعته في المرة الأولى. يرجى أنْ تكون لطيفًا بما يكفي لتنبيهي مسبقًا بشأن المكان والوقت، لأنني أرغب في أنْ أكون مسرحًا لظاهرة كاملة، بحيث أتمكن من تقدير عملك على نحوٍ صحيح».

بحلول أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كان جمهور القراء الفرنسيين يواجهون الحشيش على أساس منتظم، وتعلموا أنَّ تأثيره طمس الخطوط الفاصلة بين الحُلم والتأمل وحياة اليقظة على نحوٍ جعل الواقع نفسه موضع شك. ظهر بَحث جوتيه في التخيُّل الذاتي بالتزامن مع اقتراب رواية ألكسندر دوما *الكونت دي مونت كريستو* من ذروة نشر أجزائها الملحمية. تتركز أحداث الرواية على زيارة المغامر الشاب فرانز ديبيناي إلى جزيرة مونت كريستو المتوسطية المهجورة على ما يبدو خلال رحلة

صيد. هناك، تعثر على مجموعة من التجار المهربين الذين عصبوا عينَيه وقادوه إلى كهف سري، حيث عاش قائدهم في أبهة شرقية تحت اسم حربي، وهو «سندباد البحار».

قدَّم سندباد ـ الذي قد يشتبه القراء في هذه المرحلة بأنه الكونت دي مونت كريستو متنكرًا ـ لديبيناي وجبة شهية فاخرة، تبعها وعاء صغير من عجينة خضراء نافذة الرائحة. سأل الضيف: «ما هذه الحلوى الثمينة؟» ردَّ سندباد عليه بسرد قصة حسن الصباح، شيخ الجبل، الذي كان يُجنّد أتباعه عن طريق إطعامهم مُخدِّر يأخذهم إلى «الجنة»، وبعد ذلك سيُطيعون أوامره كأوامر الإله. فيتعرف ديبيناي على القصة. ويقول، «إذًا، هذا الحشيش!» يؤكد سندباد ذلك، قائلًا: «هذا أفضل حشيش من الإسكندرية». ويستمر:

> تتصارع الطبيعة مع هذه المادة الإلهية لأنَّ طبيعتنا ليست مصنوعة للفرح، بل تتشبث بالألم. يجب هزيمة الطبيعة في هذا الصراع، ويجب أنْ تتبع الحقيقة الأحلام؛ وبعد ذلك سيسود الحلم، وسيكون السيد، وسيصبح الحلم حياة والحياةُ حلمًا. جرب بعض الحشيش، يا صديقي! جربه!

يردِّد دوما فكرة مورو بأنَّ السعادة التي ينتجها الحشيش لها القدرة على تغيير ليس فقط العقل، بل الواقع الخارجي أيضًا، ويضيف اقتراحًا بأنَّ هذا السر قد عرفه المتمرسون الشرقيون منذ فترة طويلة. وقد استكشف هذه المواضيع بعمق كبير صديق طفولة تيوفيل غوتييه وزميله في نادي الحشاشين، الشاعر وكاتب الرحلات جيرار دي نرفال[1].

---

(1) أديب فرنسي وشاعر (1808 ـ 1855).

اندمجت في عالَم نرفال الداخلي الفوضوي والغامض، البوهيمية الغريبة مع سلسلة من الانهيارات العقلية والرحلات المكثفة في مصر وسوريا وتركيا لإنتاج حالة دائمة ممَّا وصفه بأنه «فيضان الأحلام في الحياة الحقيقية». كتب دي نرفال قصصًا ومقالات قصيرة، بالإضافة إلى كتابه في قصص الرحلات *رحلة إلى الشرق* (1851)، والذي يتضمن حكايات عن الحشيش استندت إلى كلٍّ من *حكايات ألف ليلة وليلة* وأساطير الحشاشين لخلق عالَم سماه «مصر الأخرى»، يسكنه المستحيل والخارق للطبيعة. في قصة «حكاية الخليفة الحاكم» (1847)، يزور الخليفة مملكتَه مُتنكرًا، ويذهب إلى مكانٍ عتيق لتعاطي الحشيش يرتاده صيادو النيل من الطبقات الفقيرة. يعرض عليه شاب صيّاد يدعى يوسف «عجينة خضراء» في ملعقة مصنوعة من العاج.

> قال الغريب: «لكن هذه العجينة حشيش، إنْ لم أكن مخطئًا»، ونحى جانبًا الكأس الذي وضع فيه يوسف جزءًا من المزيج الغريب، وأردف: «والحشيش حرام».
>
> قال يوسف وهو يبتلع أول لعقة من العجينة: «كل شيء ممتع حرام!».

بدا الخليفة تحت تأثير المُخدِّر «ضحية انتشاء روحيّ استثنائي؛ حشود من الأفكار الجديدة، التي لم يسمع بها من قبل ولا يمكن تصوُّرها، تخترق روحه مثل أعاصير من نار». «دخل في عالم من التخيُّلات، حيث تحدّى خدعته السرية من خلال مواجهة ذاته المزدوجة. ووجد نفسه العاقل الوحيد المقيم في عالم مجنون.

هذه القصة مستوحاة من حكاية سمعها دي نرفال في لبنان، غير

أنها تمزج بين الخليفة الذي يسافر متنكرًا في *حكايات ألف ليلة وليلة*، وتكشف الأحداث بتطوّرات غامضة تشبه تلك التي تراها في الحكايات القوطية لإرنست هوفمان[1]. اجتمعَت أسباب الرحالة غير الموثوقة والأمثال التقليدية ومنطق الجنون لخلق «حالة مختلطة»، وهي الحالة التي وصفها مورو في مكان آخر بأنها «أحلام اليقظة». وصاغها دي نرفال في سيرته الذاتية عن جنونه التي نُشرت وفاته *أوريليا* (1855)، قال ببساطة: «الحلم حياةٌ ثانية».

كان الحشيش مناسبًا تمامًا للشكل الأدبي الذي صاغه الفيلسوف والناقد الألماني فريدريش شليغل[2] مصطلح «أرابيسك»، والذي استند إليه إدغار آلان بو[3] في عنوان مجموعته القصصية لعام 1840، *حكايات الغَرَتسك والأرابيسك*. عرّفها شليغل على أنها أحد أشكال السخرية الرومانسية التي تتسلل فيها الاستعارات والخرافات المألوفة في الحياة اليومية، متخذة منعطفات غير متوقَّعة بين المضحك والسامي والمرعب.

مُلاقاة الحشيش كانت الحافز المثالي لهذا النوع من الأسلوب الأدبي؛ فهو يجمع بين العبثية والغرابة في الوقت نفسه، ممَّا يتيح للمؤلف أنْ يُحرك السرد من المحيط العادي من طاولة الكاتب أو محترف الفنان أو جحر سُفلي قذِر إلى مشهد خياليّ من *حكايات ألف ليلة وليلة* أو متاهة من الرعب. عمل غوستاف فلوبير على رواية بعنوان *الحلزون* ـ مشروع لم يكمله ـ والتي بطلها رسامًا مدمنًا على الحشيش يعاني العديدَ من

(1) كاتب رومانسي ألماني (1776 ـ 1822).
(2) كاتب وشاعر وناقد ألماني (1772 ـ 1829).
(3) مؤلف وناقد أدبي أمريكي (1809 ـ 1849).

الصعوبات وينتهي به المطاف في مصحة، غير أنه يحتفظ بحياة حُلم مندمجة في النشوة، حيث يرتقي بنفسه بصورة إلهية فوق الواقع الخارجي.

كان فلوبير قلقًا من أنْ يتجاهل قراؤه الأحداث التي تجري في عالم الأحلام فقط؛ لذا قام بربطها بالواقع من خلال جعل تصرفات بطل الرواية في الحياة الواقعية تؤثر في أحلامه؛ عندما يتصرف بشكل نبيل، تصبح حياة أحلامه أكثر قيمة. وفي هذا التصور، أصبحَت الهلوسات قوة للخير الأخلاقي.

***

حقق نادي الحشاشين نجاحًا فاضحًا، غير أنه كان أيضًا الغطاء المثالي لأبحاث مورو العلمية. إن كان يرغب في دراسة تأثير الحشيش على الخيال، فإنه يحتاج إلى خلْق سياق يتمكن فيه أفراده من ممَّارسة قدراتهم إلى أقصى حدٍّ. وإجراء التجارب في جوّ المستشفى العقيم سيجعلهم يشعرون بالوعي الذاتي على الأقل، وفي أسوأ الأحوال سيدفع تخيلاتهم نحو الهوس. كان المبدأ ـ الذي اكتشفه باحثو المواد المؤثرة في العقل بعد قرن تقريبًا تحت اسم «المزاج والبيئة» ـ مفهومًا جيدًا لدى مجموعته التجريبية. كما كتب تيوفيل غوتييه في وقت لاحق:

> من المهم أنْ تكون في حالة هدوء نفسيّ وجسديّ، وألّا يكون لديك في هذا اليوم قلق أو واجب أو ارتباط بوقت مُحدَّد، وأنْ تجد نفسَك في شقة مثل تلك التي أحبها بودلير وإدغار آلان بو، غرفة مفروشة براحة شعرية وفخامة غريبة وأناقة غامضة... بدون اتخاذ هذه الاحتياطات، من المحتمل أنْ تتحول النشوة إلى كابوس. والمتعة إلى معاناة، والفرح إلى رعب...

استطاع مورو، مثل شيخ للحشاشين بزيه الشرقي، السيطرة على

التجربة والإشراف على الجرعة دون أنْ يتولى دور الطبيب. فقد كان، كما اعتاد في مصر، مستترًا بزيه الغريب؛ بينما تتوارى القصص عن الجن والسحر من حوله. شجعَت الزينة الاحتفالية والمحيطات الباذخة مُتطوّعيه على إطلاق العنان لخيالهم واحتضان اضطرابهم المؤقت، في حين راقب الطبيب سُكرَهم وأشرف على عودتهم الآمنة لعقولهم.

تلقّى كتاب *الحشيش والأمراض العقلية* اهتمامًا واسعًا في فرنسا، وأشارت إليه أكاديمية الطب في باريس، وأثنَت عليه المجلات الطبية في أوروبا والولايات المتحدة. أعلنَت *مجلة بوسطن الطبية والجراحية* أنَّ «اكتشافات مورو يجب أنْ تحظى بأهمية كبيرة في العالم المتحضِّر». كان تركيزه على التجربة الذاتية يتعارض مع التحول الوضعي في علم وظائف الأعضاء العقلية الفرنسية، وانتقده أطباء نفسيون محافظون مثل ألكسندر بريير دي بوازمون[1]، الذي استشهد بدي ساسي وأسطورة الحشاشين للادعاء بأنَّ الحشيش أورث الجنون، وأنَّ التماهي مع أعراضه المرضية كما أوصى مورو يُعد لعبة خطيرة.

وفي مكان آخر، تبع طريقته باحثون مثل الطبيب الإيطالي كارلو إربا، الذي نُظم في عام 1847 تجمُّعًا لزملاء الأطباء في غرفة بفندق في ميلانو. وبعد تناول الغداء والسيجار، وزع إربا عينات من *الدوامسك* التي طلبها من الإسكندرية، وأكد زملاؤه ملاحظات مورو من خلال تسجيل «أمواج المتعة» و«رغبة لا تقاوَم في الضحك» وشعور بأنهم «انقسموا إلى جزأيْن؛ جزء يتفكر ويلاحظ، وآخر يتوهم ويهذي».

(1) طبيب فرنسي (1797 ـ 1881).

أحرز الصيادلة في هذا الوقت بعض التقدم في تطوير جرعة موحّدة من الحشيش. ونُشر عمل أوشونيسي على خلاصات القنّب باللغة الفرنسية عام 1847، وفي العام التالي أنتج جوزيف برنار غاستينيل[1]، وهو صيدلي فرنسي لديه ممَّارسة راسخة في القاهرة، سائلًا شديد التركيز أطلق عليه اسم *هاشيشين* وادعى أنه تقطير الجوهر الفعال النقي. لكن الحشيش، مثل أوكسيد النيتروز، كافَح لإيجاد تطبيق طبي محدد. وبعد ادعاء أوبير روش، زعم غاستينيل أنَّ مستخلصه كان علاجًا فعالًا للكوليرا، التي كانت آخذة في الانتشار في الأحياء الفقيرة جنوب باريس؛ ولكن عندما ضرب وباؤها المدينة عام 1849، وأودى بحياة 20,000 شخص في النهاية، أصبح من الواضح أنَّ الحشيش لم يكن له أيُّ قوة ضده.

بدأ ردُّ فعل ضد المزاعم المبالغ فيها المُقدمة عن المُخدِّر، وبحلول عام 1850 بدأت شهرته القصيرة كدواءٍ تتلاشى. ومع ذلك، استمرَّت أفكار مورو في التأثير على الانضباط الناشئ لعلم النفس الدوائي. وفي منتصف القرن العشرين، تم تكرار فكرته التي تقول إنَّ المواد المُخدِّرة مثل الحشيش تُظهر أعراض الأمراض العقلية تحت اسم «محاكاة الذهان»، النظرية التي شكلت البحوث الأولى في مجال المؤثرات النفسية.

انتهى نشاط نادي الحشاشين بحلول عام 1850، بيد أن تراثه الأدبي اكتمل في عام 1860 بنشر كتاب *الفراديس المصطنعة* لأحد أعضائه المتعاونين من آن لآخر، وهو شارل بودلير. عاش بودلير في فندق بيمودان

(1) طبيب فرنسي (1811 ـ 1899).

لبعض الوقت وربما حضر حلقات الأدب هناك كمراقب، غير أنه لم يشارك إلا بعد انتقالها إلى شقة فخمة تعود لصديقه الروائي والمؤلف المسرحي المتأنق الشهير أوجين روجيه[1].

ووفقًا لتوفيل غوتييه، كانت معرفة بودلير بالحشيش ضئيلة؛ فهو يرى أنه جربه ليس أكثر من «مرة أو مرتين» كـ«تجربة نفسية». وكان بَحث بودلير، الذي نُشر في الأصل عام 1851، وحُسّن ونُقّح في العقد التالي، قد استعاد بعض الأفكار المألوفة لنادي الحشاشين غير أنه كان أكثر سخرية وشكًّا في نبرته، ويعكس رد فعل سلبي ضد الحشيش الذي حدث في الفترة الفاصلة وحس الحداثة الذي يبتعد عن استعراضات الجيل السابق الباذخة.

في أعقاب محاكمة رواية *مدام بوفاري* عام 1856 بتهمة الفحش، كان جوستاف فلوبير في طليعة مهنئي بودلير على النسخة النهائية من *قصيدة الحشيش*، التي شكلَت نصف كتاب *الفراديس المصطنعة* بجانب كتاب *متعاطي الأفيون*، وهي ترجمة لكتاب توماس دي كوينسي مصحوبة بتأملات في المُخدِّر الذي كان بودلير يمتلك خبرة شخصية كبيرة به. وقال فلوبير إنه قدم «بداية العلم، في عمل مراقبة واستقراء»، مضيفًا بذلك تجردًا علميًا إلى الأسلوب الرومانسي الذي يرتبط به. بدأ بودلير عمله بوصف تشريحي للنبتة واستعراض تحضيراتها وأسمائها في مختلف البلدان، وتابع مؤكدًا ما قاله دي كوينسي برفض فكرة أنَّ أيِّ مُخدِّر يمكن أنْ يمنح قوة خارقة أو نبوية أو فنية.

---

(1) روائي وكاتب مسرحي فرنسي (1806 ـ 1866).

بورتريه ذاتي لشارل بودلير وهو تحت تأثير الحشيش.

يُحدِث الحشيش بالفعل رؤى غريبة، لكن «نحن لا نغادر الحلم الطبيعي»، العالم الداخلي الذي يخلقه «الهموم والرغبات والرذائل» للمرء. تمامًا كما أكد دي كوينسي أنَّ «الرجل الذي يتحدث عن البقر... سيحلم بالبقر، ويُنبه بودلير «دع المحنكين والمبتدئين الذين لديهم فضول لتذوق هذه المُتع الاستثنائية ينتبهون؛ فلن يجدوا شيئًا معجزة في

الحشيش، لا شيء سوى «الطبيعي المفرط». ونصح قراءه ببساطة بتناول ملعقة صغيرة من *الدوامسك* مع فنجان قهوة على معدة فارغة، والانتظار بصبر لما سيكون «رحلة طويلة وملحوظة».

ويُقسِّم بودلير الرحلة إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى هي «فرح مضطرب» في بداياتها: «روابط متناقضة، وتشبيهات عرضية، وتورية لا تنتهي، ومشاهد ساخرة متصلة. هنا، الشيطان تلبسك». يسيطر عليك شعور بالتسارع الدوار، وتصبح قفزاتك الذهنية أكثر جنونًا وعدوانية.

> سرعان ما تصبح الروابط التي تربط أفكارك هشّة للغاية، والخيط الذي يربط مفاهيمك رفيعًا إلى أبعد حد، حتى لا يستطيع إلا رفقاؤك فهمك. ومرة أخرى، لا يمكنك أنْ تكون متأكدًا تمامًا؛ ربما يعتقدون أنهم يفهمونك، فالوهم متبادل.

وفي المرحلة الثانية، «تبدأ الهلوسة»، على الرغم من أنَّ بودلير، كما فعل مورو، يحرص على تأكيد أنَّ الحشيش لا ينتج «هلوسة نقية»؛ عالَم وهميّ مستقل عن المؤثرات الحسية، بل بالأحرى «اضطراب الحواس»، الذي يتم فيه تشويه العالم الخارجي وتغييره، ويمكن وصفه على نحوٍ أدق بأنه «وهمٌ». وفي ذروة التجربة:

> تشارك قوى الإدراك، من الذوق والبصر والشم والسمع، كلها بالتساوي في هذا التقدم. تخترق العيون المجهول. وتسمع الأذُن أصواتًا تكاد تكون غير ملحوظة وسط الضجيج العارم. تتبنى الأشياء الخارجية مظاهر فريدة في دمج الأشكال وتحويلها بلا نهاية. تتشوه الأفكار؛ وتتبعثر التصورات. وتكتسي الأصوات بالألوان، والألوان بالموسيقى.

كتب غوتييه عن تغيير التذوق في مآدب نادي الحشاشين؛ غير أن وصف بودلير لتقاطُع الحواس المختلفة ـ التذوق والرؤية والسمع واللمس ـ أصبحَ رواية كلاسيكية للظاهرة التي سُميت لاحقًا «الحس المتزامن»[1].

لقد استحضر هذا الإحساس بالفعل في شِعره، لا سيما في قصيدة «التوافقات» (1857)، حيث تكون العطور «حلوة مثل المَزامِير، خضراء مثل البراري». وعلى مدى العقود التالية، أصبح الحس المتزامن دليلًا على تجربة الذروة الروحية والفنية، ونشوة سَكرة الحشيش مثالها الأساس. بيد أنَّ هذا الشكل من التعالي، عند بودلير، لم يكن شيئًا خارقًا للطبيعة أو صوفيًا؛ قد يكون له دور في إلهام تجلية إبداعية أو روحية، لكنه بحدِّ ذاته ليس أكثر من مجرد عقل يلهو، يمتد مجالُه إلى ما وراء الحدود العادية للحياة اليقظة.

هذه الذروة مرهقة، وتدوم لساعات؛ لكن في اللحظة التي يبدو فيها من المستحيل تحمُّل أيِّ شيء آخر، تتحول إلى المرحلة الثالثة والنهائية، وهي حالة عقلية لا يمكن استخلاصها من الإطار البشري إلا بإرهاق عميق:

> في هذه المرحلة الجديدة، التي يطلق عليها شعوب الشرق اسم *الكيف*، تهدأ الاضطرابات والعواصف، ممَّا يُفسح المجال للهدوء والسعادة الثابتة، والاستسلام المجيد. على الرغم من أنك توقفت منذ فترة طويلة عن أنْ تكون سيدَ نفسك، فإنَّ هذا لم يعُد يزعجك. كل فكرة عن الوقت، وكل الأحاسيس المؤلمة، اختفت؛ أو إذا تجرأتْ هذه الأحاسيس أحيانًا على الظهور، فإنها تفعل ذلك لمجرد

(1) ظاهرة إدراكية يؤدي فيها تحفيز مسار حسي أو معرفي إلى تجارب لا إرادية في مسار حسي أو معرفي ثانٍ.

أنها متحولة بالإحساس المهيمن، وبعد ذلك، فيما يتعلق بشكلها المعتاد، هي ما تكون عليه الكآبة الشعرية من الحزن الحقيقي.

ومع ذلك، ثمة مرحلة واحدة أخرى قادمة، هي لبودلير الأكثر أهمية من بين الكل. إنها تظهر في «الغد! الغد الفظيع!»، عندما تخبرك أعصابك المنهكة والمحطمة «أنك لعبتَ لعبة محرمة». فمع الحشيش، تسلم إرادتك مقابل تجربة اصطناعية ومزيفة للمتعة، بدون جهد ودون غذاء، «لا تكشف شيئًا للفرد إلا للفرد نفسه». إنها غير أخلاقية مثل الانتحار، ويصر بودلير على أنَّ القانون يجب أنْ يعاملها بالطريقة نفسها:

نحن على دراية بطبيعة الإنسان بما يكفي لنعرف أنَّ الإنسان الذي يستطيع الحصول على جميع نِعم السماء والأرض على الفور عن طريق ابتلاع ملعقة صغيرة من العجينة لن يكسب ألف جزء منها من خلال عمله الشخصي. هل يمكنك تخيل دولة يتعاطى جميع مواطنيها الحشيش؟ أيّ مواطنين! أيّ جنود! أيّ مشرعين! حتى في الشرق، حيث ينتشر تعاطي الحشيش على نطاق واسع، أدركت بعض الحكومات الحاجة إلى حظر المُخدِّر. بالتأكيد، إنه محظور على الإنسان...

هذا تغيير مفاجئ في النبرة عن سائر المقال، وأخذ قراء بودلير المبكرين على حين غِرَّة. كانت انتقادات فلوبير الوحيدة «لقد أصررت كثيرًا على روح الشر. يمكن أنْ نشعر بنفحات الكاثوليكية هنا وهناك. كنتُ أُفضّل ألا تلوم الحشيش، والأفيون والإفراط». ويرتبط الشر هنا بالتنازل عن الإرادة لرغبات العالم الدنيوية، وربما يعود ذلك إلى تعرُّض بودلير الأكثر انتظامًا لشياطين الكحول والأفيون، حيث كانت دورة التدمير الذاتي التي تستدعيها أكثر صعوبة في الهروب منها. قال غوتييه بشكل جافّ: «من الصعب أنْ

نُصدق أنَّ مؤلف *أزهار الشر*[1]، على الرغم من ميوله الشيطانية، قد زار الفراديس المصطنعة كثيرًا». ردَّ بودلير بشدة قائلًا: «حتى لو كان القرن التاسع عشر بأكمله ضدّي، لن أتراجع»، قبل أنْ يسمح بأنْ «أحتفظ بالحق في تغيير رأيي، أو التناقض مع نفسي في أيِّ وقت».

قد يُنظر إلى حكم بودلير أيضًا بوصفه ردَّ فعل ضد الحشيش عندما بدا أنه قد مرَّ عقد من الزمان على ذروة شهرته، وتلطخَت الوعود الطبية المتعلقة به، وباتت لعبة الروح الثائرة لنادي الحشاشين رَجْعِية. والبوهيمي الجديد الآن، يعيش في عالَم مختلف عن شوارع العصور الوسطى المحيطة بجزيرة سانت لويس المغطاة بالضباب. وبعد وباء الكوليرا في عام 1849، كانت باريس تتغير، والأزقة القديمة في المدينة تُفرغ لتوسعات بارون هوسمان الواسعة والساحات الكبيرة.

تمتد الآن الطرق العابرة الحديثة عبر نهر السين، وتضيء مصابيح الغاز الجديدة الشوارع الكبيرة، وتتوهج من نوافذ الزجاج الشفاف في واجهات المتاجر، محولةً الشوارع إلى مسرح لامع للشخصية التي أشاد بها بودلير في مقالته الشهيرة عام 1863 كفنان حقيقي للحياة الحديثة، الفلانور [المتجول]:

> يتحرك عاشق الحياة العامة في الحشد كما لو أنه يدخل إلى خزان هائل من الحماسة. هو مُحبٌّ للحياة، يمكن أن يُقارن أيضًا بمرآة واسعة مثل الحشد؛ إلى كاليدوسكوب [منظار متعدد الألوان] موهوب بالإدراك، يقدِّم مع كل حركة من حركاته نمطًا من الحياة، في تعددها وتنوعها.

---

(1) مجموعة شعرية لبودلير، تضم تقريبًا كلّ شِعره، نُشرت لأول مرة عام 1857.

كانت رؤية بودلير رؤية بصيرة لمدينة النور (*ville lumière*)، مدينة الأضواء التي سيجد فيها الحشيش وغيرها من المواد المُخدِّرة الجديدة التي توفر رؤىً ومُتعًا فائقة، جمهورًا جديدًا بين الأجيال القادمة. لقد أدرك بودلير بسرعة أنَّ التجربة الرائعة التي وصفها لن تبقى طويلًا حكرًا على الطبقة النخبوية للمتأنق أو رجل الذوق، بل ستصبح قريبًا واحدة من مُتع الحشود. فالصالون، بكل تلك النغمات الراقية والمتحفظة، اُستُبدل به المجتمع الذي يتميز بالتصنع والعرضية ويطلق عليه «مجتمع المقهى». وفكرة بودلير عن العصر الحديث، التي صاغها في مقالته «صالون عام 1845»، هي «أيّ شيء يجذب اهتمام الجماهير والفنانين»، لم يعُد يوجد في الأكاديميات والمعارض والصالونات الخاصة، بل في شوارع المدينة المزدحمة.

ولأنَّ الحيل الرخيصة والميكانيكية للتصوير الفوتوغرافي حلَّت محلَّ فن البورتريه، فقد اضطر الرسام الحديث إلى أنْ يكون «عبقريًا يبحث باستمرار عن الجديد»، والفن الحديث هو السعي الرومانسي إلى «الحميمية والروحانية واللون والطموح نحو اللانهائية». وسوف تدمج الفراديس المصطنعة للحشيش، وغيرها من العقاقير التي لم تُكتشَف بعد في طراز الإحساس القادم.

قدَّمت باريس بحلول نهاية القرن مشهدًا لا يشبه أيَّ شيء سبقَت رؤيته في العالم من قبل. فقد اندمجت الشوارع العامة والمتنزهات والساحات مع العالَم التجاري للمقاهي والمطاعم والملاهي الليلية لتشكيل مسرح عام رائع للتنزه والترفيه والتسلية، مع مجموعة متغيرة دائمًا من المؤدين الذين يشكلون أنفسهم والمتفرجين، حيث يجد كل منهم حريته في

أنْ يكون فردًا من خلال الحشود. وتدفقت الثقافة بجميع أشكالها على الشوارع؛ إذ أصبحت الأروقة وواجهات المتاجر والأكشاك المغطاة بالملصقات الزاهية والمتناقضة هي المعارض الجديدة.

في عام 1881، وصف غي دو موباسان «عقلية الشوارع الرئيسة» على أنها حالة مغايرة للوعي بحدِّ ذاتها ـ «حالة عقلية مجنونة ـ مشاكسة، وطفولية، ودوّارة، وصوت فارغ» ـ ستستوعب جميع سكان المدينة الحديثة في سيطرتها. وفي الوقت الذي فعلت فيه ذلك، سيتم إبدال الخرافات الشرقية التي صاغت تجربة الحشيش بملعب جديد، يتميز بالحداثة للحواس.

الفصل السادس

النشوة والخيال والإلهام

في منتصف القرن التاسع عشر، أحدثَت صيحة تعاطي الحشيش بباريس تأثيرًا مدويًا انتشر حول العالم على نحوٍ مفاجئ. ولم يكن من السهل التنبؤ مثلًا أنه بحلول عام 1860 سيكون أكبر مستورد للحشيش إلى الولايات المتحدة هو ساحرٌ يمارس الشعوذة المرتبطة بالجنس، ذو بشرة سوداء، وينتمي إلى الروزيكروس (حركة الصليب الوردي).

نشأ باسكال بيفرلي راندولف في نيويورك ـ وفقًا لوصفه الشخصي ـ بـ«عيب كبير يتمثل في لون بشرة غير محبوب، وتعليم محدود». كان والده، الذي تخلى عنه، رجلًا أبيض من فيرجينيا؛ أما والدته التي تُوفيت في ملجأ الفقراء في مستشفى بيلفيو إبّان تفشي الكوليرا في عام 1832 وهو في عمر السابعة، فقد كانت حسب روايته، من سلالة مَلَكية من مدغشقر.

وكبر راندولف في شوارع فايف بوينتس، وهي قلب منطقة الأحياء الفقيرة، حيث تمكَّن من الهروب منها بالعمل كصبيّ مقصورة على متن السفن التي تتاجر مع كوبا. ولكن سرعان ما أُبعِد عن الخدمة، وانتقل إلى بورتلاند بولاية مين، حيث عمل صباغًا وحلاقًا قبل أنْ يستقر في أوتيكا وينضم إلى المجتمع الروحاني الذي كان يزدهر في شمال ولاية نيويورك

بعد أنْ أصبحَت الأخوات فوكس[1]، وجلساتُ التواصل مع أرواح الموتى التي أقمنَها ظاهرةً عالميةً في عام 1848.

أثبت راندولف أنه مُتحدث ساحر في حالة التخدير، حيث كان يتحدث أمام الجماهير بأصوات شخصيات مشهورة بدايةً من زرادشت إلى بنجامين فرانكلين. وبحلول عام 1853، كان يُعرِّف بنفسه في دليل مدينة يوتيكا باسم «الدكتور باسكال بيفرلي راندولف، الطبيب العرّاف وعالم النفس الروحاني»، مع خبرة خاصة في معالجة المشاكل الزوجية، والتي يعتقد أنها انتشرَت كوباء بسبب المجتمع الأبوي الصارم الذي يتجاهل احتياجات النساء ورغباتهنَّ.

باسكال بيفرلي راندولف، الباطني، والمعالج الجنسي، ووسيط التنويم الروحاني، ومؤلف غزير الإنتاج، ومُورِّد لأدوية مستخلَصة من الحشيش للاستبصار والعلاج.

(1) ثلاث أخوات شهيرات في نيويورك وقتذاك، كن يمارسنَ الطقوس الروحانية.

انتقل راندولف في العام التالي، مرةً أخرى إلى مدينة نيويورك، وقدَّم نفسَه لموظفي *التلغراف الروحاني*؛ وهي أول مجلة روحانية في أمريكا، من خلال عرض جذاب له في النوم العميق حيث تحدَّث بصوت روبسبيير[1]. وكان وقتها في موقع محوري في شبكة دعم مستشاري الطب والكُتاب وجولات المحاضرات، ودُعي للسفر إلى أوروبا لحضور المؤتمر العالمي لتلاميذ روبرت أوين[2] الاشتراكيين والروحانيين في عام 1855.

حضر إلى دائرة روحانية في منطقة تشارينج كروس في لندن، وقام بالتواصل مع الروحانيين هناك، حيث تمكَّن من التواصل اللائق مع روح سير همفري ديفي بشكل مناسب؛ ومن ثَم إلى باريس، حيث قُدِّم إلى منومين مغناطيسيين ووسطاء روحانيّين. اندمجَت هذه الشبكة مع شبكة الباطنيين المتعلمين، ومنهم ألفونس لويس كونستانت[3] الذي كتب باسم إليفاس ليفي، ونشر للتوِّ المجلد الأول من كتابه *العقيدة والطقوس السحرية العليا*، والذي سيصبح مَرجعًا أساسيًا للسحر الاحتفالي في القرن التاسع عشر.

يُعد راندولف من أوائل الزوار الأمريكيين لباريس الغامضة، وكانت هذه الزيارة مثمرةً. فقد كانت فنون السِّحر عند الجيل السابق في معظمها مجالًا يستهوي علماء الآثار بدلًا من أولئك الذين يسعون إلى إقامة علاقاتٍ شخصية مباشرة مع الأرواح أو القوى الخارقة للطبيعة. كان راندولف قد تعلَّم بشغف

(1) ماكسيمليان روبسبير، هو محُام فرنسي ورجل دولة، يُعد أحدَ أشهر وأكثر الشخصيات تأثيرًا في الثورة الفرنسية (1758 ـ 1794).
(2) مُصلح اجتماعي من ويلز، وأحد واضعي أُسُس الاشتراكية المثالية والحركة التعاونية (1771 ـ 1858).
(3) كاتب فرنسي (1810 ـ 1875).

التقاليد السحرية بنفسه، غير أنَّ مشاركته فيها كانت عملية ومجسدة ومؤداة بطريقة مسرحية. ووجد بين المنومين المغناطيسيين الفرنسيين مجموعة متنوعة من الأدوات والتقنيات غير المعروفة في الولايات المتحدة؛ لمساعدته على الغوص في الحالة التنبؤية للتنويم العميق.

أحدُ هذه التقنيات هي «مرآة السحر»، وهي عبارة عن زجاج مُقعَّر ذي سطح داكن، يمكن من خلاله مشاهدة أحداث باستخدام الشعور بالتصورات؛ حيث يُحدِّق المُشاهِد فيها وهو تحت حالة النوم العميق، ويمارس العلاج الذاتي عليها باستخدام الطاقة المغناطيسية. وقد أضاف راندولف مرآة السحر إلى مجموعة التقنيات السحرية الخاصة به، وطوَّرها وأضاف إليها تحسيناته الخاصة، ومنها تلطيخ السطح بإفرازات الأعضاء التناسلية؛ للحصول على السحر الجنسي.

كما تعرَّف راندولف على ما سيصبح أداته السحرية المميزة، ألا وهو الحشيش. كان مُدرِّبه صانعَ خزائن ومُرمِّم أثاثٍ يُدعى لويس ألفونس كاهانيه، وهو صوفي سفيدنبوري[1] يستخدم التنويم المغناطيسي والسَّير خلال النوم لاستكشاف عالم الأرواح. بدأ بطلب رسائل من الوسطاء الروحانيين، غير أنه شعر بالإحباط لأنه كان يسمع عن التجارب الملائكية والحياة بعد الموت من خلالهم فقط، وليس على نحوٍ مباشر.

لقد فكر في استخدام المواد المُخدِّرة، بيد أن التجارب الأولية مع الإيثر ومواد التبخير المستخدَمة في التقاليد السحرية القديمة مثل

---

(1) وتسمى أيضًا الكنيسة الجديدة، وهي من الطوائف المسيحية المتأثرة بكتابات عالم الإلهيات إمانول سفيدنبوري (1688 ـ 1772).

البيلادونا والشَوكران أقنعتْه بأنها موادٌ خشنة وسامَّة جدًا؛ ومن ثَمَّ فهي غير ملائمة للطاقات الرقيقة للروح «تحمل المواد المُخدِّرة مشاكل إلى الجهاز العصبي، وتُزعج الروح في وظائفها الحيوية».

وفي عام 1849، أثار اهتمامه تقارير مُبالَغ فيها عن نادي الحشاشين، وتوافر الحشيش في تحضيرات صيدلانية جديدة ومناسبة. اشترى بعضًا منه، ونظَّم جلسة استحضار الأرواح مع بعض أصدقائه:

> بلعتُ ثلاثة غرامات من خلاصة الحشيش، مذابة في فنجان من القهوة، وبعد مرور ساعة إلى ساعة وربع، شعرتُ بأول آثار هذا المُخدِّر الروحي. كنتُ أفكر في الضحك الذي يُحدثه الحشيش دائمًا كأول عرَض له، وهذه الفكرة دفعتْني للضحك رغم إرادتي. لحظة من الهدوء تلَت النوبة الأولى، بيد أنها لم تدُمْ طويلًا. شعرتُ بأنني أصبحتُ في حالة سُكْر كاملة... ثم دخلتُ تمامًا في حالة النشوة، وعيناي مفتوحتَين، وأعي وجودي وحالتي تمامًا.

ووصف جاك جوزيف مورو، أول تأثير للمُخدِّر بأنه شعور بالنشوة والفرح الغامر؛ لكن مع تعمُّق التأثير المُخدِّر للحشيش، حدثَت الحالة المختلطة التي كتب عنها كاهانيه: «بدأتُ حينها حقًا حياتَين منفصلتَين تمامًا، تتعاقب أفعالهما ومشاهدهما دون تشويش، بترتيب وانتظام». تدريجيًا، تخفُت موجة الخيالات، حتى استطاع بجهد أنْ يركز على رؤية مستمرة تحولَت إلى إلهام:

> رأيتُ ما يشبه دوامة هائلة ذات عمق لا يمكن قياسُه، لها شكل بيضاويّ. أحد مراكز هذا الشكل أبيض ومضيء على نحوٍ رائع؛ كل شيء يدور حول المركز... كل شيء يدور حول المركز... كان كلُّ شيء في حركة حول هذا التركيز. بدا لي أنَّ هذا التركيز للضوء،

هذا المركز للجذب العالمي، هو الإله؛ كان هو أصل كلِّ الكائنات ومُنتهاهم، وسبب وجودهم.

بعد ذلك، أصبح تأثير المُخدِّر مرةً أخرى غير منظم وفوضويًا ومليئًا «بالرؤى المهلهلة، مثل شلالاتٍ من الأسنان، تتحوَّل لاحقًا إلى رؤوس البشر، وغيرها من الخيالاتِ العملاقة»، التي قاطعها كاهانيه دون إرادة مع «انفجارات متواصلة من الضحك، التي تحولَت تدريجيًا إلى صراخ وعويل لا يوجد بها شيءٌ مريح للمستمع»، غير أنَّ رؤية الضوء الإلهي هي بالضبط ما كان يبحث عنه لسنواتٍ عديدة، وأصبح رسولًا للحشيش بوصفه وسيلةً للوصول إلى واقع مُوازٍ يحجبه التفكير العقلاني. كتب قائلًا: «لنأمل أنْ تُمحى كلمات *الجنون والهلوسة والخيال* من لغتنا العلمية في غضون وقت قصير، لتحلَّ محلها كلماتُ *الحياة الداخلية والحياة الخارجية*».

بدأ كاهانيه تنظيم جلسات حشيش في غرفته في شارع سانت ديني، وسجَّل سلسلة من الرؤى الخارقة، ومنها خرج أحد المشاركين، الصحفي الذي يُدعى السيد موتيه، بنتيجة تستحق مقارنة بآراء ويليام جيمس «العالَمَ الروحي موجود في العالَم المادي؛ إنه نمط آخر من رؤية الروح. إنها حالة. ليس هناك سوى الحالات. لكلِّ حالة إدراكها الخاص». ومن جهته، كتب باسكال بيفرلي راندولف عن اكتشافه للحشيش:

> من خلال الحشيش، تمكَّنتُ أنا، وألفونس كاهانيه، وآخرون، من اجتياز الأبواب الأبدية التي تظل مُغلَقة أمام الإنسان المتجسد إلا بهذا المفتاح السماوي. وعند اجتيازها بهدوء مُقدَّس، استطعنا استكشاف الأسرار الممتنعة عن الوصف والهادئة للروح البشرية، والوصول إلى إيمان راسخ بالخلود.

كتب مورو: «يبدأ الحلم حيث تنتهي حرية توجيه أفكارنا، وحياة جديدة تتبع الأخرى وتحل محلها». إنَّ حدود الإرادة تُشكِّل حدود الذات، وتُمثل بوابة إلى عالَم الأحلام؛ ولكن تأثير الحشيش، بجرعاتٍ كافية، هو تخفيض قوة الإرادة وإعطاء حرية كاملة للذات الثانية، بحواسّ عالية وخيال كبير.

كان كاهانيه وراندولف يعتقدان أنَّ الممَّارسة السحرية يمكن أنْ تضع عالَم الأحلام تحت سيطرة الفاعلية البشرية. كان تأثير السُّكْر الناتج عن تناول الحشيش طاغيًا ومرهقًا، ولكن مع عقل مُدرَّب على نحوٍ صحيح، يمكن توجيهه، مؤقتًا على الأقل، نحو التواصل والحوار مع كائناتٍ وأبعاد تتجاوز قدرةَ الوعي المعتاد.

* * *

على مدى السنوات القليلة اللاحقة، استمرَّ راندولف في التنقل بين أوروبا والولايات المتحدة، حيث استأنف مع زوجته ماري جين ممَّارستَه الطبية في يوتيكا، كونها تمارس الطب في بوسطن، وتعالج مشاكل النساء باستخدام علاجاتٍ مستمَدة ممَّا تدَّعي أنه من تراثها الأمريكي الأصلي. (كما هو الحال مع زوجها، فإنَّ عِرقية ماري جين مُختلَف عليها، فقد يكون كلاهما يُخفيان نسبهما الأفريقي الأمريكي للعبيد، وهي إستراتيجية شائعة في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، فغالبًا ما كان الروحانيون والمعالجون السود يعيدون اختراعَ أنفسهم كشخصيات طبية أصلية، أو فقراء شرقيين).

في عام 1861، قام راندولف بجولة لتقديم محاضرات في كاليفورنيا، قبل أنْ يذهب في رحلة أخرى إلى أوروبا؛ ومن ثَم إلى الشرق الأقصى،

حيث قضى ما يقرب من عام في تركيا ومصر وسوريا. غمر نفسَه في عالَم الدراويش والمعالجين وصُناع المعجزات، وتسربَت روايات تفيد بأنه تعلَّم «الكثير من الأسرار المظلمة للسحَرة الشرقيين». وانشغل بالبحث عن مُورّدي الحشيش و*الدوامسك*، وزعم أنه تعلَّم سرَّ تحضيراته المفضَّلة من طبيب السلطان في إسطنبول.

أصبحَت تجارب راندولف في الشرق الأوسط عند عودته تعريفًا لشخصيته العامة، وصارت المستحضرات السائلة للحشيش المصمَّمة خصيصًا له أكثر منتجاته تميزًا. كان صدى رحلاته يشبه حلقة في سيرة المؤسِّس الأسطوري للروزيكروس (حركة الصليب الوردي)[1] في القرن السابع عشر، كريستيان روزنكرويس، الذي قضى سنواتٍ غير معروفة في مسافرًا للشرق يقال إنها شملَت تكريسًا وتعلُّمًا لحكمة المجوس القديمة.

اتخذَت كتابات راندولف طابعًا غريبًا متعاليًا، مع وجود إشاراتٍ إلى الربِّ والقدَر، واستدعاء شخصياتٍ غامضة مثل «أبو الدّر، جندب من الأنصارية»[2]. هذا الأسلوب يُذكِّر بأسلوب معاصر لراندولف، السير ريتشارد برتون[3]، المستكشف البريطاني الذي أثار ضجة في بريطانيا الفيكتورية بترجمته *لحكايات ألف ليلة وليلة*»، حيث جمع بين العلم

(1) حركة روحية نشأت في أوروبا في أوائل القرن السابع عشر، زعمَت أنها تعلن عن وجود نظام روحانيّ غير معروف حتى الآن للعالَم.

(2) استخدم باسكال راندولف أسماءً مثل هذه للإشارة إلى خلفيته الغريبة والعلمية لجمهور أمريكي؛ لذلك فإنها على الأرجح ليست صحيحة أو أصيلة لمصادرها العربية. (إفادة المؤلف بعد سؤاله).

(3) مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي (1821 ـ 1890).

غير الموثَّق، والأسلوب اللغوي الزاخر بالعبارات القديمة والمهجورة، والانحياز الغريب للمواد المُخدِّرة والبؤس والشذوذ الجنسي.

وجد راندولف بعد عودته إلى الولايات المتحدة أنَّ قصص متعاطي الحشيش قد استقبلها القراء بحرارة. إذ نشر الشاعر وكاتب الرحلات بايارد تايلور[1] في عام 1855 سردَه لرحلاته في الشرق الأوسط، بعنوان *أرض الساراكينوس*[2]، عشرين طبعة خلال السنوات العشر التالية، وأرسى نوع الكتابة الاستطلاعية عن المواد المُخدِّرة التي أسهم فيها سيلاس بوروز بعد أربعة عقود. روى تايلور في فصل بعنوان «رؤى الحشاشين» عن ليلةٍ في سطح فندق في دمشق، حيث تعاطى هو ورفيقاه قطعةً كبيرة من الحشيش، وهي جرعة قدَّرها تايلور لاحقًا بأنها «كافية لستة أشخاص». وبعد فترة وجيزة:

> لقد استولى روح (شيطان، أفلا أقول بالأحرى؟) الحشيش عليّ تمامًا! لقد أُلقيتُ في طوفان أوهامه، وجرفني بلا حولٍ منّي ولا قوة حيثُ شاء أنْ يحملني. كانت الإثارة التي انتابَت جهازي العصبي أكثر سرعة وضراوة، مصحوبةً بمشاعر غمرَت كلَّ كياني بنشوة لا توصف. لقد كنتُ محاطًا ببحر من الضوء، تتلاعب من خلاله الألوان النقية والمتناغمة التي وّلدت من هذا الضوء.

وجد تايلور نفسه منقولًا في خياله إلى قاعدة هرم خوفو الأكبر، ثم صعد إلى قمته، تمامًا مثلما فعل سيلاس بوروز. عندما نظر إلى أسفل فوق

---

(1) روائي أمريكي (1825 ـ 1878).

(2) *Saracenus* مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثم أصبح يُطلَق على العرب، وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسَّع المصطلح ليشمل كلَّ الذين يدينون بالإسلام.

حقول النخيل، لاحظ أنَّ التمثال الذي يقف عليه «لم يكن مبنيًا من الحجر الجيري، بل من كُتل مربعة ضخمة من تبغ كافنديش!»[1] تحولَت الهستيريا إلى رؤية حيث:

> كنتُ أتحرك فوق الصحراء، ليس على ظهر الجَمل المتمايل، بل جالسًا في قارب مصنوع من مادة اللؤلؤ الحُرّ، ومُرصّع بجواهر ذات بريق لا يُضاهى. كانت حبّات الرمل مصنوعة من حبيبات الذهب، وانزلق جناح قاربي عبرَها دون اصطدام أو صوت. كان الهواء مُشِعًا بفائض من الضوء، رغم عدم ظهور الشمس. استنشقتُ أرقى العطور؛ وتأرجحَتْ حولي أنغام ربما سمعها بيتهوفن في أحلامه ولم يكتبها. كان الجوُّ نفسُه خفيفًا عطِرًا وموسيقيًّا؛ وكل شيء يتسامى إلى ما وراء أيِّ شيء تستطيع الحواس الرصينة احتضانه.

وهكذا، كان هذا المشهد الخيالي، الذي يبدو أنه مستوحًى من بساط الريح في حكايات *ألف ليلة وليلة* ومُجسَّد بوضوح في جميع حواسِّه، يتعايش بطريقةٍ ما مع وعيه اليقِظ.

> أكثر ما يميز هذه الأوهام، هو أنني في الوقت الذي كنتُ فيه تحت تأثيرها بشكل كامل، كنتُ أعلم أنني جالس في برج فندق أنطونيو في دمشق، وأنني تعاطيتُ الحشيش، وأنَّ الأفكار الغريبة والرائعة والساخرة التي تملكني كانت نتيجةً لذلك.

وعند منتصف الليل، انهارت حواسُّ تايلور وتمزقَت أعصابه، لينتقل من «جنَّة الحشيش» إلى «جحيمها الأشد»، وهو عذابٌ لم يتعافَ منه إلا بعد نوم استمر ثلاثين ساعة. اختُتمت النوبة بعظة موجزة عن «الخطر

---

(1) نوع من التبغ سُمي على اسم الرحالة الإنجليزي توماس كافنديش (1592 ـ 1560).

الرهيب للعبث» مع «عظمة العقل البشري وإرادة الإنسان». كانت هذه هي الرسالة التي أذاعها توماس دي كوينسي، بتأكيده الشهير على أنَّ مُتع المواد المُخدِّرة لا يمكن فصلها عن آلامها الرائعة، وعزَّز شارل بودلير هذا الكلام بإعلانه أنها «لعبة مُحرَّمة»، حيث ستظل الغرائز الدنيئة تنتصر دائمًا على الدوافع النبيلة.

مع تطوُّر الكتابة الاستطلاعية عن المواد المُخدِّرة إلى نوع أدبيّ معروف، أثبت هذا النوع أنه مَجاز شائع دائمًا. فقد سمح ذلك للناشرين ببيع الفجور مع تبرئتهم من اتِّهام ترويجه، وشجع اعتقاد الكُتاب أنَّ فراديس الأفيون أو الحشيش حقيقية ويمكن تحقيقها، ولكن فقط للنخبة القليلة المستعدة لاستكشاف أعماق الجحيم. ومع صدور أول قصة أمريكية محلية تنتمي إلى هذا النوع الأدبي أُرسِيَت هذه القواعد.

ظهرَ في عام 1857، توجُّه أدبيٌّ جديد في شمال ولاية نيويورك يُعتبر خلفًا أمريكيًا لكوينسي وبودلير. وهو كتاب *متعاطي الحشيش أو مشاهد من حياة أحد أتباع فيثاغورس* الذي يُعد أول عمل لافت للعبقري الشاب البالغ من العمر 21 عامًا، فيتز هيو لادلو، وهو خريج حديث من كلية يونيون في سكنيكتادي. وفي هذا الكتاب وصف لادلو كيف أنَّ تجاربه مع الحشيش أصبحَت تُشكل وجودًا موازيًا، تمثلَت أحداثه في مشهدٍ مألوفٍ الآن من حكايات *ألف ليلة وليلة*:

> هناك، في انتظاري حدائق شرقية تستقبلني. رقصتُ من نافورة إلى نافورة في متاهاتٍ رشيقة مع حوريات لا تُضاهى، جباههنَّ ملفوفة بشرائط الياسمين. الطيور النادرة الغريبة التي تطير بأجنحتها الذهبية والقرمزية من فرعٍ إلى فرع رشقتُها بالتين، أو أغويتُها

للانضمام إليّ بعباراتٍ عربية مُفعمة بالحنان. سرتُ بين ممراتِ النخيل متمسكًا بذراع حافظ، وسمعتُ لساعاتٍ الغناءَ يتدفق عبر قنوات شِعره الفريد. في ظُلاَّت مبهجة ارتشفت شرابي، وفي فخامة الفجور، قبَّلتني قطراتُ ذلك الشراب المُحرَّم على المؤمنين.

أما في حياة اليقظة، فلم يسافر لادلو شرقًا أكثر من بروكلين، في نيويورك. وقد بدأت تجربته مع الحشيش وهو في سن المراهقة في مدينة بكبسي بنيويورك، حيث كان والده قِسِّيس الكنيسة المشيخية. وحين تعرَّف لادلو على صيدلاني المدينة قضى ساعاتٍ يبحث في مخازنه، ويتذوق الكلوروفورم والإيثر سرًّا. وعندما وصلَت شحنة من مستخلص القنب، بحث عنها في كتاب جيمس جونستون التعليمي المنشور حديثًا وقتذاك *كيمياء الحياة اليومية*، والذي تضمَّن قسمًا مفيدًا بعنوان «المواد المُخدِّرة التي ننغمس فيها».

مَثل الفصل حول القنب الهندي دراسة شاملة تناقش أسطورة الحشاشين، وتوضح الفرق بين تحضيراته مثل البانج، والتشوروس، والحشيش، *والدوامسك*، وتستشهد على نحوٍ كبير بأعمال أوشونيسي وتجارب مورو الذاتية واكتشافات الصيادلة الفرنسيين. واستنتج جونستون «أنَّ تأثيره على الأوروبيين أقلّ بكثير من تأثيره على الشرقيين»، وهو رأي سارَعَ لادلو لاختباره. لم تكن جرعتُه الأولى كافيةً لإحداث تأثير، بيد أنَّ الجرعة الثانية التي تعادل غرامين أغرقتْه في هذيان فوضويّ. بعدها تعثَّر لادلو في طريقه وهو متجه إلى عيادة الطبيب المحلية، وهو يُصفِّر قائلًا إنه تناول جرعة زائدة من الحشيش وكان على شفى الموت! هتف الطبيب بازْدِراء «باه!» وأعطاه مهدئًا. عاد إلى فِراشه منزعجًا من رؤى الجنِّ

الشريرة، حيث خضع الضجيج في النهاية لحالة من السعادة الفائقة، وأدرك أنَّ حياته قد وُضعَت نحو مسار جديد:

في حضور التجلي السامي الأول في زمن الروح، وقدرتها على حياة أَبَدِيّ، وقفتُ مرتعشًا بذهولٍ خاشع. وحتى أموت، ستبقى لحظة الكشف هذه متفردةً عن كلِّ ما تبقى من وجودي.

وفي العام التالي، وبينما لادلو يتصفح مجلة *بوتنام* في مكتبه، وقعَت عيناه على بَحث بايارد تايلور «رؤى الحشيش»، وصاح مندهشًا: «هذا الرجل كان في روحي!» اتخذ كتابه شكل أرابيسك لرؤاه، السماوية والجهنمية، منثورة بأسلوب دي كوينسي مع سرد أحداث من حياته ونزهات فلسفية زعم فيها أنَّ الحشيش يتيح وصولًا إلى عالم فيثاغورس وأفلاطون من الأشكال المثالية، وأنَّ فيثاغورس نفسَه كان من مبتدئي الحشيش لكي يدرك النظام العددي الكامن وراء الكون.

كتب لادلو: «لقد رضعتُ من الفلسفة المتعالية»؛ وأصبح والت ويتمان مرشدًا له، وكتاب *متعاطي الحشيش* هو أكبر استكشاف لتداخُل الميتافيزيقا في هذه المدرسة وتجربة المواد المُخدِّرة التي عادةً ما تُندّد بها. ومع ذلك، وعند نهاية الكتاب، وصل لادلو إلى موقف أقرب إلى موقف إمرسون «كانت دوافع استخدام الحشيش من الطبيعة المثالية الأكثر سمُوًا»، بيد أنه خلص إلى أنه في الواقع «كان مُخدِّرا ملعونًا، وتدفع الروح في النهاية ثمنًا مريرًا لنشوتها».

من هنا انطلقَت شهرته الأدبية، وأصبح منتظمًا في المشهد البوهيمي الصغير في نيويورك، حيث يمضي وقته في حانة *بفاف*(1) على شارع

(1) Pfaff's حانة للشرب في مانهاتن، مدينة نيويورك، تشتهر بمرتاديها من الأدباء والفنانين، افتُتحت عام 1855.

برودواي مع والت ويتمان ومارك توين. غير أنه، مِثل مثَله الأعلى دي كوينسي، تبيّن أنه يمثل مقدمة لمسيرة مهنية متكونة في كثير من الأحيان من قصص قصيرة وصحافة غير متقنة، وحياة من الهشاشة والديون والاعتماد المتزايد على الأفيون الذي استخدمه لتهدئة مشاكله الصحية مثل السُّل والأرق والعصبية. وأصبحَت مغامرته حين أطلق على نفسه «متعاطي الحشيش»، مثل دي كوينسي، علامته الأدبية الواضحة، والتي حددت شخصيته حتى وفاته المبكرة عن عمر يناهز الرابعة والثلاثين.

***

عندما عاد باسكال بيفرلي راندولف إلى الولايات المتحدة في عام 1862، كان للحشيش هويتان متميزتان: فهو مصدر لرؤى شرقية مذهلة من الجَمال والرعب، وفي الوقت نفسه ـ وعادةً تحت اسم القنب الهندي ـ يُعد منتَجًا صيدلانيًا يُوصى به ضمن عدد من المستحضرات لتسكين الألم وتخفيف التشنجات. ودمج راندولف هاتَين الهويتَين واستعار أسلوب كتابة تايلور ولادلو لإعداد وتسويق مجموعة من المستحضرات والأشربة القائمة على الحشيش والتي، مثل المرايا السحرية التي باعها إلى جانبها، جاءت مع مزاعم بجودة وفعالية لا مثيل لها، ووعود بقوى استبصار. نشرها من خلال إعلاناتٍ مبوبة في مجلات روحانية مثل *سبيريتشوال تيليغراف* و*بانر أوف لايت*، حيث أُبلِغَ قراء هذه المجلات عند عودته من أوروبا بما يلي:

> ردًا على العديد من المراسَلات، اسمحوا لي أنْ أقول إنَّ معظم الحشيش الذي أتيتُ به معي من أوروبا (وهو الوحيد الصالح للاستخدام) قد نفد! سأبيع المخزون المتبقي بأربعة دولاراتٍ

للزجاجة، مع تعليمات كاملة حول كيفية خوض التجربة الروحية وتجنُّب الهذيان السيئ.

من الصعب إعادة بناء محتوياتِ مجموعة منتجات راندولف الخاصة بدقة، حيث كانت مخفيةً خلف مزاعم سحرية ووصفاتٍ زاهية وستائر من السرية التجارية. لقد اشتملَت أدويته على ما يسمى *دوام مسك* نقي مع ما يسمى «بروتوزون» و«بروتوجين»، واللذَين يبدو أنهما منشطاتٍ قائمة على الحشيش للأعصاب والصحة الجنسية، و»المذيب الشامل أو الحَلّال الخارق»، الذي قد يكون نوعًا من منتج *دوام مسك* ومخصصًا للاستبصار.

قد يكون قد أضاف أيضًا إلى الحشيش في جرعاتٍ منشط «القوة الثلاثية» الجنسي، وباعها تحت اسم «فيميل» و«أميل»، والتي وصفها بأنها «سوائل أكثر فعالية من النبيذ الأساسي...سوائل قوة ذاتية». وقد تحتوي المستحضراتُ التي قدمها على البيلادونا والسَيكُوران، أو الأفيون، سواء للاستهلاك أو لأغراض طقوسية، مثل تلطيخ المرايا السحرية بتلك المواد. وأكد أنَّ تحضيرات الحشيش المتوافرة في الصيدليات هي «مستخلصات عادية، تمتلك قوة طبية قليلة، وكمية كبيرة من القوة المُخدِّرة والمنومة والتي تُجنن العقل»، ولا ينبغي مقارنتُها أو الخلط بينها مع المستحضرات «التي أعدَّها المتمرسون، تلك التي نُقل فنُّهم إليهم عبر قرونٍ مضت»، من أجل «أرباب الشرق المترفين».

توجد أوصاف راندولف الأكثر وضوحًا في كتيب قصير بعنوان «الحشيش: استخداماته وإساءاته ومخاطره، ونشوته وخياله وإلهامه»، طُبع خصيصًا وأُدرج فيما بعد في دليل راندولف لعام 1867. وفيه ينصح مَن

يستعدون لتعاطي الحشيش بأنْ يكونوا مستعدين إلى «تحويل الخيالات إلى واقع غريب ومختلف وغريب، وربما مرعب!». يجب أنْ يكون لدى الذين يتعاطونه ست ثمرات ليمون وأوقيتان من حمض الستريك لاستخدامها كمضادات في حالة الطوارئ. إذا تم تناوُل الحشيش بلا تفكير، «ستندفع النشوة عبر الأعصاب» ويصبح الشخص «مصابًا بنوبات ضحك ورعب وفزع وخوف من الموت»، ومع الاستعداد العقلي الصحيح، ستفسح النشوة المجال للخيال، وهي حالة، فيها:

> يصير الحديث العادي حديثًا فاخرًا، وتصبح الغرف العادية قصورًا فخمة، وتتحول الأشياء والأجسام الشائعة بشكل كامل. وبلا شكٍّ، فإنَّ *حكايات ألف ليلة وليلة* كانت نتاج تناول العديد من جرعات الحشيش، وكُتبت الرؤى كما حدثت... ليس ثمة شكٌّ في أنَّ كونفوشيوس، وفيثاغورس وتلاميذه، والخيميائيين، والهرمسيين[1]، والمستنيرين[2]، وأخوة الصوفية من جميع الأعمار، استخدموه لتنويرهم في أثناء بحثهم عن حجَر الفلاسفة[3].

دمَج راندولف تأثيراته الروحانية والباطنية والأدبية في نثر ساحرٍ، بيد أنه يمكن الكشف خلفه عن الاعتبارات العملية نفسِها التي حدَّدها كاهانيه أولًا. يقذف الحشيش متعاطيه في عالَم داخلي حيٍّ وفوضويّ، بيد أن العقل الواعي لا يزال قادرًا على ممَّارسة السيطرة والإرادة عليه. وإخضاع

(1) أتباع تقليد ديني وفلسفي خلال عصرَي النهضة والإصلاح.
(2) إشارة إلى عدد من الفلاسفة أو المجتمعات السرية أو أتباع الديانات، والوصف جاء من المصطلح باللغتَين اللاتينية والإيطالية *Illuminati*.
(3) مادة أسطورية يُعتقد أنها تستطيع تحويل الفلزات الرخيصة إلى ذهب، وتُستخدم في صنع إكسير الحياة.

هذه الحالة ـ بمصطلحات راندولف، قهر النشوة، وتوجيه الخيال ـ هي ممَّارسةٌ عقلية وروحانية تتطلب المهارة والشجاعة، يمكن تشبيهها بترويض حصان جامح.

إنَّ الحفاظ على السيطرة أمر مرهق ومستحيل تحقيقه طوال ساعاتِ الهلوسة الطويلة؛ والهدف هو الوصول إليه لفترة كافية للحصول على لمحة من الاستنارة. تصوّر راندولف الاستبصار، أو «الانسجام، كحالة متغيرة للوعي، «اكتساح فكريّ رائع يقفز حواجز العالَم»»، وهو أعلى مستوى من الأداء البشري، ويمكن للجميع الوصول إليه. لم يكن الحشيش سوى أحد مصادر الحكمة الروحية التي قدَّمها راندولف لزبائنه. لقد سافر وألقى محاضراتٍ بنشاط، متحدثًا بصوته شخصيًا بدلًا من الشخصيات التي تدخل في حالة الغَشْيَة، وهي المرحلة التي اتسمَت بها مهنته المبكرة.

ظلَّ يكتب وينشر باستمرار، ويعيد تدوير محاضراته وينتحل أعمال الآخرين، ويستخدم أسماءً مستعارة متعددة، ممَّا ترك آثارًا ببليوغرافية لم يتم تفصيلها بالكامل حتى الآن. واصل ممَّارسته الطبية، وأحيانًا كان يُجريَ الاستشاراتِ تحت تأثير الغَشْيَة. ابتعَد عن الروحانية ووصف نفسَه بأنه من الروزيكروس، واستقرَّ في بوسطن، ووصَف مكاتب استشاراته بأنها «غرف الروزيكروس». شارك في السياسة والقضايا الاجتماعية، وذكَر في كتابه *الإنسان قبل آدم* (1863) أنَّ العِرق الأسود هو أنقى سلالة بشرية ومُقدَّر له التفوق في المستقبل. دافع عنه بعض مناهضي العبودية في بوسطن، وتراسَل مع سحرة محليين وخطباء منهم بنيامين بول بلود، الذي كان كشفُه التخديري يتجلى بالقرب منه في الوقت نفسه.

على الرغم من بيعه المقنَّع، كان راندولف غامضًا في دعمه للحشيش.

ففي مرحلة لاحقة من حياته المهنية، أصبح ضده ـ «أنا لا أوافق على تعاطي الحشيش، من أجل النشوة، أو الخيال، أو الاستبصار، بعد الآن» ـ بل حتى ادعى أنه لم يتناوله إلا أربع مراتٍ في حياته «مرتَين عن قصد، ومرتَين بالصدفة، قبل سنواتٍ عديدة».

«لم أتعاطاه منذ ذلك الحين، ليس لأنني أخاف قوتَه، بل لأنني لا أحتاج إليه». كانت السنوات الأخيرة من حياته مضطربة بسبب السُكر والإصابات والمشاكل القانونية، وانتهت أخيرًا بالانتحار، لكن دور الحشيش في ذلك صعبٌ تفسيرُه. قد يكون ببساطة أنه، بعد تايلور ولادلو، قرر أنه من المستحسَن موازنة دعمه للمواد المُخدِّرة مع تحذيراتٍ صارمة من عواقبها. وربما وجد أنَّ ثلاثية الجنس، والمواد المُخدِّرة، وعِرقه، أصابتْه بوصمة ثقيلة جدًا. أو أنَّ مطاردته الشخصية لخيال الحشيش قدمَت له عوائد متناقصة. وفي عام 1870 باع عيادته الطبية، وأبعَد المقوياتِ الروحية عن الأنظار.

***

كان تراجُع الممَّارساتِ الدينية التقليدية من بين أبرز التغيرات الاجتماعية في أواخر القرن التاسع عشر، وإحدى عواقبه الأقل دراسة هي اكتساب التجارب المُخدِّرة أبعادًا مُقدسة تُعد سابقًا جزءًا من نطاقها. إذ فتحَت الكشوفاتُ الروحانية الناتجة عن أوكسيد النيتروز، والإيثر، والكلوروفورم أبواب التجارب العلمية، واضطرت التفسيرات الروحية لهذه التجارب للتنافس مع المفاهيم الحديثة للوعي؛ الذات اللاشعورية أو الكون المتعدد. وفي الجانب الآخر، فإنَّ القالب التجريبي والجسدي للسحر الذي اشتُهر به باسكال بيفرلي راندولف جعل المُسكرات مثل

الحشيش، مفاتيحَ سحرية لعوالم أخرى. ومع تراجُع أداء الصلاة، وهي الأسلوب الغربي التقليدي لدخول حالة تغيير الوعي المواتية للتأمل وتلقّي نعمة روحية، ظهرَت ممّارسات جديدة لتوسيع الذات، وتعزيز الخيال وتعريض العقل للتأثيرات غير المادية.

في عام 1854، قبل وصول راندولف إلى باريس بفترة وجيزة، أجرى إليفاس ليفي طقسًا لاستحضار روح الساحر الإغريقي القديم أبولونيوس الحكيم[1] من مدينة طوانة، وهذا الطقس أصبح أحد الأحداث التأسيسية، أو الأساطير، لإحياء السحر في القرن التاسع عشر. يشير ليفي إلى «مواد مروّعة» تمنح قدرة «الحلم أثناء اليقظة»، ويذكر «الآقونيطن والبيلادونا والفِطر السامّ». ويشمل وصفه للطقس على مبخرتَين ملأهما بـ «المواد المطلوبة والمُحضرة»، بينما كان يرتدي «رداء شبيهًا برداء كهنة الكاثوليك»، بعد ذلك:

> بدأ الدخان الأبيض يرتفع ببطء فوق مذبح الرخام. كنتُ أشعر كأنَّ الأرض ترتجّ، وأذناي تطنُّ وقلبي يخفق بقوة. وضعتُ عدة فروع وبخورًا في المباخر، وبمجرد أن ارتفع اللهب مرة أخرى، رأيتُ بوضوح، أمام المذبح، شخصًا أكبر من الحياة الطبيعية، ثم تبدد وتلاشى... أغمضتُ عيني وناديتُ أبولونيوس[2] ثلاث مرات؛ وعندما فتحتُها مرةً أخرى، وقف رجل أمامي...

كان ليفي غامضًا بشأن النباتات والمواد الدقيقة التي ينطوي عليها استحضاره، وكتب في موضع آخر أنَّ استخدام المواد المُخدِّرة في

(1) كاتب فرنسي وعارض حفلات سحر (1810 ـ 1875).
(2) فيلسوف ينتمي لمدرسة فيثاغورس (15 ـ 100 تقريبًا).

السحر الاحتفالي غير مُجدٍ، وربما يكون خطيرًا. من الممكن أنه يشير إلى البخور والعطور بدلًا من المواد المُخدِّرة أو المواد المهلوسة. وإنْ كانت استخدمت هذه «المواد المروعة» فإنها دُمجت في الطقوس دون تعاطيها فعليًا. على الرغم من ذلك، فكثيرًا ما أحيت الجماعاتُ السحرية التي ظهرَت في أواخر القرن التاسع عشر ذكرى المستحضرات والبخورات التي تمنح الاستبصار، تلك التي استخدمتها الكاهناتُ القديماتُ، والمشعوذون الفُرس، والساحراتُ في العصور الوسطى. وفي ذلك الحين، لم تعُد محضرات الداتورا والبيلادونا ذات البخور حكرًا على الطقوس السحرية، بل كانت متاحةً على نحوٍ واسع بوصفها منتجاتٍ صيدلانية لعلاج الربو. ومع تحوُّل الممَّارساتِ الروحية إلى أدوات منزلية، أوحت هذه المواد الدنيوية بنفسها للاستخداماتِ المقدسة.

وجدَت فكرة أنَّ النباتاتِ المسكِرة قد تكون مقدسة أو سحرية بعضَ الدعم في كتابات مدام بلافاتسكي، مؤسسة الثيوصوفية. فقد تعلمَت بلافاتسكي عن بعض النباتات ذات «الخصائص الغامضة بدرجة رائعة»، على سبيل المثال؛ مشروب *سوما* المقدس الذي وُصِف في نصوص *الريجفيدا* الهندية المقدسة، أو السرّ المقدس في معبد إليوسينيون في اليونان القديمة، غير أن أسرار هذه النباتات قد «فُقدت في العلم الأوروبي». وارتبطَت بلافاتسكي بعلاقة بعيدة لكنها جافة مع باسكال بيفرلي راندولف؛ إذ ربما التقيا شخصيًا في الولايات المتحدة، ولكن يبدو أنَّ الكثير من اتصالاتهما كانت عن طريق التخاطر (أشار إليها بـ«السيدة العجوز»، وأطلقَت عليه لقب «ذا إن»[1]).

(1) كناية عن كلمة (Nigger) زنجي.

اعتقد معظم أتباع بلافاتسكي أنها عارضَت استخدام المواد المُخدِّرة، غير أنَّ بعضهم، ولا سيما أولئك الذين تربطهم علاقة وثيقة بالتيارات الجمالية والانحلالية في نهاية القرن التاسع عشر، رأوا في تأكيدها ضياع أسرار النباتات السحرية، إذْنًا ضمنيًا للتجريب واستعادة «طريق السُّمِّ».

إنَّ إحياء المعرفة الباطنية في هذا العصر كان مستوحًى من المعرفة الدينية المفقودة أو المهجورة مثل حروف الإينوكي[1] لجون دي[2]، والقبالة العبرية[3]، ولاهوت جاكوب بوهمه[4]. بيد أنه دمج أيضًا تيارات التفكير التقدمي والحديث والعلمي. كان العديد من المبتدئين مهتمين بأحدث الأبحاث حول الوعي المزدوج والذات اللاشعورية، ممَّا فتح إمكاناتٍ جديدة للتأمل الذاتي والاستفادة من القوى غير العقلانية، وتنمية القدرات النفسية. وقدَّمت التقاليد الروحية الشرقية مثل الراجا والهاثا يوغا طرقًا جديدة لتحقيق الوعي الأعلى، والوصول إلى المستوياتِ الأثيرية أو النجميّة.

تأثرت فلسفة مدام بلافاتسكي الثيوصوفية في سردها الكوني بالتطور الداروينى، وكانت المجلات التي تنشر عن الأحداث الغامضة في تسعينيات القرن التاسع عشر من بين أولى المطبوعات التي قدَّمَت

---

(1) لغة مصطنَعة غامضة ـ قال مُنشئها إنها وردَت من الملائكة ـ سُجِّلت في دفاتر جون دي وزميله الخاصة في أواخر القرن السادس عشر في إنجلترا.
(2) عالِم إنكليزي في الرياضيات والفلَك وعلم التنجيم والجغرافيا (1527 ـ 1608 تقريبًا).
(3) معتقدات روحانية فلسفية تفسر الحياة والكون، بدأت مع اليهود ثم تبناها فلاسفة غربيون وطبقوا مبادئها.
(4) فيلسوف ألماني، صوفي مسيحي، وعالِم لاهوت (1575 ـ 1624).

ترجماتٍ وتعليقاتٍ على كتابات فريدريك نيتشه[1] عن العصر القادم للرجل الخارق. وتكررَت الإشارة إلى المواد المُخدِّرة مثل الأفيون والبيلادونا وخاصة الحشيش من خلال هذه المصادر المختلفة؛ فقد كانت تاريخية وحديثة في الوقت نفسه، وشرقية وغربية، وعوامل لإمكانات بشرية لم تُستغل بعد.

خلص استطلاع عن الحشيش في مجلة الروحانيات لايت عام 1893 إلى أنَّ «القدرة المتأثرة بهذا المُخدِّر هي الخيال». إذ يمكن تحت تأثيره، تحويل «العالَم اليومي إلى أجمل الأشكال الخيالية والمثيرة للدهشة». واتفقَت الجماعاتُ السحرية التي ظهرَت في ثمانينيات القرن التاسع عشر رسميًا على التنصُّل من استخدام المواد المُخدِّرة. جاء غالبية المنتسبين للجمعياتِ السحرية من عوالم مُبَجَّلة مثل الماسونية، والروزيكروس والثيوصوفية، حيث تعلَّموا أنَّ المواد المُخدِّرة غير طبيعية وضارة، وتقوّض ممَّارسة الإرادة الطبيعية وتُسمّمها.

تُعد جماعة الفجر الذهبي الهرمسية، المجتمعُ السحري الأكثرُ شهرة في ذلك العصر مثالًا على ذلك. فقد لجأ بعض أعضائها المشاهير، مثل الشاعر الأيرلندي ويليام بتلر ييتس[2] إلى تعاطي الحشيش وغيره من المواد المُخدِّرة في ممَّارساتهم الروحية، غير أنهم فعلوا ذلك خارج دائرة الجماعة المباشرة. وماكغريغور ماثرز[3] المؤسس المشارك والزعيم الروحي لجماعة الفجر الذهبي الهرمسية، سبق أنْ رُقِّي إلى رتبة الماسون

(1) فيلسوف ألماني (1844 ـ 1900).

(2) شاعر إنجليزي وكاتب مسرحي (1865 ـ 1939).

(3) عالم تنجيم إنجليزي (1854 ـ 1918).

الأعظم في محفله الماسوني في هامبشاير، وكان يطمح لتجنيد شخصياتٍ أدبية وثقافية مرموقة ضمن عضوية جماعته. يُعد ييتس أحد نجاحاته المبكرة، الذي أصبح طالبًا يتعلم الثيوصوفية في دبلن في سنِّ العشرين، غير أنه ترك الجمعية في عام 1890 بدلًا من أنْ يُقدم تعهدًا إلزاميًا بالولاء لمدام بلافاتسكي.

طلب ماثرز تعهدات ممَّاثلة من بعض أعضاء جماعة الفجر الذهبي، لكن ييتس لم يُدرج ضمن هذه القائمة. ووجد ييتس أنَّ ماثرز «غير مثالي» في تفضيلاته وغريب الأطوار في معرفته ـ إذ أصبح مصدر سخرية وتسلية أصدقاء ييتس المثقفين بعد أنْ صدَّق أنَّ قصائد أوشين[1] هي قصائد قديمة باللغة الغيلية، بعد فترة طويلة من كشفها كاحتيال في القرن الثامن عشر ـ لكن السِّحر الاحتفالي الذي مارسه ماثرز كان مصدرًا غنيًا للرمزية والإلهام الذي عدَّه ييتس تأثيرًا رئيسًا في سِحره وكتاباته.

كان ماثرز، مثل معظم الماسونيين، ينظر إلى تعاطي المواد المُخدِّرة على أنه شيء رَدِيء ودَنِس، وفي كلمات إسرائيل ريغاردي[2] مساعد أليستر كراولي[3]، «كان ينظر إليها بعين الاستنكار، مفضلاً الطرق السرية الكلاسيكية لتدريب العقل والروح». ومع ذلك، عاش ييتس في مجموعة من الدوائر الاجتماعية المتداخلة التي يُعْطَى فيها الحشيش وغيره من

---

(1) تُعد قصائد أوشين مجموعة من الأعمال الشعرية منسوبة إلى شاعر أسطوريّ قديم يُدعى أوشين. ومع ذلك، ثبت أنها كُتبت في الأصل بواسطة الشاعر الإسكتلندي جيمس ماكفيرسون (1736 ـ 1796) في القرن الثامن عشر.

(2) باطني إنجليزي أمريكي (1907 ـ 1985).

(3) باطني وشاعر ورسام وروائي ومتسلق للجبال (1875 ـ 1947).

المواد المُخدِّرة معنىً أكثر تفوقًا وإمكانية. وبالإضافة إلى علاقته مع السحرة في جماعة الفجر الذهبي، ارتبط بالمُجرِّبين في جمعية الأبحاث النفسية، حيث كان عضوًا مشاركًا، وعضوًا مؤسِّسًا في نادي رايمرز، وهو تجمُّع للشعراء البوهيميين في لندن، يلتقون في حانة «أولد تشيشاير تشيز» بشارع فليت. ومن خلال نادي رايمرز تعرَّف ييتس على الحشيش في عام 1890، تزامنًا مع انضمامه إلى جماعة الفجر الذهبي.

يُعد صديقه وزميله الشاعر آرثر سيمونز[1]، أشهر مريد للمُخدِّر في الزمرة البوهيمية الصغيرة والمتماسكة بقوة في لندن. إذ كان سيمونز مريدًا لشارل بودلير وشعراء الرمزية الفرنسيين، وعلى الرغم من ـ أو بسبب ـ تربيته الدينية الصارمة على يد أصحاب الطائفة الميثودية[2] في مقاطعة كورنوال، فهو يُعد الشخصية الأدبية في لندن التي تلاعبَت بشكل أكثر وضوحًا مع التياراتِ المناهضة للقيم في أواخر القرن في باريس.

كانت تقاليد نادي رايمرز عدائية بشدة تجاه «الثقافة الجماهيرية المملة» للنشر التجاري، إذ ترى نفسها ملجأ للكُتّاب الذين يدفعهم رؤية نقية لفنهم. ففي الغرفة العلوية لحانة *أولد تشيشاير تشيز*، كان أعضاء النادي يقرأون شِعرهم لبعضهم بعضًا متجاهلين العالَم الحديث الرخيص. وبعد ذلك، يدعو سيمونز الأعضاء إلى غرفه في ساحة فاونتن كورت القريبة،

(1) شاعر وكاتب وناقد أدبي ومترجم إنجليزي (1865 ـ 1945).
(2) طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرَت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا، ولاحقًا من خلال الأنشطة التبشيرية في المستعمرات البريطانية حتى الولايات المتحدة الأمريكية.

في منطقة تمبل، حيث تكتظ الغرف بأعضاء مهنة المحاماة في لندن بجانب محاكم العدل الملَكية.

كان سيمونز يُعرف بأنه ينسحب إلى هناك مع شاعر من الحركة الانحلالية ومدمن على المواد المُخدِّرة هو إرنست داوسون[1]، الذي يتعاطى الكحول والأفيون والكوكايين، حيث يستمتعان بـ«الحشيش ـ تلك السكرة البطيئة، والتجربة المتطورة في الأحاسيس والرؤية». وفي إحدى المناسبات، دعا «بعض صديقاته من راقصات الباليه» لتعاطيه مع الشاي في جلسة فاضحة. ووصف تأثيراته بتوسُّع أكثر ممَّا فعل بودلير، مازجًا بين الأسلوب السحري والجمالي والمتعالي:

> بعد الانغماس فيها، يجلس المرء، كما لو أنه يشاهد دراما تُمثَّل على خشبة المسرح. نرى كلَّ شيء بعيون تنظر ـ خلال هذه الهلوسات المُنتشيَة ـ إلى دراما لا نهاية لها من الأحلام؛ التي تدرك الانطباعات الأرقى، وحفلات الجنيّات، وغيرها من الواقعيات الخيالية؛ باختصار، عيون تنظر إلى حدود اللانهائي. اللحظة تصبح أبدية؛ على الرغم من أنَّ الهلوسة تحدُث فجأة، وتكون كاملة وقاتلة. يشعر المرء بعطش شديد، وقلق عصبيّ، واضطراب في الجسم، والذي يتحول في النهاية إلى تلك الحالة الغريبة التي يسمونها الشرقيون *الكيف*.

يرى سيمونز لندن من خلال عيون بودلير الحديثة، كتدفُّق من المشاهد والصور الدرامية، ومنظار ملوّن للحياة. يتجول في الليل من فاونتن كورت إلى منطقتَي سوهو وكوفنت جاردن، حيث يجوب بشكل مهووس قاعات

---

(1) شاعر وروائي إنجليزي (1867 ـ 1900).

الموسيقى وعروض الرقص، ثم «يتجول في مناطق مجهولة تمامًا»، في الأحياء الفقيرة والوحشية في سانت جايلز وما وراءها.

تضمنَت مجموعته الشِّعرية عام 1895 *لندن لايف* أرابيسك من الانطباعات الشبيهة بالحلم تحت الضباب وضوء الغاز، إلى جانب مع الجمال الباهت مع القبح والرذيلة. كان هذا هو أكثر أعماله فجورًا، ورفضه ناشرون محترمون منهم جون لين، وويليام هاينمان. غير أنه اضطر إلى الاعتراف بأنَّ باريس هي «الشيء الحقيقي» بعد زيارته الأولى لها في عام 1889.

كانت حانة *أولد تشيشاير تشيز*، مع أرضيته الرملية العارية، والبيرة الطازجة، وفطائر اللحم، والتدخين في غرفه العلوية، تكفي لاستضافة مجموعة من الشعراء المنفيين ذوي العزائم القوية إلى أطراف المدينة الثقافية النائية؛ غير أنها كانت ناديًا إقليميًا بالمقارنة مع حيٍّ مونمارتر [في باريس]، حيث اختلط سيمونز بالشاعر بول فيرلين[1] في زاوية من مقهى *كافيه فرانسوا الأول*، ودُعي إلى الصالونات المتلألئة في شقة ستيفان مالارميه[2] على شارع دي روما. وباريس هي المكان الذي اختاره سيمونز ييتس في عام 1890 لتجربته الأولى مع الحشيش.

تُعد باريس عند الزوار البريطانيين، وحتى النخبة الأدبية في لندن، وجهةً للأدب الطليعي. إذ كانت قصرًا للحواسِّ، ومركزًا للذوق الفني والموضة

(1) شاعر فرنسي (1844 ـ 1896).
(2) شاعر وناقد فرنسي (1842 ـ 1898).

والثقافة الراقية؛ ومجتمعًا يتسم بالتسامح الراديكالي بمعايير البريطانيين، حيث إنَّ السلوكيات التي تفضي إلى الاعتزال أو حتى السجن في لندن لا تلاحَظ هنا تقريبًا. والصور العفوية للجنس والمواد المُخدِّرة، المحظورة في المنازل، يُحتفى بها في الفن والشعر وأدب الاعتراف، وكانت حياة الليل؛ مسرح غران جينيول[1] الذي يعج بالدماء، وملاهي مولان روج وفولي بيرجير المغرية بوقاحة، تُرضي الإحساس الخالص. كما أنَّ تكلفة المعيشة أرخص بكثير، ممَّا جعلها مقصدًا جذابًا لأولئك المنفيين من بريطانيا بسبب الفضائح أو الفقر.

قُدّم سيمونز ييتس إلى بول فيرلين، وقاده إلى الشوارع الخلفية في الحيِّ اللاتيني، حيث التقيا بمجموعة من الصوفيين المارتينيين[2] من بينهم «شاعر شابّ صاخب» أعطاه قرصًا من الحشيش قبل أنْ يخرجوا لتناول العشاء، وآخر عند عودته. شعر ييتس بنوبة قصيرة من طرب النشوة قبل أنْ يعود إلى وعيه بفِعل ثرثرة الشاعر المتباهية. أغلق عينَيه، بانتظار رؤى لم تأتِ، ومع ذلك عندما فتحها وجد ألوان الغرفة غريبة ومبهجة، و«أصابني الإحساس أنني أرى كالرسام».

انزعج ييتس من شاب آخر يتعاطى الحشيش الذي «ركض نحوي بورقة عليها دائرة في وسطها نقطة، ويردد «الربّ، الربّ!» ويشير إليها بإصبعه. شعر ييتس الحسّاس بالإحراج في هذه الرفقة البذيئة والثرثارة، ونتيجة لذلك «لم أنسَ نفسي أبدًا، أرتقِي فعليًا فوق ذاتي لأكثر من لحظة،

(1) مسرح افتُتح عام 1897 واستمر حتى 1962، متخصص في تقديم عروض الرعب الطبيعية.
(2) حركة روحانية وصوفية نشأتْ في فرنسا في القرن الثامن عشر.

وكنتُ حتى قادرًا على الشعور بالسخف الذي ينمو في تلك البهجة، مثل السيد نورداو[1] بين العباقرة، حين كان مُحرجًا من عقلانيته».

في عام 1894، تعاطى ييتس الحشيش مرةً أخرى في باريس مع مود غون[2]، التي مثلت قصة شغف استمر لعقود لم يتحقق. فقد التقيا أول مرة في العام السابق حينما زارت منزل عائلته في ضاحية بدفورد بارك الفنية والحرفية في غرب لندن للتماس دعم والده لاستقلال أيرلندا؛ وهي القضية الثورية التي كرَّست حياتها لها. دُهِش ييتس من ملامحها الشبيه بالتمثال الجمالي ـ «كانت بشرتها مضيئة، مثل شجرة زهرة التفاح التي يسقط عليها الضوء» ـ وأَسره شغفهما المشترك بالصوفية القلطية[3] والسِّحر.

وفي عام 1896، خلال زيارته لمدينة غالواي وجزر آران في أيرلندا مع سيمونز، وصل هوس ييتس بغون إلى مستوى مخيف؛ فقد اندفع برغبة شديدة لإدخال يده في النار لإثبات ولائه لها، وكتب لاحقًا «أتساءل أحيانًا: ألستُ مجنونًا حقًا؟!». ولمدة تسع ليالٍ متتالية في قلعة توليرا في غالواي، استدعى بجدية قوى القمر في حجرة فارغة، وجاءته رؤية وهو في حالة نعاس «امرأة عارية رائعة تُطلِق سهمًا على نجمة». ووفقًا لسيرته الذاتية التي كتبها نورمان جيفارز[4]، فإن شغف ويليام بتلر ييتس بمود غون، بالإضافة إلى تأثير ماكغريغور ماثرز وجماعة الفجر الذهبي عليه، دفعه للانجراف في «متاهة غير واقعية من التكهنات السحرية» وتركه «على

(1) إشارة إلى ماكس نورداو، الطبيب والكاتب والفيلسوف المجري (1849 ـ 1923).

(2) ثائرة ومناضلة من أجل حقِّ التصويت وممثلة أيرلندية من أصول إنجليزية وأيرلندية (1866 ـ 1953).

(3) مجموعة من الشعوب الهندية الأوربية التي عاشت في مناطق واسعة من أوروبا والأناضول.

(4) عالم أدبي أيرلندي (1920 ـ 2005).

شفا الضياع، يتعاطى الحشيش، وعلى شفا تلك الحالة، حيث يستطيع بسهولة اللجوء دائمًا إلى الشرب».

قَدَّم ييتس، مود غون إلى جماعة الفجر الذهبي؛ إذ كانت ترغب في تعلُّم أسراره، غير أنها لم تكن معجبة بأعضائها. فبوصفها امرأة «حديثة» مستقلة ومعادية للاستعمار، رأت أنَّ الأمر يمثل «رتابة الطبقة الوسطى البريطانية»، مدعومًا مع «حُبّ الإنجليز للتمثيل والألقاب الرنانة». ومع ذلك، استوعبَت بعض ممَّارساتهم في تجاربها السحرية الخاصة في المستوى النجميّ، والرؤية الثانية القلطية[1] والتخاطر مع ييتس.

كانت مود غون متعاطيةً غير منتظمة لمواد مُخدِّرة متنوعة، وأيدَت علنًا نبيذ فين مارياني[2] القائم على الكوكا كجزء من حملتها السياسية «سيعطيني نبيذك قوةً في صوتي، ويكون وطني أكثر شهرة». وجرَّبَت الكلوروفورم ووجدَت أنه يمكن أنْ «يُخرجها من جسدها»، غير أنها قلقَت من أنْ تصبح مدمنةً عليه، واكتشفَت أنه تستطيع تحقيق نتائج ممَّاثلة ببساطة من خلال تخيُّل تأثيراته وتصوُّرها. وفي بعض الأحيان، تعاطت الحشيش أيضًا، والذي «أقنعها بإمكان مغادرة الجسد ورؤية الناس والأشياء عن بُعد، والسفر بسرعة كالفكر». ووجدَت غون أنَّ تعاطي الحشيش فعّال للتخيُّل المسيطر أو التنويم الذاتي، وتحت تأثيره، قامت بالتأمل في *التاتفا*، وهو مصطلح سنسكريتي يشير إلى العنصر أو الجوهر الذي يوفر مجموعة من المفاتيح للسفر في العوالم النجميّة.

---

(1) القدرة على رؤية الأشياء والأحداث التي لا يمكن للعين العادية رؤيتها، والتي تُعد جزءًا من الثقافة القلطية.

(2) مشروب كحولي يجمع بين النبيذ والكوكايين ابتُكر في عام 1863.

تعاطت مود غون الحشيش للتأمل والوصول إلى المستوى النجميّ، وتجارب التخاطر مع ويليام بتلر ييتس

طوَّر الثيوصوفيون النظام في سلسلة من «أشكال الفكر»، وأحد الأساليب التي تعلَّمها ييتس من ماثرز لإحداث الاستبصار؛ إذ قام بصنع مجموعة من البطاقات للعناصر الخمسة وهي: الأرض (مربع أصفر)، والهواء (دائرة زرقاء)، والنار (مثلث أحمر)، والماء (هلال فضي) والروح (بيضة بلون

الأزرق الداكن). وعند تعاطيها للحشيش، تصورَت مود غون بيضةً باللون الأزرق الداكن مع مربع أصفر في المركز ـ جسدها مُحاطًا بروحها ـ تندمج مع مثلث أحمر. كانت تنجرف في التأمل من خلال الماهيات والرموز، والأشكال والعناصر والألوان. ومع تلاشي العالَم المادي، خلقَت بوابة إلى البُعد النجميّ. وفي هذا المجال النجميّ، من المحتمل مواجهة الأرواح الأساسية للعناصر؛ والتي يجب ملاقاتها باحترام وتحكم الذات الثابت. وفي الصباح التالي، قد تأتي أفكار جديدة وإلهاماتٌ جديدة.

ذات ليلةٍ في باريس، بعد جرعة كبيرة من الحشيش، «هذا المُخدِّر الهندي الغريب»، قالت:

> وجدتُ ساقيَّ مشلولتَين؛ لم أستطع المشي وقلبي ينبض بغرابة، بيد أن عقلي يقظًا... تمكنتُ من تدوين بضع كلماتٍ على لوح كتابة كان على الطاولة بجوار سريري، كتبتُ أنني تناولت الحشيش وأنه إذا لم أستفق، فلا يجب إلقاء اللوم على أحد، ثم استلقيتُ هادئةً وانتظرتُ. رأيتُ ظِلًّا طويلًا يقف عند إحدى قوائم سريري وقال، أو بالأحرى، مرَّ الفكر عبر عقلي: «يمكنك الآن الخروج من جسدك والذهاب إلى أيِّ مكان ترغبين فيه، ولكن يجب عليك دائمًا أنْ تحتفظي بفكرة جسدك كخيط يمكنك من خلاله العودة. إما إذا فُقد هذا الخيط، فقد لا تتمكنين من العودة».

رغبَت مود في رؤية أختها في أيرلندا، ونُقلت إلى هناك على الفور، ولكن بينما كانت تتجول في المنزل المظلم الصامت، تحولَت إلى مكان غير مألوف ومزعج، وتذكرَت الأمر بالعودة إلى جسدها؛ «بعد ذلك، مع الإحساس بالسقوط من علو، كنتُ مستلقيةً حقًا في سريري، مدركةً لقلبي ينبض بغرابة».

ازداد اشمئزاز مود غون من جماعة الفجر الذهبي بعد أنْ نظموا إحدى اجتماعاتهم في قاعة ماسونية، واستجوبَت ماكغريغور ماثرز حول علاقة الطائفة بالحرفة الماسونية. أكد ماكغريغور لمود أنَّ بعض كلمات السر الخاصة بهم كانت مشتركةً مع الرتب العليا للماسونية. وعند هذه المرحلة، استقالت مود غون من عضويتها بحجّة أنَّ «الماسونية الحرة كما نعرفها ـ نحن الأيرلنديين ـ هي مؤسسة بريطانية ودائمًا ما استُخدمت سياسيًا لدعم الإمبراطورية البريطانية».

كانت غون مثالًا بارزًا على المرأة الحديثة، المستقلة وذات الآراء القوية، غير أنَّ تعاطيها شبه العلني للمواد المُخدِّرة يُعد استثناءً حتى في تلك الأوساط. كانت النساء المستقلات يُصوّرْن عادةً في الثقافة الشعبية على أنهنَّ غير مستقراتٍ ومُعرَّضاتٍ للهستيريا والجنون والانتحار، ومعظمهنَّ يحرصنَ على تقديم صورة لصحة جيدة. وفي الفن والأدب الفرنسي على وجه الخصوص، تطورَت صور المرأة الشابة التي يغويها المورفين أو الإيثر أو الكوكايين إلى نوع فرعيّ من الإباحية. كما كانت مود غون معتادة على الانتقاداتِ العامة، وأصرَّتْ على أنْ تكون ناشطة من أجل السلام واستقلال أيرلندا (وبعد اعتقالها عدة مرات، بسبب مطالبتها إصلاح السجون النسائية) حتى وفاتها في عام 1953 عن عمر يناهز السادسة والثمانين.

كان رفْضُ مود جون عاملًا في انفصال ييتس عن ماثرز وجماعة الفجر الذهبي، والذي نأى بنفسه عنه بعد عام 1899. في عام 1897، تناول ييتس مجددًا الحشيش في باريس مع آرثر سيمونز، وناقش كتاب سيمونز الذي طال انتظاره عن الحركة الانحلالية في الأدب، الذي قد

كتب بعض المقالات حوله، بينما يعمل مع ييتس وأوبري بيردزلي[1]، وهافلوك إليس[2]، وغيرهم محررًا لمجلة *سافوي* القصيرة المدة والتي أثارت جدلًا واسعًا.

لقد كره ييتس مصطلح «الانحلالية» بسبب الدلالاتِ السلبية التي يحملها من التصنع لإرضاء الأذواق المتعودة، وبعد عام 1895، بسبب تلطيخه بقضية محاكمة أوسكار وايلد. واقترح بدلًا من ذلك مصطلح «الرمزية» وهو مصطلح يُستخدم عادة في الرسم، ولكنه يتناسب مع العالَم الخيالي الذي يستمد منه ييتس في شِعره وسِحره. واستخدم في مسرحياته الرقص والطبول والشِّعر الإيقاعي الذي يحوي الأسرار لإنشاء «اللحظة التي نكون فيها نائمين ومستيقظين في الوقت نفسه، وهي لحظة الخلق الوحيدة»؛ واستخدم الحشيش لإنشاء نفس لحظة النشوة في ممَّارساته السحرية.

يُعد كِتاب *الحركة الرمزية في الأدب* الذي نشره آرثر سيمونز عام 1899، مع إهداء إلى شاعر الرمزية ويليام بتلر ييتس، أبرز ما قدَّمه سيمونز للنقد الأدبي. وقد ادَّعى أنَّ الرمزية هي إعادة اكتشاف للسِّحر القديم ـ «بدأت الرمزية مع الكلمات الأولى التي نطق بها الإنسانُ الأول، عندما سمى كلّ شيء حيٍّ» ـ وأنها شكل حديث للتعبير عن «واقع غير مرئيّ يدركه الوعي». وقد شمل رمزيو سيمونز، الذي ضم الحشاشين مثل جوتيه، ونرفال، وبودلير، وفيرلين، وآرثر رامبو[3]، منطقة جديدة بين الفنان

(1) رسام مجلات إنجلترا (1872 ـ 1898).
(2) طبيب بريطاني وعالم نفس إنجليزي (1859 ـ 1939).
(3) شاعر فرنسي (1854 ـ 1891).

والساحر، حيث «يصبح الأدب نوعًا من الدين بجميع واجبات الطقس المقدس ومسؤولياته».

* * *

في هذه البيئة المستعدة للتأثير، وصلَت إلى أوروبا باكورةُ ما سُمي لاحقًا بالمُخدِّرات النفسية الكبرى. في يوم الجمعة العظيمة[1] من عام 1897، بينما ييتس وسيمونز في باريس، كان الناقد الفني هافلوك إليس يقيم كما يفعل عادةً في غرف سيمونز بساحة فاونتن كورت. كان إليس يشعر بالوحدة في هذه العطلة الدينية، ورأى أنَّ الوقت مناسبًا لإجراء «تجربة شخصية». لقد قرأ مؤخرًا تقريرًا لطبيب الأعصاب الرائد في الولايات المتحدة، سيلاس وير ميتشل[2]، عن تجربته مع صبار البَيُّوط، وهو نبات مكسيكيّ يحتوي على خصائص تُسبِّب الرؤى، وتَمكَّن من طلب عيناتٍ مجففة من صيدليات بوتر وكلارك في لندن، المعروفة بمنتجها الأشهر «بوتر لعلاج الربو»، وهو علاج يتم استنشاقه ويُصنع من أوراق الداتورا المطحونة.

صنع إليس شرابًا مغليًا من الجرعة الكاملة التي توصَّل إليها، وهي ثلاث رؤوس من الصبار المجفف، وشربه ببطء خلال فترة بعد الظهر الهادئة. إليس هو طبيب مُدرّب، بالإضافة إلى كونه فنانًا. ويُعد أول تقرير له عن تجربته مع البَيُّوط عبارة عن وصف طبي لتأثيراته الفسيولوجية، نشر في مجلة ذا لانسيت. وفي مقالته اللاحقة التي كتبها بتفصيل أكبر للمجلة

(1) احتفال ديني في المسيحية وجزء من الاحتفالات بعيد القيامة، وتكون في يوم الجمعة السابقة له.
(2) طبيب وكاتب أمريكي (1829ـ1914).

الأدبية المتقدمة *ذا كونتمبوراري ريفيو*، ركز إليس على تجربته النفسية مع البَيُّوط ووصفها على أساس أقرب إلى النقد الفني، وجاء عنوان البَحث «فردوس جديد اصطناعي»، ممَّا يجعله ينتمي إلى تقليد بودلير (وبعد نصف قرن، سوف يستوحي ألدوس هكسلي[1] إلهامه من التأملاتِ الجمالية لإليس لكتابة مقالته النفسية الحاسمة *أبواب الإدراك*[2] عن المواد المُخدِّرة النفسية). مكتبة سر من قرأ

بدأ إليس دراسة إثنوغرافية دقيقة للاستخدام الأصلي للصبار في المناطق القِبلية في المكسيك، ملاحظًا أنَّ قبيلة التاراهومارا يعاملونه كإله، ويحتفلون به من خلال «رقصة خيالية وجميلة». ومع ذلك، عاش إليس التجربة على أنها موكب من «ما يمكن أنْ يُسمى الزخارف الحية»؛ «ساتورناليا[3] للحواس المحددة وقبل كلِّ شيء، هيجان من الرؤى»، حيث عاش في عالَم مليء بالألوان الرائعة والأشكال والأنسجة المبهرة:

> الرؤى التي كنتُ أراها لم تُشبه أيَّ شيء مألوف؛ فهي دقيقة للغاية، بيد أنها دائمًا جديدة؛ إذ تقترب باستمرار، وتفلت باستمرار، من أيِّ شكل معروف. كنتُ أرى حقولًا وافرة من الجواهر، منفردة أو مجتمعة، وأحيانًا تلمع ببريق ولمعان، وأحيانًا تتمتع وهج غنيّ وخافت. ثم تتحوَّل إلى أشكال تشبه الزهور تحت نظري، وتبدو وكأنها تتحول إلى أشكال فراشات رائعة أو طيات لا نهائية من الأجنحة الليفية اللامعة، تتلألأ بألوان قوس قزح لحشراتٍ رائعة...

---

(1) كاتب إنجليزي (1894 ـ 1963).

(2) صدرت في كتاب. وظهرت بنسخة إلكترونية باللغة لعربية عام 2023، بترجمة مصطفى جمال، عن دار إبهار.

(3) احتفالات من الأساطير الرومانية كانت تُقام سنويًا للإله ساتورن، إله الحصاد.

عندما تذكر أنَّ أتباع هذه النبتة الأصليين «يحافظون على إضاءة النار بشكل مشرق خلال طقوس الميسكال[1]»، أوقد مصباح الغاز. ومع توهّج الظلال ونبضها واكتسابها حياة خاصة بها، تذكر إليس لوحات كلود مونيه[2]، «وبينما أنا أتأمل المشهد خطر لي أنَّ الميسكال ربما ينتج بالضبط الظروف نفسها من الحساسية البصرية المفرطة، أو بالأحرى الإرهاق، كما قد ينتج عن الفنان بتأثير الانتباه البصري الطويل». واعتمد على نحوٍ كبير على مخزونه الهائل من المراجع الفنية، حيث قارن الرؤى مع «الأشياء الخزفية الجميلة»، «نمط العمارة الماوري[3]»، والتأثيرات الرقيقة «الظاهرة في الخشب المعشَّق، تلك التي نربطها بتصميم المشربيات في القاهرة».

وبعد أنْ عايش تلك التجربة بروِيَّة وهدوء، استقر رأيه أنه «لو أصبح تعاطي الميسكال عادةً، فإنَّ الشاعر المفضل لشارب الميسكال سيكون ووردزورث»، الذي وصف على نحوٍ مثالي «الهالة الجميلة التي يلقيها حول أبسط الأشياء وأكثرها شيوعًا». في الواقع، «العديد من قصائده وعباراته الخالدة يمكن القول بأنَّ المرء الذي لم يسبق وأنْ خضع لتأثير الميسكال لا يستطيع تقديرها في دلالتها الكاملة».

يُعد وصفُ إليس للحساسية البصرية المفرطة علامةً مميزة لثقافة الفنّ في القرن الذي يعيش فيه. وقد بلغ هذا الوصف ذروته في عام 1895 مع عرض أول أفلام الحركة من إنتاج أوغست ولويس لوميير في باريس، بيد

(1) من الطقوس والتقاليد التي يتبعها بعض السكان الأصليين في أمريكا الوسطى والجنوبية، تتعلق بتناول مشروب كحولي يسمى الميسكال يُصنع من نبات الصبار.
(2) رسّام فرنسي ورائد المدرسة الانطباعية (1840 ـ 1926).
(3) نسبة إلى شعب الماوري، وهم السكان الأصليون لنيوزيلاندا وجزر كوك.

أنَّ السينما كانت تجسيدًا آخرَ فحسب للهوس بالأنماط البصرية والأوهام التي بُنيت على مدار القرن.

منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، أصبحَت الأجهزة الرخيصة مثل الثوموتروب ـ القرص الذي يحتوي على صور على كلا الجانبين ومع دوران القرص يُظهِر الصورتَين كأنهما يلتحمان ويصبحان صورةً واحدة ـ شيئًا شعبيًا في الأسواق والمهرجانات. ثُم ابتُكر الزوتروب، النسخة الميكانيكية من الخدعة نفسها التي حوّلت تسلسُل الصور على برميلها الدوار إلى حلقة متحركة، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وأنتج على نطاق واسع كجهاز للترفيه المنزلي في عام 1866. وقد استخدم الستيريوسكوب[1]، الذي اخترعه الفيزيائي البريطاني تشارلز ويتستون[2] عام 1838 أداةً للبحث المخبري بسرعة في الترفيه الجماهيري؛ وبعد أنْ أُعجبت الملكة فيكتوريا بأحد هذه الأدوات في المعرض الكبير لعام 1851، بيعَت أجهزة العرض الثلاثية الأبعاد بمئات الآلاف، ممَّا أدى إلى خلْق سوق شعبية ضخمة للصور، من الفلَك إلى الإباحية.

كانت هذه الأجهزة منذ البداية أدوات علمية ووسائلَ ترفيه شعبية. وسوَّقت أدوات الثوموتروب والزوتروب على أنها «ألعاب فلسفية»، أدوات تُسعد العين وتُدهش العقل في الوقت نفسه، وفي الفترة التي تلت

(1) ويسمى أيضًا المنظار المجسم، وهو جهاز لعرض زوج مجسم (ثلاثي الأبعاد) من صور منفصلة، يصور مناظر بالعين اليسرى والعين اليمنى للمشهد نفسه، كصورة واحدة ثلاثية الأبعاد.

(2) مخترع إنجليزي (1802 ـ 1875).

استكشاف جان بوركيني[1] للصور الداخلية للعين، ضُمنت بانتظام في التجارب المعملية لعلماء النفس الإدراكي.

أظهرَت هذه الأجهزة كلها بطرق شتى. أنه يمكن إنشاء صور متحركة لا وجودَ لها بشكل موضوعيّ في العالم الخارجي في العقل. وفي عام 1824، قدَّم بيتر مارك روجيه[2]، المعروف بقاموسه الشهير، الذي شارك في شبابه في تجارب أوكسيد النيتروز التي قادها همفري ديفي، مبدأ «ثبات الرؤية» الذي يكمن وراء هذه الأجهزة من خلال التجربة.

استخدم تشارلز ويتستون[3] الستيريوسكوب لإظهار أنَّ الصورة ثلاثية الأبعاد التي يُنشئها ليس لها وجود حقيقي، وإنما صنعها الدماغ باستخدام الفرق بين صورتَين مسطحتَين. أما ديفيد بروستر، مخترع الكاليدوسكوب[4]، فرأى فيه أداةً لإنتاج التماثل والجمال بمقياس لا يمكن لأيِّ إنسان مطابقته:

> ثمة قليل من الآلاتِ، بل قليل جدًا، تلك التي ترتقي فوق مجالات المهارة البشرية. فهي تتمكن في ساعة واحدةٍ من إنتاج ما لا يستطيع ألفُ فنانٍ اختراعَه طوال العام، وتجمع بين هذه السرعة الفائقة، والعمل بجمال ودقة متناسبَين في الوقت نفسه.

وُصف بودلير الراقي أو المتجول الذي يلاحظ تغيراتِ الحياة الحضرية

---

(1) عالم تشريح ووظائف أعضاء تشيكي (1787 ـ 1869).

(2) طبيب بريطاني وعالم لاهوت طبيعي ومؤلف معجم (1779 ـ 1869).

(3) فيزيائي ورياضي وفلكي ومخترع وكاتب إسكتلندي (1781 ـ 1868).

(4) ويسمى المشكال، وهو جهاز بصري يتكون من أنبوب يحتوي على مرايا مائلة وقطع متحركة من الزجاج الملون أو المواد الشفافة الأخرى. عند تدوير الأنبوب، تنعكس القطع الملونة على المرايا لتشكيل نماذج متماثلة وجميلة تتغير باستمرار.

المتنوعة باستمرار، على أنه «كاليدوسكوب موهوب بالوعي»، يراقب ويخلق في الوقت نفسه «تعدُّد أوجه الحياة ذاتها ونعمة الضوء لجميع عناصرها». تحت تأثير البَيُّوط، يصبح العقل البشري آلة تولّد أوهامًا بسرعة وجمال هائلَين بالقدْر نفسه، لكنها مستمَدة من مصدر أعمق وأكثر غموضًا من الإشارات التي تتنقل بين العين والعصب البصري والدماغ.

تحمَّس إليس لتعاطي البَيُّوط مرة أخرى، وكان يتطلع على نحوٍ خاص لاستكشاف كيف تتفاعل رؤياه مع أشكال مختلفة من الفن. وفي هذه المناسبة، طلب من صديق له أنْ يعزف على البيانو:

> حفزَت الموسيقى الرؤى البصرية وأدت إلى زيادة استمتاعي بها... وكان هذا الأمر يرتبط خاصّة بموسيقى شومان، على سبيل المثال مع مشاهد الغابة[1] ومشاهد من الطفولة[2]... وهكذا دعا «الطائر النبوي» إحساسًا حيًا بالجو وبأشكال متألقة شبيهة بالطيور تمرّ هنا وهناك؛ أحدثَت قطعة الزهرة[3] صورًا متكررة ومستمرة للنباتات؛ في حين أنَّ شهرزاد[4] أنتج تأثيرًا من الرداء الأبيض العائم، مغطى باللمعان البراق والجواهر.

وُصف «السمع الملون» في اليونان الكلاسيكية ودرسه علماءُ النفس الألمان منذ أوائل القرن التاسع عشر؛ لكن المصطلح العلمي «الحسّ المتزامن» صِيغ حديثًا، على يد عالمة النفس الأمريكية ماري ويتون

---

(1) بالألمانية: *Waldscenen* أُلِّفت بين عامَي 1848 ـ 1849.

(2) بالألمانية: *Kinderscenen* أُلِّفت عام 1838.

(3) بالألمانية: *Blumenstück* أُلِّفت بين عامي 1838 ـ 1839.

(4) إحدى القطع الموسيقية الشهيرة التي ألَّفها الروسي نيكولاي ريمسكي كورساكوف، وصدرَت في عام 1888. وهي مستوحاة من حكايات ألف ليلة وليلة.

كالكينز[1] في عام 1893. وفي لحظة تجربة إليس، كانت هذه الظاهرة موضع اهتمام كبير للعلماء والفنانين والباطنيين على حدٍّ سواء. وتُعد أول دراسة منهجيّة للارتباطات بين الحروف والألوان قد به عالِم النفس الألماني غوستاف فيشنر[2] في عام 1876؛ وقد وصف يوجين بلوير[3]، الذي سيقدم فيما بعد مصطلح «فصام» في طب النفس، الألوانَ التي تثيرها الموسيقى بـ«التصوير الصوتي»، وكان الطبيب النفسي السويسري ثيودور فلورنوا[4] قد أجرى لاحقًا أولى الدراسات لحالاتٍ مفصلة للأشخاص الذين يعانون من هذه الظاهرة، والمعاني التي يعطونها لخصائص حواسهم.

بفضل الوصف الشهير لشارل بودلير، كان من المعروف بالفعل أنَّ الحشيش يمكن أنْ يثير حالات من التزامن الحسي، وأنَّ هذه الحالات مرتبطة بالنشوة الروحية والإلهام الإبداعي. أيّد آرثر سيمونز بودلير في وصفه للمُخدِّر أنه «ساحر يحوّل الأصوات إلى ألوان؛ والألوان إلى أصوات»، وفي عام 1899 استحضر حالة النشوة الكبرى للتحميل الحسي في قصيدته «آكل الأفيون»:

أغوص وأغرق بنشوةٍ عذبة

في موسيقى ناعمة كالعطر، وضوء حلو

ذهبي مع روائحَ سمعيةٍ فائقة الجمال...

(1) فيلسوفة وعالمة نفس أمريكية (1863 ـ 1930).
(2) فيلسوف وعالم نفس ألماني (1801 ـ 1887).
(3) طبيب نفسي واختصاصي تحسين النسل سويسري (1857 ـ 1939).
(4) عالم نفس سويسري (1853 ـ 1920).

اعتُبر الحس المتزامن دليلًا علميًا وفنيًا على أنَّ الحشيش ـ والآن البَيُّوط ـ لديه القدرة على خلق تجارب حسية لا يمكن تحقيقها في الحياة الطبيعية إلا للقلة المميزين. وفيما يتعلق عن سببها، فقد قدَّم علماء النفس نظريات متنافسة، فبعضهم اعتقد أنه ناشئ عن روابط في مرحلة الطفولة المبكرة، والبعض الآخر رأى أنها نتيجة تركيبات غير طبيعية في الدماغ، فيما عزا آخرون سببها إلى التراجع الوراثي إلى المرحلة التطورية التي كان فيها للحيوان عضو حاسّة واحدة فقط. وقد استغل هذه النظرية الأخيرة ماكس نورداو، الناقدُ الاجتماعي الذي جعله كتابه *الانتكاسة* (1892) في موقع اللعنة الرائدة للجمالية وثقافة نهاية القرن الفائت المتراجعة، وهو الذي انتقد الحس المتزامن بوصفه «دليلًا على نشاط الدماغ المريض والضعيف». وكتب أنَّ رفعَه إلى «مرتبة مبدأ الفن»، يشبه «النظر إلى العودة من وعي الإنسان إلى وعي المحار على أنها تقدُّم».

لم يرَ الباطنيون والروحانيون الحسَّ المتزامن دليلًا على التراجع، بل على شكل أعلى من الوعي، ربما حتى وصول مرحلة جديدة في تطوُّر الإنسان. كانت «أشكال الأفكار» لدى الثيوصوفيين لها ألوان توجيهية لأشكالها مع قيم روحية معينة؛ فثمة كتاب حول هذا الموضوع كتبته آني بيسانت وتشارلز ليدبيتر[1] في عام 1901 نظم معاني الألوان للنغمات الموسيقية وجعلها تتماشى مع الأشكال الملونة لجوهر *التاتفا*. كان الفنانون، وخاصة فاسيلي كاندينسكي، يعتقدون أنَّ الألوان لها صدى روحيّ، واستلهموا من الأشكال الملونة الزاهية لأشكال الفكر

(1) عضو في الجمعية الثيوصوفية (1854 ـ 1934).

الثيوصوفية. وذهب الملحن وعازف البيانو ألكسندر سكريابين[1] إلى حدٍّ اختراع كلافييه *ألوميروس*، وهي لوحة مفاتيح ملونة تُرتب النغمات على النغمات، استنادًا إلى التوافق في كتاب مدام بلافاتسكي *المعرفة السرية*، ممَّا سمح بنقل الرؤى إلى الموسيقى.

بالإضافة إلى الموسيقيين والفنانين، كان إليس مهتمًا بشكل طبيعيّ بردود فعل ييتس وسيمونز على البَيُّوط، وانضم كلاهما إليه في جلسات في فاونتن كورت، وقد تحدث عن هذه اللقاءات بشكل مجهول إلى حدٍّ ما. كان ييتس ـ شاعر «يهتم كثيرًا بالمسائل الصوفية وهو موضوع دقيق للرؤى» ـ يجد الصبار مرهقًا جسديًا؛ «يفضل الحشيش بكثير». إلا أنَّ سيمونز كان مفتونًا «لم أرَ أبدًا مثل هذا التتابع من الرؤى البصرية بمثل هذه الدقة».

عندما عزف على البيانو بعيون مغلقة «رأى موجات وخطوطًا من الألوان النقية»، لكن أكثر لحظة لا تُنسى جاءت عندما تنزه متوجهًا نحو نهر التايمز «في وقت متأخر من المساء خرجتُ إلى الكورنيش، وكنتُ مفتونًا تمامًا بإعلان «بوفريل»[2]، الذي يظهر ويختفي بأحرُف من الضوء على الجانب الآخر من النهر؛ لا يمكنني أنْ أخبركم عن المتعة الشديدة التي أعطانيها هذا الضوء المتحرك، ومدى تألُّقِه بالنسبة لي».

في مارس 1897، قدَّم ييتس عينة من «المُخدِّر الحلم» الجديد إلى

---

(1) ملحن وعازف بيانو روسي (1872 ـ 1915).

(2) علامة تجارية معروفة في بريطانيا لمنتج مرق اللحم المركَّز من شركة بوفريل التي تأسسَت عام 1886.

مود غون. وفي يونيو من العام نفسه، بدأ الصيدلي الألماني آرثر هيفتر[1] سلسلة من التجارب الذاتية مع البَيُّوط التي استمرت حتى نوفمبر مع عزل مركباته شبه القلوية التي تنتج الرؤى. أطلق هيفتر عليه اسم ميسكالين. وفي عام 1898 تعاطى ييتس ومود غون، في لندن وأيرلندا على التوالي، «الميسكالين» والحشيش لمحاولة الاتحاد الروحي التخاطري، ولم يسجل أيٌّ منهما نتيجة.

***

بحلول نهاية القرن، أصبحَت تجارب النشوة والخيالات المتعلقة بالحشيش جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الأدبية والشعبية. ففي ديسمبر 1905، نشرت مجلة *ذا ستراند* مقالًا بعنوان «هلوسات الحشيش»، وهو ملخص طويل لتجارب وصفها تيوفيل غوتييه، وبيارد تايلور وغيرهم، مصحوبًا برسومات سيدني سايم[2] الخيالية. وبحلول ذلك الحين، أصبحَت المواد المُخدِّرة مثل الأفيون والمورفين والكوكايين مشكلة اجتماعية تحت مسمى «المُخدِّرات» الجديد، غير أن القنب لم يُدرج بعد ضمن هذه الفئة.

نشر المقال قصص الحشيش دون إدانة أخلاقية، ووضعَت صور سايم هذه القصص في مشهد يشبه الحُلم ويميل إلى السريالية. وحتى ذلك الوقت، كان شيرلوك هولمز أكبر نجم لمجلة *ذا ستراند*، غير أنه كان يواجه منافسًا مستوحى من الحشيش؛ وهو الأمير زاليسكي،

(1) صيدلي وكيميائي ألماني (1859 ـ 1925).
(2) فنان إنجليزي (1865 ـ 1941).

شخصية محقق خياليّ من تأليف الكاتب الشهير للروايات والقصص الخيالية، ماثيو فيبس شيل[1]. بينما كان هولمز يستمتع بإبرته الوريدية ومحلوله المكون من 7% في غرفته بشارع بيكر، كانت شقة زاليسكي تشبه المقبرة القديمة المليئة بالكنوز، حيث يضيء سقفها المقبب بشكل خافت بواسطة مصباح بخور أخضر:

كان الهواء مثقلًا برائحة البخور العطرية، وأدخنة نبات القنب المُخدِّر ـ أساس البانج الذي يتناوله المحمدون[2] ـ الذي عرفتُ أنَّ صديقي يعتاد تهدئة نفسه به. كانت الستائر من مخمل أحمر بلون النبيذ، ثقيلة ومزينة بشرائط الذهب ومطرّزة في مرشد أباد... وتأثير الجو العام يُمثل غرابة نصف غامضة من بريق وظلام. تلازمَت النقوش الجنائزية الفلمنكية على نحوٍ غريب مع الألواح الرونية[3]، واللوحات المصغَّرة، والثور المجنَّح، والكتابات التاميلية على أوراق ملونة المطلية باللَّك[4]، وخزائن لآثار القرون الوسطى المرصعة بالأحجار الكريمة، وآلهة البراهمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) كاتب بريطاني (1865 ـ 1947).

(2) كلمة كانت تُستعمل في أوروبا والولايات المتحدة بمعنى مسلم حتى منتصف القرن العشرين في بعض الكتابات.

(3) نسبة إلى الحروف الهجائية الرونية التي كانت تُستخدم في كتابة مختلف اللغات الجرمانية قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية.

(4) غشاء رقيق لامع عازل، يُستخدم لتغطية المعادن والأخشاب والخزف الصيني.

رسم سيدني سايم لهلوسة تيوفيل غوتييه المتعلقة بالحشيش، والتي تخيل فيها غوتييه المُخدِّر على أنه جوهرة تجلس في معدته

كان هولمز، المدمن على الكوكايين، يتتبع دائمًا حالاته بنشاط، قافزًا إلى سيارات الأجرة والقطارات ويظهر بشكل غير متوقّع في مناطق بريطانيا البعيدة. وبعكس ذلك، يبدو أنَّ زاليسكي المدخن للحشيش لا يبرح غرفته أبدًا. كان يصدر مجرد «سرد رائع من الكلام النعسان والغامض إلى حدٍّ

كبير» الذي اعتاد أنْ ينجرف إليه بعد تعاطيه للمُخدِّر الذي أعدَّه بدقة، ثم يسحب بعض المجلدات الأثرية من الرفوف ويحل أكثر القضايا الجنائية صعوبة باستخدام مكتبته ومحتويات عقله الرائعة فقط.

تحوَّل الحشيش إلى نمط مألوف في الروايات ذات الطابع الانحلالي المستوحاة من رواية ضد الطبيعة لجوريس كارل هويسمانز، والتي وصفها الشاعر ستيفان مالارميه بأنها «رؤية مطلقة لجنّة الإحساس النقي، التي تتجلى أمام الفرد عندما يواجه المتعة». لم يجرب بطل هويسمانز، دي إيسينتس، أيَّ مادة مؤثرة عقليًا أقوى من العطور بسبب التحفيز الزائد الذي تعرَّض له من الأدوات الجمالية المحيطة به، غير أنَّ العديد من خلفائه استخدموا الحشيش بوصفه موضوعًا رئيسًا.

نُشرَت رواية *الحشيش* لأوسكار شميتز[1] باللغة الألمانية لأول مرة في عام 1902، وكتبها شميتز في باريس إبّان فترة حركة الانحلال في نهاية القرن، حيث كان شاعرًا شابًا وعضوًا دائمًا في صالون الثلاثاء الشهير الذي أقامته راشيلد[2]، مؤلفة الرمزية. لقد التقى جان لوران وألفريد جاري، وغمر نفسَه في الأعمال الخفية لإليفاس ليفي، وحضر طقوس مجموعة المارتينيين، وهي الرفقة نفسها التي عرّفت ييتس على الحشيش. اعتبر المُخدِّر وسيلة مثالية لما أسماه «الانحطاط العقلي»، وهو انحطاط داخليّ يمكن من خلاله الانغماس في الخيالات المَرضية دون حدود، ولكن دون خطر.

---

(1) مترجم وكاتب ألماني (1873 ـ 1931).

(2) اسم رمزي للكاتبة الفرنسية مارجريت إيمي نويل (1860 ـ 1953).

تبدأ رواية شميتز في حيٍّ لاتين كوارتر المأهول بمتأنقين وأرستقراطيين مفلسين ومتسكّعين غامضين. وبطل الرواية حريص على عدم تعاطي الحشيش في المنزل؛ مثل جان لورين، كان يخشى أنْ تنتهي التجارب الغريبة بمطاردة حياته اليومية. يشرح: «أنت لا تعرف أيَّ أجزاء من الأوهام ستبقى عالقة في الأثاث، يجب أنْ تبقى غرفتي نقية». تنتقل الأحداث إلى نادٍ مخصص للحشيش بين مقاهي البوهيمية في منطقة باتينيو، حيث:

> تمتزج رائحة خفيفة من الراتينج المحترق مع دخان السجائر الإنجليزية الأخفّ. وعلى الجدران الحمراء الداكنة، تعلّقَت نقوش وحفر سوداء عميقة، يتطلع إلينا منها صور غير واضحة تشبه رؤى الحَضُون[1]. وفي الأركان، بين نباتات غريبة، تمكنتُ من تمييز آلات موسيقية قديمة تشبه زواحف غريبة... جلسنا على وسائد. أخذ الكونت بعض أقراص الحشيش من طاولة بيننا وبابتسامة، عرض عليّ الطبق.

كان وَكر الحشيش من الأماكن الأساسية في مثل هذه الأعمال الأدبية. وكانت جزئيًا نسخة محوَّلة من وَكر أدبيّ أكثر شيوعًا، وهو وَكر الأفيون، غير أنَّ لها أيضًا نماذجها في العالَم الحقيقي، حيث أصبح التدخين الاجتماعي للحشيش أكثر شيوعًا في المدن متعددة الثقافات في أوروبا والولايات المتحدة.

في رواية الصحفي الأمريكي تي. دبليو. كوكلي *الكيف* (1897)، ينتقل بطل الرواية، الذي ينحدر من طنجة، ومن رواد وَكر *الكيف* في طنجة المعروف باسم «بيت الرؤى»، إلى نيويورك. يتجول البطل بلا هدف،

---

(1) من الأساطير: شيطان ويظهر للنساء ويمارس الجنس معهنَّ.

ويدخل في محل تبغ قرب يونيون سكوير [ميدان الاتحاد] لشراء السجائر ويلاحظ، من خلف ستار أحمر مخمليّ وراء المحل، «البخور الرقيق واللافت للنظر *للكيف*».

في الغالب توجد صالات التدخين، التي تُقدم الشيشة، في الغرف الخلفية لدى بائعي التبغ الأتراك في المدينة، ويُقدِّم بعضها غليونًا طويل السيقان وكِيف للتدخين. كما أنَّ هناك أيضًا، بحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، عدد قليل من غرف التدخين الخاصة، أُشير إليها باسم «بيوت الحشيش» في مجلات الجرائم الحقيقية، حيث صُوِّرت على أنها أوكار فاخرة للرذيلة لطالبي الإثارة المتعَبين.

ظهرَت أكثر الروايات تفصيلًا عن هذه الأوكار في تقرير بعنوان «بيت الحشيش في نيويورك»، كتبه الطبيب وخبير الإدمان في نيويورك هاري هابيل كين، ونُشر في مجلة *هاربرز مونثلي* في عام 1883 بصورة مستنكرة للرذيلة، رغم أنه من الواضح أن تأثيراته مستوحاة من الرواية الخيالية لتيوفيل غوتييه *نادي الحشاشين*.

وصَف كين رحلةً إلى المناطق الدنيا من شارع 42، والمشي عبر أزقة هيلز كيتشن[1] القاتمة، قبل أنْ يطرق بابَ منزل مظلم انفتح ليكشف عن مشهد من «الروعة الشرقية». كتب كين أنَّ المشهد، «أعاد إلى ذهني مشاهد من حكايات *ألف ليلة وليلة* المنسية منذ الصبا حتى الآن». وقد دُعي هو ودليله للدخول، وطُلب منهما تبديل ملابس الشارع بأزياء شرقية متألقة ـ ثوب وقبعة تدخين مزينة بالشرائط ونعل ـ وتم تقديم أنبوب *الكيف*

(1) حيٌّ على الجانب الغربي من مانهاتن في مدينة نيويورك.

وحلوى سوداء من العجينة مع مقولة غامضة من أجل البرَكة، وهي عبارة جون درايدن[1] «خُذْ الخير الذي يمنحك إياه الآلهة».

عندما سأل كين دليله بدهشة «لماذا كل شيء بهذه العظمة هنا؟ هل هو نزوة المالك، أمْ محاولة لإعادة إنتاج مكان مشابه في الشرق؟» تلقى إجابة قد يعطيها جاك جوزيف مورو، حيث قال الدليل:

> إنَّ الألوان والمراحل المميزة لحُلم الحشيش تتأثر بقدْرٍ كبير بالمحيط مباشرةً قبل النوم. والانطباعات التي تلقيناها منذ دخولنا، المناظر والروائح والأصوات والألوان، هي الخيوط التي ستنسجها أصابع الخيال الماهرة في أحلام الحشيش وخيالاته، والتي تبدو وكأنها حقيقية مثل تلك التي في الحياة اليومية، بيد أنها دائمًا أكثر روعة.

يُعد هذه المشهد المُبالغ فيه مقدمة لرؤى كين الخاصة بالحشيش، وهي خيال زاهٍ يتحول من الحُلم إلى الكابوس على نحوٍ مألوف وفقًا لأسلوب فيتز هيو لادلو الرفيع. وفي الأخير، مثل غوتييه عندما يدق جرس الساعة الحادية عشرة في فندق بيمودان، يُلقى بالمُؤلف إلى الشوارع القذرة، مندهشًا ومتعجبًا من «مهد الأحلام يتأرجح بهدوء في قلب مدينة كبيرة، منقول من بغداد إلى مدينة غوثام الخيالية».

ذكر كين في كتاباته الطبية الأكثر اعتدالًا، أنَّ تعاطي الحشيش في نيويورك نادرًا، وأنَّ متعاطيه يمثلون مزيجًا من السكان الأصليين لنيويورك والمهاجرين الأوروبيين، غالبًا من اليونان وتركيا (كانت شخصية مالك بيت الحشيش الخيالي يونانيًا).

---

(1) شاعر إنجليزي (1631 ـ 1700).

كانت النساء يشاركن الرجال، في بعض الأحيان في الغرف الجانبية الخاصة للحفاظ على السرية. وبمثل المجتمع السفلي الكبير في باريس، جذب مشهد المواد المُخدِّرة في نيويورك جمهورًا متنوعًا وعالميًا، حيث اختلطَت مُسكِرات من ثقافات مختلفة؛ زعم كين أنه تناول شاي أوراق الكوكا في صالة التحضير التي يمتلكها، على طريقة شعب الأنديز [في أمريكا الجنوبية] بوعاء على شكل كرة وأنابيب فضية.

وبفضل السفر والهجرة العالمية الجماعية من ثقافاتٍ مختلفة، بدأت المواد المُخدِّرة في هذا العصر تتجمع على نحوٍ حديث ومميز. وجُسِّدت حماسة الاكتشاف في مذكرات المهندس البريطاني جيمس لي، الذي تعرَّف على المورفين والكوكايين على يد طبيبه الهندي، وشرع في فترة الستينيات من القرن التاسع عشر وما بعدها في تجربة الجرعات المختلطة من منتجات الصيدلية الغربية مع الأدوية التقليدية الآسيوية. وقد كتب أنَّ أكثر تأثيرات المواد المُخدِّرة المثيرة جاءت من مثل هذه الجرعات المختلطة، حيث جُربت بحكمة قبل «زيادة الجرعات في نظام مدروس بعناية». وقد تعرَّف على الحشيش بعد وقت قريب في تلال شمال البنغال، واكتشف أنه يمكن إضافته إلى روتينه الدوائي لإنتاج تأثيرات رؤية مثيرة وتآزُر فعّال.

> تحت تأثير جرعاتٍ كبيرة جدًا، مجتمعة مع نسبة معينة من الكوكايين، من الممكن أنْ يعيش الشخص أيَّ تجربة يرغب فيها بشكل واقعيٍّ تمامًا... أجدُ أنَّ التأثير الأكثر إرضاءً ينتج بواسطة مزيج الكوكايين والحشيش، حيث إنه بحَقن الكوكايين، ثم تدخين جرعة من الحشيش. يبدو أنَّ الحشيش يُحسِّن جودة الكوكايين ويضفي عليه تأثيرًا مُسكِرًا غريبًا.

وبهذا الجمع، يشعر غالبًا برؤى واضحة في حالة اليقظة. إذا اكتسبَت هذه الرؤى طابعًا مهددًا، اكتشف أنَّ حقن حبة من المورفين محلولة في الماء يجعل الخوف يختفي، «وهذا هو تأثير الكمية المناسبة من المورفين التي تتبع المواد المُخدِّرة الأخرى». وتحت ضوء القمر الكامل، أقام في كوخ بعيد أعارته له عائلة من قبيلة النجا التي كان يتاجر معها بالمطاط، وخرج في نزهة في الغابة ووجد نفسَه وجهًا لوجه أمام نَمِر:

> وقفنا نحدق في عيون بعضنا بعضًا لفترة لا أعرف مُدّتها، حيث لم يكن للوقت أيُّ معنى لدي آنذاك. لم أشعر بأيِّ خوف، بل بالفضول فحسب، ويبدو أنني كنتُ قادرًا على قراءة أفكاره الداخلية... خطوتُ بضع خطوات إلى الأمام، ثم لاحظتُ أنه لا يزال على المسافة نفسها مني كما هو، وعرفتُ أنها رؤية. استرخيتُ وسمحتُ لعقلي أنْ يسكن، وبعد ذلك لاحظتُ أنه يقترب كما يبدو... بجهد تركيزي، طردتُ الرؤية، وعدتُ إلى كوخي، حيث أعادتني بعض أنابيب الأفيون إلى حالة طبيعية.

يعتبر جيمس لي نفسَه رائدًا في هذه المغامرات، ولكن يبدو أنه لا يدرك حجرة الصدى لحكايات *ألف ليلة وليلة* المتكررة التي عادةً ما يتم فيها تأطير السرد الأدبي للحشيش، والتي تساقط فيها مسافرو العالم الآخرون مثل سيلاس بوروس بشكل لا إراديّ. وبغياب هذا الصدى، ومع إضافة الكوكايين عن طريق الوريد، استخدم الحشيش بالطريقة نفسها التي فعلها الباطنيون؛ لتوسيع قدرات الخيال، والسماح لنفسه بالعيش في عالَم داخلي رؤويّ والتحكم به. كان منظور جيمس لي علمانيًا بشكل قاطع، واعتبر تلك الرؤى منتجاتٍ لعقله بدلًا من أيِّ قوة خارجية أو خارقة، غير

أنها أيضًا أخذتْه في رحلاتٍ كونية شاهَد فيها التطور المستقبلي للبشرية ممتدًا أمامه في لوحة عظيمة.

ثمة طريقة أخرى للهروب من تأثير الخيال الذي يفترضه جماعة الحشاشين، وحكايات *ألف ليلة وليلة*، وهي من خلال الانغماس الأعمق في مصدرهم. بعد بضع سنواتٍ من تجربة سيلاس بوروز مع *الكيف* في طنجة في عام 1892، جاءت إيزابيل إيبرهارت[1]، ابنة الروسي ألكسندر تروفيموفسكي، المؤمن بالعدمية، للعيش في المدينة قادمةً مع والدتها من الجزائر. تعلمَت العربية وأسلمَت، وعندما بلغَت سنَّ الرشد كانت تدخن *الكيف* كلَّ ليلة في مقاهي طنجة.

كانت إيبرهارت مصممةً على أنْ تصبح كاتبة، وتُوثِّق تلك العوالم السرية. تم تبنّيها في طريقة صوفية واعتمدَت اللباس الرجالي، ممَّا يسَّر لها الانتقال بين القبائل البدوية في داخل البلاد غير المستكشفة إلى حدٍّ كبير. كتبَت مقالات قصيرة عن الحياة الصحراوية وُجِدَت مع جثتها عام 1904، بعد أنْ دمَّرت الفيضانات المفاجئة المنزل الطيني الذي كانت تقيم فيه في بلدة عين الصفراء الحصينة النائية. ونُشرت المقالات أخيرًا عام 1920.

(1) مستكشفة وكاتبة سويسرية (1877ـ1904).

إيزابيل إيبرهارت حوالي عام 1900، في أثناء رحلاتها في المغرب والجزائر.

في إحدى آخر القطع التي كتبتْها وصفَت الوقتَ الذي قضتْه مع مُدخني *الكيف* في القنادسة، الواقعة في الصحراء الشاسعة على الحدود بين الجزائر والمغرب، أولئك الذين اجتمعوا كلَّ مساء في منزل متهالك جزئيًا في المدينة القديمة. وعلى النقيض من القصور المرصَّعة بالجواهر في مخيلة الغرب، كان مجلسهم بسيطًا؛ حصيرة قَشّ، صندوق قديم كطاولة، إبريق وفنجان، سلة من أوراق الكيف «لا تحتاج المجموعة الصغيرة من

مُدخِّني *الكيف* إلى أيِّ زينة أو ديكور آخر. إنهم أناس يحبون مُتعهم». يجتمعون وأشعة الشمس الأخيرة تضيء الغرفة؛ يضع أحدهم جمرًا حارقًا في الأنابيب، وآخر يعزف على الكمان الكمبري، وهي آلة ذات وترَين مربوطَين بقوقعة سلحفاة:

> الباحثون عن النسيان يُغنّون ويُصفِّقون بأكفُّهم بكسل؛ أصوات أحلامهم ترنُّ لوقت متأخر في الليل، في ضوء خافت من مصباح مزخرف بمعدن الميكا. ثم تتلاشى الأصوات تدريجيًا، وتصبح مبهمة، وتتباطأ الكلمات. في النهاية، يصمت المدخنون ويكتفون بمجرد التحديق في الزهور بنشوة. إنهم متذوقون للملذات، مشتهون للمتعة؛ ربما يكونون حكماء. حتى في أظلم أرجاء الحياة السفلى في المغرب، يمكن لمثل هؤلاء الرجال أنْ يصلوا إلى الأفق السحري حيث يُحرِّرون أنفسَهم لبناء قصور أحلامهم المليئة بالبهجة.

الجزء الرابع

فُقِدَ وعُثِرَ عليه

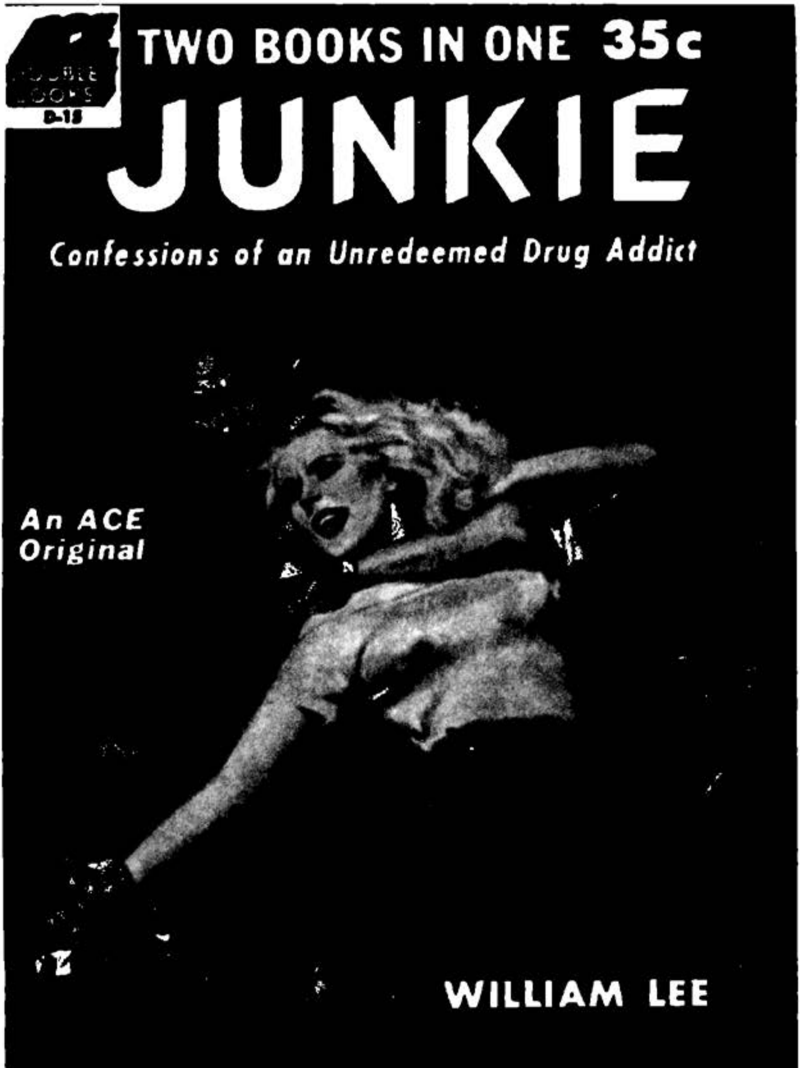

تنبأت أول رواية لويليام بوروز، التي كتبها تحت اسم مستعار، بالنهضة المعاصرة في القرن العشرين للاهتمام بالمواد المُخدِّرة والوعي المتغير.

الفصل السابع

خطيئة، أَمْ جريمة، أَمْ عادة سيئة أَمْ مرض؟

«ليس مُدمنًا!»، كان هذا عنوانَ بَحث في إصدار 23 ديسمبر 1899 من المجلة الأسبوعية *الكيميائي والصيدلي*. يدور البَحث حول قصة شاب سُجن لمخالفته قواعد «مصحة للسكارى المعتادين» في ضاحية تويكنهام بلندن. حيث كان محتجَزًا في تلك المصحة «للعلاج من إدمان المواد المُخدِّرة»، غير أنه غادر المكان دون إذْن، واستطاع الحصول على بعض الكوكايين للحقن. جادل محامي الدفاع بأنَّ قانون السكارى المعتادين لم يذكر «الأشخاص المدمنين على تعاطي المواد المُخدِّرة أو المنشطات». وفي الشهادة المطبوعة القياسية التي ألزمَت المدعى عليه، شُطبَت عبارة «الشرب المعتاد» يدويًا، وكتابة «تعاطي المواد المُخدِّرة» بدلًا منها.

يُشير قاموس أكسفورد الإنجليزي إلى هذا التقرير الذي يعود إلى نهايات القرن التاسع عشر على أنه أقدم مثال على المعنى الثانوي لكلمة «المواد المُخدِّرة». واليوم، ربما يكون معناها الرئيس «مادة لها تأثيرات مُخدِّرة أو منشطة أو منومة تُستخدم لأغراض ثقافية أو ترفيهية أو أخرى غير طبية».

قبل هذه المرحلة، كانت كلمة «مُخدِّرات» (drugs) ـ كما في عنوان مجلة *الكيميائي والصيدلي* ـ تشير على نحوٍ عامّ إلى جميع الأدوية. فعلى مدار العقود السابقة، كانت المواد المُخدِّرة أو المواد المؤثرة في العقل غالبًا ما تُجمع معًا، غير أنها كانت تتطلب وصفًا محدَّدًا مثل «سامّ» أو «مُسكِر» أو «خطير» أو «مدمن» لتوضيح المعنى. وفي القرن العشرين، أصبحَت كلمة «المواد المُخدِّرة» المفردة تشمل كلَّ هذه المعاني ضمنيًا. وأصبحَت «المواد المُخدِّرة» اختصارًا لمجموعة من المواد التي تحتمل خطر التسمم الذاتي أو الإدمان أو الأمراض العقليَّة عند تعاطيها بدون إشراف طبي مناسب.

ظهر المعنى الجديد لمصطلح «المواد المُخدِّرة» دون أنْ يلاحظه الكثيرون؛ ففي البداية نُشر في عناوين الصحف، ثم انتقل تدريجيًا إلى الوثائق الرسمية مثل تقارير الشرطة، وإبّان الحرب العالمية الأولى أصبح دارجًا في الكلام الشائع. كانت الاعتراضات الرسمية الوحيدة على ذلك من جانب الجمعية الأمريكية للصيدلة، التي أعربَت عن قلقها من أنْ تتضرر تجارتهم المشروعة. وتحت ضغط من الرعاة الرئيسين لها مثل جونسون آند جونسون، اشتكت الجمعية من استخدام عبارات عشوائية مثل «شرّ المواد المُخدِّرة» و«شيطان المواد المُخدِّرة» و«عادة المواد المُخدِّرة»، التي اعتبروها إساءةً موجَّهة لمجموعة منتجاتهم بأكملها، وحثّوا الصحافة على استخدام مصطلحاتٍ أكثر تحديدًا مثل «الناركوتيات» أو «الأفيونيات» عندما يتعلق الأمر بالمواد المُخدِّرة الخطرة. ومع ذلك، انتشر مصطلح «المواد المُخدِّرة» الجديد، وأصبح بسرعة محملًا بمعانٍ وروابط تتجاوز بكثير التجارة الصيدلانية.

في بداية القرن الجديد، شهدنا صعود ما عُرف بالعصر التقدمي، وهي رؤية ديناميكية للحداثة أعادت تقدير فوائد المواد المُخدِّرة ومخاطرها بشكل حادٍّ. أبرز معالم هذه الحركة الجديدة هو توسيع دور الحكومة، ونمو النشاط المدني والمجتمعي، واستبدال التدخل والتنظيم الحكوميّ ليحلَّ محلها السياسة والاقتصاد الحُرّ. مع تحقيق أعظم النجاحات في العصر التقدمي من خلال تحريك تحالفات من مختلف أطياف التوجهات السياسية، ممَّا جمع بين المصالح التقدمية والمحافظة ضد عدو مشترك؛ هو القوة الشامخة للصناعة وطبقة الأثرياء الحاكمة. ويُعد حظر الكحول في الولايات المتحدة أكثر مشاريع هذه الحقبة طموحًا، ونموذجًا لذلك، حيث تم تحقيقه بتحالُف القوى التقدمية، وانطلاق حملات مكافحة الخمور وحركة المرأة وجمعيات العمال والنقابات العمالية والمهنية الطبية، مع الأصوات المحافظة للكنائس والنخب البوريتانية[1] القديمة.

عند بعض الناس، كانت هذه تُعد حملة للعدالة الاجتماعية ضد مصانع إنتاج الجعة والمقطرات التي تسببت في تآكل النسيج الاجتماعي بغرض الربح الخاص؛ وعند البعض الآخر، مثَّلت حملة أخلاقية لتخليص المجتمع من شرور الشراب. بيد أنَّ كلا الفريقَين تجمعهما القناعةُ المشتركة بأنَّ التسمم، سواء بالكحول أو المواد المُخدِّرة الأخرى، كاد يفلت من السيطرة، ويهدد المجتمع المتحضر في المستقبل.

يُعد الكحول هو الهدف الرئيس لهذا التحالف، ولكن المنطق نفسه ينطبق على «المواد المُخدِّرة». كان يُنظر إلى كليهما على أنهما مظاهر خبيثة

(1) مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية والسياسية واللاهوتية والأخلاقية.

للأعمال التجارية الكبيرة المفترسة. فقد كانت تجارة الأدوية التي تسبب الإدمان مصدرًا ضخمًا للدخل لصالح الشركات، من تكتلات الكحول والتبغ والأدوية، إلى مستخلصي الثروة الاستعمارية مثل مُورِّدي الأفيون في الهند البريطانية أو أقطاب القهوة والتبغ في البرازيل. وأدى الإنتاج الضخم وتقنيات التصنيع الجديدة إلى جعل الأدوية أرخص، وأكثر انتشارًا وفعالية وخطورة. استغلت الإعلانات ووسائل الإعلام الجماهيرية الأفراد الضعفاء، في بيع وعود وهمية حول الصحة، بينما تخفي المواد المُخدِّرة القوية في الأدوية المرخصة غير المعلنة. وأظهرَت كمية البيانات الكبيرة التي أصبحَت الآن تُستخدم في سياسة الصحة العامة ـ على سبيل المثال، جداول التأمين العمري لشركات التأمين على الحياة ـ بشكل أوضح، أنَّ العمر المتوقع للإنسان كان أقصر، وأنَّ الأمراض المزمنة أكثر شيوعًا بين المستهلكين بكثرة للكحول والمواد المُخدِّرة الأخرى. كانت هذه تكاليف اجتماعية يتحملها المجتمع والاقتصاد ككل، مع تحقيق جميع المنافع للشركات الكبرى والثروة الخاصة.

* * *

خلال القرن التاسع عشر، كانت مخاطر المواد المُخدِّرة المسكرة نادرًا ما يتم تجاهلها. وتناولتها الأدبيات المتعلقة بها دائمًا بنبرة تحذيرية، وكان على المهنيين الطبيين على نحوٍ خاص توخّي الحذر في الموازنة بين تأييد فوائدها والتحذير من مخاطرها. ومع ذلك، كان الافتراض السائد أنَّ هذه المخاطر يمكن التعامل معها على نحوٍ أفضل من خلال المعلومات الطبية والضغط الاجتماعي، بدلًا من حظر الحكومة.

خارج حدود الغرب الحديث، امتد نطاق حظر المواد المُخدِّرة على

مستوى الدولة، والذي بدأ بتجريم الحشيش في مصر التي كانت تحت إدارة الحكومة الفرنسية، ليشمل مناطق عديدة حول العالم. وتوسَّعَت هذه السياسة لاحقًا في الفلبين، حيث منعَت الحكومة العسكرية الأمريكية المحتلة تجارةَ الأفيون في عام 1898. وأُقِرَّت عدة قوانين في الولايات المتحدة نفسها لحظر مبني على أساس العِرق، بدءًا من سان فرانسيسكو في عام 1875 حيث أُصدر مرسوم قانوني بإغلاق أوكار الأفيون في حي تشايناتاون؛ في حين لم يتأثر بيع منتجات الأفيون في الصيدليات.

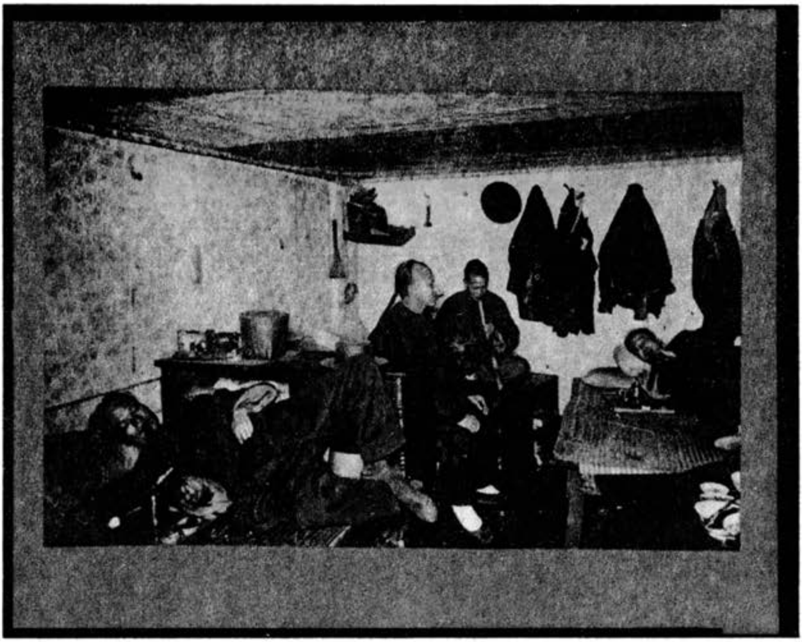

طُبقت أولى قوانين حظر المواد المُخدِّرة على الأقليات العِرقية، مثل المرسوم الذي صدر في عام 1875 بحظر الأفيون في تشايناتاون بسان فرانسيسكو.

في تلك الأثناء، كانت الأغلبية البيضاء من الديمقراطيات الليبرالية تتمتع بحرية الاختيار الفردية. غالبًا ما يُصاغ هذا المبدأ بالمصطلحات التي

وضعها جون ستيوارت ميل[1] في كتابه عن *الحرية* (1859)، الذي تناول الموضوع على نحوٍ مباشر «ما الحدُّ المشروع لسيادة الفرد على نفسه؟ أين تبدأ سلطة المجتمع؟» كان ردُّ ميل أنَّ الفرد له سيادة على تصرفاته الشخصية؛ أما إذا أدت تلك التصرفات إلى إلحاق الأذى بالمجتمع أو انتهاك القانون، فيجب معاقبة مثل هذه التجاوزات بحسب القانون الذي يعاقب عليها، بدلًا من تقييد الحريات التي مكَّنتها. وأعرب عن اعتقاده أنَّ الإساءة للحرية يعاقب عليها على نحوٍ صحيح، ليس بموجب القانون، بل في الرأي العام. الشخص الذي:

> لا يستطيع أنْ يعيش ضمن الوسائل المعتدلة، مَن لا يستطيع كبح نفسِه عن المتع الضارة، مَن يسعى وراء الملذات الحيوانية على حساب تلك المشاعر والعقل؛ يجب أنْ يتوقع أنْ تتأثر سُمعته سلبًا في نظر الآخرين، ويقل نصيبه من احترامهم؛ وفي هذه الحالة لا يلوم إلا نفسَه.

يتناسب فكر ميل مع الرأي السائد على نطاق واسع بأنَّ القرن التاسع عشر هو العصر الأول الحقيقي للفرد. حيث تخلصَت الأممُ الواحدة تلوَ الأخرى من اِستِعبادها الإمبراطوري، واختار كلُّ شعب تعريفَ نفسه من خلال لغته ومجتمعه وثقافته؛ بدلًا من الولاء للملوك أو الأباطرة. وحُرّر عامة الناس من الالتزامات القانونية مثل ضريبة العُشر للكنيسة والحضور الديني، وأصبح بإمكانهم تعريف أنفسهم وفقًا لمواقعهم الخاصة، كأصحاب ممتلكات وناخبين ومستهلكين.

في أوائل القرن العشرين، أصبح مذهب الفردية وتخفيف

---

(1) فيلسوف واقتصادي إنجليزي (1806 ـ 1873).

المسؤوليات الاجتماعية مصدرًا للفوارق الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة والاستياء الشديد. وهاجم المفكرون التقدميون «الفردية المفرطة» التي تشجع الأنانية والجشع. أثبتَت الدراسة الكلاسيكية *الانتحار* (1897) التي أجراها مؤسس علم الاجتماع إميل دوركهايم[1] أنه حتى أكثر الأفعال الخاصة لها بُعد اجتماعي يمكن قياسه إحصائيًا، وشخص التهديد المزدوج للحداثة على أنه «الأنانية» و«الفوضى الأخلاقية»؛ حالة اجتماعية تترك الأفراد معزولين عن بعضهم بعضًا، ومحرومين من دعم المجتمع التقليدي والقيم المعمول بها. تمثَّل حلُّ هذه المشكلات في تجديد المجتمع المدني. وقدَّم الفيلسوف جون ديوي[2] مصطلح «رأس المال الاجتماعي» لوصف النموذج المجتمعي الجديد، ودعت الكنائس البروتستانتية في الولايات المتحدة إلى «إنجيل اجتماعي» يُناهض الطبقة الثرية، واقتصاد المنافسة الذي لا يقبل المساواة في العصر الذهبي[3].

من هذا المنظور، فإنَّ أولئك الذين يتعاطون المواد المُخدِّرة، لا يستعبدون أنفسَهم طوعًا لصالح رجال الأعمال الفاسدين فحسب، بل يدمرون النسيج الاجتماعي بلا تفكير وبأنانية. وسواء كانوا يتعاطون الكحول، أو المورفين، أو الحشيش، أو الكوكايين، فإنهم يختارون الانعزال عن العالم المشترك مع المواطنين، ويسيئون ممَّارسة حريتهم

(1) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي (1858 ـ 1917).
(2) فيلسوف وعالم نفس أمريكي (1859 ـ 1952).
(3) مصطلح يشير إلى تاريخ الولايات المتحدة من عام 1877 إلى عام 1900. حيث شهد ازدهارًا اقتصاديًا سريعًا. مع نمو الأجور أعلى من نظيرتها في أوروبا، وتطلَّب التصنيع زيادة في القوى العاملة، وشهد تدفق ملايين المهاجرين الأوروبيين.

الفردية بالانسحاب إلى واقع خاصّ وشخصيّ على حساب المجتمع وضرره، ويفتقرون للقدرة على التعاون والتفاعل مع الآخرين في بناء العالم الذي نعيش فيه. وكان التأثير في الوعي شكلًا متطرفًا من الفردية المفرطة؛ إذ كان متعاطو المواد المُخدِّرة مستفيدين غير شرعيين منفصلين عن زملائهم؛ وفي الوقت نفسه يتوقعون أنْ يتحمل الآخرين تكاليف عاداتهم! عندما حُدِّدَت هذه التكاليف جديًا، بدأ النظر إلى الكحول والمواد المُخدِّرة الأخرى من خلال عدسة المخاطر والأضرار والمخاوف المرتبطة بها.

أطَّر مصطلحاتِ النقاش الجديدة على نحوٍ بارز نورمان كير، وهو طبيبٌ بريطاني أطلق في عام 1884 جمعية الامتناع التام عن التعاطي، المعروفة باسم جمعية دراسة وعلاج إدمان المُسكِرات. طرح كير في خطاب الإطلاق التأسيسي سؤال «هل المُسكرات خطيئة، أمْ جريمة، أمْ عادة سيئة أَمْ مرض؟». إذا كانت المُسكرات خطيئة، فالأمر يتعلق بالضمير الفردي أو التعليم الديني؛ وإن كانت عادة سيئة، فعلى المتعاطي أنْ يتعامل معها من خلال العقوبة الاجتماعية، على غرار ما أوصى به جون ستيوارت ميل، وربما يخضع للضرائب الحكومية بوصفها ترفًا. ومع ذلك، إذا كانت جريمة أو مرضًا، فيجب التعامل معه من خلال الضبط الطبي أو القانوني. ولم يضع احتمالًا خامسًا. وحدد كير المُسكرات ـ التسمم بالكحول أو المواد المُخدِّرة الأخرى ـ مسبقًا بوصفها مشكلة؛ والمهمة المطروحة كانت تحديد نوع المشكلة. لقد ابتكر مصطلح «هوس المواد المُخدِّرة» لوصفها، وكان رأيه الشخصي «أحيانًا تكون الأربعة معًا، غير أنَّ المُسكرات في

الغالب هي مرض أكثر من أيِّ شيء آخر، وحتى عندما يكون ثمة شيء آخر، فهو مرض أيضًا».

* * *

أحد النجاحات المبكرة للعصر التقدمي هو قانون الأغذية والأدوية النقية لعام 1906، ويمثل الاستجابة الفيدرالية لموجة من حملات المستهلكين ضد الأطعمة والأدوية المغشوشة. ولقد أطلقَت مجلة *كوليرز ويكلي* على هذا الوضع اسم «الفضيحة الأمريكية الكبرى» من خلال سلسلة طويلة من التحقيقات المكشوفة. وأصبحَت المسألة قضية ملتهبة في عام 1905 عندما كتب أبتون سنكلير[1] سلسلة صادمة من التحقيقات حول الظروف المستغلة وغير الصحية في مصانع تعبئة اللحوم بشيكاغو. تم تكييف هذه السلسلة في العام التالي إلى رواية حققت نجاحًا كبيرًا بعنوان *الغابة* (1906).

(1) مؤلف أمريكي (1878 ـ 1968).

تُوِّجت حملة مجلة *كوليرز* ضد الأدوية غير المرخصة بقانون الأغذية والأدوية النقية في الولايات المتحدة (1906).

حظيَت الحملة بدعم مهني من الجمعية الطبية الأمريكية، التي كانت في ذلك الحين تحت سيطرة مجموعة من الأطباء ذوي العقليَّة الإصلاحية الذين يضغطون من أجل وضع ترخيص أكثر صرامة للطب، وتوسيع التمويل لكليات الطب ووزارة الصحة الفيدرالية. وقاد معارضة القانون محامو الشركات الذين يمثلون صناعات التعليب والويسكي وبراءات الاختراع. تم تحويله إلى قانون بفضل الجهود الدؤوبة للدكتور هارفي وايلي[1]، رئيس قسم الكيمياء في وزارة الزراعة الفيدرالية، والذي أصبح يُعرف باسم «الكيميائي المناضل». وكوفئ وايلي بتنصيبه رئيسًا للوكالة الجديدة التي أنشئت بفضل القانون، وهي الإدارة الفيدرالية للغذاء والدواء.

استخدم قانون الغذاء والأدوية النقي لعام 1906 مصطلح «الأدوية» (drugs) بمعناه التقليدي الواسع، وكانت قضية المواد المُخدِّرة محلَّ اهتمام ثانوي فقط، ولكن القانون عزز التصور بأنه يجب معالجة المواد المُخدِّرة بوصفها مشكلة صحية عامة. بالإضافة إلى استخدام الإضافات الصناعية السامة في إمدادات الأغذية، واستهدف انتشار أدوية براءات الاختراع، التي شكلَت بحلول عام 1900 أكثر من 70% من سوق الأدوية الأمريكية. وكشف الاختبار الكيميائي الذي أجراه عليها فريق وايلي عن إضافاتها المُخدِّرة غير المدرَجة في القائمة ـ الأمر الذي أثار قلق مُناصِري حملات الاعتدال ـ ومستوياتها العالية من الكحول، في بعض الحالات بنسبة 50 أو 60%.

نصَّ قانون عام 1906 على أنَّ جميع الأدوية التجارية المباعة في

(1) كيميائي أمريكي (1844 ـ 1930).

الولايات يجب أنْ تُدرِج المواد التي تحتوي عليها، غير أنَّ وايلي رأى أنها خطوة أولى للقضاء على بيع الناركوتيات والمنبهات نهائيًا. إذ لم يعُد مسموحًا حتى بمستويات ضئيلة من الكوكايين في أدوية براءات الاختراع؛ كما قال هارفي وايلي لأحد محامي شركات الأدوية «الكمية لا تُشكِّل فرقًا على الإطلاق».

تضمنَت رؤية هارفي وايلي للمستقبل، كما عبَّر عنها «تدمير تجارة الأدوية ذات براءات الاختراع التي تحتوي على هذه المواد المُخدِّرة المسببة للإدمان عمليًا». وعارض بشدة «المواد المُخدِّرة» (drugs) بالمعنى الجديد للكلمة، وكان يأمل أنْ يفرض قانونه حظرًا فدراليًا على تجارتها. أدى التأثير الفوري للقانون إلى إزالة الكوكايين تقريبًا بالكامل من نشاط البيع العام، وتقليل تجارة الأدوية المحفوظة التي تحتوي على المواد المُخدِّرة بنسبة الثُّلث.

كان تأثير العصر التقدمي في التجارب الذاتية العلمية مع الأدوية مخيفًا بشكل مفاجئ، ومتوافقًا مع اتجاه أوسع في علم النفس؛ وهو التحول من الاستبطان إلى البيانات الموضوعية القابلة للقياس، ومن التقارير الذاتية إلى الدراسات الجماعية والفئوية.

بدأ إميل كرابلين[1]، طبيب الأمراض النفسية الذي قدَّمَت تصنيفاته للأمراض العقليَّة أساسَ النظام التصنيفي السائد اليوم، حياتَه المهنية في مختبر فيلهلم فونت في جامعة لايبتزغ، حيث يقيس التأثيرات العقليَّة لـ«سموم الأعصاب» ومنها الكحول والكافيين والكلوروفورم ونترات

(1) طبيب نفسي ألماني (1856 ـ 1926).

الأميل والحشيش. رأى فونت أنَّ المواد المُخدِّرة المسكرة، لا تختلف عن الأحلام أو الجنون، فكلها أشكال للتجربة الداخلية غير القابلة للتحقق التجريبي، إلا أنَّ كرابلين صمَّم تقنيات لقياسها. وفي سلسلة من الأوراق البحثية المنشورة بين عامَي 1881 و1892، حدد التغييرات في وقت ردِّ الفعل التي تُحدِثها مختلف المواد المُخدِّرة بجرعات مختلفة، باستخدام جهاز راصد للزمن حديث التصميم يلتقط ردود الفعل بالملي ثانية.

اشترك كرابلين بنفسه في هذه التجارب، غير أنه لم يحدد هويته بين المشاركين، ولم ينشر أيَّ تقرير شخصي. وقد أنتج سلسلة من الجداول التي ربطَت بين الأدوية وجرعاتها وعدد المتطوعين وأوقات الاستجابة ومهارات القراءة والحساب، وقراءات جهاز القياس الديناموميتر من النوع الذي استخدمه فرويد في تجاربه على الكوكايين. وقد انتقد بعض علماء النفس نتائجه؛ كونها غير قاطعة وتحتوي على عدد كبير من المتغيرات التي يصعب التحكّم فيها، واعترف بأنَّ النتائج التي حصل عليها «قد تكون مستقلة عن الدواء، وناتجة عن تأثيرات مختلفة». ومع ذلك، فإنَّ أساليبه توقعت الاتجاه الذي كان يهدف إليه علم النفس، وقدَّمَت الأُسُس لعلم علم النفس الدوائي الصارم القائم على المعطيات الإحصائية. وعندما تولى منصبَ أستاذ في علم النفس الطبي بجامعة هايدلبرغ عام 1890، بدأ في مقارنة «الذهان النموذجي» التي تسببها الأدوية، كما سماها، مع تلك التي يعاني منها مرضى المستشفيات النفسية؛ من ثَمَّ إنشاء فئات جديدة من الأمراض مثل الفصام، واضطراب المزاج ثنائي القطب.

أقنعَت هذه الأبحاث كرابلين بخطورة تعاطي الكحول، ودفعتْه في عام 1892 إلى الانضمام إلى صفوف الممتنعين عنها. وكتب في مذكراته: «ممَّا

أثار دهشتي، أنني اكتشفتُ أنه لم يكن ثمة دافع مقبول لتناول الكحول، سوى الرغبة في تحسين المزاج». إذ حتى ذلك الحين، كان ينظر إلى الكحول ببساطة على أنها جزء من الحياة الاجتماعية، ولكنه بعد ذلك شارك في تأسيس جمعية للأطباء الممتنعين ومقهى عام خالٍ من الكحول في هايدلبرغ، وقاد حملةً واسعة لرفع الوعي حول الصلة بين إدمان الكحول والأمراض النفسية. كان هذا الموقف، على الأقل في ألمانيا، موقفًا غريبًا، بيد أنه جاء في وقته المناسب.

> المشكلة الأسوأ، أنني كنتُ مشاركًا باستمرار في مناقشات لا نهائية حول الكحول. بالتدريج، لاقت آرائي الغريبة قبولًا، وأكد لي عدد متزايد من الأشخاص أنني على حقٍّ تمامًا وأنهم لا يشربون الكثير أيضًا، فقط من حين لآخر في المناسبات الاجتماعية. لقد أثَّرتُ في الجميع. أنا متأكد تمامًا أنَّ كلَّ مسيرتي العلمية والعملية لم تجعل اسمي مشهورًا كما فعلتْ حقيقة أنني - ببساطة - لا أشرب الكحول.

في عام 1896، انضم إلى كرابلين في هايدلبرغ، باحثٌ بريطاني شاب يُدعى ويليام هالس ريفرز[1]، الذي كان يدرس تأثير الكحول والمواد المُخدِّرة الأخرى على الإجهاد العقلي. كان عمل ريفرز جزءًا من مشروع لقياس الأضرار التي تُسببها المواد المُخدِّرة بالتطبيق على عينة واسعة من الأفراد، ولا سيما تأثيرها في الصناعة والإنتاجية. كانت «الإدارة العلمية» للعمل في المصنع، التي أسسها المهندس الميكانيكي فريدريك وينسلو تايلور[2] عام 1883، بداية «دراسة الوقت والحركة»، حيث تم تقسيم

(1) عالم أنثروبولوجيا وطبيب نفسي إنجليزي (1864 - 1922).
(2) مهندس ميكانيك أمريكي (1856 - 1915).

العمليات الصناعية إلى وحداتها الأولية وتوقيتها. وأمل ريفرز أنْ يؤدي قياس الإرهاق الذهني الناجم عن الكحول والمواد المُخدِّرة الأخرى إلى توفير مؤشر موثوق به لتأثيرات هذه المواد، بالإضافة إلى تمكين رجال الصناعة من قياس الإنتاجية التي فقدوها.

يُعد ريفرز طبيبًا يولي اهتمامًا كبيرًا بالعوامل النفسية في الطب؛ فقد كتب أوراقًا بحثية حول الهستيريا والوهن العصبي وفسيولوجيا الرؤية. كما أنه مُجربًا ذاتيًا مؤكدًا، حيث عمل لاحقًا مع زميله هنري هيد[1] على تجربة جريئة تضمنَت قطْع الأعصاب الجلدية في ساعِد هيد لقياس معدل تجدُّدها. ومع ذلك، فقد آمن بشدة بأنَّ «التأمل الذاتي يمكن أنْ يكون مثمرًا من خلال التجربة الشخصية لمراقب مُدرَّب فقط».

اعتمد ريفرز طريقة «الرسم الحركي» لكرابلين، والتي تتمثل في مجموعات البيانات المتولدة عن تجارب متكررة في فترات منتظمة، والتحكم في المتغيرات إلى أقصى حدٍّ ممكن. ولاحَظ من خبرته الشخصية أنَّ التجربة الذاتية مع المواد المُخدِّرة تخلق سلسلة من ردود فعل لا يمكن استبعادها. وكانت بعض التجارب تثير اهتمامه أكثر من غيرها، ولا مفرَّ من تأثّر نتائجه بـ«الاهتمام والإثارة التي تنتج عن تناول مادة عندما يكون اكتشاف تأثيرها هو الدافع للتجربة بأكملها»:

> يُعَدُّ «منحنى الرسم الحركي» عاملًا حساسًا للغاية نحو أيٍّ شكل من الإثارة العقلية. قد يكون لأيٍّ شيء جديد يدخل في سياق التجربة تأثير واضح للغاية في مقدار العمل. إنَّ الاهتمام بأن التجربة جديدة، أو معرفة بأنَّ الأداء مُراقَب، أو مشاهدة الوزن وهو يرتفع على جهاز

(1) طبيب أعصاب إنجليزي (1861 ـ 1940).

القياس الديناموميتر، أو رؤية شكل المنحنى على الأسطوانة، أو أيّ روتين آخر في التجربة اليومية، قد يؤثر على نحوٍ واضح في حجم العمل المنتج. ومن المرجح أنْ يكون الاهتمام المثار كبيرًا سواء كان المُخدِّر مجهولًا، بحيث يكون هناك عنصر من الغموض في الحدوث، أو أنَّ طبيعته معروفة. وحينما يكون المجرب هو الفرد نفسه، ومهتمًا بشدة بالنتائج المحتملة للتجربة، فسوف يكون عامل الاهتمام هذا قويًا جدًا في كثير من الأحيان.

لاحظ فرويد قبل عشرين عامًا، أنَّ التجارب الذاتية تضع مطالب متناقضة على العلماء؛ فهم مضطرون ليكونوا مجربين ومراقبين في الوقت نفسه، كعقل يحاول مراقبة فكره الخاص دون التأثير عليه. أجرى ريفرز تجارب على الكوكايين باستخدام جهاز القياس الديناموميتر كالتي أجراها فرويد، ووضع نفسه في التجربة مع توليد نتائج مشابهة. ولم يتمكن من إثبات ما إذا كان تقليل التعب الذي ينتجه المُخدِّر ناتجًا عن «تأثيره في الجانب الحسي للآلية العصبية المعنية»، كما تقول نظرية فرويد، أمْ أنه ببساطة «نتيجة التأثير المباشر للكوكايين على العضلات»، كما أشار إلى ذلك باحثون آخرون.

بعكس فرويد، دوّن ريفرز نتائجه حصريًا بصيغة الغائب، معتمدًا على التراكيب المبنية للمجهول التي أخفَت مشاركته الشخصية؛ سجلت تجاربه على التبغ، على سبيل المثال، أنَّ «التدخين كان ممتعًا بوضوح، وثمة بالطبع تحفيز حسيّ قوي». سرعان ما ابتعد ريفرز عن العمل التجريبي، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى التحق بالفيلق الطبي بالجيش الملَكي البريطاني وُكلّف بالعمل الذي اشتُهر به أكثر من غيره،

وهو علاج الصدمة النفسية التي أصيب بها سيغفريد ساسون[1] وغيره، في مستشفى كريغلوكهارت بإسكتلندا. ولكن استمر الاستشهاد بعمله على الإجهاد على نطاق واسع، وإلى جانب مع عمل كرابلين، ووضع معيارًا لعلم النفس الدوائي الكمي المستند إلى البيانات، والذي سيهيمن على هذا المجال في القرن العشرين.

تم تسريع وتوطيد الانسحاب من الذاتية بفضل المذهب الجديد للسلوكية، الذي طوَّره حينذاك جون واطسون[2] في قسم علم النفس في جامعة جونز هوبكنز. كان واطسون يشعر باشمئزاز شديد تجاه أسلوب الاستبطان، حيث كتب فيما بعد: «كرهتُ أنْ أكون مشاركًا في الدراسة. كنتُ أشعر بعدم الراحة وأتصرف على نحوٍ غير طبيعي». ووجد من الصعب جدًا مطابقة استجاباته الخاصة مع تلك التي يقدمها زملاؤه، وانجذب بسرعة ـ قدْر الإمكان ـ نحو التجارب على مستعمرته الجيدة المحافظة من الجرذان البيضاء في المختبرات. وفي عام 1913، نشر مذكرة تفويضية لنهجه الجديد بعنوان «علم النفس كما يراه السلوكي»، حيث أعاد تعريف هذا التخصص بوصفه «علمًا طبيعيًا موضوعيًا بحتًا»:

> هدفه النظري هو التنبؤ بالسلوك والسيطرة عليه. لا يشكل الاستبطان جزءًا أساسيًا من طُرقه، ولا تعتمد القيمة العلمية لبياناته على استعدادها للتفسير فيما يتعلق بالوعي.

رفض واطسون فكرة الوعي برُمَّتِها، والتي اعتبرها بقايا من الماضي الديني. وكتب «كلُّ ما حققه فونت وطلابه حقًا هو تغيير كلمة «الروح»

---

(1) شاعر وكاتب وجندي إنجليزي (1886 ـ 1967).
(2) عالم نفس أمريكي (1878 ـ 1958).

إلى كلمة «الوعي». لكن من خلال افتراض «أنَّ هناك شيئًا اسمه الوعي، ويمكننا تحليله بالكامل من خلال الاستبطان... نجد تحليلات متعددة بعدد علماء النفس الأفراد». مع انتشار السلوكية، دُفِع التجريب على الذات إلى الهامش. بمجرد اعتبار حالات الوعي التي تولدها المواد المُخدِّرة غير ذات صلة، أمكن الحصول على بيانات موضوعية عن آثارها السلوكية بشكل متساوٍ من الجرذان في المختبر. أدى ظهور أدوات جديدة مثل التخطيط الكهربائي للدماغ، والمستخدَم لأول مرة على البشر في عام 1924، إلى تسريع المسار بعيدًا عن دراسة الوعي، ونحو قياس نشاط الدماغ.

أولئك الذين استمروا في إجراء التجارب على أنفسهم أصبحوا استثناءات واضحة. أحد هؤلاء كان ويليام ماكدوغال[1]، زميل ويليام هالس ريفرز الذي سافر معه في بعثة جامعة كامبريدج عام 1898 لدراسة علم النفس عند سكان جزر مضيق توريس وغينيا الجديدة. انتقل ماكدوغال لاحقًا إلى علم النفس التجريبي، وأصبح عام 1901 أحد مؤسسي الجمعية البريطانية لعلم النفس. وفي سلسلة من المناقشات العامة ذات الشهرة العالية، حدد موقفه ضد واطسون، الذي أطلق على نظريته اسم «الآلية»، حيث كان يعامل البشر كأنهم آلات.

ادَّعى ماكدوغال أنه يمثل الصورة الحقيقية للسلوكية؛ أيْ الشخص الذي يدرك أنَّ الأحداث العقليَّة لها صلة بالسلوك، والذي لا يمكن فهمه دون استخدام مفاهيم مثل الرغبة، والجهد، والتقدير أو الأمل. وفي عام

---

(1) عالم نفس إنجليزي (1871 ـ 1938).

1905 بدأ تجارب لقياس الإجهاد، باستخدام تقنية اعتمدها ريفرز فيما بعد، حيث طُلب من المشاركين في التجارب ضرب سلسلة من النقاط التي تمرُّ أمامهم. وعندما زيدَت سرعة النقاط المتحركة إلى الحدِّ الأقصى الذي يمكن للمشارك تحمُّله، ظهر التعب بسرعة، وأصبح قياس تأثير المواد المُخدِّرة في الإجهاد دقيقًا بدرجة كبيرة.

جُنِّد ماكدوغال، مثل ريفرز، خلال الحرب العالمية الأولى لعلاج ضحايا الصدمة النفسية، بعد ذلك تعاون مع ماي سميث[1]، إحدى طالباته السابقات، ومن أوائل عالمات النفس من النساء، في سلسلة من الدراسات التي موَّلَها المجلس الطبي للبحوث حول تأثيرات الحرمان من النوم والمواد المُخدِّرة على الوظائف العقلية. كانت ماي سميث باحثة موهوبة، سواء في العمل المخبري أو في مقابلة المشاركين المتطوعين، واكتسبَت سُمعة لدى المشاركين بأنها سريعًا ما صارت خبيرةً في المهارات والمهن التي تدرسها. على الرغم من امتناعها عن شرب الكحول، شاركت ماكدوغال في التجارب على النفس باستخدام الكحول والشاي والأفيون والستريكنين، إلى جانب مع جرعاتٍ وهمية لضبط التجربة.

كان هذا لافتًا بما يكفي لصحيفة *نيويورك تايمز*، لتنشر مقالًا تحت عنوان عريض «علماء يُجربون المواد المُخدِّرة على أنفسهم»، مُعلنةً أنَّ «العالِمة ماي سميث أجرَت أكثر من 100 اختبار مذهل للمواد المُخدِّرة». كان عنوان «علماء يجربون المواد المُخدِّرة على أنفسهم» قصة من الممكن نشرها في أيِّ يوم خلال القرنَين الماضيَين؛ مفارقة العصر التقدمي أنَّ

(1) اختصاصية في علم النفس الصناعيّ، (1879ـ1968).

وجود عالمة تُجري التجربة على نفسها في وقت متأخر، تزامَن مع اختفاء هذه الممَّارسة، على الأقل من المشهد العامّ.

***

في عام 1900، غادر جان لورين، عملاق الحركة الانحلالية في باريس، المدينةَ متوجهًا إلى نيس حيث عاش سنواته الستَّ الأخيرة مريضًا يرتاد بانتظام منتجعات في ريفيرا لعلاج السُّلّ والوهن العصبي وإدمان الإيثر. وفي 1896 كان الكاتب الأعلى أجرًا في المدينة، ولكن بداية القرن العشرين شهدَت تراجُع شَعبيته؛ حيث تعرَّض لملاحقات قانونية بتهم القذف والتشهير، وكتب بشكل جنوني وغير منتظم لجمهور تخطاه. وغالبًا ما صوّر انحلاله كترنيمة للعقد الأخير المنهَك من القرن التاسع عشر، مقدمة لموت الحضارة الحتمي والرحيم.

التقى لورين قُبيل وفاته بأحد معجبيه القلائل المتبقين، الشاعر الإيطالي غابرييل دي أنونزيو، الذي استبدل حياته كشاعر منحل بحياة من عمل بطولي ومحموم؛ حيث حوّل أسلوبه الأدبي الحسي والناضج لتمجيد الحرب وسفك الدماء، واستبدل فردانيته الرومانتيكية إلى تحالفات سياسية مع المستقبليين[1] وموسوليني. وفي تجسيده الجديد كداعية للقومية الإيطالية وطيار مقاتل شجاع، اعتنق دي أنونزيو القرن الجديد، وقوة الصناعة، وسرعة السيارة، والإثارة العالية للطيران. كان الفن المميز لهذا التجسيد هو السينما، مع حركتها الجنونية وقفزاتها المفاجئة وتحولات المنظور؛ وكان المُخدِّر لتجسيد دي أنونزيو الجديد هو الكوكايين، الذي أصبح مدمنًا عليه.

(1) نسبة إلى الحركة المستقبلية الفنية التي تأسست في إيطاليا في بداية القرن العشرين.

غادر لوران باريس بالتزامن مع افتتاح معرض باريس العالمي عام 1900، وهو معرض مُبهِر يقدم عجائب القرن الجديد. إذ على مدار ستة أشهُر، شاهد خمسون مليون زائر لأول مرة السلالم الكهربائية والأرصفة المتحركة، وأجهزة تسجيل الصوت والأفلام الناطقة، والمدرجات الفلكية وأجهزة محاكاة السفن البحرية، كل ذلك تحت إشراف أكبر دولاب هوائي في العالم يستوعب ألف وستمائة راكب في وقت واحد. وقدَّم قصور الكهرباء والبصريات والصناعة والآلات والزراعة رؤى مذهلة للقرن القادم بأساليب فنية أنيقة وغامضة تشمل الفن الجديد والفترة الجميلة والفنون الجميلة وانفصال فيينا. كانت باريس المتألقة البوهيمية تتغير مع المستقبل الذي تجاهله بودلير بازدراء؛ ثقافة جماعية مبنية على العرض والإثارة، الجمهور والمستهلك.

ومع ذلك، أصبحت معادلة بودلير للحداثة مع صياغة الذات الفردية الآن نفسها شيئًا من الماضي. إذا كان القرن التاسع عشر قرنَ الفرد، فإنَّ القرن العشرين سيكون قرنَ الجماعة؛ الهوية الجماعية والتضامن والحركات الجماهيرية. أصبح إرث بودلير مُظلمًا بشدة بسبب المواد المُخدِّرة التي تعاطاها. وفي مذكراته عن صديقه، رفض تيوفيل غوتييه فكرة أنَّ بودلير أفسدتْه المواد المُخدِّرة التي كتب عنها ـ «لم يكن مرضه إلا بسبب الإعياء والملل والحزن والمتاعب» ـ غير أنَّ تقريرًا صحفيًا عام 1902 أضاف إلى كلمات غوتييه على أيِّ حال: «كانت نهاية الشاعر مأساوية؛ الإعياء والمتاعب والأحزان والاستخدام المتكرر لتلك الفراديس المصطنعة، الأفيون والحشيش، عجَّلَتْ بسقوطه».

رُحّب بالعقد الأول من القرن العشرين كعصر للتجديد، وإنعاش الحياة

بعد الانحطاط والانحلال في «التسعينيات الصفراء»[1]. كما لاحظ ويليام بتلر ييتس بحسرة «في عام 1900 عاد الجميع واقعهم؛ ومنذ ذلك الحين لم يعُد أحدٌ يشرب الأفسنتين مع القهوة السوداء؛ ولم يُصَب أحدٌ بالجنون، ولم ينتحر أحدٌ، ولم ينضم أحدٌ إلى الكنيسة الكاثوليكية، وإذا فعلوا ذلك، فقد نسيتُ».

كان مستخدمو المواد المُخدِّرة، في البيئة الجديدة فرديين للغاية، بيد أنهم أصبحوا أيضًا مجموعة محددة علميًا. أدت تجارب إميل كرابلين مع الكحول، بالإضافة إلى امتناعه الشخصي، إلى تطويره فئة ‹المدمن على الشرب› كنوع «مرضي»، مُعرَّض لخطر أكبر للإصابة باعتلال الصحة العقليَّة والموت المبكر من الناحية الإحصائية. وقد حجبَت الارتباطات الازدرائية لـ«المُخدِّرات» الفروق بين المواد المختلفة، وبين المتعاطيين العرضيين والمعتمدين عليها.

كانت المواد المُخدِّرة، بحسب كلمات كليفورد ألبت[2]، رئيس الجمعية الطبية البريطانية، تُمهِّد لوباء قادم من مرضى الأعصاب «الذين يشمّون المُسكِرات من بعيد بغريزة مثل الكلاب البوليسية، وفضوليون في إحساسهم، ويعبثون بجميع أنواعها». في حين أنه عندما ابتعدَت أبحاث المواد المُخدِّرة عن الأوصاف الذاتية، أصبحت أكثر تركيزًا على الإدمان وعلم الأمراض العقلية. فكلما حُدِّدَ المزيد من المواد المُخدِّرة من حيث المخاطر والضرر والخطر، أصبح من الصعب التعرف على التجارب التي ولّدتها كإسهام إيجابي في العلم أو الفلسفة أو الإبداع.

---

(1) إشارة إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشر.
(2) طبيب إنجليزي، عُرف باختراعه الترمومتر الطبي (1836 ـ 1925).

تحولَت الصورة الشعبية لمتعاطي المواد المُخدِّرة مع تأكيد الطابع المَرَضي لاستخدامها إلى سلع رديئة بشكل حادٍّ. وأصبح الامتناع عن المواد المُخدِّرة علامة على الوعي الصحي والوضع الاجتماعي. وفي أعقاب قانون الأغذية والأدوية النقية لعام 1906، زادت ردود الفعل السلبية ضد إنتاج الأغذية والمواد المُخدِّرة الصناعية، وزاد الطلب على المنتجات الأخلاقية والطبيعية، وشهدَت المنتجعات والمصحات ازدهارًا حيث وعَدت بتطهير أجساد نزلائها من السموم اليومية. وفي أكبر وأشهر المصحات في باتل كريك بميشيغان، كانت حبوب الذُّرة أو الكورن فليكس اختراع المدير الطبي جون هارفي كيلوغ[1]، تُعد المنتج الرائد في نظام غذائي يستبعد اللحوم والأطعمة المصنعة، بالإضافة إلى جميع المواد المُخدِّرة ومنها الكحول. تم النظر إلى الأدوية ذات براءات الاختراع على أنها بدائل سامة للعلاجات الطبيعية مثل الهواء النقي والتمارين والعلاج بالكهرباء والنظام الغذائي الصحي، وتم وضْع المرضى الذين لجأوا إلى المواد المُخدِّرة أو المنبهات تحت أنظمة امتناع صارمة.

ونظرًا لأنَّ المواد المُخدِّرة تُضعِف التفكير المنطقي وتُعظِّم الغرائز، استنتج أنَّ جاذبيتها تكون أكثر خطورةً على أولئك الذين تكون قدرتهم على ضبط النفس أضعفَ، مثل المعاقين عقليًا وفئات المجرمين. وتصوّر طبيبُ الأمراض العقليَّة وخبير الإدمان الأمريكي تي. دي. كروثرز، وهو أول من حذّر من المخاطر الطبية للكوكايين والمورفين في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أنَّ إدمان الكوكايين وقتها يُمثِّل مشكلة تتعلق بـ«الإجرام الانتقامي لدى الطبقات الأدنى» حيث إن الذي «سيقترف

(1) مخترِع وطبيب اختصاصي تغذية أمريكي (1852 ـ 1943).

أيَّ جريمة، أو أيّ فعل يَعِدُه بالراحة... ويقاتل الضابط الذي يبحث عن اعتقاله، ويهاجم فجأة الناس في الشارع أو يُطلق النار عليهم دون أيِّ استفزاز، أو يشعل النار في المباني، ويتسبب في أضرار جسيمة، ويتصرف بطريقة عنيفة ومجنونة».

خلال القرن التاسع عشر، كان يُنظَر إلى متعاطي المواد المُخدِّرة أو المنشطات نمطيًا على أنهم من أفراد الطبقات المهنية أو الميسورة؛ مُفكّر أو أديب يعاني من اضطراب الجهاز العصبي، أو سيد مترف من رجال المدينة، أو أرملة مكتئبة ومنعزلة اجتماعيًا. وبحلول القرن العشرين، حلَّت محلّ هذه الصور النمطية صورٌ لأعضاء العصابات من المراهقين، والمجرمين الصغار، والأكثر حدة، أعضاء الأقليات العِرْقية.

«مشكلة القرن العشرين»، كما لاحَظ دو بويز في عام 1903، «هي مشكلة خط اللون»، وهو خط لم يُرسم في أيِّ مكان بسرعة وحزم أكثر ممَّا رُسم في المواقف تجاه تعاطي المواد المُخدِّرة. لقد كانت الفردانية الليبرالية عند جون ستيوارت ميل دائمًا مرهونةً في الممَّارسة العملية بالمكانة والطبقة والعِرق. إذ كان متعاطو المواد المُخدِّرة من ذوي البشرة الملونة، مثل باسكال بيفرلي راندولف، يتحمل مخاطر أكبر على سُمعته عندما يدافع عن استخدام الحشيش ممَّا لو فعله شخصية طبية مرموقة مثل جاك جوزيف مورو. غير أنَّ النتائج كانت بحسب مصطلحات جون ستيوارت ميل، محددة بآليات اجتماعية؛ فقد كان راندولف على وعي بأنَّ لون بشرته جعله هدفًا للتحيز، لكن استخدامه للحشيش لم يُعامَل كأمر مَرَضي أو إجراميّ. وفي هذا الصدد، خالَف العصر التقدمي اسمَه، من خلال تقسيم وتوسيع التمييز العنصري الضمني الذي ورثه.

يُعد الكوكايين في الولايات المتحدة أبرز مثال وقتذاك. إذ بحلول عام 1906، تقدَّم تحوّله على نحوٍ كبير من مُخدِّر معجزة إلى خطر اجتماعي، ونتج عن إزالته من رفوف الصيدليات بموجب قانون الأغذية والعقاقير النقية نشوءُ سوق غير منظَّمة لبيع مسحوق الكوكايين في الشوارع في عبوات صغيرة تُعرف باسم «شمّ الخمسة سنتات». كانت هذه التجارة شائعة عند سكان المدن ذات الموانئ والأحياء الفقيرة والمناطق ذات المستوى العالي من الجريمة في العديد من المدن الأمريكية، ولكن سرعان ما ارتبط بالسكان السود في ولايات الجنوب. وفي عام 1905 عرَّفت صحيفة نيويورك تايمز المشكلة تحت عنوان «شرُّ الكوكايين عند السّود». وجادلَت بعض السلطات الطبية بأنَّ الكوكايين كان له تأثير أكثر تدميرًا على الأفارقة الأمريكيين، حيث أدى إلى الهلوسة والاضطرابات النفسية ونوبات العنف، وحتى أنه جعلهم صامدين أمام رصاص الشرطة.

كانت تلك سنوات جيم كرو[1]، والجهود العنيفة التي بذلها نشطاء التفوق الأبيض الجنوبيون لإلغاء مكاسب إعادة الإعمار وقمع أصوات السود من خلال اختبارات محو الأمية وضرائب الاقتراع. وصلت عمليات إعدام السود دون محاكمة إلى ذروتها المأساوية، بمعدل أكثر من مائة حالة في السنة خلال العقد من 1891 إلى 1901. تمَّ تعبئة روح العصر التقدمي من العمل المحلي وتمكين الذات من المجتمعات البيضاء لتوسيع حقوق الولايات والسماح بحرية أكبر لقوات الشرطة التي استشهدَت بمخاطر

(1) إشارة إلى القانون المسمى «جيم كرو» الذي أسهم في فرض الفصل العنصري في جنوب الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين.

الكوكايين كذريعة لتكثيف سيطرتها على المجتمعات السوداء. ووُصِف الإدمان على الكوكايين بشكل شائع بأنه «العبودية»، وهو مصطلح يُعطي الحملات المناهضة للمواد المُخدِّرة، ونشطاء التفرقة العنصرية مكانة المُحرِّرين الجدد.

***

لقد مُني القرن العشرين ذو الإنتاج والثقافة والسياسة الجماهيرية، بمقاومة من ثقافة مضادة قوية تؤمن بالفردانية وتنمية الذات الداخلية. في عام 1904، بدأ عالِم الاجتماع ماكس فيبر كتابه *الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية* (1905)، والذي جادل فيه بأنَّ السعي العقلاني وراء المكسب الاقتصادي ترك راسبًا من «خيبة الأمل»؛ عالم مسكون بفقدان المقدسات، احتجز فيه الفرد في «قفص حديدي» بناه مطالب رأس المال والصناعة والبيروقراطية. مع تراجُع الدين التقليدي، ازدهرَت الحركاتُ الروحية مثل «الفكر الجديد»، والتي مزجَت بين التقاليد الطاوية والفيدية والبوذية مع مبادئ الاعتماد على النفس عند إمرسون والمؤمنين بالفلسفة المتعالية، والإمكانات التوسعية للتطور الدارويني، لتنمية اتصال داخليّ مع العقل الروحي، أو العقل الكوني أو «الذكاء اللامتناهي».

إنَّ الاعتقاد بأنَّ الوعي الإنساني يتوسع أو يتطور لم يقتصر على الثيوصوفيين فحسب. ففي عام 1901، نشر الطبيب النفسي الكندي ريتشارد باك[1] كتابه ذا الأثر الكبير *الوعي الكوني*، والذي جادل فيه بأنَّ الوعي «الأعلى» أو الصوفي ينتشر على نطاق أوسع. وفي عام 1903، اقترح

(1) طبيب نفسي كندي (1837 ـ 1902).

فريدريك مايرز أنَّ الذات اللا واعية قد تشتمل على قدرات «فائقة الفكر» أو «خارقة للطبيعة» يمكن للإنسانية المستقبلية أنْ تتعلم كيفية تسخيرها.

وفي عام 1909، استخدم تشارلز هوبارد جود[1]، رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس، خطابه السنوي لمعارضة تيار المدّ المادي البيولوجي من خلال مناقشة تطوُّر الوعي. وجادل بأنَّ القفزات الأخيرة نحو التقدم عبر مجالات الفنون والعلوم والصناعة تخطَّت حدود البيولوجيا، و«ليس ثمة مشكلة أكثر أهمية عند علماء النفس في العلوم الحديثة» من فهم الوعي الأعلى الذي أنتج هذا التقدم». وفي عام 1913، كتبت مايبل دودج، وهي ناشطة اجتماعية في نيويورك ومن أتباع «الفكر الجديد»: «معظم المفكرين هؤلاء الأيام يتمردون ضد شيء ما، لأنَّ رغبة الفرد هي نحو وعي أكبر، ولأنَّ الوعي يتوسع وينفجر من القوالب التي احتوتْه حتى الآن».

أما عن هذه الطليعة من العقل الحديث، فلم تؤدِّ المواد المُخدِّرة أيَّ دور في السعي نحو الوعي الأعلى. فقد كانت مثل الكحول، مجرد قُفل آخر على باب قفص فيبر الحديدي. في عام 1914، نظَّمَت دودج طقسًا مرتجلًا لتعاطي البيُّوط في شقتها بغرينتش فيليج الذي انتهى بشكل كارثي وهدد بالفضيحة. كانت مرعوبة من أنْ يتم الإبلاغ عنه على أنه («حفلة مُخدِّرات» شيء مرعب! لقد سمعتُ عن مثل هذه التجمعات، وكانت نقيض كل ما كنتُ أرغب في الدفاع عنه). في عام 1917، انتقلَت من نيويورك إلى قرية تاوس، حيث انغمسَت في التقاليد الروحية لهنود بويبلو،

(1) عالم نفس تربوي أمريكي (1873 ـ 1946).

في حين ناضلَت لعقود ضد تعاطيهم للبيُّوط في طقوسهم. وفي عام 1936، عندما تأكَّد حقُّهم في ممَّارسة تلك الطقوس بموجب إرشادات قانون إعادة تنظيم الهنود، كتبَت إلى هارولد إيكيس، وزير الداخلية في عهد الرئيس روزفلت: «هل كنتَ ستدعم الحشيش أو الكوكايين أو المورفين وتدافع عنهم بحُجة الحرية الدينية؟» كانت «المُخدِّرات»، عند الأشخاص الأكثر وعيًا بطبيعته الروحية، عواملَ كيميائية للسيطرة، تضخُّها الشركات الكبرى لتحفيز حالة من التنويم المغناطيسي الجماعي، والانفصال عن العالم الطبيعي والروحي.

كان من بين ضيوف مايبل دودج في معتكفها في تاوس، ألدوس هكسلي، الذي قدَّم الصورة الأدبية المُعرِّفة لهذا الرأي في مثَله المخيف رواية *عالم شجاع جديد* (1932). فالبيُّوط، في الرواية، مقتصرة على «المتوحشين» في محميات نيومكسيكو، أما في مجتمع المستقبل المتحضر فقد حلّت المسكِّنات الشاملة محلّ المسكرات القديمة. وإلى جانب تقنيات الهروب الأخرى، فقد حلَّ مُخدِّر سوما مشاكل الثقافة الجماهيرية الصناعية من خلال خلْق عالَم وهميّ فائق الوساطة يحُول دون خطر الاضطرابات الاجتماعية. يعمل أبناء الطبقاتُ الدنيا في المصانع وهم في سعادة مشتّتة «سبع ساعات ونصف من العمل المعتدل غير المنهك، ثم حصة السوما والألعاب والاتصال الجنسي غير المقيّد، ووسائل الترفيه الحسي المعروفة باسم فيليس. ماذا يطلبون أكثر من ذلك؟» كانت «سوما» سرًّا من أسرار عقيدة سياسية ـ كان هكسلي يقصد هنري فورد، وجورج برنارد شو، والجمعية الفابية[1] ـ تحافظ فيها دولة عالمية على سكانها

(1) جمعية إنكليزية أُنشئت عام 1884، تسعى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.

تحت السيطرة بثقافة جماهيرية تسمح بالتسامي فقط من خلال استيعاب الفردية. يُستهلك المُخدِّر في دوائر طقسية، مع تراتيل تمجّد فورد[1] ونخبة «أشرب للكائن الأسمى».

يُظهر هكسلي مقارنةً بكتاباته اللاحقة عن التأثيرات النفسية بشكل غامض فيما يتعلق بحالة الوعي التي يسببها السوما. إذ يوصَف بأشكال مختلفة وبجرعات متفاوتة على أنه مهلوس مثير للنشوة، ومضاد للاكتئاب، ومخفف للألم، بيد أنه لا يوجد تقريبًا أيُّ وصف شخصيّ للتجربة التي يسببها. ونعلم أنَّ إحدى الشخصيات تشعر بـ«نشوة هادئة من الإنجاز المحقق... كانت ممتلئة، كانت مثالية، كانت أكثر من مجرد نفسها». إشباع بدون تحقيق، إحساس بدون محتوى، متعة بلا سبب. في الروايات المتعلقة بالمُخدِّرات في القرن التاسع عشر، كانت السردية تتكشف في العالَم الداخلي المتفاعل للشخصية التي تعاني من تأثيرات المواد المُخدِّرة؛ أما السوما، فهو «المُخدِّرات» من خلال عدسة السلوكية، وهي شكل من أشكال التحكم الاجتماعي الكيميائي الذي يظهر كنوع فارغ من النشوة الواهية والوهمية فحسب.

أولئك الذين أعلنوا عن تعاطيهم للمواد المُخدِّرة في فترة العصر التقدمي، فعلوا ذلك كفعل من أفعال التعدي المبالَغ فيها. وكان أبرزهم الشاعر والمغامر والباطني الشهير أليستر كراولي، الذي دمجَها في شخصيته العامة بأساليب تجنبتْها بحذر الجمعياتُ العلمانية في نهاية القرن. تأسسَت الجماعة التي أنشأها كراولي في عام 1907، وتُعرف باسم

(1) إشارة إلى هنري فورد، مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات.

(A∴A∴)، على نحوٍ صريح منذ البداية في إدراج المواد المُخدِّرة كجزء من ممَّارساتها الطقوسية والصوفية.

جمعَت مجلة ذي *إكوينوكس* المطبوعة بشكل جميل، بين الأطروحات السِّحرية والمقالات مع الشِّعر والقصص القصيرة والفن. وتضمَّن عددها الأول الذي نُشر في ربيع عام 1909 بحث عن صيدلية الحشيش لإدوارد واينراي، صاحب صيدلية ميسرز لو وشركاه في شارع بوند في لندن، والتي أعلن عنها في المجلة وتخصصَت في توفير المواد المُخدِّرة الغامضة، والإكسيرات والبخور لدوائرها من الباطنيين. وشمل العدد الثاني، الذي نُشر في خريف العام نفسه، قصيدة شرقية زاهية بعنوان «مدخن الأفيون» وبحث طويل بعنوان «علم نفس الحشيش» لأوليفر هادو، وهو اسم مستعار لكراولي الذي تم تخييله بشكل طفيف تحت هذا الاسم في رواية سومرست موم[1] في العام السابق بعنوان *الساحر*.

بدأت حياة كراولي مع المواد المُخدِّرة، كما يروي هنا، في عام 1898، بعد فترة وجيزة من مغادرته جامعة كامبريدج، عندما التقى بألان بينيت، وهو كيميائيّ تحليليّ وبوذيّ وزميل في جماعة الفجر الذهبي. واستفاد من تجاربه المبكرة مع الحشيش من قراءته لـ فيتز هيو لادلو، وشارل بودلير، ودمج تأثيراته في ممَّارساته السحرية. كتب كراولي أنَّ الحشيش «يُرخي دعامات الروح» وينتج تكثيفًا ملحوظًا «للقدرة على التأمل الذاتي»، وذاتية متسعة تسمح للخبير بفرض إرادته وخياله على العقل الباطن مع مزيد من الممَّارسة على العالم الخارجي. واكتشف

(1) روائي إنجليزي (1874 ـ 1965).

أنَّ الجرعة أمر حاسم. وصف الحشيش بكميات صغيرة بأنه «طيّار عطريّ»:

> الإثارة، كما وصفها لادلو، مثل نبضة جديدة من القوة تنتشر في المرء. ونفسيًا، هي النتيجة هي أنَّ المرء يُلقى في حالة تأمل ذاتي مثالية تمامًا. يدرك المرء أفكاره ولا شيء سوى أفكاره... بعبارة أخرى، في هذا الصدد، يمتلك المرء الوعي المباشر لمثالية جورج بيركلي. الأنا والإرادة لا تتدخلان.

عند الجرعاتِ الأكبر يكون التأثير مختلفًا تمامًا، فثمة حالة «هلوسة سامة» حيث «تنتاب الإرادة والأنا القلق، وقد تتعرض للهجوم والإرهاق». كما لاحظ الخبراء من كاهانيه وراندولف ومَن بعدهما، يتطلب مستوى عاليًا من التدريب لمواجهة «مدّ الصور اللاذع بلا هوادة».

على الرغم من أنَّ كراولي كان صريحًا وغالبًا متباهيًا بتعاطيه للمواد المُخدِّرة، إلا أنه كان قلقًا من توجيه القارئ بعيدًا عن أيِّ شبهة للإسراف في الملذات. فقد شدَّد على الانضباط العقلي المطلوب في العمل مع المواد المُخدِّرة، ووصف بروتوكولاته التجريبية الدقيقة على نفسه. «القاعدة القديمة في شارع تشانسيري»، كما وصفها ـ مشيرًا إلى الغرف التي عاش فيها عندما بدأ هو وبينيت تجاربهما ـ كانت بـ «البدء بنصف الجرعة الدنيا في دستور الأدوية»، والانتظار لحدوث التأثيرات، وإذا لم يحدث شيء، يضاعف الجرعة. «إذا استمررت بما فيه الكفاية»، نصح «من المرجَّح جدًا أنْ يحدث شيء ما!». كان عنوان مجلة ذي *إكوينوكس* الفرعي هو «مراجعة التنوير العلمي»، وكان كراولي جادًا في تقديم عمله بوصفه تجربة علمية صارمة، ونفسه كمراقب مُدرَّب بشكل عالٍ. تمامًا مثلما أحدث المجهر

ثورة في العلم، زعم كرولي «أحدثَ التصوف ثورة، مرارًا وتكرارًا، في فلسفات البشر». وفي إحدى المناقشات السقراطية الدائرية التي يحبها، دخل في سجال مع محقق علميّ تخيُّليّ:

وأفترض أنه ردّ قائلًا: «لقد دربتَ نفسك عمدًا على الهلوسة!» ماذا عساي أنْ أجيب؟ لا شيء أعرفه. إلا أنَّ المجهر قد أحدث ثورةً في الجراحة، وما إلى ذلك...

على الأقل يُقدِّم الحشيش دليلًا على نهج جديد من الوعي، و (يبدو لي) أنَّ هذه هي الحالة الأولية التي احتاج المتصوفون دائمًا إلى إثباتها، ولكنهم لم يفلحوا أبدًا في إثباتها.

لكنني أدّعي اليوم أنَّ ظواهر الحشيش هي ظواهر عقلية ذات أهمية قصوى؛ وأطالب بالتحقيق فيها.

(...) «لكن إذا شُوّشَت القدرة على الملاحظة بالمُخدِّرات والتدريب العقلي الخاص، فستكون نتائجك غير صالحة».

وأرد قائلًا:

«لكن إذا اضطربَت قدرتُك على الملاحظة بالعدسات والتدريب العقلي الخاص، فإنَّ نتائجك ستكون غير صالحة».

من غير المرجح أنَّ كراولي استطاع إقناع أيٍّ من العلماء بهذه الحُجج، أو حتى توقع ذلك، رغم أنَّ استعداد المثقفين غير المشروع للادعاء بالمبررات العلمية لاستخدامهم المواد المُخدِّرة ربما يكون له دورٌ صغير في خفوت تجارب الذات.

استمر «علم نفس الحشيش» في مناقشة المفاهيم من التقاليد الروحية الشرقية، مثل سانكارا وفينانام [من الفلسفة البوذية]، في ضوء سكْر

الحشيش، رغم أنَّ كراولي هنا كما في أماكن أخرى أخفى التفاصيل العملية لكيفية دمجه للمواد المُخدِّرة في ممَّارساته الطقوسية (حتى في مذكراته الخاصة كانت مشفرة). وعلى مرِّ السنين جرّب بإصرار كلَّ مركبات التأثير في الوعي التي استطاع التوصل إليها. وأجرى هو وبينيت بما وصفه لاحقًا بأنه «محاولات عقيمة لتسميم أنفسنا بكلِّ مُخدِّر في (وخارج) دستور الأدوية». وبحلول عام 1910 كان يطلب «أنهلونيوم» ـ البَيُّوط ـ من شركة بارك ديفيس في ديترويت. كتب مقالات عن الأفسنتين والكوكايين والإيثر، وأثنى عليها بعبارات تجمع بين النشوة والتحقق الروحي:

> لقد كنتُ أستنشق أبخرة الإيثر لبضع لحظات، وكل الأشياء العادية غلَّفها الجمال. وكذلك الأمر مع الأفيون والكوكايين، فالهدوء والسلام والسعادة، دون هدف محدد، تنتج من بضع دقائق من تعاطي تلك المواد المُخدِّرة. يا له من دليل أوضح على أنَّ كل شيء يعتمد على الحالة الذهنية! الإنسان أضعف قليلًا من الملائكة؛ خطوة واحدة، وكل المجد لنا.

أفرط كراولي في تعاطي الكوكايين والهيروين؛ ممَّا أدى إلى إدمانه عليهما، حيث بقي الهيروين يسيطر عليه حتى وفاته عام 1947. كان يكره إدمانه الذي جعل منه عبدًا لهذه المواد المُخدِّرة ممَّا أفسد ما يدعيه من إرادة عليا، وأجبره على الصحبة السيئة والإجرامية للشباب المثيرين الذين استهجنهم. وكان ارتباطه بالمُخدِّرات عنصرًا بارزًا في وضعه كمنبوذ من الجمهور، وقصة تحذيرية عن النهاية المحتومة للإدمان والفقر والانحلال الأخلاقي. إلا أنه مع ثقافة المعارضة في الستينيات أدى احتفاله بالمُخدِّرات ـ إلى جانب موهبته الفريدة في التصوير الذاتي الغريب ـ إلى الاعتراف به بعد وفاته كرمز للفردانية المفرطة والكئيبة.

أليستر كراولي في عام 1934، رمز للفردانية المفرطة ذات الطابع الحزين.

في عام 1911، تُوّجت الحملة المتنامية لتنظيم التجارة العالمية للمواد المُخدِّرة باتفاقية الأفيون الدولية، التي وُقعت في لاهاي بهولندا. وتضمنَت وفودًا من الولايات المتحدة وبريطانيا ومستعمراتها المنتجة للأفيون فيما وراء البحار، وفرنسا، وإيطاليا، وبلاد فارس، واليابان، والصين، وروسيا،

وانتهت في يناير 1912 بدعوة جميع الدول الموقِّعة إلى السيطرة على تجارتها المحلية التي تتعلق بالأفيون، والمورفين، والهيروين، والكوكايين، وأيّ مُخدِّرات خطرة أخرى قد تنشأ في أعقابها.

دعم هذه الدعوة في الولايات المتحدة، هارفي وايلي رئيس مصلحة الكيمياء الفيدرالية[1]، وتبنّاها للتشريع النائبُ الديمقراطي فرانسيس بيرتون هاريسون، الذي شغل منصب الجنرال المساعد في جيش الولايات المتحدة في الفلبين، حيث حُظر بيع الأفيون وتدخينه خلال الاحتلال الأمريكي. عارض الكثيرون، ومنهم الجمعية الطبية الأمريكية، توسيعَ نطاق الحظر الاستعماري إلى الأراضي الأمريكية. وربط مؤيدو الحظر بسهولة شركات المستحضرات الصيدلانية التي تتحكم وتروج لتجارة المواد المُخدِّرة، مع مُصنّعي ومُقطّري البيرة والمشروبات الكحولية، وهم رجال الأعمال الذين يجنون أرباحًا طائلة على حساب الصحة العامة. غير أن هذه الحُجة تُعد أسهل بكثير مع المواد المُخدِّرة مقارنةً بالكحول، إذ رأى الغالبية العظمى من الجمهور أنه لا ضرر في الشرب المعتدل، ولكن «المُواد المُخدِّرة» ارتبطَت الآن بأنواع ومجتمعات متباينة؛ الأقليات العِرقية الصينية أو السوداء، البوهيميين، المصابين بأمراض عقلية أو الطبقات الإجرامية.

أُقِرَّ قانون هاريسون للمواد المُخدِّرة في ديسمبر 1914، بعد ما لا يزيد عن بضع دقائق من المداولات، ومرَّ دون جلبة ضمن سلسلة من التشريعات الأخرى. وفي الأسبوع التالي حظي القرار المتعلق بحظر الكحول

(1) مسمى سابق لإدارة الغذاء والدواء.

على المستوى الفيدرالي باهتمام أكبر بكثير ـ حيث تمَّ خلال المناقشة إسقاط عريضة من ستة ملايين توقيع، وهي الأكبر على الإطلاق المقدمة للكونجرس، من شرفة القاعة إلى الأرضية ـ لكن تم رفضها بأغلبية ضئيلة. أضاف قانون هاريسون سلطة فيدرالية إلى القيود التي فرضتْها الولايات على بيع المواد المُخدِّرة التي انتشرَت منذ قانون الأغذية والعقاقير النقية، من خلال تجريم هذا العمل على المستوى الفيدرالي؛ شراءها أو بيعها دون التسجيل كبائع مرخص ودفع الضرائب التجارية.

كما رسّخ القانون أيضًا «الناركوتيات» كمصطلح طبي وقانوني للمواد المُخدِّرة الخاضعة للرقابة، موسعًا معناها خارج التعريف الصيدلاني الراسخ منذ زمن طويل للمهدئات أو المنومات. وبموجب القانون، أصبح الكوكايين، وهو أقوى منبه في صيدلية الأدوية، مصنفًا الآن كمُخدِّر (تمّ إعفاء مستخلص أوراق الكوكا المعدل كيميائيًا الخاص بكوكاكولا «المنتج رقم 5» تحديدًا، حيث جادلت الشركة بأنه «يُستخدم حصريًا للنكهة»). وأضاف مجلسُ الصحة في مدينة نيويورك، الحشيشَ إلى قائمة المواد المُخدِّرة الخاصة به، حيث مثلت قصص «أوكار الحشيش» أخبارًا رئيسة في الصحف المحلية، وأيدَت صحيفة نيويورك تايمز ذلك، مدعيةً أنَّ له «تأثيرًا ممَّاثلًا تقريبًا للمورفين والكوكايين».

بحلول هذا الوقت، أصبحَت أسواق المواد المُخدِّرة غير الرسمية أو غير المشروعة أكثر وضوحًا في شوارع مدن أوروبا، وخاصة في الموانئ ذات السكان متعددي الأعراق. ففي برلين وهامبورغ، كانت الصيدليات تُقدِّم حقن المورفين علاجًا للأعصاب. وفي باريس، حيث المواد المُخدِّرة

تخضع رسميًا للوائح التي تقيّد بيعها بالأطباء، كانت عبوات وزجاجات الكوكايين أو المورفين تباع من طاولة لأخرى في مقاهي مونمارتر. كما باتت الصيدليات تخزن منتجات «أخلاقية» جديدة مثل فيرونال، وهو أول دواء مهدئ جديد من فئة الباربيتورات. وفي لندن، كان مركز تجارة المواد المُخدِّرة غير الرسمية في سوهو ومنطقة المسارح في وست إند، حيث تتداخل الجالية الصينية وتجارة الجنس وصالات الرقص والأندية البوهيمية للجاز، مخلقةً ثقافة فرعية تلتقي فيها راقصاتُ المسرح و«فتياتُ الحفلات» بالرجال ذوي البشرة الملونة، وتبيع الصيدليات التي تُفتح حتى وقت متأخر من الليل عبواتٍ من المساحيق البيضاء دون ملصقات سرًا من تحت الطاولة.

مع بداية الحرب العظمى، أدى نشر الصحف «لمشاهد المواد المُخدِّرة» المحلية هذه إلى حالة من الذعر الأخلاقي على مستوى البلاد. فقد غذَّت قصص المواد المُخدِّرة القلقَ بشأن تعرُّض الجنود في الخدمة لباعة متجولين عديمي الضمير، وكذلك حول الإغراءات التي تتعرض لها النساء غير المحميات اللواتي تُركنَ وراءهم. وفي سبتمبر 1914، امتلأت صفحات الصحف البريطانية بإشاعات مفادها أنَّ المجندين أفسدتْهم عادات الكوكايين لحلفائهم الكنديين والأمريكيين. وأوضح معارضون آخرون كيف أنَّ التجارة غير المرخصة تدرُّ أرباحًا لشركات الأدوية الألمانية. أما على الجبهة الداخلية، فقد كان يُنظر إلى المواد المُخدِّرة على أنها تهديد للشابات اللائي ينضممنَ إلى القوى العاملة لأول مرة، ولا سيما أولئك المختلطات باقتصادات المدن الكبرى النشطة ليلًا.

مروج مُخدِّرات يدعى «كوكايين إميل» يبيع عبوات بخمسة ماركات ألماني في شوارع برلين في العشرينات من القرن الماضي.

حُظِرَت تجارة المواد المُخدِّرة في فرنسا في يوليو 1916 بموجب قانون 12 يوليو، الذي فرض عقوبات السجن على حيازة الأفيون والكوكايين والحشيش. وفي الشهر نفسه، أقرَّت الحكومة البريطانية إجراءاتٍ مماثلة ضد المواد الأفيونية والكوكايين في قانون الدفاع عن المملكة. كان الغرض الأساسي من القانون هو السيطرة على المعلومات الحساسة، لكنه حظر أيضًا بيع المواد المُخدِّرة الخطرة وفرض ساعات ترخيص على بيع الكحول. وضع القانون حدًا لتجارة الكوكايين والمورفين المشروعة؛ اضطر هارودز، متجر النخبة، إلى سحب أدوات حقن الكوكايين والمورفين الخاصة بها، المعلن عنها باسم «هدية مفيدة للأصدقاء في الجبهة» كما اختفت أقراص الكوكايين الأكثر مبيعًا لشركة بوروز ويلكام،

والمسماة «مسيرة قسرية»، من أرفف الصيدليات. ومع إغلاق هذه المنافذ، أصبح السوق غير المشروع أكثرَ ربحية وثابتًا، وأخذَت «المواد المُخدِّرة» هالة العالم الإجرامي الذي يتمُّ تداوله فيه الآن.

كان الكوكايين في ساحة المعركة، وفي الوقت نفسه الذي تبيعه هولندا المحايدة، وتصنعه شركة نيدرلاندش كوكاين فابريك من أوراق نبتَت في مزارع الكوكا في جافا، يُورّد للقوات المسلحة لكلٍّ من دول الحلفاء والقوى المركزية كمحفز للأداء، ومعزز للمعنويات، وعلاج ضد الجوع والتعب، وهي الصفات التي أثارت اهتمام سيغموند فرويد لأول مرة في التجارب العسكرية لتيودور فان أشينبراندت. وكان شائعًا على نحوٍ خاص بين طياري المقاتلات الجدد المغاوير، الذين استخدموه للبقاء متيقظين خلال الرحلات الطويلة وتحسين ردود أفعالهم. كما جاء في تقرير عسكري فرنسي:

> غمر الكوكايين قلة من مقاتلي الجو الذين استفادوا من ذلك التسامي البارد والصافي تمامًا الذي ـ وحده بين المواد المُخدِّرة ـ يمكن أنْ يولّده... في الوقت عينه ترك تحكُّمَهم في أفعالهم سليمًا. كما أنه عزّزهم، يمكن القول، من خلال إزالة خوفهم من المخاطر. لقد كان دورًا استخدم فيه الكحول في الصراع منذ زمن طويل، غير أنَّ الكوكايين ـ والأمفيتامينات لاحقًا ـ كان مناسبًا على نحوٍ مثالي لتحديات الحرب الحديثة.

***

في عام 1910 على وجه التقريب، عاد جيمس لي من جنوب شرق آسيا إلى بريطانيا، هذه المرة مصطحبًا زوجته الهندية مولكي معه. وكالمعتاد،

توقَّف عن تعاطي الكوكايين والمورفين خلال الرحلة بطريقته في التقليل التدريجي. كان في طريقه إلى مهمة جديدة للعمل مهندسًا في منجم ذهب غرب إفريقيا، وقرر أنْ يأخذ عطلة في لندن. وجد أنَّ الحصول على المواد المُخدِّرة سهل المنال، وسرعان ما أصبح «مُشعًّا تمامًا تحت تأثير جرعات متكررة من الكوكايين والمورفين والحشيش الهندي». ويبقى في المنزل عادةً عند تعاطي جرعات كبيرة من المواد المُخدِّرة، ولكن في تلك المرة خرج لنزهة مسائية في بيكاديلي:

أشخاص من حولي يبدو أنهم غير طبيعيين تمامًا. بعضهم يبدون بطول عشرة أقدام تقريبًا، بينما يبدو حجم البعض الآخر مضاعفًا... طوال الوقت كانت هناك أشباح تطفو حولي، تأتي وتذهب باستمرار، وتُبدل بأخرى جديدة. تمشيت فيما يشبه أرض الجِنّ. كنتُ في شدة السعادة، بدون همٍّ واحد في العالم؛ كما لو أنني أمشي على الهواء.

تجوّل داخل محطة الأنفاق في كينغز كروس وانتظر في طابور تذاكر، حيث فوجئ برؤية رجل هندوسي يرتدي عمامة أمامه. عندما سأله موظف التذاكر عن التذكرة التي يريدها، ظلَّ الرجل صامتًا.

ظننتُ أنه ربما لا يستطيع التحدث بالإنجليزية، فتحدثتُ إليه بالهندوستانية، وسألتُه عن المكان الذي يريد الذهاب إليه، ولكن مرة أخرى لم يرد.

ثم التفتُّ إلى موظف التذاكر، وقلتُ: «أظن أنَّ هذا الرجل يريد تذكرة إلى مكان ما».

قال الموظف: «أيّ رجل؟».

فقلت: «هذا الرجل»، وأشرتُ إلى الهندوسي، الذي لم يتحرك.

في تلك اللحظة لاحظتُ نظرة غريبة خائفة تظهر على وجه الموظف، ومددتُ يدي ولم أشعر سوى بالهواء!

قلت بسرعة: «أريد تذكرة إلى بيكاديلي»، وأخرجتُ المال.

كان لي يتأمل في هلوسته وهو يسير عائدًا على طول شارع بيكاديلي تحت «شعلة من اللافتات المضيئة، وواجهات المحلات المضاءة بشكل مبهر»، والأرصفة «مزدحمة بالمارة من الناس الأنيقين العازمين على الاستمتاع». قاطع تأمله فتاة شابة أدرك على الفور أنها مدمنة كوكايين، من خلال حدقتَيها المتسعتَين، وتعبيرها المنهك، و«وهن مثير للشفقة، مثل طفل متعب». قبل دعوتها للعودة إلى شقتها في إحدى الشوارع الجانبية وراء شارع شافتسبري، حيث سألها عن المدة التي ظلت تتعاطى فيها الكوكايين. تظاهرَت بالبراءة، حتى طمأنها بأنه كان يتعاطى المُخدِّر منذ سنوات. أعربَت عن دهشتها لصحته الجيدة، فشرح لها نظامه. طلب منها أنْ يرى حقنتها، وفحص الأجزاء الجلدية داخل أغطية فوهة الحقنة.

سألتُ: ألم تُفكّكيها أبدًا، وتُنظفيها جيدًا بالكاربوليك أو مواد معقِّمة؟

لم تفعل.

كان نظامها البيولوجي يتسمم بمادة مُتعفنة، في حين أنَّ حيويتها تذبُل بسرعة بسبب قلة النوم ونقص التغذية الكافية.

غادرت الفتاةَ ومعها جدول إرشادات لها لاتباعها، ولم يرها مرة أخرى بعد ذلك. كان تذكيرًا مفيدًا بأنه ليس الجميع يبدأ مسيرته مع المواد المُخدِّرة مثلما كان هو مُحضرًا جيدًا على يد طبيبه في آسام، وأنَّ ثمة جيلًا جديدًا من متعاطي المواد المُخدِّرة ينشأ خارج نطاق القانون والخبرة الطبية.

أبحر لي إلى لاغوس، تاركًا زوجته ملكي في إنجلترا، التي وجدتْها غريبة كما وجد لي الشرق. غير أنها سرعان ما ملّت المعالم التاريخية، مع أنها كانت منبهرة بالملاهي والمعالم السياحية الحديثة. كان الأمر المميز في زيارتها السابقة هو لقاؤها بالملكة فيكتوريا، التي اختارتها من بين الحشد، وتحدثَت إليها بالهندية وأعطتْها قطعة من خمسة شلنات، وطلبَت منها أنْ تُحولها إلى دبوس. وبعد مهمة لي في أفريقيا، أبحر إلى الصين، ثم عاد لينضم إليها في لندن في خريف 1914.

في 25 نوفمبر نزلا في فندق في شارع تشيبسايد بلندن، واشترى لي بعض الكوكايين المذاب من صيدلية راي في منطقة هولبورن. وعادا إلى الفندق وحقناه معًا بالمورفين، بعد ذلك فقدَت ملكي وعيَها فجأة. وجد لي ممرضةً، وأعطيا ملكي التنفس الاصطناعي والبراندي وأخذاها إلى أقرب مستشفى، وهو مستشفى سانت بارثولوميو. وممَّا أثار رعب لي، أنَّ الطبيب المناوب، ويليام تومبسون، حقنها بجرعة أخرى من المورفين والكوكايين، فماتت على الفور.

في تقرير الطبيب الشرعي، أرجع تومبسون وفاتها إلى «قصور في القلب؛ عادتها في حقن هذه المواد المُخدِّرة الكوكايين والمورفين يمكن أنْ تفسر ذلك تمامًا». لقد كان واضحًا لي مع سنوات خبرته، أنَّ حقنة تومبسون كانت جرعة زائدة قاتلة. ولكن عند مدمن المواد المُخدِّرة، وخاصة من أقلية عِرقية، كان السيناريو مكتوبًا بالفعل. مصادفةً، ذكرت صحيفة التايمز القصة في اليوم التالي، إلى جانب مع قرار الطبيب الشرعي بالوفاة. لاحظَت الصحيفة أنَّ لي «كان يتعاطى المواد المُخدِّرة منذ عام 1895». وأنَّ ملكي، «مثل معظم الهنود تقريبًا»، أيضًا «مدمنة على المواد

المُخدِّرة». وعلى الرغم من قرار الطبيب الشرعي، تكهنَت التقارير الصحفية بأنها قد تكون محاولة انتحار.

اختار لي عدم إعادة طرح الحادثة في مذكراته، واكتفى بالكتابة بغموض غير مألوف «الفتاة المسكينة، ماتت فجأة في لندن»، من جرعة زائدة من «مُخدِّر ما، أعتقد المورفين». ولكن أشار هذا إلى نهاية مسيرته مع المواد المُخدِّرة:

> عندما دخل قانون المواد المُخدِّرة الخطرة حيز التنفيذ، توقفتُ عن تعاطي جميع المواد المُخدِّرة، لأنَّ الخطر والمجازفة في الحصول عليها كانا كبيرَين جدًا. الكميات التافهة، التي تثير السلطات ضجة كبيرة بشأنها، لم تكن ذات فائدة لدي، وتمكنتُ من التخلي عنها بدون أيِّ متاعب أو معاناة، بفضل تجاربي واكتشافاتي.

كان لي دائمًا مفتونًا بالعوالم السرية التي يلتقي فيها متعاطو المواد المُخدِّرة، بعيدًا عن أعين الحياة العامة الروتينية. ولكن لم يكن لديه أيُّ اهتمام بالوسط الإجرامي الذي أُلحقت به المواد المُخدِّرة الآن في الغرب الحديث. لم يقع التغيير في الوضع القانوني للمواد المُخدِّرة في العقود الأولى من القرن العشرين فحسب، بل تغيَّر معناها أيضًا. فقد ربط غير المطّلعين دائمًا بين المواد المُخدِّرة والإفراط والإرضاء الذاتي وعدم الاستقرار العقلي، وكان لي دائمًا حذرًا في تعاطيه لها. لكن قواعد اللعبة الآن تغيّرت. أصبح هو وملكي أعضاء في طبقة من متعاطي المواد المُخدِّرة تجعل عاداتهم وأنماط حياتهم خارج نطاق حماية القانون. وأصبح استكشاف الوعي الذي مارسه لي طوال حياته في مرحلة البلوغ ممارسات منحرفة، لا يهتم بها سوى الأطباء النفسيين وعلماء الإجرام.

الفصل الثامن

المَوْلودون مرَّتَين

في 25 مارس 1961، بعد سلسلة مضنية من ثلاثة وأربعين اجتماعًا عامًا في مقر الأمم المتحدة بنيويورك على مدار شهرَين، وُقِّعت اتفاقية الأمم المتحدة «الاتفاقية الوحيدة للمُخدِّرات لسنة 1961» بوصفها قانونًا دوليًّا. وكان قد مرَّت خمسون عامًا كاملة منذ اتفاقية لاهاي 1911، وهي أول محاولة لفرض رقابة دولية على التجارة، واحتفل بها مندوبو الأمم المتحدة المُنهَكون كوعدٍ قديم وُفِّي به أخيرًا. واستندَت اتفاقية 1961 إلى مجموعة من الاتفاقات التنظيمية الدولية ـ »اتفاقية الأفيون الدولية» الموقَّعة في جنيف عام 1925 تحت رعاية عصبة الأمم، وإنشاء لجنة المُخدِّرات في الأمم المتحدة عام 1946 للسيطرة على إنتاج المُخدِّرات الأفيونية واستيرادها وتصديرها ـ وقُدِّمت على أنها تطوُّر طبيعيّ لهذه المعاهدات السابقة، عملية ترتيب سدَّت الثغراتِ، وجعلَت الولايات القضائية المختلفة في وضع موحَّد.

في الواقع، وسّعت الاتفاقية نطاق القانون الدولي وصلاحياته إلى حدٍّ كبير. حيث أدرجَت الاتفاقية الجديدة أكثر من مئة مُخدِّر مختلف، تتراوح من المواد الأفيونية الاصطناعية إلى القِنَّب، وشملت إجراءاتٍ رادعة

جديدة تمتدُّ إلى ما هو أبعد من متطلبات الترخيص والضرائب السابقة. وأُلزمت جميع الدول الموقِّعة (ولا تزال) بقمع «زراعة وإنتاج وتصنيع واستخلاص وإعداد وحيازة وعرض، وإتاحة للبيع، وتوزيع، وشراء، وبيع، وتسليم، بأيِّ شرط من الشروط، والسمسرة، والإرسال، والشحن أثناء العبور، والنقل، والاستيراد والتصدير للمواد المُخدِّرة المخالفة لأحكام هذه الاتفاقية». مع وجوب العقاب على جميع الجرائم الواردة بالقوانين الجديدة «بعقوبات رادعة، وخاصة السجن أو غيرها من عقوبات الحرمان من الحرية».

الكثير من أحكام الاتفاقية طبَّقها بالفعل في الولايات المتحدة مكتبُ الناركوتيات الفيدرالي، الذي أُنشئ في عام 1930 بعد انهيار حظر الكحول. وفي حين ثبت أنَّ الكحول متجذِّر بعمق في المجتمع السائد إلى حدٍّ لا يمكن القضاء عليه، استمرَّ حظر المواد المُخدِّرة الذي فرضه قانون هاريسون لعام 1914 وأصبح أكثر رسوخًا من أيِّ وقت مضى. كان مكتب المُخدِّرات الفيدرالي يُعدُّ إقطاعية المفوض هاري أنسلينجر، الذي عزَّز سلطته ونفوذه من خلال حملات دعائية مثيرة للاهتمام ضد «خطر المُخدِّرات» التي ربَطت المُخدِّرات بالمجتمعات الهامشية التي ينظر إليها الجمهور العام على أنها تُمثل تهديدًا للنظام الاجتماعي. ووسَّع أنسلينجر نطاق عمله بممَّارسة ضغوط من أجل مزيد من الرقابة على المُخدِّرات، ولا سيما قانون ضريبة الماريجوانا لعام 1937، الذي جرّم تجارة القنب دون تسجيل البائعين. اقتصر التسجيل على عدد قليل من الهيئات الطبية، وكان تقديم طلب التسجيل يعني ـ بحكم الأمر الواقع ـ تجريمَ المورد غير المشروع.

أصبح تعاطي المواد المُخدِّرة تحت إشراف أنسلينجر جريمةً ورذيلةً

في آنٍ واحد رُصِدَت بالتزامن مع الرذائل الإجرامية الأخرى، مثل تجارة الجنس والقمار غير المشروع؛ فقد كانت جرائم يتواطأ فيها الجناة والضحايا على حدٍّ سواء، وغالبًا ما اضطرَّت «شرطة الآداب» المكلفة بمراقبتها إلى اللجوء إلى الاستدراج والرشوة، وأصبحت أدواتٍ في صراعاتٍ بين العصابات الإجرامية، تمامًا كما كان الحال في أثناء حظر الكحول. حيث كان يُنظر إلى المواد المُخدِّرة خلال العصر التقدمي على أنها أداة للأرباح الطائلة لرجال الأعمال الكبار، أصبحَت الآن منتجاتٍ للجريمة المنظمة. وربطَت حملات أنسلينجر المواد المُخدِّرة بالأقليات العِرقية؛ استخدم مصطلح «الماريجوانا» الأجنبي في تصريحاته العامة لإخفاء حقيقة أنَّ النبتة كانت مألوفة لفترة طويلة باسم القنب الهندي، وهو المصطلح الطبي، والقنب محصول ليفيّ. كتب في عام 1937: «إنَّ خطر الماريجوانا جديد نسبيًا على الولايات المتحدة. جاء من المكسيك، واجتاح البلاد بسرعة لا تُصدَّق».

لقد وصل أنسلينجر إلى عمق التاريخ لاستدعاء أسطورة الحشاشين، «الذين يمتلئ تاريخهم بالقسوة والقتل». كتب قائلاً: «أعضاؤهم مدمنون مؤكدون للحشيش»، تحت تأثيره «يرتكبون أعمالًا عنيفة ودموية». وزعم أحدُ مقالاته التحريضية «الماريجوانا: قاتلة الشباب»، أنه «لا يعرف أحد، عندما يدخنها، ما إذا كان سيصبح فيلسوفًا، أو مبتهجًا أو مجنونًا أو قاتلًا». بدأ أنسلينجر في الضغط من وضع أجل معاهدة دولية في عام 1948، وقد غذَّتْ تقاريره من تلك الحقبة الأدلة المقدمة إلى اتفاقية الأمم المتحدة لعام 1961، بالإضافة إلى تقارير تشارلز فاييه، المندوب الفرنسي في لجنة المُخدِّرات، الذي منحتْه حرب الاستقلال الجزائرية دفعة جديدةً عن

أسطورة الحشاشين. وفيما يتعلَّق بقانون المُخدِّرات الفرنسي لعام 1970، فقد تدارس السياسيون من أتباع الجنرال شارل ديغول ومؤيديه العلاقة بين الحشيش و«الحشاشين»، وحذَّروا من «العناصر الأجنبية» التي تصيب الشباب بـ «الفراديس المصطنعة».

ربما تكون أبرز اللمسات اللغوية في اتفاقية عام 1961 هو وصف «الإدمان على المُخدِّرات الأفيونية» بأنه «شرٌّ خطير على الفرد» يحمل «خطرًا اجتماعيًا واقتصاديًا على الإنسانية». وتؤكد هذه الاتفاقية أنَّ المُوقِّعين عليها «يدركون واجبهم في منع هذا الشر ومكافحته». وفي هذه الصيغة، لا يُنظر إلى تعاطي المُخدِّرات على أنه مجرد جريمة، أو عيب، أو مرض؛ بل خطيئة.

ويُعَدُّ استخدام مصطلح «الشر» أمرًا غير اعتياديّ في وثائق الأمم المتحدة، التي تحرص عادة على تجنُّب اللغة المثيرة للجدل؛ فلم يُستخدَم هذا المصطلح لوصف الرِّقّ، أو التعذيب، أو الحرب النووية؛ بل حتى الإبادة الجماعية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان توصَف ببساطة على أنها «أفعال وحشية»، وفي اتفاقية مكافحة الإبادة الجماعية وُصفت بأنها «وباء بغيض». ويُستخدم مصطلح «الشر» في الاتفاقية الوحيدة للمُخدِّرات على غرار مصطلحات مثل «شرّ الأفيون» في حملات مكافحة المُخدِّرات في القرن التاسع عشر، ويبدو أنه تمَّ تضمينه من الأدلة التي قدَّمتْها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ويؤدي استخدام كلمة «الشرّ» إلى تصوير المُخدِّرات على أنها تهديد حيويّ للنظام الدولي، ويضع القوانين الجديدة خارج نطاق الأدلة أو الجدل السياسي.

***

لا تزال اتفاقية 1961 تُشكِّل أساس نظام الرقابة الدولية على المواد المُخدِّرة الحالي، الذي بعد عشر سنوات، أطلق عليه الرئيسُ ريتشارد نيكسون الشعارَ الدائم «الحرب على المُخدِّرات». ومع ذلك، يُعد عام 1961 أيضًا المنعطف الذي شهدَ تحوُّلًا عميقًا لا رجعة فيه في معنى المُخدِّرات من وجهاتِ النظر التقدمية التي كرّستْها الاتفاقية.

لم تكن فترة «الستينيات» بوصفها ظاهرة ثقافية قد تبلورَت بعد؛ إذ يحدد مؤرخون اجتماعيون بدايتها عادةً من وفاة جون كينيدي عام 1963 ـ السنة التي قال فيليب لاركن[1] إنَّ الجنس قد بدأ فيها، «بين نهاية حظر «تشاترلي»[2] وأول ألبوم طويل لفرقة البيتلز»[3]. كان هذا تحولًا جذريًا للمواد المُخدِّرة، تمامًا مثلما كان للجنس والروك أند رول. كما كانت السنوات الأولى من العقد عُملةً ذات وجهَين، حيث أكدت نسخة الحداثة التي تبلورَت حول عام 1900 نفسَها ضد مجموعة جديدة من القيم التي لم تعُد فيها المواد المُخدِّرة شرًا؛ بل بوابة إلى تجارب جديدة وآفاق إنسانية متسعة.

في عام 1961، لاحظَت شرطة لندن العاصمة لأول مرة أنَّ القنب، والذي كان حتى ذلك الحين يمثل مشكلة «رذيلة» تقتصر على سكان المدينة من منطقة البحر الكاريبي والهنود، تنتشر في النسيج الاجتماعي السائد:

---

(1) شاعر وروائي إنجليزي (1922 ـ 1985)

(2) إشارة إلى رواية عشيق الليدي تشاترلي (Lady Chatterley's Lover) للكاتب الإنجليزي ديفيد هربرت لورانس (1928) التي اشتهرَت بقصتها عن العلاقة الجسدية والعاطفية الصريحة.

(3) فرقة روك غنائية بريطانية عام 1960.

من بين المتعاطين البيض لهذا المُخدِّر بشكل أساسيّ، هم أولئك الذين أعمارهم في أواخر سنِّ المراهقة أو أوائل العشرينيات، وهم من النوع الذي يتردد على نوادي الجاز والمقاهي في منطقة وست إند، حيث يقتصر على هذا النشاط بشكل أساسي. ومع ذلك، ثمة علاماتٌ على انتشاره بين البيض ذوي الميول نفسها في بريكستون، وكينسينغتون، وتشيلسي، وبادينغتون، ومنطقة نوتنغ هيل... الاتجاه الأكثر خطورة هو الاهتمام الذي أبداه الشباب البيض من الجنسَين غير المسؤولين بهذا المُخدِّر.

كانت الحادثة الأكثر إثارةً للقلق، هي القبض على جودفري بيتر مانلي غلوب، بتهمة حيازة القنب، وهو الابن ذي العشرين عامًا للفريق جون باغوت غلوب، المعروف باسم «غلوب باشا»، الضابط المتقاعد المقرب من المؤسسة العسكرية، والذي قاد الجيشَ العربي في شرق الأردن خلال حرب 1948 العربية الإسرائيلية. كان هذه الحادثة مثالًا صارخًا على ما أطلق عليه علماء الاجتماع مؤخرًا «فجوة الأجيال»، غير أنها كانت أيضًا رمزًا للحظة التي تغير فيها ميزان الجغرافيا السياسية على نحوٍ كبير.

في نوفمبر 1961، أسَّسَت الأمم المتحدة أيضًا لجنتها الخاصة بشأن إنهاء الاستعمار، وكانت بريطانيا في طوْر التخلي عن نيجيريا وتنزانيا وأوغندا وكينيا وملاوي وزامبيا لسكانها. وتربى أبناء الأجيال التي وُلِدوا في ثقافة المُخدِّرات في الستينيات، على النقيض من آبائهم، كمستهلكين في اقتصاد سريع العولمة، واكتشفوا أنَّ الكحول ليس المُخدِّر الوحيد في العالم. لم تحمل المواد المُخدِّرة التي اعتبرها آباؤهم «العادات المنحطة» التي تنتمي إلى «الأعراق الدنيا» وصمةَ العار نفسها لديهم؛ بل بالعكس، فقد وعدتْهم بمغامراتٍ غريبة واكتشاف الذات.

كان الكاتب الأمريكي بول بولز[1] عام 1961 منهمكًا في المغرب في كتابة القصص التي أعادت تقديم مدخني *الكيف* في المغرب العربي إلى الأدب الغربي. لقد استقر بولز في طنجة عام 1947، ولفتَت روايته الأكثر شهرة *السماء الواقية*[2] التي صدرت عام 1949 الانتباه إليه وإلى مناطقه الصحراوية، مع مزيج من البؤس البالي والجمال الطبيعي الخلاب. وبعد استقلال المغرب عن فرنسا عام 1956، أصبح بولز نقطة جذب للزوار الأدباء ـ تينيسي وليامز[3]، وغور فيدال[4]، وترومان كابوتي[5]، وألان غينزبر[6]، وويليام بوروز ـ وسافر متوغلاً في الصحراء الداخلية. وتلقّى تمويلًا من مكتبة الكونغرس الأمريكية لتسجيل موسيقى البلاد التقليدية وشعراء الشوارع ورواة القصص بها، وغمر نفسَه في عالَمها السفلي من مدخني *الكيف*، ممَّا أثار استياء وزارة الداخلية المغربية.

إنَّ الصورة التي رسمها بولز عن *الكيف* في قصصه التي نشرتْها دار نشر سان فرانسيسكو «سيتي لايتس» عام 1962 تحت عنوان *مئة جَمل في الفناء*[7]، لم تشبه تلك «الماريجوانا» المرعبة التي رسمها هاري أنسلينجر، ولا تلك المشاهد المستوحاة من حكايات *ألف ليلة وليلة* التي وضعها المسافرون والروائيون الغربيون في القرن التاسع عشر. فقد كتب بولز

(1) مؤلف ومترجم أمريكي (1910 ـ 1999).
(2) صدرت النسخة العربية بترجمة عدنان حسن عام 2000 عن دار ورد.
(3) كاتب مسرحي أمريكي (1911 ـ 1983).
(4) كاتب أدبي أميركي (1925 ـ 2012).
(5) روائي أمريكي (1924 ـ 1984).
(6) شاعر أمريكي (1926 ـ 1997).
(7) صدرت النسخة العربية بترجمة عبد العزيز جدير عام 2017، عن منشورات ملتقى الطرق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بأسلوب بسيط جميل، مجرّد إلى حدٍّ كبير من التأمل الداخلي. وتكرر ذِكر تدخين *الكيف* في كلِّ صفحة تقريبًا، غير انه نادرًا ما وصف آثاره العقلية مباشرةً. كان *الكيف* كما شرح، حاضرًا يربط بين المشاهد والذكريات التي لم تكن مرتبطة بوضوح إلا من خلال «دوافع *الكيف* الموجهة» التي «أجبرتْها على الدخول في علاقة تكافلية». كما لاحظ جاك جوزيف مورو في مصر قبل قرن، أنَّ تعاطيه المنتشر عزّز ثقافة مشتركة تنسج فيها المصادفات والأحلام والأحداث الخارقة في الحياة اليقظة. كتب بولز أنَّ مدخني *الكيف* المغاربة يسكنون عالَمين؛ عالَم الواقع اليومي، وآخر «يتصوّر فيه كلُّ شخصٍ الواقع وفقًا لإسقاطات رُوحه».

أدى *الكيف* دورًا متناقضًا في الحياة اليومية المغربية. لقد كان غير قانوني، بيد أنَّ القانون كان يُطبّق من وقتٍ إلى آخر، كما أنه متوافر بسهولة في الأسواق. إذ ربما يُفتَّش شخص في الشارع ويُعتقل لحيازة *الكيف*، في حين يمكنه تدخينه بأمان في بعض المقاهي التي يملكها أفراد من العائلة الحاكمة. تعمقَت قصص بولز القارئ في تفاصيل حياة الفقراء والمهمشين، واتبعت الإيقاع السردي للحكايات الشعبية المغربية، غير أنَّ بولز استخدم *الكيف* أيضًا أداةً للتجريب الأدبي الحداثي، ليجمع بين مشاهد غير متصلة وتيارات وعي موازية. وغالبًا ما كشفَت هذه التجارب عن حقائق مفاجئة، تمامًا كما أشار بولز إلى أنَّ أحلام اليقظة العابرة لمدخني *الكيف* المغاربة يمكن اعتبارها «رحلة روحية تؤدَّى لغرض مُحدَّد هو الاستشارة التنبؤية».

ترجم بولز كتابات الرحالة إيزابيل إيبرهارت التي تُركت دون نشر عند وفاتها عام 1904. كما أدخل صوت مدخن *الكيف* المغربي، الغائب في أدبيات الحشيش في القرن التاسع عشر، إلى الجيل الجديد من القراء

الغربيين. ومن بين رواة القصص المحليين الذين استمع إليهم وسجلهم وترجم لهم، محمد مرابط[1]، أحد أبناء طنجة، والزائر المنتظم لشقة بولز حيث كان يُحضِّر الكيف ويدخنه، ويروي القصص عن المنبوذين الآخرين، والتائهين ومدخني *الكيف* التي نبعَت من أحداث الحياة الواقعية ومن أحلامه. سجّل بولز ونشر قصص مرابط، وأساليبها وتحولاتها الزخرفية المعقّدة أفادت كتاباته. وعلى غرار سابقه في القرن التاسع عشر، انتشرت ثقافة المواد المُخدِّرة الناشئة عبر أصوات بيضاء وغربية وذكورية بشكل رئيس، بيد أنها بدأت في عصر ما بعد الاستعمار الحديث، وأصبحت حية لمدى أوسع من التجارب المَعاشة.

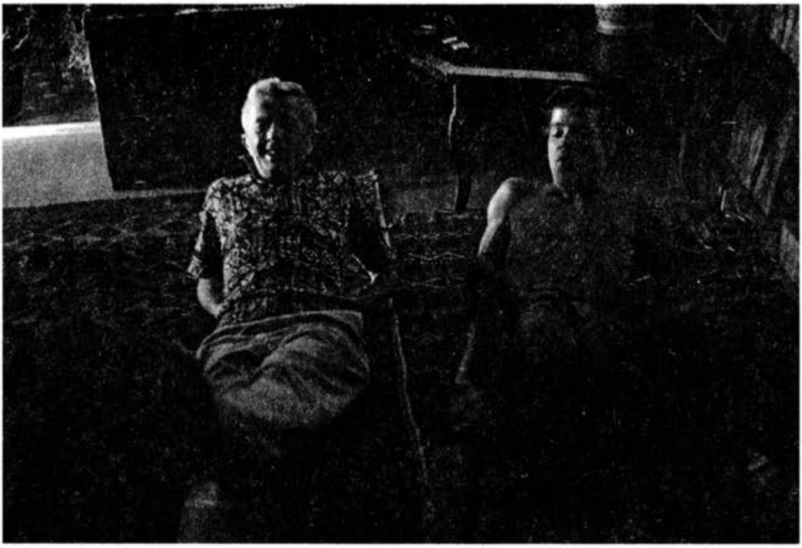

بول بولز مع محمد مرابط، الذي ترجم بولز قصصه عن الحشيش إلى الإنجليزية.

في نيويورك عام 1961، وعلى مسافة قصيرة بالسيارة من مقر الأمم

(1) كاتب وفنان وقاصّ مغربي (مواليد 1936).

المتحدة، حيث اجتمع مندوبو الأمم لمناقشة الضوابط العالمية الجديدة للمُخدِّرات، كان مقهى *دولا ر ساين* في الشارع السفلي للشرق يبيع البَيُّوط المشتراة عبر البريد من مُورِّد جملة في مدينة لاريدو بولاية تكساس، مطحونة ومعبأة في كبسولات جيلاتينية، سعر الواحدة خمسون سنتًا. وفي مقهى *سان ريمو* في غرينتش فيليج، الذي كان ملتقى لألن غينزبر ومايلز ديفيس[1] وجاك كيرواك[2]، ذكر الكاتب تيري ساذرن[3] أنَّ «الناس بدأوا يقطّعونها ويأكلونها كالتين». وقاد المتحمسون لثقافة الهنود الأصليين خلال العصر التقدمي، مثل مايبل دودج، حملاتٍ ضد استخدام السكان الأصليين للبَيُّوط، معتبرين إياه شرًا مدمرًا للقبائل يشبه الويسكي المهرَّب. في النسخة القادمة من الحداثة، سيجذب جيلًا جديدًا إلى الثقافة والروحانية والحقوق السياسية للأمريكيين الأصليين.

إعادة اكتشاف الأدوية غير الغربية كانت أحد أعراض ابتعاد الجيل عن الحركات الاجتماعية للعصر التقدمي، والاتجاه نحو ما يشبه إلى حدٍّ كبير عصرَ الفرد الذي سبقه، تحولَت الحركات المجتمعية والاجتماعية في القرن العشرين، عند الكثيرين، إلى ثقافة تحطيم الروح للامتثال الجماعي. وصف كاتب السيناريو والناقد بن هيشت[4]، في مذكراته *طفل القرن*، التي نُشرت عام 1954، حياته بأنها حقبة مكرَّسة منهجيًا لـ«هزيمة الفردانية البشرية»:

---

(1) عازف جاز أمريكي (1926 ـ 1991).
(2) شاعر وكاتب وروائي أمريكي (1922 ـ 1969).
(3) كاتب أمريكي (1924 ـ 1995).
(4) كاتب وروائي أمريكي (1894 ـ 1964).

حضارتنا تشبه حملة إعلانية لا تعرف الرحمة، تسعى للتغلب على كلِّ التعبير الفردي. يتم تخدير الفرد السليم الذي يفكر لنفسه بفِعل الضوضاء المحيطة به. إنْ كان يريد «التفكير منفردًا» فيجب ألّا يتصرف كفرد؛ بل يكون أكثر شراسة من الأناركيين[1]. الإنسان الفردي يُعاد صُنعه كجزء من الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية والفاشية بلا وجه محدد.

أصبحَت هذه الانتقادات متأصلة في العلوم النفسية، حيث ظهرَت فيها ردة فعل ضد مبادئ السلوكية. ودُعمَت التقاليد النفسية المضادة، التي وضعت الدوافع الإنسانية الأساسية وتجربة الحياة الفردية في مركز تساؤلاتها، من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين الذين يعتقدون أنَّ النازية الألمانية قد أظهرَت ضرورة أنْ تشجع الدولة الديمقراطية المواطنين على التفكير بأنفسهم.

في عام 1950، قدَّم استبيان طويل ـ وضعه العديد من المؤلفين بعنوان *الشخصية الاستبدادية*، من جامعة كاليفورنيا بيركلي، والذي موّلتْه اللجنة اليهودية الأمريكية ـ مقياسًا مؤثرًا لتقييم قابلية الفرد للفاشية، حيث وضع الخضوع للسلطة مقابل الإبداع والفردية والعقلانية المطلوبة لتغذية المجتمع الحر. وفي أوائل الستينيات من القرن الماضي، اعتنق هذه القيم جيلُ الشباب بعد الحرب، ممَّن عايشوا جحيم القنبلة النووية، ووجدوا قضية مشتركة في عدم الثقة بالدولة وثقافتها المتشابهة. كما ذكر المؤرخ الاجتماعي تيودور روساك[2] في كتابه الكلاسيكي *صنع الثقافة المضادة*

(1) أتباع فلسفة سياسية ترفض التسلسلات الهرمية في العلاقات الإنسانية.
(2) روائي أمريكي (1933 ـ 2011).

(1968)، إلى تتابُع مستمر من نقاط الصِّدام والقضايا المختلفة، ميَّزت الإحساس الجديد عن القديم:

> في أواخر الخمسينيات، قرر أعضاء أكثر جرأة من هذا الجيل الذي يعاني من أزمة الهوية أنَّ شعراء البيتنيك[1] ومُغنّي الفلكلور في غرينتش فيليج هم نماذج أفضل للآباء الذين باعوا أرواحهم لشركة جنرال موتورز، أو الأمهات اللاتي يكدحنَ طوال اليوم لخَبز بسكويت أفضل. كانوا يحلمون بـ«السفر» بدلًا من «العمل». أصبح الشَّعَر قضية؛ فتركه ينمو طويلًا يعني الاعتراض. وأصبحت الكلمات القذرة قضية؛ حيث تعني عدم احترام الآخرين. وأصبح الجنس خارج الزواج قضية؛ فهو مرادف للفجور بدون مخاطر، وربما يعني النساء خارج السيطرة. أصبحت السجائر قضية؛ إذ تعني التطلع للوضع الخارج عن القانون والوعي غير القانوني. كان من السهل العثور على قضايا، فقد نمَت بكثرة في الفجوات بين أخلاق الحرمان المحتضرة، ونظام اقتصادي جديد وفير يكاد يصل إلى حدِّ الإشباع.

أصبح مصطلح «المواد المُخدِّرة» الشامل، الذي لا يزال يحمل وصمة العار من عصر أنسلينجر، والذي يُطبَّق بقوة معنوية وقانونية متساوية على القنب والبَيُّوط والهيروين جاهزًا للتطبيق. والورقتان الرابحتان اللتان تحتفظ بهما الثقافة المضادة الناشئة هما شعراء البيتنيك، ومادة (إل إس دي). وكان الكاتب ويليام بوروز من بين رواد هذا المجال، حيث عمل بجدٍّ في منتصف الخمسينات على تجميع عدد من المواد المؤثرة في الوعي من

(1) إشارة إلى حركة اجتماعية في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي مناهضة للمادية، وعبَّر أعضاؤها عن أنفسهم من خلال أشكال مختلفة من الفن، مثل الأدب، والشِّعر، والموسيقى والرسم.

مصادر متباينة، بداية من زجاجات الحبوب المرمية في خزائن الحمامات، إلى كروم النباتية المهلوسة في الأمازون الكولومبي. وتُعد أول رواية لبوروز *المدمن*[1] (1953)، متسمة بنظرة متشائمة للثقافة المضادة الناشئة، حيث بحث عن المواد التي يريدها بين المحتالين والمجرمين الصغار في نيويورك ونيو أورليانز ومكسيكو سيتي. وصفاته الصادقة لتجاربه مع المُخدِّرات، التي تتوازن بين الملاحظة الموضوعية وحُلم اليقظة، تذكر تقارير القرن التاسع عشر:

> تتسلل فعالية المورفين أولًا إلى الجزء الخلفي من الساقَين، وتمتد إلى الجزء الخلفي من الرقبة، وتنتشر موجة من الاسترخاء تجعل العضلات تفلت من العظام لتشعر وكأنك تطفو في الماء المالح الدافئ بلا حدود. ومع انتشار هذا الشعور المريح في أنسجتي، انتابني الخوف الشديد؛ فكان لديَّ الإحساس بوجود صورة مروعة تتربص بي خلف مجال الرؤية وتتحرك بمجرد تحريك رأسي، ولم أتمكن من تصوُّرها بشكل كامل. شعرتُ بالغثيان، فاضطررتُ للتمدد وإغلاق عيني. وجرى أمامي مشهد كأني أشاهد فيلمًا؛ بار كوكتيل ضخم مضاء بالنيون يتوسع ويتضخم، حتى يضم الشوارع وحركة المرور وإصلاحات الشوارع، ونادلة تحمل جمجمة على صينية، ونجوم في السماء الصافية.

كان بوروز مولعًا بذكريات عالم الجريمة والمُخدِّرات في الماضي مثل ميله إلى المواد المُخدِّرة نفسها. فكتاب *لا تستطيع الفوز* (1926)، الذي يتحدث عن ذكريات جاك بلاك[2] اللص والمتشرد عن كسر الخزائن،

---

(1) صدرت النسخة العربية بترجمة ريم غنايم عام 2017 عن منشورات الجمل.
(2) كاتب سير ذاتية أمريكي (1871 ـ 1932).

والفجور، والسجن، والحياة على الشارع، من أفضل الكتب التي قرأها، كما أنَّ مذكرات جيمس لي *العالَم السفلي للشرق* ضمن مفضلاته الدائمة. وقد أشاد بوروز بكتاب جيمس لي في مقدمة غير منشورة بوصفها رواية «استُحضرت من الهواء النقي في القرن التاسع عشر»، قبل أنْ تصبح المُخدِّرات محظورة، «عندما كان بإمكاننا الاحتفاء بمُتعتها بصراحة. كان مولعًا بتفاصيل نظام لي للتخفيف من المُخدِّرات والانسحاب منها، ونظامه الصحي الذي يقوم على أربع حقن يومية من المورفين والكوكايين بكميات متساوية، وأربعة أنابيب من الأفيون قبل النوم، والحشيش طوال اليوم».

أصبح كتاب «لي السعيد والمتسم بالحنين» ميثاقًا ونموذجًا لإعادة اكتشاف بوروز لنظام عقاقير متعددة من مصادر انتقائية ممَّاثلة؛ الخبرة الطبية وعلم الصيدلة في الشوارع والسفر إلى الخارج. في نهاية كتابه *المدمن* في مكسيكو سيتي، لاحظ بوروز أنَّ «البَيُّوط الجديدة بدأت تأثيرًا جديدًا في الولايات المتحدة. والبَيُّوط لا يشملها قانون هاريسون، ويمكنك شراؤها من تُجّار الأعشاب عبر البريد». حصل بوروز على بعضها من مُورِّد محليّ، وفحصها عن كثب، وقشَّر أربعة رؤوس وحكَّها حتى تبدو مثل سلطة الأفوكادو. بلعها بصعوبة، وتقيَّأ، وانتظر التأثيرات. استنتج بوروز «أنَّ تأثير البَيُّوط شبيه بتأثير مستحضر البنزدرين. لا يمكنك النوم وبؤبؤ عينيك متسعان. كل شيء يبدو مثل نبات البَيُّوط».

يُعد البنزدرين إضافةً مبكرة لمُروِّجي المواد المُخدِّرة، وكان بوروز يتعرض لها في أثناء ركوبه طوال الليل مع سائقي الشاحنات على المسافات الطويلة. وفي عام 1954، هاربًا من المشاكل القانونية وقتل

زوجته، استوحى بورروز من كتابات بول بولز زيارة طنجة، حيث أدرج الحشيش في مجموعته اليومية. وأصبح مفتونًا بأسطورة الحشاشين، التي حوَّلها إلى حكاية رمزية ثقافية مضادة للثقافة الرسمية والمبادئ السائدة لثقافة المُخدِّرات السطحية، تشبه ما فعله تيوفيل غوتييه في حكاياته لنادي الحشاشين. وأصبح شيخ الجبل، حسن الصّباح، عند بورروز رمزًا متكررًا للمقاومة ضد السيطرة الاستبدادية. حيث أعطى جاك جوزيف مورو تجاربه ميزة الحشاشين المزيفة «سوف يُخصَم هذا من نصيبك في الجنة»، وربط بورروز مذهب حسن الصباح بشعار «لا شيء حقيقي. كلّ شيء مباح».

* * *

في فبراير 1961، وإبّان مناقشات الأمم المتحدة حول «الاتفاقية الوحيدة للمُخدِّرات لسنة 1961»، أُطلِق أكثر برامج التجارب الذاتية تأثيرًا في ذلك العصر، على أطراف ضواحي بوسطن. بجانب المدفأة في منزله المستأجَر في نيوتن، ويطلُّ عبر النهر على جامعة هارفارد، عدَّ كلٌّ من العالَم النفسي تيموثي ليري وزميله الأقدم ريتشارد ألبيرت، الأستاذ المساعد في علم النفس السريري، خمس حبّاتٍ وردية، كل منها مليغرامان من الإندوسيبين، مركب السيلوسيبين الاصطناعي الذي عُزِل مؤخرًا من فِطر مكسيكي، وأصبح متوافرًا في السوق من خلال شركة ساندوز للأدوية في بازل بسويسرا.

وفي الصيف السابق، أجرى ليري تجربتَه الأولى مع فِطر السيلوسيبين في فيلا تطلُّ على ملعب للجولف في مدينة كويرنافاكا، وهو منتجع فخم يقع على بُعد ساعة جنوب مكسيكو سيتي. تحولَت إجازته الفاخرة

بجانب المسبح إلى تجربة مذهلة، ضحك خلالها وبكى بشكل مؤلم بينما كان يتنقل عبر الزمان والمكان في جولةٍ في القصور والمعابد والغابات والدوامات المتغيرة. وبعد خمس ساعاتٍ عاد، منهكًا ومبتهجًا، بقناعة حددَت المسار لبقية حياته. عند عودته إلى جامعة هارفارد، اقترب من ألبرت للانضمام إليه في تشكيل مشروع هارفارد للسيلوسيبين، والذي يهدف إلى توسيع نطاق تجربته الذاتية لتشمل مجموعة من أعضاء هيئة التدريس وطلاب الدراسات العليا. اقترحوا فيما بينهم تجميع ملف من التقارير الذاتية التي من شأنها، كما كانوا يأملون، أنْ تفتح مجالًا جديدًا ومثيرًا لعلم النفس.

على الرغم من انحسار طريقة الاستبطان خلال العصر التقدمي وذروة السلوكية، فلم تختفِ تمامًا طريقة التجربة على الذات. فقد ظلت هذه الطريقة تحظى بعدد قليل من المدافعين الأوفياء عبر العلوم، على الرغم من أنهم وجدوا أنفسَهم يدفعون ضد التيار. وأحد الأمثلة البارزة هو عالِم الأحياء جون هولدين[1]، والذي كان والده جون سكوت هولدين[2] عالِمًا بطريقة القرن التاسع عشر البطولية؛ حيث تم خلالها إسقاطه في بئر تُوفي فيها خمسة رجال على أثر استنشاقهم غازًا سامًّا غير معروف، وتمكَّن من تحديد وجود كبريتيد الهيدروجين. أما هولدين فقد جعل من التجربة على نفسه مبدًا أساسيًا خلال حياته المهنية المرموقة التي امتدَّت عبر الوراثة والرياضيات وعلم وظائف الأجهزة الحيوية، وأقرَّ بسعادة بأنه فقد الوعي في كثير من المرات بسبب الضربات على الرأس، أو الحُمى، أو التخدير،

(1) عالم وراثة وعالم أحياء تطوري (1892 ـ 1964).
(2) طبيب فسيولوجي إنجليزي (1860 ـ 1936).

أو نقص الأكسجين، أو أسباب أخرى. كما اعتبر الحيوانات المختبرية مفيدةً للتجارب التقريبية، ولكنها تُعَد ثانوية على نحوٍ واضح عندما يكون هدف البحث هو دراسة استجابات الإنسان.

لم تكن التجارب الذاتية عند هولدين، مجرد اختيار أخلاقيّ واضح ـ يجب على العلماء في بحوثهم أنْ يكونوا مستعدين للأخذ بزمام المبادرة ـ ولكنها تجارب تقدم نتائج فائقة. في عام 1927، في بَحث مشهور بعنوان «عندما تكون أنت الأرنب»، وصف سلسلة من التجارب التي «أراد فيها معرفة ما يحدث للإنسان عندما يكون جسمه أكثر حامضيًا، أو أكثر قلوية». ففي محاولة لجعْل دمه يتشبُّع بثاني أوكسيد الكربون عن طريق التنفس الزائد، مع وجود زميله لإفاقته عندما يفقد الوعي؛ تناول ثلاث أوقيات من بيكربونات الصوديوم؛ وشرب بِنْت [473.17 ميلي لتر] من محلول حمض الهيدروكلوريك المتآكل؛ وتناول كلوريد الأمونيوم.

قال عن نفسه قائلًا: «أنا راضٍ تمامًا بتكرار نوع قصور التنفس الذي يحدُث في المرحلة النهائية من مرض الكلى والسكري في جسدي». وختم بالقول: «قد يظنُّ البعض أنَّ التجارب التي أجريتُها خطيرة، غير أنَّ هذا ليس صحيحًا إذا نُفِّذَت بذكاء». فالتجارب التي يعتمد فيها الفرد على صحة الكيمياء الحيوية الخاصة به والتي يخاطر فيها بحياته، هي أكثر أمانًا بكثير من تجارب مُصمِّم الطائرات الذي يتحمل خطر سقوط الطائرة من ارتفاع ألف قدَم إذا كانت التصميمات الهوائية غير صحيحة. ويمكن أنْ تكون هذه التجارب أكثرَ فائدة للإنسانية على نحوٍ عامّ، حيث يمكن أنْ تساعد في فهم صحة الجسم وتحسينها، وتطوير علاجات جديدة للأمراض.

كانت ممَّارسات هولدين عقلانية وشجاعة ومثيرة للرعب بالقدْر نفسه، وفي جزء منها، تأكيدًا على بطولة جيل والده ضد الطريقة العلمية الخافتة في القرن العشرين. كما أنه تطوع بانتظام لتجارب تُنفذ على البشر يُجريها علماء آخرون، ومنها في عام 1949 تجربة نفَّذها قسم الصيدلة في كلية لندن الجامعية، حيث حاول إنجاز مهام إدراكية تحت تأثير أوكسيد النيتروز في مشروع أشرفَت عليه العالمة في علم النفس الدوائي الشابة هانا شتاينبرج[1]. وقد واصلت شتاينبرج مسيرة متميزة في دراسة تأثير الأدوية التي أصرَّت على اختبارها على نفسها، على غرار هولدين، وكتبت أنَّ التجارب على الذات ساعدتْها لفهم مدى تبايُن تأثيرات الأدوية، اعتمادًا على الموضوع وحالته العاطفية. طريقتها جعلت منها نموذجًا مختلفًا عن زملائها، لكن جنسها لفت انتباهًا أقل ممَّا حدث مع ماي سميث في جيل سابق. وفي عام 1970 أصبحَت أول أستاذة في علم النفس الدوائي في كلية لندن الجامعية.

كانت التجربة الذاتية قائمة على نحوٍ أكبر في علم الصيدلة، كما في حالة شتاينبرج، خاصة عند اختبار العقاقير النفسية الجديدة. وقد تجلَّت فوائدها في اكتشاف الأمفيتامين، وهي العائلة الأكثر أهمية من العقاقير النفسية التي ظهرَت في بداية القرن العشرين. ففي يونيو 1929، في قسم الفيسيولوجيّ بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، طوَّر الكيميائي الأمريكي غوردون أليس[2] مركبًا جديدًا من الأدرينالين، وهو (بيتا ـ فينيل إيزوبروبيل أمين)، واختبره على الخنازير الغينية. وتوصَّل من تجاربه على حيواناته المختبرية

(1) عالمة في علم النفس الدوائي (1926 ـ 2019).
(2) كيميائي أمريكي (1901 ـ 1963).

إلى أنه يرفع ضغط الدم، لكن التجربة الذاتية كشفَت له الكثير ممَّا يمكن أنْ تفعله هذه الحيوانات. عندما حقنه زميله، وصف «شعورًا بالسرور» وأصبح ثرثارًا، ودعا زميله لتناول العشاء في منزله مع زوجته، حيث جرت بينهم محادثة متألقة على نحوٍ غير عادي. بعد ذلك، قضى «ليلة بلا نوم إلى حدٍّ ما» حيث «بدا أنَّ أفكاره تتقافز من موضوع إلى آخر».

أجرى أليس وزملاؤه تجاربهم الذاتية على الجرعات اليومية من المركَّب وأطلقوا عليه اسم الأمفيتامين. لقد زاد من طاقتهم وإثارتهم و«حماستهم»، وفي بعض الحالات زاد من قلقهم. ابتكر أليس مركبات أخرى في المختبر، وفي 16 يوليو 1930، أخذ 126 مليغرام من البديل الذي ابتكره عن طريق إضافة ذرات الهيدروجين إلى الجزيء. أنتج هذا تأثيراتٍ بصرية أكثر وضوحًا؛ إذ بدت الغرفة «مليئة بالدخان المموج». كتب بخربشة: «لا أستطيع التفكير في سلاسل طويلة». «يتخطى الفكر بسرعة، ولكن يبدو واضحًا تمامًا». صحب هذه التغييرات «شعور عام بالسرور»، إلى جانب اتساع حدقة العين وصرّ الأسنان. سيصبح هذا المركب معروفًا باسم ميثيلين دايوكسي أمفيتامين (أم دي أيه)، وهو قريب جدًا من الإكستاسي.

مُنِح أليس براءة اختراع للأمفيتامين، وعرضه على شركة الأدوية سميث كلاين وفرينش التي أصدرت في عام 1934 البنزدرين، وهو مستحضر متطاير من الأمفيتامين في أنبوب لرشِّه في الجيوب الأنفية كمضاد للاحتقان. وحقَّق نجاحًا تجاريًا فوريًا. اهتمت الشركة أيضًا بإمكاناته كمُحسِّن للأداء العقلي، وبدأت في سلسلة من التجارب شملَت الزملاء الكيميائيين والأطفال ذوي الاحتياجات التعليمية الخاصة.

وقدَّمَت الإعلاناتُ في المجلات الطبية عيناتٍ مجانية من حبوب كبريتات البنزدرين للأطباء، الذين ذكروا أنها يمكن أنْ توصَف مع غيرها لعلاج التعب والاكتئاب والنعاس المفرط.

ومع ذلك، كان من الضروري تحجيم هذا النوع من التجارب المهنية الحرة، وتقليل استخدام الجمهور العشوائي لها على نحوٍ عامّ. كان ويليام سارجانت[1] في مستشفى مودسلي بلندن من أوائل الذين تلقَّوا علاج البنزدرين، وهو من أوائل المتحمسين للعلاجات النفسية مثل غيبوبة الأنسولين والعلاج بالصدمات الكهربائية. لاحظ سارجانت الأمل المبكر للأمفيتامين في علاج مرضى الاكتئاب، وشرع في التجربة على نفسه:

> على الرغم من أنني نادرًا ما تناولتُ الأدوية لأغراض تجريبية، خشية أنْ تُؤثِّر على حُكمي، فإنني جربتُ إحدى هذه الأقراص يوم سبت بعد الظهر، ثم مشيتُ بنشاط حول حديقة الحيوانات مع شعور ممتع للغاية بالثقة ودون أيِّ تعب. وعند عودتي إلى المستشفى، عملتُ بجدٍّ طوال تلك الليلة، وأنا ما زلتُ سعيدًا ونشيطًا. وفجأةً خطر لي أنه، ما لم يكن هذا الشعور بأنني في قمة العالم بسبب شيء آخر، فإنَّ البنزدرين يجب بوضوح أنْ يساعدني على اجتياز الامتحانات.

لقد نجح سارجانت بالفعل في حصوله على شهادة الطب النفسي بالأمفيتامين على أعلى مستوى، وأثبتَت تجربة غير رسمية على نطاق صغير مع زملائه في مستشفى مودسلي أنه «يُحسِّن وبشكل ملحوظ نسبةَ الإجابات الصحيحة». افترض سارجانت أنَّ هذا مرتبط بفضائله كمضاد

(1) طبيب نفسي بريطاني (1907 ـ 1988).

للاكتئاب؛ لا يعزِّز بالضرورة الذكاء، بل الثقة فحسب. ومع ذلك، فقد استنكر ـ عندما اكتشف الأمر بعد بضع سنوات ـ أنَّ البنزدرين يباع من الصيدليات «على شكل حبوب مثل دواء «دريناميل» أو ما يُطلَق عليه «القلوب البنفسجية»، التي يستخدمها السيكوباتيون ومدمنو المُخدِّرات والجانحون البسطاء كمصدر للشعور «بالإثارة» الرخيصة. على الرغم من «أنني اختبرتُ بنفسي آثاره مسبقًا، ووجدتُ أنه يتفق مع دستور أدويتي الخاصة»، إلا أنه ضغط بقوة ليقتصر استخدامها على الوصفات الطبية. لقد رُسِمَت الخطوط الفاصلة بين البحث والترفيه، والعلم والتأييد، والاستخدام المهني والشخصي بشكل أكثر وضوحًا في القرن العشرين ممَّا كانت عليه في أيام سيغموند فرويد، كما اكتشف ليري وألبرت بسرعة.

***

في 31 يناير 1960، انضمَّ الكاتب والشاعر وأستاذ الكلاسيكيات روبرت غريف[1] إلى غوردون واسون[2] وزوجته فالنتينا، في شقتهما المطلة على نهر إيست في مانهاتن، لتجربة «الفطر السحري». كان واسون، وهو مسؤول كبير في العلاقات العامة لدى بنك الاستثمار جيه. بي. مورغان، قد أثار ضجة في عام 1957 عندما نُشر بَحثه «البحث عن الفطر السحري» في ثماني صفحات ملونة ومصوَّرة في العدد الصادر في مايو 1957 من مجلة لايف، حيث وصف مشاركته في طقوس لتعاطي الفِطر المقدس في الجبال النائية في ولاية واهاكا المكسيكية.

---

(1) شاعر وروائي وكلاسيكي بريطاني (1895 ـ 1985).
(2) مؤلف أمريكي (1898 ـ 1986).

كان غريفز هو مَن لفت انتباه واسون إلى هذه القصة، استنادًا إلى ورقة بحثية كتبَها عالِم النبات الإثني في جامعة هارفارد ريتشارد إيفانز شولتس، في عام 1939، والتي حددَت النبات المقدس الموصوف في مخطوطات الأزتك[1] *تيوناناكاتل*، «لحم الآلهة»، بوصفه نوعًا من الفطريات المهلوسة. لم يُثِر عمل شولتس اهتمامًا كبيرًا خارج تخصُّصه في ذلك الوقت، ولكن بحلول منتصف الخمسينيات أصبح له أهمية كبيرة عند المتحمسين مثل واسون، الذين طوَّروا اهتمامًا هاويًا، ولكن متمسكًا وممولًا جيدًا بدور الفطر المقدس والمؤثِّر في العقل في مرحلة ما قبل التاريخ.

عرض واسون على غريفز الفطر «في شكل بلوري»، الإندوسيبين الذي عزله ألبرت هوفمان، الكيميائي ومكتشِف عقار (إل إس دي) في شركة ساندوز للأدوية، في عام 1958 من عينات فطر واسون المكسيكية، والذي سيُجري عليها ليري وألبرت تجربتهما الرسمية الأولى في العام التالي. لم يكن غريفز متأكدًا ممَّا سيحدث، وخاف أنْ تنتابه «شياطين مروعة وأرواح مجهولة»، ولكن مع مفعول الأقراص الوردية حقَّق تساميًا بلا جهد:

> أقرب تجربة لي بهذا الشأن كانت في مرحلة الطفولة المبكرة، عندما، بعد انتظارنا إلى ما لا نهاية في الممر البارد المظلم، رأيتُ أنا وإخوتي باب غرفة الجلوس يُفتح فجأة وتظهر شجرة عيد الميلاد تشع بكل شموعها المضاءة، وفروعها تلمع بزينة متعددة الألوان.

قام واسون بتشغيل تسجيله الصوتي لماريا سابينا، المعالجة التقاليدية المازاتكية[2] التي قادته خلال أول لقاء له مع الفطر، حيث استدعت المسيحَ

(1) من الشعوب الأصلية في الأميركتين.

(2) من السكان الأصليين في المكسيك.

في صورة تلاوك، إله الأمطار والخصوبة في ديانة الأزتك في العصر ما قبل الكولومبي[1]. وفيما يتعلق بغريفز، « ربما تكون الإلهة أفروديت[2] تتحدث إلى ابنها المفضل إيروس[3]». كان مفتونًا، و«أصبحَت الأغاني روابط معقدة من سلسلة ذهبية دائرية تلتف وتتشابك كثعبان بين الشجيرات الخضراء الزمردية». وبعد عدة ساعات، تلاشت النشوة والرؤى، وعندما كان الجميع يأكلون شطائر الديك الرومي الباردة في المطبخ، أدرك غريفز أنه «قد نشأت رابطة فريدة من العاطفة بيننا؛ كانت قوية لدرجة أنني شعرتُ أنه لا شيء يمكن أنْ يكسرها أبدًا». غادر في الصباح التالي، «منتعشًا بعمق و (بعبارة ووردزورث) يجرُّ خلفه سُحب المجد».

خلص غريفز بعد تأمل في التجربة، إلى أنها كانت أكثر من تحوُّل شخصي. لقد غيَّرت معنى «المُخدِّرات» بالكامل:

> اكتسبَت كلمة «المُخدِّر» (drug)، التي شملَت في الأصل جميع المكونات المستخدَمة في الكيمياء، والصيدلة، والصباغة، وما إلى ذلك، دلالةً خاصة في اللغة الإنجليزية، والتي لا يمكن أنْ تنطبق على *السيلوسيبين* «تعاطي المُخدِّر» أي: الذهول بدلًا من تنشيط الحواس. هذه الفضيلة الخاصة *للسيلوسيبين*، القدرة على تعزيز الواقع الشخصي، تحول «اعرَف نفسك» إلى مبدأ عمليّ.

في السنوات المحورية في أوائل الستينيات، تغيرَت أشياء كثيرة في وقت واحد. فبينما تم تكريس مفهوم العصر التقدمي عن «المُخدِّرات» في القانون الدولي، ظهرَت فئة جديدة من المواد المُخدِّرة تحت اسم

---

(1) العصر الذي يضم جميع التقسيمات الفرعية للفترة في تاريخ الأميركتين قبل ظهور التأثيرات الأوروبية.

(2) من الأساطير اليونانية هي واحدة من الآلهة، ربة الحب والجمال والنشوة الجنسية.

(3) من الأساطير اليونانية: إله الحب والرغبة والجنس.

«المُخدِّرات النفسية» (psychedelics)، وهي تسمية تهدف إلى الهروب والكتابة فوق السلبيات مصطلح «المواد المُخدِّرة» بارتباطاتٍ إيجابية تتوافق مع آخر إصدار للحداثة. وكان غريفز من بين الموجة الأولى من العلماء والكُتّاب والمثقفين البارزين الذين رفضوا فكرة «المواد المُخدِّرة» كما تصوَّروها سابقًا، غير أنهم أصبحوا مناصرين صريحين ومتحمسين لما أصبح يُعرف «تجربة المُخدِّرات النفسية».

مثَّل هذا بدوره جزءًا من تحوُّل أوسع حيث تم تحدّي علم النفس السلوكي والمعياري الذي يُعد أساسًا لرفض العصر التقدمي المواد المُخدِّرة من خلال إعادة اكتشاف التجربة الصوفية، وعلى وجه الخصوص، كتابات ويليام جيمس والنظرة الواسعة للحياة العقلية التي دعا إليها. وقد اجتمعَت كلُّ هذه التحولات لخلْق إمكانات جديدة لحالات الوعي التي يسببها المُخدِّر، وحتى من خلال إعادة صياغتها من شخصيات مؤثرة مثل واسون وغريفز، لتغيير التجربة نفسها.

درس عالِم الاجتماعيات هاورد بيكر[1] في بَحثه «أنْ تصبح متعاطيًا للحشيش» الذي نُشر عام 1953 حقيقةً مثيرة للاهتمام عن تحوُّل تأثيرات المُخدِّرات بسبب السياق الاجتماعي. فقد لاحظَ بيكر أنَّ عازفي موسيقى الجاز في نيويورك شاع فيهم تدخين الماريجوانا؛ ليس لأنَّهم مخالفون للقانون أو مجرمون في رأيه، بل لأنهم يستمتعون بتأثيراتها بأساليب غير متاحة للأغلبية من الناس. وكتب: «إنَّ تَعاطي الماريجوانا هو دالة في مفهومِ الفرد للماريجوانا والاستخدامات التي يمكن وضعُها».

(1) عالم اجتماع أمريكي (مواليد 1928).

لم يكن معظم الأمريكيين على دراية بمتعاطي القنب، وستكون تجربة الحصول على تأثير مُخدِّر غريبًا ومربكًا ومزعجًا لديهم؛ ولكن في ثقافة فرعية تشارك وتحتفل بـ«المرجعيات الملموسة لمصطلح (الانتشاء)»، يمكن للمبتدئ أنْ يُدرَّب بسرعة على التعرف على مُتعِها. وقال بيكر: « الأفكار الجديدة تجعله قادرًا على تحديد هذه الأعراض بين أحاسيسه، وربطها بتأثيرات ممتعة». إذ يمكن أنْ يصبح الدوار والارتباك بدلًا من كونهما أعراضًا للمرض، إشاراتٍ للضحك والخيال اللفظي، ويمكن تبادُل القلق أو الاضطراب بروح الصداقة والتسلية.

كانت رؤى بيكر قابلة للتطبيق بالقدْر نفسه على العملية التي وُجِدَت من خلالها المواد المُخدِّرة التي توثر في العقل في مكانها الملائم في القرن التاسع عشر، كانت هذه الأفكار مُناسبة في وقت كان فيه الطب النفسي يميل نحو الجانب الحيوي ويشجع على الافتراض بأنَّ تأثيراتها نشأتْ بالكامل في الدماغ. تُعد نظريته قابلةً للتطبيق على نحوٍ كبير على المُخدِّرات النفسية، كما أوضحَت الأفكار التي قدَّمها غريفز وواسون. وفي السنواتِ التي أعقبَت عزل السيلوسيبين عن الفطر المكسيكي وتم تحديده على أنه مُخدِّر، أصبح من الواضح تدريجيًا أنَّ الفطريات المحتوية على السيلوسيبين كانت محلية في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. لم يكن هناك تقليد ثقافيّ أو دينيّ موثق لاستخدامها، ولكن ثمة العديد من الأمثلة على الابتلاع العرضي، والتي سجَّلها على مر السنين الأطباءُ وعلماء الفطريات وعلماء السموم.

لم يتصور أيٌّ منهم على أنها تجربة صوفية أو روحية. أما الذين طبَّقوا عليهم التجارب، عند ملاحظة البداية المبكرة لتأثيرات السيلوسيبين -

الدوخة، واضطراب المعدة، والأفكار الغريبة والمتطفلة ـ فقد قفزوا عادةً إلى استنتاج أنهم قد أكلوا فطريات سامَّة عن غير قصد ويمرّون بأزمة تسمُّم، ربما أنها قاتلة. والتشوهات البصرية مثل الهذيان أو الحمى، وغالبًا ما تكون أكثر إزعاجًا للأطباء المرافقين الذين طبقوا الإسعافات الطارئة مثل المقيئات أو غسل المعدة.

تغيَّر هذا كله مع إعلان واسون عن اكتشافه لاحتفالية طقوس فطرية أصلية يعتقد بها العديدُ من الخبراء الغربيين أنها انقرضَت منذ فترة طويلة. أُعيد تصوير تسمُّم الفطر على أنه تجربة مقدسة لها تاريخ عميق يسبق بكثير المسيحية، وأضاف عزل ألبرت هوفمان مركبًا جديدًا للوعي من عينات واسون بصمة العلم إلى سحر الطقوس القديمة. ولم تكن هذه هي الطريقة التي تصوَّرت بها ماريا سابينا[1] الفطر؛ إذ كانت هي نفسها مسيحية تقية ولا تنظر إلى احتفالاتها باعتبارها من أعمال العبادة؛ بل تدخُّلًا شفائيًا بسيطًا «يتم فقط بغرض الشفاء من الأمراض التي يعاني منها شعبنا». ومع ذلك، ادَّعى واسون أنها بقايا نجت من طقوس فطرية بدائية يشتبه فيها منذ زمن طويل كمصدر لأديان العالم العظيمة. وأصبح «الفطر السحري»، كما أطلق عليها محررو مجلة لايف، مُشبَّعًا بصفاتٍ لا يمكن لمصطلح «المواد المُخدِّرة» أنْ يشملها.

كان واسون عاشقًا للمعرفة وذا عقلية فضولية، غير أنَّ روبرت غريفز كان مرجعًا بارزًا في الديانات القديمة، ووضح نظرياتهما حول الفطر المقدس لجمهور واسع من القراء. في الطبعة الأولى من كتابه الشهير

(1) شاعرة وحكيمة من جنوب المكسيك (1894 ـ 1985).

الإلهة البيضاء الذي استكشف الأسطورة الكلاسيكية والشِّعر والذي نُشر في عام 1948 لم يذكر غريفز أيَّ شيء عن الفطر. بيد أنه في الطبعة الثالثة التي نُشرت في عام 1960، ظهر الحديث عن الفطر في كلِّ مكان:

> يظهر أنَّ طائفة الفطر الديونيسية[1] السرية استُعيرت من البيلاسجيين[2] الأصليين بواسطة قبيلة الأخيون[3] في أرغوس[4]. ويبدو أنَّ القناطير[5] الساتير والمينادات[6] التابعين لديونيسوس كانوا يأكلون بشكل طقوسي فطرًا مرقطًا يُسمى «فطر الذباب» (أمانيت الذباب)، الذي يمنحهم قوة عضلية هائلة وقوة جنسية ورؤى هلوسية وموهبة التنبؤ. وقد يكون المشاركون في أسرار معبد إليوسينيون والديانة الأورفية[7] والأسرار الدينية الأخرى أيضًا يعرفون فطر *بانيولوس بابيليوناسيوس*، وهو فطر صغير ينمو على الروث يستخدمه السحرةُ البرتغاليون حتى اليوم، وله تأثير مشابهٌ لمُركَّب الميسكالين.

حدَّد غريفز أنماط الفطر في الفن اليوناني والإتروسكي[8]، وأكَّد أنَّ ديونيسيوس «قد يكون إله الفطر سابقًا». وأنَّ مهرجان سكيروفوريا في أثينا، الذي كان فيه يحمل مظلة شمس أو قبة في الموكب، كان رمزًا للفطر المقدس. وقد افترض أنَّ فطر الذباب الأحمر الجميل والمألوف، هو

---

(1) إشارة إلى ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة.
(2) الشعوب البدائية في العالم اليوناني القديم.
(3) اسم الإغريق في العصر المسيني (1650 ـ 1100 قبل الميلاد).
(4) منطقة في اليونان.
(5) مخلوقات أسطوري إغريقية نصفها العلوي بشري، والنصف السُّفلي لحصان.
(6) نساء مشاركات في طقوس جنسية شهوانية لديونيسوس.
(7) ديانة في اليونان القديمة.
(8) حضارة في إيطاليا القديمة نشأت نحو 900 قبل الميلاد.

المكوِّن النشط و«مصدر الإضاءة التنبؤية في إلفسينا»[1]، والطقس اليوناني القديم الغامض. استنادًا إلى حكايات سيبيريه حول استخدام فطر الذباب الطائر في الشامانية وسجلات شَعب الناوا (الأزتيك) لاستخدام الفطر، جادل غريفز أنَّ استخدام الفطر كان ضمن مجموعة قديمة من الطقوس أخفتْه النخب الكهنوتية، وقمعتْه المسيحية فيما بعد. كانت نظرياته، التي غالبًا ما تعتمد على الإيقاع الشعري، والتقاطعات الأدبية والتشابهات اللغوية، مرفوضة على نحوٍ كبير من زملائه الكلاسيكيين غير أنها شكلت الرحلات النفسية للجيل الجديد، مرتبطة بالتجربة ليست بالكيمياء الحديثة وعلوم الأعصاب فحسب، بل أيضًا بالديانات الغامضة العميقة من العصور الموغلة في القِدم.

***

لقد تحوَّلت قصة أصل المُخدِّرات النفسية إلى أسطورة منذ فترة طويلة. ففي 19 أبريل 1943، تناول ألبرت هوفمان، العامل في مختبرات ساندوز في بازل، جرعةً صغيرة من مُركب (إل إس دي ـ 25)، الذي تمَّ تخليقه من فطر الإرغوت قبل خمس سنوات ولم يُجرَّب في ذلك الوقت. ما حدث بعد ذلك، وهو أنَّ هوفمان ركب دراجته الهوائية في طريقه إلى منزله على أطراف المدينة، في مشهد أعيد سرده مرارًا وتخيّله في تاريخ المُخدِّرات النفسية، وفي الروايات المصورة والرسوم المتحركة، وكذلك طبع على مربعات الورق النشاف (إل إس دي) نفسه؛ فهذا المشهد يُظهر الطريق الجبلي الملتوي تحت إطارات دراجة هوفمان ينحني ويتحول إلى

(1) منطقة جنوب اليونان.

نهر جارف من ألوان قوس قزح، مع اندلاع الألعاب النارية متعددة الألوان والشلالات والدوامات المتعددة الألوان وراء المنازل والريف المحيطة. ولكن في مذكراته الأصلية لعام 1943، التي قدَّمها بعد ثلاثة أيام إلى مدير أبحاثه في شركة ساندوز، آرثر ستول، وصف التأثيرات على نحوٍ مختلف تمامًا. لم يرِد ذِكر الدوامات المتعددة الألوان والشلالات؛ بل وُصِف سلسلة من الأعراض النفسية المزعجة:

> الدوار والاضطراب البصري، حيث بدت وجوه الحاضرين ملونة بشدة وكأنها تعاني من تشنجات، واضطرابات حركية قوية، تتناوب مع الشلل؛ رأسي وجسدي وأطرافي كلها شعرت بالثقل وكأنها ممتلئة بالمعدن؛ تشنج في عضلات الساقين، اليدان باردتان وخاليتان من الإحساس؛ طعم شيء معدني على اللسان، والحنجرة جافة ومحتقنة؛ شعور بالاختناق؛ الارتباك المتناوب مع التعرف الواضح بوضعي، حيث شعرتُ أنني خارج جسدي كمراقب محايد، وأنا أبكي أو أُتمتِم بكلمات غير واضحة.

ختم هوفمان تقريره لستول بوصف التجربة على أنها ممَّاثلة لجرعة زائدة كبيرة من الأمفيتامينات، وتخمين أنَّ (إل إس دي) كان مُخدِّرا فعالًا على نحوٍ لم يسبق له مثيل في هذه الفئة من المواد المُخدِّرة. وفي عام 1962، بعد عشرين عامًا، أصبحت القصة التي سردها للصحفية الطبية مارغريت كريغ قصة قصيرة شهيرة «سُردت عدة مرات»، بيد أنها لا تزال تشبه النسخة التي قصها في عام 1943:

> تملّكني الخوفُ من أنني سأفقد عقلي، وأسوأ ما في الأمر أنني كنتُ واعيًا تمامًا لحالتي؛ حيث لم تتأثر قدرتي على الملاحظة. أصبح الزمان والمكان أكثر فوضى، لكني لم أكن قادرًا على أيِّ فعل

إراديّ، لم أستطع فعل شيء لمنع انهيار العالم من حولي. في المنزل، استُدعي الطبيب. ظهر لديَّ شعور كما لو أنني خارج جسدي، وظننتُ أنني ميت... رأيتُ حتى جثتي الميتة مسجاة على الأريكة.

وفيما بعد، في مذكرات هوفمان *أل إس دي، طفلي المشكلة* (1979)، كانت فترة المُخدِّرات النفسية في ذروتها، وقد افترضت حلقة الاضطراب العقلي هذه الشكل الذي سيتم تذكُّره إلى الأبد:

تنفجر الدواماتُ المتعددة الألوان الرائعة عليَّ، في تناوبٍ وتنوُّع، تُفتح وتنغلق في دوائر وحلزونات، تُفرقَع في نوافير ملونة، وتعيد ترتيب نفسها وتهجينها في تدفق مستمر... كل صوت يولد صورة متغيرة بشكل واضح، مع شكله ولونه الفريدَين.

مثَّل النص الآخر الكلاسيكي لحركة المُخدِّرات النفسية الذي وُلدت منه هذه المصطلحات حالةً مختلفة تمامًا. في بحث ألدوس هكسلي الشهيرة *أبواب الإدراك* (1954)، تحدَّث عن تجربته الأولى مع الميسكالين، غير أنها تضمنَت أفكارًا صاغها هكسلي بالفعل قبل ذلك بكثير، في صباح مشرق من أيام شهر مايو عام 1953 عندما ابتلع 400 مليغرام من بلورات الميسكالين المذابة في الماء.

كان الكثير من المواد التي قدمها كتَجَلٍّ نفسيٍّ قد ظهرَت بالفعل في مجموعته الأدبية *الفلسفة الدائمة* (1946)، التي جمعَت نصوصًا روحية من التصوف المسيحي والإسلامي، والتقاليد الشرقية من الطاوية إلى الفيدية، بهدف تقدير «أعلى معامل مشترك» لهذه التقاليد وتقديمه كحقيقة عالمية. وكانت الفكرة الأكثر تذكُّرًا لهكسلي حول التجربة النفسية، ونموذج هنري برجسون للوعي الذي يصور الدماغ كمنظم يحدُّ من تجربتنا اليومية للواقع،

قد قُدِّمَت بالفعل في رسالته التمهيدية إلى همفري أوسموند[1] التي اقترح فيها تجربة الميسكالين.

ما تغير لدى هكسلي لم يكن اهتمامه بالتجربة الصوفية، الراسخة منذ زمن طويل، بل اعتقاده أنَّ المُخدِّرات قد تكون طريقًا إليها. كان تحوُّله مفاجئًا. إذ حتى في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، ظل يحافظ على وجهة نظره حيال المواد المُخدِّرة التي جُسِّدَت في رواية *عالم جديد وشجاع*، والتي تُعد أدوات تجريد من الإنسانية للرأسمالية وثقافتها الجماهيرية المتجانسة.

كتب في رواياته ومقالاته في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي على نطاق واسع عن المواد المُخدِّرة بوصفها من عوامل غسيل الدماغ والاشتراط البافلوفي[2]، وتوقَّع أنَّ «دعاة المستقبل سيكونون على الأرجح كيميائيين وعلماء فسيولوجية». في خاتمة كتاب *شياطين لودون* (1952)، الذي سبق بحث *أبواب الإدراك*، أسِفَ لأنَّ «الملايين والملايين من الرجال والنساء المتحضرين يستمرون في إيذاء أنفسهم، ليس من أجل روح التحرر والتحول، وإنما للكحول والحشيش والأفيون ومشتقاته، والباربيتورات والإضافات الاصطناعية الأخرى المضافة إلى القائمة التي تعود إلى العصور القديمة». كان يقول في ذلك الحين إنَّ التفوق الذاتي باستخدام المُخدِّرات هو وهْمٌ:

ما يبدو تحررًا هو في الواقع عبودية. بالنسبة لمتعاطي المُخدِّرات،

---

(1) طبيب نفسي إنجليزي (1917 ـ 2004).

(2) مصطلح في علم النفس السلوكي، يصف أحد أشكال التعلم الترابطي، حيث يكتسب منبه خارجي القدرة على استحضار استجابة الفرد بمنبه آخر.

فإنَّ اللحظة التي يشعرون فيها باليقظة الروحية (إذا جاءت على الإطلاق) تحلُّ محلها سريعًا حالة من الذهول البشري والهياج أو الهلوسة، تتبعها آثار جانبية سيئة مثل الصداع والغثيان والإرهاق، وعلى المدى البعيد يؤدي ذلك إلى ضَعف صحة الجسم والقدرة العقلية بشكل مستمر وقاتل. هذه الطريق هي طريق الانحدار، وسيصل معظم المتعاطين إلى حالة من التدهور.

كانت تجربة هكسلي مع الميسكالين غير قابلة للتوفيق مع المفهوم المزعوم لمصطلح «المواد المُخدِّرة»، بالطريقة نفسها التي رفض بها غريفز استخدامَ هذا المصطلح لوصف السيلوسيبين. وخلص هكسلي، إلى أنَّ ذلك لم يكن مُخدِّرا، بل ما يسميه علماء اللاهوت الكاثوليك «نعمة بلا ثمن»، ولا يُعد ضروريًا للخلاص، ولكن يمكن قبوله بامتنان إذا كان متاحًا. وفي المراسلة التي جرت بينه وبين همفري أوسموند بعد الحدث، قرر الثنائي أنه يجب استخدام كلمة جديدة لإنقاذ الميسكالين و(إس إل دي) من فئة المفهوم الملوث لمصطلح «المواد المُخدِّرة» ومن المصطلحات السريرية الحديثة التي اعتمدها الطب النفسي مثل «مسبب الهلوسة» و«محاكي الذهان» ورُبطت تأثيراتها بأعراض الفصام. اقترح أوسموند استخدام مصطلح psychedelic «سايكيدليك»، الذي يعني «يُظهِر العقل»، والذي يؤكد الاتجاهات الإيجابية مثل الإدراك الصوفي، والعافية النفسية، والنمو الروحي. ووافق هكسلي على هذا المصطلح، رغم اعتقاده أنَّ التهجئة الصحيحة يجب أنْ تكون psychodelic «سايكوديليك»، فقد استمر في استخدامها دون جدوى.

كان (إس إل دي) والميسكالين في هذا الوقت يُستخدمان على نطاق واسع في الطب النفسي، وبما أنَّ تأثيرهما الفردي على الوعي لا يمكن

التقاطه إلا من خلال مراقبين بشريين مدرَّبين، فقد أدى ذلك إلى إحياء التجربة الذاتية؛ لذا انضم الميسكالين و (إس إل دي) سريعًا إلى مركبات جديدة مُخدِّرة، وُصف كل منها في تقارير شخصية مفعمة بالحماس من مُكتشفيها. كان أسلوب هؤلاء المستكشفين يتشابه مع أسلوب العلماء الذين أجروا تجارب على أنفسهم في القرن التاسع عشر، وهذا التشابه أكثر من مجرد صدفة.

استلهم ألدوس هكسلي هذا النوع من الأدبيات، وخاصة وصفات البَيُّوط التي كتبها هافلوك إليس، وأشار إليها هكسلي في الصفحة الأولى من *أبواب الإدراك*. كما فحص تجربته من خلال المقارنات التاريخية للفنون، تمامًا كما فعل إليس، وفي بعض الأحيان توقف عند العلامات المميزة نفسها. فعلى سبيل المثال، كان شِعر ويليام وردزورث، الذي توقَّع إليس أنْ يكون «الشاعر المفضل لشاربي ميسكال»، يمثل لدى هكسلي «نظرة جديدة مباشرة إلى طبيعة الأشياء».

قبل عشر سنوات من ذلك، استعرض النقاد الأدبيون *الفلسفة الدائمة* لهكسلي مثالًا على الاتجاهات الصوفية المؤسفة في سنواته الأخيرة، وفقًا للتعبير الذي صاغه همفري أوسموند. وبحلول منتصف الخمسينيات، ومع بريق العلم الحديث الذي منحهم إياه الميسكالين، كانت هذه الأفكار متناسبةً مع روح الزمن الجديد. تمثلت ردة الفعل ضد النموذج السلوكي وقتذاك بمجموعة واسعة من وجهات النظر المختلفة.

أوضح فيلهلم رايش[1] المنشقُّ عن أفكار فرويد، أنَّ العصبية تنبع من

---

(1) طبيب نمساوي ومحلل نفسي (1897 ـ 1957).

التقييدات الجماعية الصارمة، واقترح ثورة جنسية كحَلٍّ. أما نقد هربرت ماركوزي[1] في كتاب *الإنسان ذو البعد الواحد* الذي أنشأه «المجتمع الثري» للنزعة الاستهلاكية، فيتمثل في الرغبة في تجربة شخصية أصيلة تجاوزت الثقافة الجماهيرية. واقترحت نظرية التفرد لكارل يونغ حياة من النمو الشخصي، مدفوعة بالأحلام والممَّارسة الروحية، والتي من خلالها يمكن للمرء أنْ يشق طريقَه الفريد إلى الكمال والإنجاز.

أحيت إعادة اكتشاف الاستبطان والتجارب الصوفية الاهتمامَ بعمل ويليام جيمس، ولا سيما كتاب تنويعات التجربة الدينية. كان هذا أمرًا محوريًا لـ«علم النفس الإنساني» الجديد للبروفيسور الأمريكي أبراهام ماسلو[2]، الذي قدَّم عددًا من المفاهيم التي من شأنها أنْ تؤطر الفهم الجديد للمُخدِّر؛ وهي التسلسل الهرمي للاحتياجات، وتحقيق الذات و«تجربة الذروة».

لقد وجد ماسلو علم النفس في منتصف القرن العشرين ميكانيكيًا ومختزلًا، وكان يشك في ادعاءاته بأنه موضوعيّ وخالٍ من القيم، لأنه يعمل أداةً لمجتمع متزمت ومستبد. وإلى جانب ويليام جيمس، استوحى ماسلو إلهامه من مجموعة متنوعة من المعلمين، مثل تلميذ فرويد: ألفريد أدلر[3]، وعالمة الأنثروبولوجيا روث بنيديكت[4]، ومؤسس علم نفس الجشطلت ماكس فيرتهايمر[5]. وابتداءً من «نظرية الدافعية الإنسانية»

(1) فيلسوف ومفكر ألماني أمريكي (1898 ـ 1979).
(2) عالم نفس أمريكي (1908 ـ 1970).
(3) طبيب نفسي نمساوي (1870 ـ 1937).
(4) عالمة أنثروبولوجيا أمريكية (1887 ـ 1948).
(5) عالم نفس نمساوي مجري (1880 ـ 1943).

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1943)، انتقل عمله إلى ما هو أبعد من التركيز التقليدي للطب النفسي على العقل المريض، لوضع أسس الصحة العقلية والسعادة والرضا.

يُعد الإنسان في تعريف ماسلو «حيوانًا راغبًا بشكل دائم»، والذي «غالبًا ما يكون راضيًا جزئيًا وغير راضٍ جزئيًا»، مع «زيادة نِسب عدم الرضا في أثناء صعودنا التسلسل الهرمي» من الاحتياجات الأساسية مثل الطعام والمأوى نحو الشبع الإبداعي والروحي. وبالنسبة لجيل ما بعد الحرب الذي تم تلبية متطلباته المادية على نحوٍ كبير، أصبحَت الاحتياجات الأكثر إلحاحًا هي الرضا الاجتماعي، مثل احترام الذات، واحترام الآخرين، وفي أعلى التسلسل الهرمي، «تحقيق الذات»، حيث يتحقق للفرد احتياجاته على كلِّ المستويات. ومثلت «تجربة الذروة» قمة تحقيق الذات، وهي لحظة نشوة يحقق فيها الفرد الوعي الذاتي التام والانسجام مع محيطه. كانت هذه حالة تتجاوز الهياكل الاجتماعية؛ إنها ديمقراطية وشاملة، لا تحتاج إلى معتقد ديني.

في كتاب ماسلو الرئيس في الستينيات *الأديان والقيم وتجارب الذروة* (1964)، طُعمت تجربة المُخدِّرات النفسية مع نظرياته الحالية تمامًا كما فعلَت الطبعة الجديدة من كتاب روبرت غريفز *الإلهة البيضاء*. وبناءً على أفكار ألدوس هكسلي وآلان واتس[1]، ادَّعى ماسلو «تجاوز الذات» المحسوس في المُخدِّرات النفسية التي تُستخدم في العلاج كنموذج لتجربة الذروة، والتي في المقابل أصبحت نموذجًا يستخدمه هواة المُخدِّرات النفسية للتعبير عن تجاربهم. حيث إنَّ هذه المُخدِّرات تُولِّد

(1) فيلسوف بريطاني (1915 ـ 1973).

تجارب الذروة، وهذه التجارب بدورها تساعد الأشخاص على تحقيق الذات، الذي بدوره يجعل تجارب الذروة أكثر قابلية للتحقيق. ولم يتناول ماسلو المُخدِّرات النفسية بسبب حالة قلبه، وأيضًا لأنه شعر بعدم الحاجة لذلك، إذ كان قد قرأ لوليام جيمس، فهو «قد وصل إلى ذات الشعور» بالفعل.

تسلسل ماسلو الهرمي للاحتياجات

بحلول الوقت الذي أصبح فيه أبواب الإدراك لألدوس هكسلي من الأعمال الأكثر شهرة، أتاحت شركة ساندوز للصيدلة المُخدِّرات النفسية (إس إل دي) للأطباء النفسيين. وكانت التجارب الداخلية للشركة على

المُخدِّر قد تركتْهم غير متأكدين من التشخيصات التي يجب أنْ يوصف لها الدواء وبأيِّ جرعات؛ لذلك كان حلهم هو تقديمها مجانًا للأطباء النفسيين على أساس تجريبي، مقابل توصياتهم السريرية. وكان من بين الأشخاص الذين استغلوا عرْض ساندوز المعالج النفسي أوسكار جانيجر[1] في لوس أنجلوس، والذي نشر عملاؤه المشاهير الإعلان عن (إس إل دي) لجمهورهم الكبير. وفي عام 1959، قبل أنْ يتناول تيموثي ليري أول جرعة من الفطر، وقف الممثل كاري غرانت وسط فريق العمل في أثناء تصوير فيلمه عملية بتيكوت وأعلن للصحافة ـ الأمر الذي أثار خوف مسؤولي الإعلام في الأستديو ـ أنَّ علاج (إس إل دي) مع الدكتور جانيجر قد غيَّر حياته:

> كان ذلك تحررًا مطلقًا... إننا نولد في هذا العالَم بدون أيِّ محتوى على «شريطنا». فنحن في النهاية حواسيب، وتضيف أمهاتنا محتوى هذا الشريط باستمرار، وذلك لأنَّ آباءنا غالبًا ما يكونون مشغولين في الصيد أو القنص أو العمل. وبما أنَّ الأم فقط تستطيع تعليم ما تعرفه، فإنَّ العديد من هذه الأنماط السلوكية ليست جيدة، ولكنها لا تزال تُمرر إلى الطفل. ولذلك، وصلتُ إلى استنتاج أنه يجب عليَّ أنْ أُعيد الولادة، لأمسح الشريط وأبدأ من جديد، وذلك بدون تأثير الأنماط السلبية التي تمَّ توريثها عليَّ.

اقترح ويليام جيمس في كتابه تنويعات التجربة الدينية تمييزًا بين نوعَين من الشخصيات التي أدت إلى «تصوُّرَين مختلفَين لكون تجربتنا». أطلق على النوع الأول اسم «الذين وُلِدوا مرةً واحدةً»؛ وهم الذين يقبَلون حياتهم كما هي ويحاولون انتهاز أفضل ما فيها. أما الفئة الأخرى، الذين أطلق عليهم

---

(1) طبيب نفسي (1918 ـ 2001).

اسم «المَوْلودون مرَّتَين»، فالمهمة مختلفة؛ «السلام لا يمكن تحقيقه بمجرد إضافة النقاط الإيجابية والتخلص من النقاط السلبية في الحياة».

كان يتعين على المَوْلودون مرَّتَين البدء من جديد؛ فهم، في نظر جيمس، الذين يجربون التحول الديني المفاجئ أو الرؤى الوجودية التحويلية على غرار كاري غرانت. على الرغم من أنَّ جيمس وصف الذين وُلِدوا مرةً واحدةً بأنهم «عقول صحية» المَوْلودون مرَّتَين بأنهم «أرواح مريضة»، إلا أنَّ جوهر تمييزه كان للتقليل من الحكم الأخلاقي؛ لا يمكن انتقاد طريقة التفكير الواحدة من وجهة نظر الأخرى. كما اقترح أنَّ العقل الذي وُلد مرة واحدة، رغم صحته، يميل إلى التحفظ المتعجرف والمُمل، في حين يسعى المَوْلودون مرَّتَين إلى المغامرة والتحول. كانت المُخدِّرات النفسية عوامل تغيير جذرية للمولودين مرتين، وتجربة ذروة للجميع.

خلال السنواتِ المحورية في بداية الستينيات، تم تحدّي الصورة النمطية المرتبطة بالجنون والحالات النفسية غير الطبيعية على مستوياتٍ متعددة. لقد حدث هذا التحدي بسرعة مذهلة. ففي عام 1961، نشر عالم الاجتماع إرفنغ غوفمان[1] كتابًا بعنوان المصحات، وهي دراسة لأحد المستشفيات النفسية الضخمة التي ازدهرَت خلال فترة ما بعد الحرب، تكشف فيه عن تحويل هذه المستشفيات إلى «آلات للمؤسساتية» التي تُفقِد المرضى مهاراتِهم الحياتية وهُوياتهم.

وفي العام نفسه، نشر الطبيب النفسي من نيويورك توماس سزاس[2]،

(1) عالم اجتماع وعالم نفس اجتماعي كندي (1922 ـ 1982).
(2) طبيب نفسي ومحلل نفسي (1920 ـ 2012).

كتابًا بعنوان أسطورة المرض النفسي، الذي ينفي فيه جدوى الطب النفسي ويصفه بأنه «فنٌّ قسيسي حديث» يطبق تشخيصات مرضية على حالات الأمراض النفسية، بالطريقة نفسها التي كانت الكنائس تضطهد فيها الزنادقة والساحرات في الماضي.

كتاب تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي[1]، الذي نشره ميشيل فوكو[2]، يُعَدُّ من الكتب الأساسية في هذا المجال، ونُشر لأول مرة في عام 1961 وتُرجم لاحقًا إلى الإنجليزية مختصرًا بعنوان «الجنون والحضارة»، يدّعي أنَّ «عصر العقل» قد صنع نسخة حديثة فيها، حيث لم يعُد بإمكاننا فهم أصوات المجانين ـ التي كانت في الماضي مجموعة متنوعة من السخف، والرموز، والظَرف والحكمة ـ إلا من خلال حقنهم بالمُخدِّرات أو علاجهم بالعنف.

وفي عام 1960، نشر الطبيب النفسي الإسكتلندي رونالد ديفيد لينغ[3] كتابه الذات المنقسمة، الذي يُعد إعادة تفكير جذرية لحالات الفصام، ويهدف إلى إنقاذها من الطب النفسي، ومحاولة فهمها على أنها أزمة لها القدرة على شفاء العقل المعذَّب بمشاكل لا حلَّ لها. وقاد لينغ على وجه الخصوص، مسارًا يتقاطع مع ثقافة المواد المُخدِّرة في الستينيات، حيث قدَّم لمرضاه (إل إس دي) وادَّعى أنها أداة للتحرر العقلي تكسر حواجزَ الجنون والعقلانية، وذلك لصالح الاثنين.

(1) صدرت الترجمة العربية للكتاب عن المركز الثقافي العربي 2014، بترجمة سعيد بنكراد.
(2) فيلسوف فرنسي (1926 ـ 1984).
(3) طبيب نفسي إسكتلندي (1927 ـ 1989).

في عام م1962، نشر الكاتب الشاب كين كيسي[1] روايته المشهورة طيران فوق عُشّ الوقواق[2]، والتي جعلَت من الرؤى التي قدَّمها غوفمان وسزاس وفوكو ولينغ موضوعًا للتأمل الشعبي، وحوّلتها إلى مثل قصصي عن مجتمع يفرض التوافق عن طريق تحطيم الاختلاف العقلي. واستند كيسي في هذه الرواية إلى تجاربه في مستشفى المحاربين القدامى في منطقة مينلو بارك في مدينة ستامفورد، حيث تطوَّع لتجربة المُخدِّرات النفسية بما في ذلك (إل إس دي) والسيلوسيبين والميسكالين. وكانت التجارب تخضع لإشراف عالِم الكيمياء الحيوية النفسية ليو هولستر[3]، الذي ساورتْه الشكوك في الافتراض السائد حينها بأنَّ المُخدِّرات النفسية تنتج «جنونًا نموذجيًا» يكرر أعراض الأمراض النفسية. وأطلق هولستر دراسة مقارنة بين الأعراض النفسية لمرضى المستشفيات النفسية والـ«جنون» الناتج عن المُخدِّر لدى المتطوعين الأصحاء، وقد جُنِّد كيسي للمشاركة فيه مقابل 25 دولارًا للجلسة التجريبية.

كشفَت نتائج هولستر، التي نُشرت في عام 1962، عن عيوب نموذج المحاكاة للأمراض النفسية الذي ينتج عن استخدام المُخدِّرات النفسية، ولم يتعافَ من هذا الاختبار أبدًا. وخلص هولستر إلى أنَّ المشكلة المركزية هي مصطلح «الهلوسة»، الذي يبدو وكأنه مصطلح سريريّ دقيق، بيد أنه في الواقع يُستخدم لوصف العديد من الظواهر غير المرتبطة

(1) روائي أمريكي (1935 ـ 2001).
(2) صدرت الترجمة العربية للكتاب عن مؤسسة الأبحاث العربية 1981، بترجمة صبحي حديدي.
(3) طبيب وعالم في الكيمياء أمريكي (1920 ـ 2000).

ببعضها البعض. وأظهر هولستر أنَّ المُخدِّرات النفسية نادرًا ما تُسبِّب الهلوسات الحقيقية، ولا سيما «الأمراض العقلية المقارنة بردود الفعل الفصامية». وكانت معظم الأعراض النموذجية لمرض انفصام الشخصية مثل «الارتباك والتفكير بجنون العظمة والتفكير المضطرب والهلوسة السمعية والذوقية والشمّية أو اللمسية» غير شائعة في المُخدِّرات النفسية، خاصة مع الأشخاص الأصحاء الذين يتناولونها في بيئات مريحة وحميدة. كان المرضى الذين تمَّ تشخيصهم بالفصام قادرين بسهولة على التمييز بين التأثيرات العابرة لـ (إل إس دي) من حالتهم طويلة الأمد.

دفع نموذج المحاكاة النفسية البحثَ السريري نحو المُخدِّر لمدة عقدٍ من الزمن، وتبنّاه العديد من المدافعين الأوائل عنه. وافتتح ألدوس هكسلي كتاب أبواب الإدراك بزعم أنَّ تأثيرات الميسكالين «تشبه تلك التي تحدث في ذلك الطاعون الأكثر تميزًا في القرن العشرين، الفصام»؛ ووصف روبرت غريفز رحلة السيلوسيبين التي قام بها بأنها «انفصام تامٌّ في الشخصية». ولكن وقتها كان العلم يتقدَّم. وشهدَت أجنحة الطوارئ في المستشفيات زيادة في عدد المرضى الذين يعانون من أعراض الذهان التقليدية، مثل سماع أصوات، وتوهُّم الاضطهاد، والذين تبيَّن أنهم تناولوا جرعات كبيرة من الأمفيتامينات. كما صيغ مصطلح «ذهان الأمفيتامين» في عام 1958، وتحوَّل البحث السريري في أساسه البيولوجي إلى دور نظام الدوبامين، والذي دعم عمل كلٍّ من الأمفيتامينات والأدوية الجديدة المضادة للذهان. لم تعُد المُخدِّرات النفسية تُصنَّف على أنها شكل كيميائي للذهان، ولكن في الوقت نفسه، تلاشَت الآفاق المذهلة التي قدمتها لعلاج الفصام.

* * *

من خلال مشروع هارفارد للسيلوسيبين، أتاح تيموثي ليري، وريتشارد ألبرت فرصة لاجتماع كلِّ مبتكري المُخدِّرات النفسية، من شعراء البيتنيك إلى الصوفيين والعلماء، للوصول إلى توافُق ومزيد من الاستكشاف. وقد وضَعا خططًا لأخذ الجميع السيلوسيبين معًا واستدعيا كلَّ شخص بدوره، غير أنَّ هذه الممَّارسة لم تُبرز سوى الاختلافات بينهم. كان ألدوس هكسلي، الذي يكافح مع روايته النفسية الطوباوية جزيرة، مسرورًا عندما عرف أنَّ العقاقير الجديدة ستُدرس في هارفارد، وبذلك يتمُّ إحياء إرث ويليام جيمس، وقد وصل بصحبة زميله الصوفي جيرالد هيرد[1] وهمفري وأوسموند. حطَّم ظهور ألان غينزبر المزاج الأكاديمي، وتركَت رواياته المضادة للشّعر المستوحى من المُخدِّرات النفسية الأطباءَ النفسيين وأعضاء هيئة التدريس بجامعة هارفارد في حيرة من أمرهم. عرّف ألان غينزبر تيموثي ليري على الحشيش، وكان حريصًا على نشر الكلمة بين معارفه من المناضلين الأناركيين وثوريي الجنس، فأخذ مخزونًا من حبوب السيلوسيبين معه إلى نيويورك، حيث تداولها في مقهى فايف سبوت في شارع بويري للزبائن الدائمين، ومنهم عازف البيانو الجاز ثيلونيوس مونك.

أصرَّ ريتشارد ألبرت على دعوة ويليام بورّوز، الذي «يعرف الكثير عن المُخدِّرات أكثر من أيِّ شخص آخر على قيد الحياة»، غير أنَّ وصوله زاد الأمور سوءًا. لقد ألهمتْه تجارب بورّوز الرائدة والمتنقلة مع المُخدِّر ـ البَيُّوط في المكسيك، وآياهواسكا في الأمازون، وثنائي ميثيل التربتامين (دي أم تي) في لندن وطنجة ـ ولكن تركتْه أيضًا في حالة

(1) كاتب ومؤلِّف وروائي إنجليزي (1889 ـ 1971).

صدمة واضطراب، وعُدّ تبنّيها الحماسي من مؤسسات الطب النفسي ووكالة المخابرات المركزية خطوة أولى نحو استخدامها كأسلحة في العصر القادم للسيطرة على العقل. جلس بورروز معتمِرًا قبعتَه الفيدورا يشرب مشروب الجن والتونيك وينظر إلى الوضع بازدراء، وما لبث أنْ سَئِم الدعاية الثورية لليري وغادر الاجتماع. وقد كتب فيما بعد في رواية نوفا إكسبريس (1964): «لا شيء في خلودهم، ووعيهم الكوني، وحبهم يستحق الاهتمام؛ أفرغوا تأثير مُخدِّراتهم في المجاري».

لم يتمكن ليري من توحيد هذه الآراء المتباينة، ولا دمجها في مشروع بحث جامعيّ تحوَّل إلى حفل مستمر على مدار الساعة. وديفيد ماكليلاند، الأستاذ الذي استقطب ليري لتنشيط مركز هارفارد لأبحاث الشخصية شعر بخيبة أمل لأنَّ تجارب المواد المُخدِّرة المقترحة قد صُنِّفَت في تجربة أسلوب حياة حُرَّة «لا يمكن للمرء أنْ يفشل في استنتاج أنَّ أحدَ تأثيرات المُخدِّر هو تقليل المسؤولية أو زيادة الاندفاع». وأصبح هكسلي يشعر بالإحباط من حديث ليري السخيف، الذي رآه «مجرد وسيلة أخرى لإزعاج السلطة وتحدي التقاليد وإثارة الجدل في العالم الأكاديمي». اعترف هكسلي لأوسموند، «أنا أحب ليري كثيرًا، لكن لماذا يجب أنْ يكون متعجرفًا جدًّا بهذا الشكل؟» وصفَت افتتاحية لاذعة في نشرة هارفارد كريمسون المشروع على أنه تمرُّد أداء ضد الأكاديمية:

> تقصير عمل ليري وألبرت بوصفهما عالِمَين لم يكن نتيجة عدم الكفاءة، بقدْر ما هو نتيجة لرفض واعٍ للطرق العلمية للنظر إلى الأمور. يتصوَّر ليري وألبرت نفسيهما نبيَّين يدعوان إلى ثورة نفسية مُصمَّمة لتحرير الإنسان الغربي من قيود الوعي.

في مارس 1962، نُبهت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية إلى الأحداث، وحكموا بضرورة وجود طبيب مقيم في إدارة المُخدِّرات. وفي هذه المرحلة، قرر ليري أنَّ «اللعبة» العلمية انتهَت، وأنَّ المواد المُخدِّرة النفسية أكثر أهمية من هارفارد.

كان انتباه إدارة الغذاء والدواء الأمريكية لمشروع السيلوسيبين تنبؤًا مبكرًا بالتطورات التي ستؤثِّر في مستقبل علم المواد المُخدِّرة النفسية بشكل أكثر عمقًا من استبعاد ليري من الجامعة. في أكتوبر 1962، وقَّع الرئيس جون إف. كينيدي مجموعة من التدابير الجديدة، المعروفة باسم تعديل كيفاوفر هاريس، الذي منح قانون الغذاء والدواء ومستحضرات التجميل الفيدرالي المزيدَ من الصلاحيات لضمان سلامة الأدوية الصيدلانية وفعاليتها.

وبموجب هذه التعديلات، أصبحَت عملية الموافقة على الأدوية الجديدة أكثر صرامة. تحتاج فعاليتها إلى إثبات عبر تجارب عشوائية مقابل مجموعة ضابطة، في ظروف سريرية تستبعد أيَّ «متغيرات خارجية صيدلانية». ويتطلب إبلاغ الإدارة عن جميع الآثار الجانبية إلى إدارة الغذاء والدواء، ويتعيَّن طلب المزيد من البيانات قبل الانتقال إلى التجارب على الإنسان. كان يتعين تحديد الاستخدام العلاجي للدواء الجديد مسبقًا قبل إجراء التجارب، وحُدد معيار الجودة في المنتج الصيدلاني بمدى دقة تأثيراته المتكررة.

لم يستهدف تعديل كيفاوفر هاريس البحوث المتعلقة بالمواد المُخدِّرة النفسية مباشرة، بل كان ردًا على مأساة الثاليدوميد، الذي لم توافق عليه إدارة الغذاء والدواء، وأدى إلى ولادة الآلاف من الأطفال المصابين

بتشوهات خَلقية. وكانت أهدافه الأوسع نطاقًا ممَّاثلةً لأهداف قانون الغذاء والدواء النقي لعام 1906؛ وهي الإعلانات الخاطئة، والعلاجات الوهمية، وتسمُّم المستهلكين من الشركات الكبيرة، واختبار الأدوية الجديدة على مجموعات بشرية محدودة الحركة مثل المرضى أو السجناء. ومع ذلك، كان له تأثير ضخم على مجال المواد المُخدِّرة النفسية.

ونظرًا للتباين الكبير في تأثيراتها على مختلف الأشخاص، فإنَّ (إل إس دي) والميسكالين والسيلوسيبين كانوا عكس المواد المُخدِّرة المرغوبة بموجب التعريف الجديد. لا يمكن قياس التأثيرات التي تنتجها باستخدام أيٍّ من علامات الحيوية التقليدية. كان من المرجَّح أنْ تكون التجارب مع المجموعة الضابطة غير دقيقة، حيث يمكن التعرف على حبوب لا تحتوي على تأثيراتٍ نفسية على الفور. لا يمكن استبعاد «المتغيرات الخارجية الصيدلانية»، حيث إنَّ تأثيرات المُخدِّرات النفسية يحددها على نحوٍ كبير المزاج والسياق ـ كما هو معروف الآن باسم «الإعداد والبيئة». كانت التجارب الإنسانية هي النوع الوحيد من البحوث التي يمكن أنْ تُثبت تأثيراتها، ولا يمكن تحديد التطبيقات المحددة مسبقًا.

تعكس التعديلات الجديدة للمخاطر الطبية نهجًا جديدًا يهدف إلى السيطرة على تطوير الأدوية من خلال تحقيق فوائد قابلة للقياس، وتحديد دقيق للأمراض المعنية. ونجح هذا النهج في بعض أنواع الأدوية، مثل المضادات الحيوية، حيث أمكن تحديد علامات الحيوية والمسببات المرضية بسهولة، والعلاجات المنافسة قابلةً للمقارنة مباشرة، إما مع المجموعة الضابطة أو بعضها مع بعض. ومع ذلك، كان لهذا النهج تأثير سلبي وكثيرًا ما كان مضادًا للإنتاجية في المعالجات النفسية. فالافتراض

الضمني لهذا النهج، أنَّ جميع الأدوية تعمل من خلال تأثيراتٍ كيميائية مباشرة، وهو ما يشجع على تصنيفات التشخيص الصارمة للأمراض النفسية، إلى جانب الأدوية المعينة بشكل زائد لمعالجتها. ومع البيانات النوعية واستبعاد التجارب مع أكبر عدد ممكن من المشاركين، أعلن عن نهاية التجربة الذاتية الطبية. ولم يعُد بالإمكان إجراء التجارب على الإنسان بمجرد التخمين، دون اقتراح طبيّ محدد للاختبار؛ كما لم تستطع الإفادات الشخصية أنْ تؤثر في العملية، حيث أصبحت الجودة الآن تحدد بالنتيجة العامة أو المتوسطة. وقد اعتُبر وصف التجربة الشخصية من كونها بيانات إلى حكاية.

لم يكن هناك حظرٌ صريحٌ على بحوث المُخدِّرات النفسية ـ استمرَّت تجارب (إل إس دي) في عيادة سبرينغ غروف في ماريلاند، على سبيل المثال، حتى في السبعينيات ـ بيد أنَّ نظام إدارة الأغذية والأدوية الجديد كان له تأثير سلبيٌّ. فقد أصبح من الصعب تمويل التجارب، وأصبح من الأكثر عبئًا الموافقة على طلبات الأدوية. وأنتجَت تصاميم التجارب النفسية، في محاولة الامتثال للتعديلات الجديدة نتائج غير متوافقة. بعضها اختار التركيز على التأثير الفسيولوجي للمُخدِّر، في حين ركَّز البعض الآخر على العلاج النفسي الذي يرافقه. وبعضها جرى في المستشفيات، والبعض الآخر في أماكن اجتماعية. ومع استبعاد المتغيراتِ الدوائية الإضافية على نحوٍ صارم، أصبحت الصورة العامة مشوشة؛ أشارت بعض التجارب إلى أنَّ الجرعات الأصغر أكثر فعالية، والبعض الآخر رأت فعالية الجرعات الأكبر. كما استنتج البعض مزيجًا من النتائج الإيجابية والسلبية اللافتة للنظر، والتي تمَّ تجانُسها إلى

متوسط درجات غير ملحوظة لا تُمثل أيًا منهما. وبحلول نهاية العقد، فقدَ فقد المُخدِّر النفسي جاذبيته العصرية في الأوساط الأكاديمية، وتضاءلت طلبات التمويل.

ومثلما حدث كثيرًا خلال هذه السنوات، فإنه حينما يُغلق بابٌ يُفتح بابٌ آخر. في أبريل 1960، شغُفَ الكيميائي العضوي ألكسندر شولغين[1]، وهو يبلغ من العمر 35 عامًا، بقراءته كتاب *أبواب الإدراك* فطلب من صديقه عالم النفس تناول جرعة هكسلي البالغة 400 مليغرام من الميسكالين في منزله خارج مدينة بيركلي. وكما كتب شولغين في وقت لاحق: «أكَّدت هذه التجربة بلا شكٍّ اتجاه حياتي بأكمله». فقد انتقل إلى عالم من الألوان التي بدت وكأنها تمتدُّ خارج الطيف المرئي، والتفاصيل الدقيقة للعالم الحي ـ «البنية الداخلية للنحلة التي تضع شيئًا في كيس على ساقها الخلفية، لتأخذه إلى الخلية» ـ لكن إدراكه المركزي هو الإدراك نفسه الذي وجده سابقوه، من هافلوك إليس إلى ألدوس هكسلي وروبرت غريفز، في شِعر ويليام وردزورث:

> أكثر من أيِّ شيء، أذهلَني العالم، فرأيتُه كما رأيتُه وأنا طفل. نسيتُ جمالَه وسِحرَه وعلمي به وبنفسي. كنتُ في أرضٍ مألوفةٍ، في مكانٍ تجولَت فيه كمستكشفٍ خالدٍ، وأذكر كلَّ شيءٍ عرفتُه بصدقٍ في ذلك الوقت، والذي تخليتُ عنه، ثم نسيتُه مع النضج.

عمل شولغين ككيميائي صناعي، في معظم الوقت في مختبر منزله، حيث تعاون أيضًا مع إدارة مكافحة المُخدِّرات على تحديد مركبات المُخدِّرات الجديدة. وخلال السنوات القليلة اللاحقة، صنع عشرات

(1) عالم كيمياء أمريكي (1925 ـ 2014).

من الأدوية النفسية الجديدة، بشكل رئيس الفينيثيلامينات المرتبطة بالميسكالين. تشمل هذه النسخة الميثيلة من نوع الأمفيتامين الخاص بـغوردون أليس، (أم دي أيه) المعروفة باسم (أم دي أم أيه)، التي انتشرَت بسرعة في الثقافة الفرعية، وثقافة الرقص في السبعينيات تحت اسم «إكستاسي».

كان شولغين متمسكًا بمبدأ التجربة الذاتية، حيث يعتقد أنَّ اللقاء الشخصي الموضوعي مع مُخدِّر جديد هو جزء أساسي من عملية الاكتشاف. ولاحَظ أنَّ البنية الكيميائية لجزيءٍ ما لا تعطي مؤشرًا واضحًا على ما إذا كان سيكون له تأثيراتٌ نفسية، أو ما تأثيراته بالتحديد:

> لا يمكن معرفة هذه الخصائص حتى الآن، لأنها غير موجودة في هذه المرحلة... لن يظهر هذا الجانب من الشخصية إلا من خلال تطوير العلاقة بين الشيء المُجرَّب والمجرِّب نفسه، ويكون المجرِّب مُشاركًا في التعريف النهائي لعمل الدواء مثله مثل المُخدِّر نفسه.

وبالنظر إلى عدم اهتمامه ببراءات الاختراع أو الموافقة على وصفات طبية لمركباته، فقد كان شولغين قادرًا على العمل خارج إرشادات إدارة الأغذية والأدوية الجديدة. وابتكر هو وزملاؤه بروتوكولًا تجريبيًا خاصًا بهم. كانت القواعد المتعلقة بالجرعة تبدأ بمقدار يتراوح بين 10 و50 مرة أقل من الجرعة النشِطة المتوقَّعة، بناءً على المركبات الأقرب نظيرًا ـ وهي نسخة أكثر حذرًا من «القاعدة القديمة في شارع تشانسيري» ـ وزيادة الجرعة بنسبة الضِّعف في الأيام المتبادلة حتى يتمَّ الحصول على تأثير.

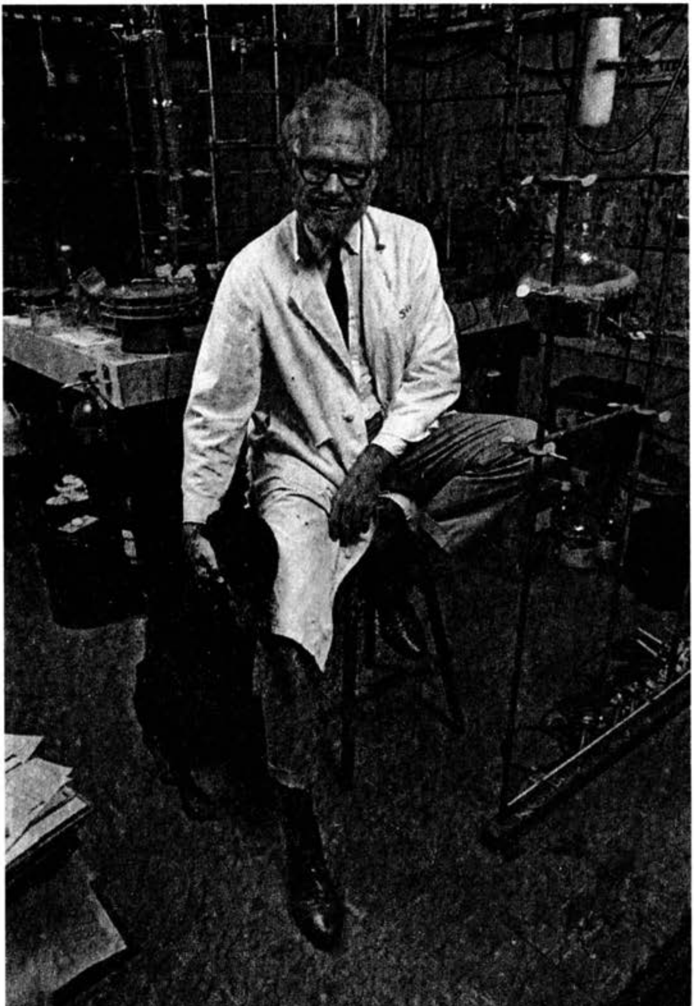

صنّع الكيميائي ألكسندر شولغين العشرات من المركبات المُخدِّرة الجديدة، وابتكر بروتوكولًا للتجربة الذاتية لتقييم آثارها.

وفي هذه المرحلة، طُبِّق مقياس تقييم شولغين الذاتي، وهو تقييم ذاتيّ بسيط لشدة المُخدِّر. «ناقص» لا يعني أيّ تأثير، «زائد ناقص» تأثير عتبة

غير محدد، و«زائد واحد» تصوّر واضح أنَّ المُخدِّر يعمل، حتى لو كان التأثيرات مجرد ردود فعل جسدية مثل الغثيان. تشير كلمة «زائد اثنين» إلى تأثير إدراكيّ أو حسيّ ملحوظ، وقادر على وصف مُفصَّل من الناحية البصرية أو اللمسية أو العاطفية، وعادةً ما يكون مصحوبًا بضَعف إدراكيّ من النوع الذي يجعل من غير المرغوب فيه إجراء مكالمة هاتفية أو قيادة سيارة غير حكيمة. «زائد ثلاثة» تعني أنَّ المُخدِّر بأقصى حدٍّ له. وأبعد من ذلك يعني «حالة هادئة وساحرة مستقلة إلى حدٍّ كبير عن المُخدِّر المستخدم»؛ لم يكن هذا تكثيفًا لثلاثة زائد؛ بل فئته الخاصة، والتي استخدم فيها شولغين مصطلح أبراهام ماسلو «تجربة الذروة».

تابع شولغين نشر مئات من توليفات المُخدِّرات في كتابَين ضخمَين، بيهكال[1] (1991) وتيهكال[2] (1997)، حيث وصف كلَّ مركب أولًا من خلال التوليف الكيميائي، ثم من خلال «ملاحق وتعليقات شخصية»، مستمَدَّة من ملاحظات ووصف تجاربه الخاصة، والتجارب التي قام بها متطوعون. وعاد تنسيق هذه الأبحاث بشأن المُخدِّرات النفسية على نحوٍ جيد إلى أصولها في دراسة همفري ديفي الرائدة أبحاث كيميائية وفلسفية وفي مقدمتها أوكسيد النيتروز واستنشاقه (1800)، حيث بدأت بتجاربه المخبرية وانتهَت بتقارير عناصره البشرية ـ الأطباء والشُّعراء والكُتّاب ـ حول استجاباتهم الشخصية لاستنشاق الغاز. وكما أدرك ديفي وشولغين

---

(1) *PiHKAL* وهي اختصار للعبارة الإنجليزية التي تعني «الفينيثيلامينات التي عرفتُها وأحببتُها».

(2) *Tihkal* وهي اختصار للعبارة الإنجليزية التي تعني «التريبتامينات التي عرفتُها وأحببتُها».

على حدٍّ سواء، فإنَّ لغات الصيدلة والاستبطان قد تكون غير مفهومة بشكل متبادل، ويتطلب الفهم الكامل الحصول على تقرير شامل عن المُخدِّر وتأثيراته النفسية. وأصبحَت كُتب شولغين دليلًا لمجموعة من الكيميائيين والباحثين التي تعمل خارج الأكاديميات والجامعات والمختبرات التابعة للمؤسسات العلمية، وغالبًا ما يعملون بشكل مجهول ويستخدمون التسمية الوصفية الذاتية لـ «الرُوّاد النفسيين».

* * *

بحلول نهاية عام 1962 ـ قبل صدور أول ألبوم لفرقة البيتلز، وحتى قبل أول حفلات أسيد تست ورحلات الحافلات السحرية[1] ـ كُتب سيناريو المواد المُخدِّرة في القرن الحادي والعشرين على نحوٍ أساسي. ظهرَت هذه المواد المُخدِّرة في تلك السنوات المحورية وهي تتوازن بحذَر على خطِّ الصدع بين نسختَين من الحداثة. وفي إطار القانون الدولي وفي مجال العلوم المؤسسية، رُسخت قيود العصر التقدمي وتوسيعه؛ حيث جُرِّمت المواد المُخدِّرة عالميًا، وضُبِطت استخداماتها العلمية والطبية. وفي الوقت نفسه، غُرِست بذور إعادة تقييمها من الجيل القادم من المستهلكين العالميين المتسمين بالفضول الفكري، وروح تجربة الذات البطولية، والنظرة إلى آفاق تتجاوز الذات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) من رموز ثقافة المُخدِّرات في الستينيات.

خاتمة
بعد المواد المُخدِّرة

في القرن الحادي والعشرين، تفككت فئة المُخدِّرات الموحَّدة وتشوَّهَت، فالعديد من المواد التي كانت محظورةً في القرن العشرين لم تعُد مقتصرةً على بائعي المواد المُخدِّرة في الشوارع والعالَم الإجرامي. إذ يمكن الآن شراء القنب في متاجر راقية في الشوارع الرئيسة في الولايات المتحدة وكندا. وفي أوروبا، يتم توسيع نموذج «مقاهي الحشيش» في هولندا عبر القارة، إلى جانب نموذج «الأندية الاجتماعية للحشيش» في إسبانيا، حيث تُنتَج المواد المُخدِّرة للاستهلاك الشخصي في ظلِّ تغاضي رجال الشرطة المحليين.

وتتاح الأدوية المهدئة والمحفزة عبر الإنترنت من مُورّدين غير مرخَّصين في جميع أنحاء العالم، ويمكن العثور على كلِّ مادة تؤثر في العقل في أسواق «الويب المظلم». وفي وادي السيليكون، يجري الآن سباق نحو الحصول على براءات اختراع وتراخيص للمُخدِّرات النفسية مثل السيلوسيبين و (إم دي إم إيه) حيث يتقدمون ببطء من خلال تجارب إدارة الغذاء والدواء التي تعِد بتشريع استخدامها في العلاج النفسي السريري.

تستمر نظرة العصر التقدمي للمواد المُخدِّرة على أنها مشكلةٌ اجتماعية،

ولكن إلى جانب ذلك، يستمر اكتشاف إمكاناتها الواسعة التي طُرحت منذ القرن التاسع عشر. فقد أدى البحث الحديث عن المنشطات العقلية إلى إنشاء مجموعة من المعززات المعرفية والمنشطات الذهنية، والجمع بين المكملات الكيميائية «المعززة للدماغ» مع أعشاب الأيورفيدا[1]، والفطر الصيني، والجذور «المنشطة» والفضة الغروانية، في سوق بلغَت قيمته في عام 2018 أكثر من 2 مليار دولار أمريكي، ومن المتوقَّع أنْ يتضاعف بحلول عام 2025. وتثير فوائدها ومخاطرها جدلًا حادًا، تمامًا كما كان الحال مع الأحزمة الكهربائية وعلاجات الغدد في القرن التاسع عشر، وتلهم إمكاناتها المستقبلية قصصًا من نوعية *الدكتور جيكل والسيد هايد*، وقصص *مجلة ذا ستراند* للتجارب الذاتية التي تسببت في مشاكل، كما تظهر في الأفلام والروايات الخيالية مثل فيلم ليمتلس[2] [بلا حدود] (الكتاب 2001، الفيلم 2011، والمسلسل التلفزيوني 2015 ـ 2016) والعديد من المسلسلات التي تظهر فيها المُخدِّرات المُخلَّقة، أو التجارب الصيدلانية التي تؤدي بالأبطال إلى تحوُّلات غريبة وانهيارات نفسية أو عوالم موازية.

على الرغم من حظر التجارب الذاتية في العلوم الأكاديمية، شهد العقد الأخير انتعاشًا في استخدام المواد المُخدِّرة لاستكشاف الوعي. واليوم، يستخدم الباحثون عادةً المُخدِّرات النفسية قصيرة المفعول مثل

(1) منظومة من تعاليم طب تقليدي في شبه القارة الهندية، انتشرت إلى مناطق أخرى من العالم بوصفها أحد أشكال الطب البديل.
(2) الفيلم مأخوذ من الرواية الصادرة عام 2001 الحقول المظلمة، التي كتبها المؤلف ألان جلين.

(دي أم تي) أو الكيتامين بدلًا من أدوية التخدير المتطايرة مثل الإيثر أو الكلوروفورم، غير أنَّ شهاداتهم عن مجالات الوعي المجهولة غير المتصل بالجسد تتراوح بالطريقة نفسها التي كانت عليها في القرن التاسع عشر، من التواصل مع كيانات غير بشرية، إلى تجارب صوفية تفوق الواقع، والبقاء بعد الموت، إلى الأبعاد الخفية للعقل.

تتوافر المواد المُخدِّرة بالقدْر نفسه في الثقافات الفرعية الحديثة للروحانية والسحر والخيال الإبداعي، حيث تمتزج الممَّارسات المستمدة من الشامانية والويكا[1] والوثنية مع العوالم الخيالية الغامرة للخيال والمغامرات الرقمية وألعاب تقمص الأدوار. ومصطلح «الثقافة الخفية» في القرن الحادي والعشرين، حيث يُربط الفن والأدب والممَّارسات السحرية كما كان الحال لدى الرمزيين والروحانيين في القرن العشرين، يُعد مجالًا يتخلله تجارب المُخدِّرات على نحوٍ كبير، وذلك بفضل الوجود اللاحق لأليستر كراولي.

يرتبط تغيير الوعي اليوم، والواقع غير العادي بشكل أساسي بالفعل المنبثق عن المُخدِّرات النفسية التي ظهرَت في الخمسينيات من القرن الماضي، ولكن كما رأينا، فإنَّ الاستكشافات من هذا النوع تعود إلى فترة أبعد من ذلك؛ فالمُخدِّرات النفسية احتلت فراغًا ثقافيًا موجودًا مسبقًا وازدهر قبل ابتكار تلك المصطلحات. وخلال القرن التاسع عشر، حيث المُخدِّرات التي نصنفها اليوم كمُخدِّرات نفسية حاضرة فقط على هامش المجتمع، وأُجريَت الاستكشافات الداخلية من هذا النوع باستخدام مزيج

(1) ديانة وثنية حديثة انتشرت منذ منتصف القرن العشرين.

متنوع من المواد؛ وبعضها، مثل الحشيش أو أوكسيد النيتروز، وجدَت مكانها في مشاهد للمُخدِّرات الحديثة، في حين ذهب البعض الآخر، مثل الإيثر أو الكلوروفورم، في طيِّ النسيان تمامًا.

أصبحت فئة «المُخدِّرات النفسية»، بالإضافة إلى تعريفاتها الدوائية المختلفة، تشمل الإحساس بأنَّ هذه المركبات الخاصة توفر موصلًا فريدًا لتجربة روحية، أو شفاء عقليّ، أو واقعية أعلى. وكما كان الحال مع مصطلح «المُخدِّرات» الذي كان محملًا منذ البداية بالارتباطات السلبية المضمنة في نسخة العصر التقدمي من الحداثة، فإنَّ «المُخدِّرات النفسية» تحمل بصمات انبعاث تجربة داخلية جديدة بعد نصف قرن. يحمل كلا المصطلحَين مجموعة محمية من الأحكام القيمية، ونظيرهما الحديث، هو المقدس والدنيوي.

نُظر إلى تبنّي المُخدِّرات النفسية في القرن الحادي والعشرين على أنه بداية النهاية لـ«حرب المُخدِّرات»، بيد أن هذا القرن أعاد أيضًا تأكيد فئة «المواد المُخدِّرة» وتعزيزها من خلال استبعاد المواد ذات الصلة الأقل تلوثًا. وقد وصف البروفيسور في علم النفس في جامعة كولومبيا كارل هارت، هذا عند إعادة تأطير المشكلة، بـ«استثنائية المُخدِّرات النفسية». بالنسبة لهارت، الذي يكتب من منظور العِرق الأسود، فإنه ليس صدفة أنَّ المواد المصنَّفة في هذه الفئة هي المُخدِّرات المفضَّلة لدى المستخدمين البيض الحاصلين على تعليم جامعيّ؛ ويرى هارت أنَّ مؤيديهم يحمون بحذر مهمَّتَهم لضمان الدعم العام لعدد قليل مختار من المُخدِّرات النفسية، من خلال فصلها عن «مشكلة المواد المُخدِّرة» الأوسع نطاقًا والتي تتأثر بالعنصرية.

وما زال خط اللون الذي حدده وليام دو بويز يمرُّ على نحوٍ واضح من خلال قوانين المواد المُخدِّرة وتنفيذها. إذ وراء متاجر الماريجوانا الفاخرة والشركات الناشئة في المُخدِّرات النفسية في وادي السيليكون، تستمر «حرب المُخدِّرات» مع محاكم المواد المُخدِّرة الموحدة، ومصادرة الأصول، والفحص الإجباري، وأحكام الحبس.

إنَّ عدد الاعتقالات المرتبطة بالمواد المُخدِّرة في الولايات المتحدة اليوم لم يتغير تقريبًا منذ ذروة «حرب المُخدِّرات» في نهاية القرن العشرين. ولا يزال الكلام عنها محظورًا بشدة، حيث تُحذف صورها من منصات التواصل الاجتماعي، ويُحظر العديد من مزودي خدمات الإنترنت من الوصول إلى الصفحات التي تعرض محتوى المواد المُخدِّرة (ومنها: المعلومات والخدمات الصحية المتعلقة بها). لا يزال مشهد «المواد المُخدِّرة» المرتبط بالعصر التقدمي راسخًا في المؤسسات، ولا تزال الحرب ضدها تستهدف بشكل مفرط الأقليات العِرقية، والفئات الاجتماعية المهمشة.

ثمة ميزة أخرى لاحظها هارت في الخطاب النفسي المعاصر، وهي صمته حول مسألة المتعة. ويتذكر هارت «جنديًا متمرسًا في منتصف العمر ذا بشرة بيضاء» يقترب منه في صالة الألعاب الرياضية في جامعة كولومبيا ليشاركه تقديره للمُخدِّرات النفسية، التي يشير إليها باسم «أدوية النبات». كتب هارت: «كان من المهم لديه أنْ أعرف أنه (لم يتعاطَ) المواد المُخدِّرة، وأنه فقط استخدم النباتات لتسهيل (رحلته الروحية)». ويذكر هارت كيف أنه أحرج الرجل بردٍّ فعله غير التقليدي قائلًا: «ما وجه الخطأ في التعاطي؟»

تلاحق مناقشات القرن التاسع عشر حول الانتشاء، الذي جعل المتعة المستحثة بالمواد المُخدِّرة مشبوهة أو مَرَضية، بعلم الأعصاب الحديث في القرن الحادي والعشرين الذي يرى المزاج الإيجابي عرَضًا لزيادة مستويات الدوبامين أو السيروتونين، ويتم تفسيرها من خلال لغة آليات مكافأة الدماغ والرغبة والإدمان. وتخوَّف الأطباء من أنَّ تشجيع سلوك البحث عن المواد المُخدِّرة يحول المتعة إلى عرَض سلبي؛ على سبيل المثال، يتضمن الإيسكيتامين، النظير الخامس للكيتامين المرخّص من قِبل إدارة الغذاء والدواء الأمريكية كمضاد للاكتئاب في عام 2019 والذي تُروّج له شركة جانسن للأدوية باسم سبرافاتو (علامة تجارية مسجلة)، في بداية قائمة طويلة من الآثار الجانبية الشائعة؛ «الشعور بالسعادة الشديدة (النشوة)».

يرى هارت ـ كما فعل مورو، ومانتيغازا، وفرويد ـ المتعةَ إيجابية، لأنَّ لها القدرة على تحفيز مجموعة واسعة من الفوائد الجسدية والعقلية والاجتماعية. ويصرُّ على أنَّ «المتعة شيء جيد، شيء يجب أنْ يكون مقبولًا»، ويضيف قائلًا إنه: «يشعر بالغرابة عندما يضطرّ لكتابة الجملة السابقة؛ لأنَّ الفكرة تبدو واضحة جدًا». ويُفضل مؤيدو المُخدِّرات النفسية وصفَها باسم «الأدوية»، «المنشطات الروحانية» أو «الأسرار المقدسة»؛ مصطلحات تتجنّب التصنيف المشوَّه للمواد المُخدِّرة، وتتجاهل أيضًا إمكانية المتعة كدافع لاستخدامها.

كان هارت منتقدًا شديدًا للعلوم المؤسسية للمُخدِّرات، وخاصة الوكالة الفدرالية الأمريكية لمكافحة المُخدِّرات، التي دعمَت العديد من دراساته وعمل عضوًا في لجنتها الاستشارية. وكما يوحي اسمها، ركزت الوكالة

تقريبًا بالكامل على تمويل الأبحاث التي تحدد الأضرار المتعلقة بالمواد المُخدِّرة وتعرضها بكل وضوح بأكبر قدْر من البيانات. واعتمد تقدُّم الحياة المهنية لهارت وللآخرين على تأسيس قناعة بأنَّ المواد المُخدِّرة تُشكل خطرًا يجب حماية الجمهور منه، وهو اعتقاد اشترك فيه هارت نفسه لسنوات عديدة على الرغم من وجود أدلة واضحة على أنَّ الأشخاص المستخدمين لهذه المواد الذين عمل معهم، كانوا يحققون نتائج إيجابية من استخدامها. ولم يتغير هذا الاعتقاد إلا بعد عِقد من الدراسات الكاملة، حيث أجبرتْه الأدلة على الإقرار بأنَّ جميع المُخدِّرات، وليس فقط المُخدِّرات النفسية، لديها القدرة على جعل الشخص يشعر بـ«الإثارة والتعاطف والنشوة والتركيز والامتنان والهدوء».

***

أُتبِعَت فترة محو التجربة الذاتية في الستينيات بسلسلة من الاكتشافات العلمية العصبية التي وضعَت المواد المُخدِّرة التي تؤثر في الوعي في مركز فهم جديد للدماغ. وفي السبعينيات، حُدِّدت مستقبلات الناقلات العصبية التي تعدل تأثير المواد المُخدِّرة الأفيونية، وحُددت الببتيدات التي تشبه المورفين المعزول من الغدة النخامية باسم «الإندورفينات»، وهي اختصار لـ«المورفين البنيوي». واتضح أنَّ المواد المُخدِّرة الأفيونية تعمل عن طريق محاكاة المواد الكيميائية التي يستخدمها الدماغ لتخفيف الألم وتحفيز النشوة ردًا على الطعام والجنس والمُخدِّرات. وتبين لاحقًا أنَّ المُخدِّرات النفسية تعمل على زيادة مستويات السيروتونين، وهو ناقل عصبيّ اكتُشف في الأصل في عام 1948، وغمر المنبهات مثل الكوكايين والأمفيتامين الدماغ بالدوبامين. وتبيَّن أنَّ التأثيرات الاضطرابية الفعالة

للكيتامين والفنسيكليدين في عام 1983 يسببها حظر الغلوتامات، وهو الناقل العصبي الأكثر وفرة في الدماغ. وفي عام 1992، عزل الكيميائي الإسرائيلي رافائيل ميخولام الأندوكانابينويد الداخلي، وأثبت أنه يرتبط بنفس مستقبلات رباعي هيدرو كانابينول (تي أتش إس)، المادة الفعالة في القنب. وبما أنَّ الدماغ يكشف أسراره العصبية، فإنه يكشف عن نفسه كمصنع للمواد المُخدِّرة التي تؤثر في العقل ـ وهي في كثير من الحالات غير قانونية.

أدت الثورة في الكيمياء العصبية إلى تحليل علميّ مكثف لتأثيرات هذه المواد، بيد أنَّ الطرق الجديدة كانت مختلفة تمامًا عن تلك المستخدَمة في القرن التاسع عشر. وبفضل مجموعة الأدوات المتوسعة بشكل هائل، يمكن لعلماء الأعصاب دراسة تأثيرات المواد المُخدِّرة بشكل غير مباشر، عن طريق دراسة العوامل المرتبطة بها في الفحوصات الطبية للدماغ، وتأثيراتها المتوسطة عن طريق البيانات الناتجة عن التجارب السريرية العشوائية. وتركز الأبحاث المؤسسية، مثل تلك التي تُمولها الوكالة الفدرالية الأمريكية لمكافحة المُخدِّرات، ليس على التجربة الذاتية، بل على الدماغ نفسه، وتحديد مواقع المستقبلات وآليات المكافأة التي قد تقدم أدلة على علاج إدمان المواد المُخدِّرة. وظهرَت لغة علمية شائعة تعيد تدوير الخصائص الخام لنشاط الناقل العصبي؛ فقد أصبح «السيروتونين» اختصارًا للسعادة، و«الدوبامين» لدورة الشغف والمكافأة.

أطلق الرئيس جورج بوش الأب، على عِقد التسعينيات من القرن العشرين «عقد الدماغ»، وقد أثار اهتمامًا علميًا جديدًا بالمواد المُخدِّرة، ولا سيما الدراسة البشرية للمواد المُخدِّرة التي تعثرَت بعد تعديل إدارة

الغذاء والدواء الأمريكية لعام 1962. وفي عام 1990، حصل عالِم الأدوية النفسية السريرية ريك ستراسمان على تمويل حكومي أمريكي لإجراء تجارب في جامعة نيو مكسيكو على للمُخدِّر النفسي القوي وقصير المفعول (دي أم تي)، حيث سرد المشاركون في التجربة تجارب ممَّاثلة في الاقتراب من شفى الموت والتجارب الصوفية.

في هذا الوقت، أسس أنصار التوعية بالمواد المُخدِّرة ريك وسيلفيا دوبلن، منظمة الدراسات المتعددة التخصصات لأبحاث المواد المُخدِّرة، بهدف دمج المواد المُخدِّرة النفسية في العلاج النفسي السريري. وفي عام 2008، أكملت المنظمة دراسة تجريبية ممولة على نحوٍ مستقل للإكستاسي في علاج إجهاد ما بعد الصدمة لدى المحاربين القدامى في الجيش، وفي عام 2017 وصلَت إلى «حالة العلاج الرائد» من إدارة الغذاء والدواء الأمريكية، ممَّا سمح لها بالمُضي قُدُمًا في التجارب السريرية التي تسمح بترخيص الإكستاسي كدواء يُعطى بوصفة طبية.

خلال العِقد الأخير، تحوَّل التدفق البطيء للأبحاث حول المُخدِّرات النفسية إلى فيضان. فقد فتحَت دراسة ستراسمان الطريق للجامعات، بدءًا من جامعة جونز هوبكنز في مدينة بالتيمور، وجامعة إمبريال كوليدج في لندن، إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي، لإنشاء مختبرات وأقسام لدراسة تأثير المواد المُخدِّرة النفسية على الدماغ. وأصبحت منظمة الدراسات المتعددة التخصصات لأبحاث المواد المُخدِّرة الآن مقصِد مجموعة من معاهد الأبحاث وأصحاب رؤوس الأموال والشركات الصيدلانية ورجال الأعمال في وادي السيليكون الذين يعملون على تطوير المواد المُخدِّرة النفسية للاستخدام في العلاجات السريرية.

أدى النمو الهائل لعلم المُخدِّر في القرن الحادي والعشرين إلى وضع حظر التجربة الذاتية والتقارير الشخصية تحت الضغط. فالعديد من الباحثين البارزين في هذا المجال جُذبوا من خلال تجاربهم مع المُخدِّرات النفسية، واستمروا في إجراء التجارب الذاتية بشكل غير رسميّ. ويحتفظ البعض الآخر باعتراضات مبدئية؛ كون التجربة الذاتية تنطوي على مخاطر تحريف أو تشويه البيانات السريرية، أو إدخال تحيزات نحو النتائج الذاتية، وغير القابلة للقياس. وحتى إذا تم تجنُّب هذه المخاطر، يمكن أنْ تؤثر التجربة الذاتية سلبًا على الثقة في نزاهة المشروع. ونادرًا ما تُناقَش القضية المؤيدة صراحةً، ولكن في عام 2007 وضَّحها فيليكس هاسلر من كلية برلين للعقل والدماغ بجامعة هومبولت:

> ثمة موقفان كلاسيكيان، يقول بعض الناس إنه لا ينبغي إجراء تجارب ذاتية لأنَّ هذا يهدد الحيادية العلمية. لا أتفق مع ذلك. إذا أجريتُ أبحاثًا عن المُخدِّرات المعرفية، يجب عليَّ أنْ أعرف تأثيرات هذه المواد بنفسي. بالإضافة إلى ذلك، ثمة مسؤولية أخلاقية. إذا كنت أتوقع من المشاركين في التجربة تحمُّل حالات معينة، فيجب أنْ أعرف على الأقل من خلال تجربتي الشخصية ما يمرون به.

تردّدت حُجج هاسلر على مدى تاريخ التجربة الذاتية؛ من الموقف المبدئي لجون هولدين إلى علم الأدوية النفسية العملي لألكسندر شولغين، ويعود ذلك إلى شعار الجمعية الملَكية «لا تؤمن بمجرد كلمة!». واليوم، توجد التجربة الذاتية على هامش نموذج علميّ يتكون من بيانات موضوعية وقابلة للقياس، حيث تكافح التجربة الشخصية لإيجاد مكان لها.

ومع ذلك، وجدت التجربة الذاتية بعض المجالات الإنتاجية على حدود علم الأعصاب وعلم النفس السريري. على سبيل المثال، يستند الفيلسوف الألماني توماس ميتزينجر إلى تجاربه مع (إل إس دي) و(دي أم تي) والميسكالين لإثراء نظرياته حول الذاتية والذات. ويغمر الطبيب النفسي البريطاني ديفيد لوك نفسه في طقوس البَيُّوط لشعب الويتشول في شمال المكسيك لدراسة الدور الذي يلعبه الصبّار في ممَّارساتهم للتنبؤ بالأحداث والشفاء. يمكن استخدام حظر التجربة الذاتية بنفسه بقوة. ففي إسهاماته المؤثرة في دراسات النوع، كتاب مدمن التيستوستيرون (2008، كُتب في الأصل باسم بياتريز بريسيادو[1])، استخدم بول بريسيادو التجارب الذاتية مع هرمون التستوستيرون لاستكشاف تاريخ النشاط الجنسي ومناطقه الطبية النائية. ووصف نفسه بأنه «قرصان جنس» أو «متسلل جنس»، فقد أجرى تجاربه خارج معايير الطب المرخص:

> تتغير العلاقة الشخصية مع هرمون التستوستيرون فور مغادرة إطار البروتوكول الطبي والقانوني لتغيير الجنس... خارج سياق المؤسسات التي تُحدِّدها الدولة، يتحول هرمون التستوستيرون إلى مُخدِّر غير قانوني، تمامًا كالكوكايين أو الهيروين.

يستشهد بريسيادو بتجارب الكوكايين التي أجراها سيغموند فرويد كسابقة لـ «امتصاص تقنيات جديدة لتعديل الذاتية»، ويدَّعي أنَّ عملية شتايناخ التي خضع لها فرويد في سنواته الأخيرة كانت مقدمة لتجاربه الخاصة بالهرمونات. وترى التجربة الذاتية ـ «مبدأ حيوانات التجارب الذاتية» ـ بوصفها تجارب

---

(1) كاتب وفيلسوف إسباني (مواليد 1970).

ديمقراطية وممكنة، «وسيلةً لإنتاج المعرفة الشائعة والتحول السياسي» التي يجب استعادتها من الطب المؤسسي وتوجيهها نحو «حركات التحرر الجندرية والجنسية والعِرقية والسياسية الجسمانية القادمة».

***

بدأ العالَم الذي نشأ منه مصطلح «المواد المُخدِّرة» يتوارى عن الأنظار. لقد أفسح التضامن الاجتماعي للعصر التقدمي الطريق لفردانية مبعثرة لم يعُد من الممكن فيها مراقبة الخيارات الخاصة لملايين المستهلكين. عندما أعاد ريتشارد نيكسون إطلاق «الحرب على المواد المُخدِّرة» في عام 1971، كان الحشيش أو «الماريجوانا» سلعة غريبة لدى معظم الناس فوق سنِّ الثلاثين. وفي الوقت الحاضر، يعترف معظم الأشخاص الذين لم يتقاعدوا بعد بأنَّ المواد المُخدِّرة، بالسلب أو الإيجاب، جزء من الثقافة الحديثة. نحن مستهلكون عالميون، نألف الجديد والغريب في كل شيء؛ من الطعام إلى الموسيقى، والسفر إلى الروحانية؛ إنَّ شهيَّتنا للمُسكِرات تشارك في هذا السعي للجديد والإحساس، وترتبط به من خلال الإعلانات التجارية التي تقترض من رموز المواد المُخدِّرة لتبيع لنا كل شيء، من مشروبات الطاقة إلى قضاء عطلات الصيف، والهواتف الذكية. عندما ظهر مصطلح «المواد المُخدِّرة»، حوالي عام 1900، استند إلى عدم الثقة العكسية تجاه المستوطن الغريب الذي أصبح بدوره غريبًا على سكان القرن الحادي والعشرين.

وفي الوقت الحاضر، تخطّى مصطلح «المواد المُخدِّرة» معناه الأصلي المحايد ليصبح على ما هو عليه اليوم. على الرغم من أنَّ المعنى الأوسع للكلمة لا يزال موجودًا في بعض الاستخدامات اليومية، إلا أنه يتراجع

ببطء؛ فعلى سبيل المثال، يشار الآن عادةً إلى الأدوية الطبية (medical drugs) باسم «الأدوية» أو «الدواء» لتجنُّب الارتباك أو الصلة السلبية. تظل فئة «المواد المُخدِّرة» جزءًا لا يتجزأ من قوانيننا في المستقبل المنظور، غير أنه من المغري أنْ نتخيل ما قد يكمُن وراءها. وإذا اختفت هذه الفئة، فلن يكون هناك حاجة إلى استبدالها.

لن يحتاج العالم ما بعد المواد المُخدِّرة لغة جديدة، بل يحتاج استعادة لغة قديمة. وراء ذلك، توجد مجموعة متنوعة من النباتات والمواد الكيميائية التي توفر مصطلحات أكثر معنًى مثل المنبهات والمهدئات، والناركوتيات، والمُخدِّرات النفسية، ومثيرات النشوة. وإذا كنا بحاجة إلى مصطلح جامع، يمكننا استخدام المصطلح الأكثر وضوحًا وحيادية؛ فهو المؤثر النفسي، أو المؤثر في العقل. والأحكام القيمية، سواء كان مدحًا أو إدانة، موجودة بالفعل، ومن المؤكد أنها ستظهر أحكام جديدة أيضًا.

يمكن اعتبار اختراع «المواد المُخدِّرة» محاولة تتميز بلحظتها التاريخية ترسم خطًا فاصلًا بين المواد الجيدة والسيئة وفرضها بالرقابة الحكومية. ومع ذلك، فقد عرفنا منذ العصور القديمة أنَّ الجيد والسيئ لا يتمتعان بخصائص معينة في أيِّ نبات أو جزيء. كما كتب المرجع الكلاسيكي ديسقوريدوس[1] قبل أكثر من ألفي عام: «الجرعة تصنع السُّمّ»، إذ إنَّ جميع المواد المُخدِّرة تملك القدرة على الشفاء أو الإضرار، ونحن على حدِّ تعبير سيغموند فرويد، آلهة اصطناعية. إنَّ معنى المواد المُخدِّرة لا يكمن في المواد؛ بل في أنفُسِنا.

(1) طبيب يوناني (40 ـ 90).

قائمة المصطلحات العلمية والطبية

Atropen	الأتروبين
Adrenaline	أدرينالين
Ergot	الإرغوت
Acetone	الأسيتون
Alkaloids	أشباه قلويات
Catalepsy	الإغماء التَّخشُّبي
absinthe	الأفسنتين
Opium	الأفيون
Opiates	الأفيونيات
Aconite	الآقونيطن
Ecstasy	الإكستاسي
Amphetamines	الأمفيتامينات
Endorphins	الإندورفينات
Indocybin	الإندوسيبين
Endocannabinoid	الأندوكانابينويد
Mercuric oxide	أوكسيد الزئبق

Nitrous oxide	أوكسيد النيتروز
Nitric oxide	أوكسيد النيتريك
Ether	الإيثر
Diethyl ether	الإيثر الإيثيلي
Methylated ether	الإيثر الميثيلي
Esketamine	إيسكيتامين
Ayurvedic	الأيورفيدا
Barbiturate	الباربيتورات
Bhang	بانج
Peptides	الببتيدات
Protoplasm	البروتوبلازما
Benzedrine	البنزدرين
Bufotenine	البوفوتنين
Beta _ phenylisopropylamine	بيتا ـ فينيل إيزوبروبيل أمين
Belladonna	البيلادونا
Charras	التشوروس
Betel	تنبول
Delusions of persecution	توهم الاضطهاد
Thalidomide	الثاليدوميد
Lysergic acid diethylamide LSD	ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك (إل إس دي)

Carbon disulphide	ثنائي كبريتيد الكربون
DMT	ثنائي ميثيل التربتامين (دي أم تي)
Theobromine	الثيوبرومين
Lamprey	الجَلَكَيات
Metabolic system	الجهاز الأيضي
Glandula system	الجهاز الغُدِّيّ
Nutmegs	جوز الطيب
Slake lime	الجير المطفأ
Typhoid	حمى التيفوئيد
Glandular extracts	الخلاصات الغدية
Datura	الداتورا
Amphetamine psychosis	ذهان الأمفيتامين
Resin	راتِينَج
Tetrahydrocannabinol TH	رباعي هيدرو كانابينول (تي أتش إس)
Arsenic	الزرنيخ
Mercury	الزئبق
Turpentine	زيت التربنتين
Strychnine	الستريكنين
Crayfish	السلطعون النهري
Sulphonal	السولفونال

Cyanide	سيانيد
Serotonin	السيروتونين
Henbane	السَيكُوران
Psilocybin	السيلوسيبين
Charas	الشراس
Hemlock	الشَوكران
Laudanum	صبغة الأفيون
Aniline dyes	صبغة الأنيلين
Bubonic plague	الطاعون الدبلي
Facial neuralgia	العصبي الوجهي
Dephlogisticated nitrous air	غاز النيتروز الخالي من الفلوجستون
Gastric glands	الغُدد المَعِدِية
Glutamate	غلوتامات
Guarana	غوارانا
Colloidal silver	الفضة الغروانية
Phencyclidine	الفنسيكليدين
Phenethylamines	الفينيثيلامينات
Khat	قات
Cascara	القشرة المقدسة
Vegetable alkali	قلويات نباتية

Cannabis	القِنَّب
Sweat ducts	قنوات التعرق
Carbolic	الكاربوليك
Calomel	كالوميل
Crack	الكراك
Tetanus	الكزاز
Chloroform	الكلوروفورم
Chlorodyne	كلوريدين
Codeine	الكودين
Coca	الكوكا
Cocaïnum muraticum	كوكايين موراتيكم
Cholera	الكوليرا
Ketamine	الكيتامين
Marijuana	الماريجوانا
Phantom limb	متلازمة الأطراف الوهمية
Fowler's solution	محلول فاولر
Organotherapy	معالجة عضوية
Menthol	المنثول
Morphine	المورفين
Endogenous morphine	المورفين البنيوي

Narcotics	الناركوتيات
O - methyl transferase	ناقل أو ـ ميثيل
Digitalis	نبات الديجيتاليس
Sarsaparilla	نبات الفشاغ
Ammonium nitrate	نترات الأمونيوم
Ethyl nitrate	نترات الإيثيل
Amyl nitrite	نتريت الأميل
Extasia	نشوة
Nicotine	نيكوتين
Monomania	الهوس الأحادي
Chloral hydrate	هيدرات الكلورال
Neurasthenic	الوهن العصبي

قائمة أسماء الشخصيات

أبتون سنكلير	Upton Sinclair
أبراهام ماسلو	Abraham Maslow
إدغار آلان بو	Edgar Allan Poe
إدموند جورني	Edmund Gurney
إدوارد بوبيغ	Eduard Pöppig
إدوارد ليفينشتاين	Eduard Levinstein
إدوارد واينراي	Edward Whineray
آرثر سيمونز	Arthur Symons
أرثر شنيتزلر	Arthur Schnitzler
آرثر كونان دويل	Arthur Conan Doyle
آرثر ماكين	Arthur Machen
آرثر هيفتر	Arthur Heffter
إرفنغ غوفمان	Erving Goffman
إرنست بروك	Ernst Brücke
إرنست جونز	Ernest Jones
إرنست داوسون	Ernest Dowson

Ernest Dunbar	إرنست دنبار
Ernst von Bibra	إرنست فون بيبرا
Ernst von Fleischl _ Marxow	إرنست فون فلايشل ماركسو
Ernst Hoffmann	إرنست هوفمان
Ernst Jünger	إرنست يونغر
Israel Regardie	إسرائيل ريغاردي
Bishop Berkeley)George Berkeley(	الأسقف بيركلي (جورج بيركلي)
Allan Bennett	ألان بينيت
Allen Ginsberg	ألان غينزبر
Alan Watts	آلان واتس
Albert Einstein	ألبرت أينشتاين
Albert Hofmann	ألبرت هوفمان
Aldous Huxley	ألدوس هكسلي
Alfred de Musset	ألفرد دي موسيه
Alfred Adler	ألفريد أدلر
Alfred Binet	ألفريد بينيه
Alfred, Lord Tennyson	ألفريد لورد تنيسون
Alfred Maury	ألفريد موري
Alphonse Louis Constant	ألفونس لويس كونستانت
Alexander von Humboldt	ألكساندر فون همبولت

Alexandre Brière de Boismont	ألكسندر بريير دي بوازمون
Alexander Trophimowsky	ألكسندر تروفيموفسكي
Alexandre Dumas	ألكسندر دوما
Alexander Shulgin	ألكسندر شولغين
Aleister Crowley	أليستر كراولي
Eliphas Lévi	إليفاس ليفي
Emanuel Swedenborg	إمانول سفيدنبوري
Emile Durkheim	إميل دوركهايم
Émile Zola	إميل زولا
Emil Kraepelin	إميل كرابلين
Emily Dickinson	إميلي ديكنسون
Andrew Weil	أندرو ويل
Antoine Isaac Silvestre de Sacy	أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي
Antoine Galland	أنطوان غالان
Annie Besant	آني بيسانت
Aubrey Beardsley	أوبري بيردزلي
Louis Aubert - Roche	أوبير روش
Eugène Roger	أوجين روجيه
Oscar Janiger	أوسكار جانيجر
Oscar Schmitz	أوسكار شميتز

Auguste Comte	أوغست كونت
Eugen Steinach	أوغين شتايناخ
Oliver Wendell Holmes	أوليفر ويندل هولمز
Honoré de Balzac	أونوريه دي بالزاك
Isabelle Eberhardt	إيزابيل إيبرهارت
Immanuel Kant	إيمانويل كانط
Paracelsus	باراسيلسوس
Baron Ernst von Bibra	بارون إرنست فون بيبرا
Paschal Beverly Randolph	باسكال بيفرلي راندولف
Paolo Mantegazza	باولو مانتيغازا
Bayard Taylor	بايارد تايلور
Bertrand Russell	برتراند راسل
Bruce McRae	بروس مكراي
Ben Hecht	بن هيشت
Benjamin Blood	بنجامين بلود
Benjamin Ward Richardson	بنجامين وارد ريتشاردسون
Bob Shepard	بوب شيبرد
Paul Preciado	بول بريسيادو
Paul Bowles	بول بولز
Paul Cézanne	بول سيزان

Paul Verlaine	بول فيرلين
Peter Mark Roget	بيتر مارك روجيه
Pierre Janet	بيير جانيه
Truman Capote	ترومان كابوتي
Charles - Édouard Brown - Séquard	تشارلز إدوارد براون سيكارد
Charles Pravaz	تشارلز برافاز
Charles Taylor	تشارلز تايلور
Charles Jackson	تشارلز جاكسون
Charles Richet	تشارلز ريشه
Charles Sonnini de Manoncourt	تشارلز سونيني دي مانونكور
Charles Vaille	تشارلز فاييه
Charles Féré	تشارلز فيريه
Charles Leadbeater	تشارلز ليدبيتر
Charles Wheatstone	تشارلز ويتستون
Thomas Beddoes	توماس بيدوز
Thomas De Quincey	توماس دي كوينسي
Thomas Szasz	توماس سزاس
Thomas Metzinger	توماس ميتزينجر
Thomas Hammick	توماس هاميك
T.H. Huxley	توماس هنري هكسلي

T.W. Coakley	تي. دبليو. كوكلي
T.D. Crothers	تي. دي. كروثرز
Terry Southern	تيري ساذرن
Timothy Leary	تيموثي ليري
Tennessee Williams	تينيسي ويليامز
Theodor Aschenbrandt	تيودور أشينبراندت
Theodore Roszak	تيودور روساك
Théophile Gautier	تيوفيل غوتييه
Thelonious Monk	ثيلونيوس مونك
Théodore Flournoy	ثيودور فلورنوا
Jacques - Joseph Moreau	جاك جوزيف مورو
Jacques - François Menou	جاك فرانسوا مينو
Jacques Callot	جاك كالو
Jack Kerouac	جاك كيرواك
Jakob Böhme	جاكوب بوهمه
Jean - Étienne Dominique Esquirol	جان اتيان دومينيك إسكيرول
Jan Purkinje	جان بوركيني
Jeanne d'Arc	جان دارك
Jean Lorrain	جان لورين
Jean - Martin Charcot	جان مارتن شاركو

Joe Rogan	جو روغان
Godfrey Peter Manley Glubb	جودفري بيتر مانلي غلوب
George Berkeley	جورج بيركلي
George Griffiths	جورج جريفيث
George du Maurier	جورج دو مورييه
Georges Seurat	جورج سيرا
Georg Wilhelm Friedrich Hegel	جورج فيلهلم فريدريش هيغل
George Miller Beard	جورج ميلر بيرد
George Wyld	جورج وايلد
Joris - Karl Huysmans	جوريس كارل هويسمانز
Joseph - Bernard Gastinel	جوزيف برنار غاستينيل
Joseph Priestley	جوزيف بريستلي
Joseph von Hammer _ Purgstall	جوزيف فون هامر بورجستال
Giovanni Battista Piranesi	جوفاني باتيستا بيرانيزي
Jules Michelet	جول ميشليه
John Bagot Glubb	جون باغوت غلوب
John Pemberton	جون بمبرتون
John Dryden	جون درايدن
John Dee	جون دي
John Dewey	جون ديوي

John Stuart Mill	جون ستيوارت ميل
John Collis Warren	جون كولينز وارن
John Locke	جون لوك
John Lane	جون لين
John Millington Synge	جون ميلينغتون سينغ
John Harvey Kellogg	جون هارفي كيلوغ
John Haldane	جون هولدين
John Watson	جون واطسون
Gérard de Nerval	جيرار دي نرفال
Gerald Heard	جيرالد هيرد
James Braid	جيمس برايد
James Finlay Weir Johnston	جيمس جونستون
James Joyce	جيمس جويس
James Crichton - Browne	جيمس كريتشتون براون
James Lee	جيمس لي
James Matthews Duncan	جيمس ماثيوز دنكان
James Young Simpson	جيمس يونغ سيمبسون
J.B. Mattison	جيه بي ماتيسون
Joseph Marshall Stoddart	جيه.إم. ستودارت
José Ortega y Gasset	خوسيه أورتيجا إي جاسيت

Dioscorides	ديسقوريدوس
David Brewster	ديفيد بروستر
David Luke	ديفيد لوك
David McClelland	ديفيد ماكليلاند
Davies Giddy	ديفيز جيدي
Ralph Waldo Emerson	رالف والدو إمرسون
Robert Owen	روبرت أوين
Robert Southey	روبرت ساوذي
Robert Graves	روبرت غريفز
Robert Koch	روبرت كوخ
Robert Louis Stevenson	روبرت لويس ستيفنسون
Robert Liston	روبرت ليستون
Robert Knox	روبرت نوكس
Robert Hooke	روبرت هوك
Ruth Benedict	روث بنيديكت
Ronald David Laing	رونالد ديفيد لينغ
Richard Alpert	ريتشارد ألبيرت
Richard Evans Schultes	ريتشارد إيفانز شولتس
Richard Bucke	ريتشارد باك
Richard Burton	ريتشارد برتون

Rick Strassman	ريك ستراسمان
Simon Schaffer	سايمون شافر
Stéphane Mallarmé	ستيفان مالارميه
Somerset Maugham	سومرست موم
Sidney Sime	سيدني سايم
Siegfried Sassoon	سيغفريد ساسون
Sigmund Freud	سيغموند فرويد
Silas Burroughs	سيلاس بورروز
Silas Weir Mitchell	سيلاس وير ميتشل
Charles Baudelaire	شارل بودلير
Samuel Taylor Coleridge	صاموئيل تايلور كولريدج
Samuel Morse	صاموئيل مورس
Gabriele D'Annunzio	غابرييل دي أنونزيو
Gardner Quincy Colton	غاردنر كوينسي كولتون
Gore Vidal	غور فيدال
Gordon Alles	غوردون ألس
Gordon Wasson	غوردون واسون
Gustav Fechner	غوستاف فيشنر
Guy de Maupassant	غي دو موباسان
Wassily Kandinsky	فاسيلي كاندينسكي

Valerius Cordus	فاليريوس كوردوس
Francisco Goya	فرانثيسكو غويا
Franz Anton Mesmer	فرانز أنطون مسمر
Franz Boas	فرانز بواز
Fernand Boissard	فرناند بواسار
Friedrich Schlegel	فريدريش شليغل
Friedrich Albert Erlenmeyer	فريدريك ألبرت إرلينماير
Friedrich Sertürner	فريدريك سيرتونر
Friedrich Schiller	فريدريك شيلر
Frederic W. H. Myers	فريدريك مايرز
Friedrich Nietzsche	فريدريك نيتشه
Frederick Winslow Taylor	فريدريك وينسلو تايلور
Friedlieb Ferdinand Runge	فريدليب فرديناند رونجه
Fitz Hugh Ludlow	فيتز هيو لادلو
Wilhelm Reich	فيلهلم رايش
Wilhelm Wundt	فيلهلم فونت
Philips Bartholow	فيليب بارثولو
Philippe Pinel	فيليب بينيل
Philip Larkin	فيليب لاركن
Felix Hasler	فيليكس هاسلر

Carl Hart	كارل هارت
Carl Jung	كارل يونغ
Carlo Erba	كارلو إربا
Cary Grant	كاري غرانت
Crawford Long	كرافورد لونغ
Crawford Williamson Long	كرافورد ويليامسون لونغ
Christian Rosenkreuz	كريستيان روزنكرويس
Christian Friedrich Schönbein	كريستيان فريدريش شونباين
Claude Monet	كلود مونيه
Clifford Allbutt	كليفورد ألبت
Conolly Norman	كونولي نورمان
Kefauver _ Harris	كيفاوفر هاريس
Ken Kesey	كين كيسي
Luigi Galvani	لويجي جالفاني
Louis - Alphonse Cahagnet	لويس ألفونس كاهانيه
Louis Figuier	لويس فيجييه
Louis Lewin	لويس لوين
Leo Hollister	ليو هولستر
Matthew Arnold	ماثيو آرنولد
Matthew Phipps Shiell	ماثيو فيبس شيل

Marcel Proust	مارسيل بروست
Marco Polo	ماركو بولو
Mary Whiton Calkins	ماري ويتون كالكينز
Maria Edgeworth	ماريا إيدجوورث
Maria Sabina	ماريا سابينا
Max Weber	ماكس فيبر
Max Wertheimer	ماكس فيرتهايمر
Max Nordau	ماكس نورداو
MacGregor Mathers	ماكغريغور ماثرز
Mabel Dodge	مايبل دودج
Mike Tyson	مايك تايسون
Michael Pollan	مايكل بولان
Miles Davis	مايلز ديفيس
Mohammed Mrabet	محمد مرابط
Michel Foucault	ميشيل فوكو
Naomi Oreskes	ناومي أوراسكس
Norman Jeffares	نورمان جيفارز
Norman Kerr	نورمان كير
Nikolai Gogol	نيكولاي غوغول
Harvey Cushing	هارفي كوشينغ

Harvey Wiley	هارفي وايلي
Harold Ickes	هارولد إيكيس
Harry Anslinger	هاري أنسلينجر
Harry Hubbell Kane	هاري هابيل كين
Havelock Ellis	هافلوك إليس
Hannah Steinberg	هانا شتاينبرج
Hunter Biden	هانتر بايدن
Hans Christian Andersen	هانس كريستيان أندرسن
Howard Becker	هاورد بيكر
Herbert Marcuse	هربرت ماركوزي
Hector Berlioz	هكتور برليوز
Humphry Osmond	همفري أوسموند
Humphry Davy	همفري ديفي
Henri Bergson	هنري برجسون
Henry Thoreau	هنري ثورو
Henry Sidgwick	هنري سيدجويك
Henry Maudsley	هنري مودسلي
Henry Morton	هنري مورتون
Henry Hurd Rusby	هنري هورد راسبي
Henry Head	هنري هيد

Howard Phillips Lovecraft	هوارد فيليبس لافكرافت
Horace Wells	هوراس ولز
Hermann von Helmholtz	هيرمان فون هلمهولتز
Walter Owen Bentley	ولتر أوين بنتلي
Wade Davis	ويد ديفيس
W.E.B. Du Bois	ويليام إدوارد بورغاردت دو بويز
William Barton	ويليام بارتون
William Butler Yeats	ويليام بتلر ييتس
William Brooke O'Shaughnessy	ويليام بروك أوشونيسي
William Burroughs	ويليام بوروز
William Thomas Green Morton	ويليام تومس جرين مورتون
William Gillette	ويليام جيليت
William James	ويليام جيمس
William Ramsay	ويليام رامزي
William Sargant	ويليام سارجانت
William Crookes	ويليام كروكس
William McDougall	ويليام ماكدوغال
William Halse Rivers	ويليام هالس ريفرز
William Halsted	ويليام هالستد
William Hammond	ويليام هاموند

William Heinemann	ويليام هاينمان
William Wordsworth	ويليام وردزورث
Eugen Bleuler	يوجين بلوير
Johann von Goethe	يوهان فون غوته
Johann Wilhelm Ritter	يوهان فيلهلم ريتر

مكتبة
t.me/soramnqraa

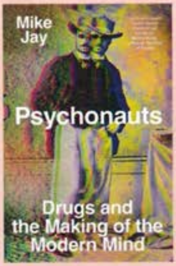

نادرًا ما تظهر كلمة "الشر" في وثائق الأمم المتحدة، التي تحرص على تجنُّب اللغة المثيرة للجدل؛ إلا أنها دوّنت في وثائق المنظمة في القرن العشرين لتصف المواد المُخدِّرة التي أثارت فضول أطباء وعلماء وفلاسفة وأدباء أواخر القرن التاسع عشر. تلك الشخصيات المعروفة باسم "الرُوّاد النفسيُّون" مثل سيغموند فرويد، وويليام جيمس، وغيرهم، ممّن جرّبها لاستكشاف ما وعدت به من تحويل حالة الإنسان، ومنحه متعة الهروب من ضيق الزمان والمكان. ومع ذلك، فكثيرٌ منهم انحدر نحو هاوية الجنون أو شفى الموت. يتناول الكتاب تأثير المـوادُ المُخدِّرة على المجتمعات المتحضرة والثقافة الحديثة، ويستعرض أدبيات التجربة الذاتية المنسية لهؤلاء الرُوّاد النفسيُّون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9-9227210-3-3
9 789922 721033

Designed by: MAHER ADNAN